تفسير القرآن الكريم «سورة الروم»

تأليف الشيخ محمد بن صالح العثيمين

الحمدُ للهِ ربِّ العَالمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا محُمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ.

وبَعد: قال المُفَسِّر رحمه الله: [مَكِّيَّة إلا آيَة ١٧، فمدنيَّةٌ، وآياتها ستون] اهـ.

المكَّيُّ هو الَّذي نزل قبْلَ الهجرة، والمدَنِيُّ ما نزل بعدها سواءٌ نزل في مكَّة أم لا، وعلى هَذا فإن قوْلُه تَعالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، هو من المدنيِّ، رغم أنه نزلَ بعرفَة يومَ حجة الوداع، أي قَد نزلَ بمكة.

وقوله: [وآياتها ستون]: أو تِسعٌ وخمسُونَ آيةً، إِنْ جعلنا ﴿الم﴾ آيةً مستقلَّةً صارتْ سِتِّينَ آيةً، وإِلَّا فتِسعٌ وخَمْسونَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

تقدَّم أنَّ البسملةَ آيَةٌ مستقلَّة يُؤْتَى بِها فِي ابتداءِ السّوَرِ، وليست تابِعَةً لما بعدَها لَا فِي الفاتِحَةِ ولا في غيرِها؛ خِلافًا لِبعضِ العلَماء الَّذِين يقُولونَ هِي آية مِن الفاتحةِ، فيحْسِبُونَ الفاتِحَةَ سبع آياتٍ منْهَا البسملة، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة: ١ - ٧]، هَذِهِ سبْعٌ بالبسملةِ، والصّحِيحُ أنَّ البسملةَ ليست آيةً مِن الفاتِحَةِ ولَا مِنْ غيرِها، فأوَّلُ آياتِ الفاتحة هِي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فإن قِيلَ: لكنها سبعُ آياتٍ بالِاتِّفاق، فأَيْنَ الآيَةُ السّابِعَةُ؟

قُلْنَا: قوْله تَعالَى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ آيتَان، فقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هو الآيَة السَّادِسة، و﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ هو الآيَةُ السّابعةُ، وفي المصحَفِ المنتشر بينَ النّاس نجدُ أن

البسملةَ مِن الفاتحةِ آيةً، ومنْ غيرِها ليسَتْ آيةً، ولكِنَّ الصّحِيحَ أَنَّه لا فرقَ.

الآية (١)

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿الم﴾.

قال المُفَسِّر رحمه الله: ﴿الم﴾ الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ فِي ذَلِكَ] اهـ.

نعم، إذا لم نعلم شيئًا فالواجبُ أن نقولَ: "الله أعلمُ بما أرادَ"، وَهَذا قدْ قِيل أنَّه نِصْفُ العلْمِ، لأَنَّ الإنسان إمَّا عالمٌ وإِمّا جَاهِلٌ، فإِذَا قَال فِيما يعْلَمُ بما عَلِم وفيما يجْهَل: "الله أعلم" صارَ نِصْف العلْمِ، ولَا شَكَّ أنَّ قولَ الإنسان: "الله أعْلَمُ" فيما لم يعلَمْه هُو الواجِبُ، فَلا تقُلْ: إِذا قلْتُ: "لا أَدْري" نقَص قدْرِي عندَ النّاسِ، فإنَّ قدْرَك عِنْد النّاس لنْ ينْقُص بل سيزْدَاد عنْدَهم، فكَمَا أنَّه لا ينْقُص عنْدَ الله فإِنَّهُ لَا ينْقُص عنْدَ النّاس؛ لأَنَّ النّبيّ عليه الصلاة والسلام يقول: "مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إلا رَفَعَهُ الله"، وَهَذا مِن بَاب التّواضُع للهِ أنَّك تقُولُ فِيما لا تعلَمُ: "لا أعلم"، وهُوَ نظِيرُ العفْوِ لا يَزِيدُ الإنسان إلا عِزًّا، ونَظِيرُ الصّدقَةِ لا ينْقُص بِها المالُ، فكَذَلِك قولُ: "لا أدري" لا ينْقُص بِه قدْرُ الإنسان في العِلْم، بَلْ يزْدَادُ لأَنَّ

النّاس إِذا رَأَوْا هَذا الرّجُلَ محتَرِزًا يقُولُ فِيما يعْلَمُ ويتَوقَّفُ عمَّا لا يَعْلَمُ وثِقُوا بِه، وعرَفُوا أنَّه لا يتكلَّمُ إلا بما عَلِم.

فقول المُفَسِّر رحمه الله: [الله أعلم بمراده بذلك]، هَذا هُو الوَاجِبُ عَلَى كلِّ إِنْسَانٍ لا يَدْرِي مَا أرادَ الله.

ولَكِنْ إِذا رجَعْنَا إِلَى قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، عَلِمْنا أنَّ هَذا القرآنَ بمُقْتَضى اللُّغَةِ العرَبِيَّةِ، وأنَّه لا تُوجَدُ فِيهِ كلِمَةٌ إلا وَهِي معْقُولَةٌ، وإلّا لَكانَ الله أنزَلَ شيْئًا لا نَعْرِفُ معْنَاهُ، فإِذَا طبَّقْنَا هَذِهِ الحرُوفَ الهجَائِيَّةَ عَلَى هَذه القاعِدَةِ، والقاعِدَةُ هِي قوْله تَعالَى: ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وجَدْنا أنَّ مَثل هَذا التّركيبِ في اللُّغَةِ العرَبِيَّةِ ﴿الم﴾ لَيْس له معْنًى فيها، إِنَّما هِيَ مجمُوعَةُ حُروفٍ هجَائِيَّةٍ: (ألف، ولَامٌ، وميمٌ)، وَلِهَذا أنْتَ لا تنْطِقُ بِها فتَقُول: (ألم)، بَلْ تقُول: (ألف، لام، ميم).

إِذَنْ: فهِيَ بمقْتَضى اللِّسَانِ العرَبِيِّ الَّذي نزَل بِهِ القرآنُ لِنَعْقِلَهُ لَيْسَ لها معْنًى، وإِنَّما هِي حُروفٌ هِجائِيَّةٌ ليْس لها معْنًى في ذاتِها، وحِينَئِذٍ نَكونُ قَدْ علِمْنَا.

لَكِن مَا مُرَادُ الله بِها؟

ذَكَر شيخُ الإسْلام وكَثيرٌ مِنْ أهْلِ العلْمِ أنَّ الغرضَ منْهَا بَيان أنَّ القرآنَ مُعجِزٌ معَ كونِه مِنْ هَذهِ الحرُوفِ الهجَائِيَّة التّي يتكَلَّمُ النّاسُ بِها، فَلَمْ يَأْتِ بحُروفٍ غريبةٍ جديدةٍ حتَّى نقُولَ أنَّه أَعْجَز النّاسَ لأنَّهُ أَتَى بحُروفٍ لا يفْهَمُونَها وَلا ينْطِقُونَ بِها، بلْ هِي حُروفٌ يتَركَّبُ منْهَا كلَامُهُمْ.

إِذَنْ: فالإِعْجازُ ليس مِنْ حيْثُ الحُروفُ، يعني ليسَ أنَّه أَتى بحرُوفٍ جديدةٍ، بَلْ مِن حيْثُ التّركِيبُ والسّيَاقُ والمعَانِي الجليلَةُ النّافِعَةُ، وَهَذا الَّذي ذَهَب إِلَيْهِ شَيْخُ الإسْلام لَا شَكَّ أنَّه قَوِيٌّ وأنَّ هَذه الحروفَ الهجَائِيَّةَ فِي حدِّ ذاتِها ليْسَ لهَا معْنًى، لَكِنْ لها مغْزًى ومُرَادٌ، وهُوَ أنَّ هَذا القرآنَ الَّذي أعْجَزَ كُلَّ الخلْقِ لمْ يَأْتِ بجَدِيدٍ في الحرُوفِ، وَإِنَّما هُوَ مِنَ الحرُوفِ الّتي يتكلَّمُونَ بِهَا.

وَذَهبَ بعْضُ المعَاصِرينَ إِلَى أنَّ هَذهِ الحروفَ كالمِفتَاح لِلسُّورَةِ الّتي هِيَ فِيها بمَعْنَى أنَّكَ إِذا وجَدْت (لَام، وَمِيم) مُصَدَّرًا بِها سُورَةٌ مِنَ القرآنِ فَما ذَاكَ إلا لِكَثْرَةِ (الَّلامِ والميم) فِيها، فتكُونُ كَالمِفتَاح لهَا، وَكَذلِكَ إِذَا وجدْتَ (نون) فهُوَ لكَثْرَةِ النّونِ فِيها،

وَإِذا وَجدتَ فِيها (اللَّام، والرّاء) فَهِي لكَثْرَةِ اللَّامِ والرّاءِ، لكِنَّ هَذا مُنتقِضٌ، وَإِلَّا لَو اطَّردَ هَذا لَكانَ أيضًا لَهُ وَجْهٌ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: نحْنُ نعْلَمُ بمقْتَضَى كَوْنِ القرآنِ بِاللِّسانِ العرَبِيِّ لنَعْقِلَه أنَّ هَذهِ الحرُوفَ الهجَائِيَّةَ فِي حدِّ ذاتِها ليْسَ لها معْنًى.

الآية (٢)

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: ٢].

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾، وَهُمْ أَهْل الكتَاب، غَلَبَتْهَا فَارِسُ وَلَيْسُوا أَهْلَ كِتَابٍ، بَلْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ، فَفَرِحَ كُفَّار مكَّة بِذَلِكَ، وَقَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ: نَحْنُ نَغْلِبكُمْ كَمَا غَلَبَتْ فَارِس الرّومَ] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿غُلِبَتِ﴾: فعلٌ مبني للمجهول، و﴿الرُّومُ﴾ نائبُ فاعِلٍ، وأنَّثها فقال: ﴿غُلِبَتِ﴾، لم يقل غُلِب الرّوم معَ أن الَّذي يحارِبُهم هُمُ الرّجالُ، لكِنَّهُ أَنَّثَها باعتبارِ القبِيلَةِ، والَّذي غَلَبَها الفرْسُ، والحكْمَةُ - واللهُ أعْلَمُ - في حَذْفِ الفاعِلِ لِسَبَبَيْنِ:

السّبَبُ الأوَّلُ: لِيَكُونَ ذَلِك أعْظَمَ إِهَانَةً للْفُرْسِ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِلذِّكْرِ.

السّبَبُ الثّانِي: لِيَكُونَ هَذا أخْفَى بِالنّسْبَةِ لِذُلِّ الرّوم وخِذْلانِها، أَيْ: تَهْوينًا للأَمْرِ عَلَى الرّومِ؛ لأَنَّهُ إِذا قِيلَ لَلإنْسَانِ: أنْتَ غُلِبْتَ، أَهْونُ مِن أَنْ يُقالَ لَه: غَلَبَكَ فُلانٌ؛ فإِنَّهُ إِذا قِيل لَهُ: غَلَبَك فُلان صارَ معْنَاه أنَّه ذَلِيلٌ لهذَا الرّجُلِ المذْكُورِ.

وقوْلهُ رحمه الله: [﴿الرُّومُ﴾ هُمْ أهْلُ الكتَابِ]: ولوْ قال المُفَسِّر رحمه الله: (أهلُ كتابٍ) لكَانَ أحْسَنَ؛ لأَنَّ الرّوم نَصارَى، وأَهْلُ الكتَابِ يَشْمَلُ اليَهُودَ والنّصَارَى.

قوْلهُ رحمه الله: [غَلَبَتْهَا فارسُ، وَلَيْسُوا أَهْلَ كِتَابٍ، بَلْ يَعْبُدُونَ الأوْثَانَ]؛ لأنَّهم مجوسٌ يعبدونَ النّارَ، [فَفَرِحَ كُفَّارُ مكَّة بِذَلِكَ، وَقَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ: نَحْنُ نَغْلِبُكُمْ كَمَا غَلَبَتْ فارسُ الرّومَ]، يعني أنَّ كُفَّارَ مكَّة تفاءَلُوا بِهَذا الشّيْءِ، وقَالُوا: إِذا كان الرّوم أهلَ كتابٍ وغلبَتْهم الفرْسُ وهُمْ أهْلُ أوْثَانٍ فهَذا مِفتَاح نصْرٍ لَنا أَنْ نغْلِبَ المسْلِمِينَ الَّذِين هُمْ أهْلُ كِتَابٍ ونَحْنُ أهْلُ أوْثَانٍ.

الآية (٣)

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣].

قالَ المُفَسّر رحمه الله: [﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾: أَيْ أَقْرَبَ أَرْضِ الرّوم إِلَى فَارِسٍ بِالجزِيرَةِ التّقَى فِيهَا الجيْشَانِ، وَالبادِي بِالغزْوِ الفرْسُ، ﴿وَهُمْ﴾ أَيْ الرّوم، ﴿مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أُضِيفَ المصْدَرُ إِلَى المفْعُولِ، أَيْ غَلَبَة فَارِسٍ إِيَّاهُمْ ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فَارِسَ] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ قِيلَ: المعْنَى أقربَ الأرْض إِلَى فارسَ، وأنَّ فارِسَ اعتَدَوْا عَلَى الرّومِ، فحَصل القتَالُ بَيْنَهُما، وقِيلَ: إِنَّ معْنَى قوْله تَعالَى: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ أيْ فِي أقْرَبِها إِلَى أَرْض العرَبِ، وَهَذا يرْجعُ إِلَى التّاريخِ الَّذي يحدّد موقعَ هَذِهِ المعْرَكَةِ حتَّى نعرِفَ أدْنَى الأرْض، إِنَّما لا شَكَّ أنَّ (أدْنَى) بمعْنَى أقْرَب.

قوله رحمه الله: [﴿وَهُمْ﴾ أي الرّوم ﴿مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أضيف المصدر إِلَى المفعول أي غلبة فارس إياهم ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فارس]، انظر تأكيدَ هَذا الوعدِ، حيْثُ صُدِّر بالاسْمِ ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ﴾؛ لأنَّهُ إذا صُدّر بالاسْمِ صارَ جمْلَةً اسْمِيَّةً دالَّةً عَلَى الدّوامِ والثّبوتِ، وأكَّد مِنْ وَجْهٍ آخَر بقُرْبِه حيْثُ كانَ الخبَرُ مقرونًا بالسّين الدّالَّةِ عَلَى القرْب، ثمَّ أكَّدَه أيضًا بمؤكّد ثالِث وهُوَ قولُه: ﴿مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾؛ لِتَحَقُّق الغلَبَةِ، وأنَّ هَذا أَمْرٌ لا بُدَّ أنْ يقَعَ وَلَوْ

كَانُوا مغلُوبِينَ؛ لأَنَّهُ لو حُذِف قوْله سبحانه وتعالى: ﴿مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ فقال: (وهم سيغلبون) لقِيلَ: سَيَغْلِبُون، ولَوْ غُلِبُوا: لقَال البعْضُ: إِذَا كَانُوا قَدْ غُلِبوا فإنَّهُم لا يَغْلِبُون، فلَمّا قَال: ﴿مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ صَارَ فِي ذَلِك تأكيدٌ للْغَلَبَةِ، فصَارَ تأكِيدُ غَلَبَةِ هَؤُلاءِ مِنْ وُجوهٍ ثلاثَةٍ.

الآيتان (٤، ٥)

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤ - ٥].

قال المُفَسِّر رحمه الله: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ هُوَ مَا بَيْن الثّلَاث إِلَى التّسْع أَوْ العشْر فَالتقَى الجيْشَانِ فِي السّنَة السّابِعَة مِنْ الالتقَاء الأَوَّل وَغَلَبَتْ الرّوم فَارِس ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ أَيْ مِنْ قَبْل غَلْب الرّوم وَمنْ بَعْده المعْنَى أَنَّ غَلَبَة فَارِس أَوَّلًا وَغَلَبَة الرّوم ثَانِيًا بِأَمْرِ الله أَيْ إرَادَته ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أَيْ يوم تغلب الرّوم ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ إيَّاهُمْ عَلَى فَارِس وَقَدْ فَرِحُوا بِذَلِكَ وَعَلِمُوا بِهِ يَوْم وُقُوعه أَيْ يَوْم بَدْر بِنزولِ جِبْرِيل بِذَلِكَ مَعَ

فَرَحهمْ بِنَصْرِهِمْ عَلَى المشْرِكِينَ فِيهِ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بِالمؤْمِنِينَ] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ متعلِّق بقوْله تَعالَى: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ أي في خِلالِ هَذا البضْع، والبضْعُ هُوَ مَا بَيْن الثّلاثِ إِلَى التّسْعِ، أَوْ مَا بَيْن الثّلاثِ إِلَى العشْر، يَعْني إمَّا خمْسُ سنَواتٍ وإمّا لِستّ سنواتٍ هَذا البضْعُ، فَإِذا قُلْنا إنَّه مَا بَيْن الثّلاثِ إِلَى العشْر، فهي: (أَرْبعٌ وخمْسٌ ولِستٌّ وسَبْع وثَمانٍ وتِسْعٌ)، فَهَذِه سِتٌّ، وإِذَا قُلنَا إنَّه مَا بَيْنَ الثّلاثِ إِلَى التّسْعِ يكونُ: (أَرْبَعٌ وخَمْسٌ ولِستٌّ وسَبْعٌ وثَمَانٍ)، فهذهِ خمْسُ سنَواتٍ، يَعْني الثّلاثُ غيْرُ داخِلَةٍ، لأَنَّ مَا بَيْن الشّيءِ والشّيْءِ لَا يدْخُلُ فِيه الجانِبَانِ.

قولُه رحمه الله: [فالتقى الجيْشَانِ فِي السّنَةِ السّابِعَةِ مِن الالتقَاء الأوَّل وغَلَبَتِ الرّوم فَارِس]: يعْنِي حَصَل بَيْنَهُما حَرْب أُخْرَى فغَلَبَتِ الرّوم فارِسَ، فصَدَق بذَلِك خَبَرُ الله سبحانه وتعالى بأَنَّهُمْ سيَغْلِبُونَ في بِضْع سِنينَ؛ لأَنَّ الأمْر لم يتَجَاوَزْ سبْعَ سَنَواتٍ حتَّى كانَتِ الغلبَةُ لِلرُّومِ عَلَى الفرْسِ، فَصدَقَ الله وَعْدَهُ.

قوْله تَعالَى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ المعْنَى أنَّ الغلَبَةَ تتِمُّ في خِلَالِ بِضْع سِنِينَ، ولَيْس المعْنَى أنَّ الغلبَةَ تحْصُل بعْدَ سَبعْ سَنوَاتٍ.

قوْله تَعالَى: ﴿لِّلَّهِ الْأَمْرُ﴾: هَذِهِ الجملة اسميَّة قُدِّم فِيها الخبَرُ لإفَادَةِ الاخْتِصَاصِ للهِ وحْدَه، و(أل) هُنَا للاسْتِغْرَاقِ، يَعْني كُلُّ الأمْرِ، أيْ لاسْتِغرَاق الجنْس، و(أل) التي للاسْتِغْراقِ هِي التي يحِلُّ محلَّها (كُلُّ) فَإِنْ كانَتْ لاسْتِغْراقِ المعْنَى فَهِي لاسْتِغْراقِ المعْنَى، وإِنْ كَانَت لاسْتِغْراقِ الأفْرادِ فَهِي لاسْتِغْراقِ الجِنْس، فَفِي قوْلِه تَعالَى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، (أل) لاسْتِغراق الجِنْس؛ لأَنَّهُ يَصِحُّ أنْ يَحِلَّ محلَّها (كُلُّ)، فيُقَالُ: وَخُلِق كُلُّ إِنْسَانٍ ضَعيفًا، وَفي قوْلِه تَعالَى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١ - ٢]، هَذِهِ أيضًا لاسْتِغْراقِ الجِنْس، أيْ كُلُّ إنسانٍ، وإِنْ كانَت لاسْتِغْراقِ المعْنَى فَهِي لاسْتِغْراقِ المعْنَى، ومثَّلوا لِذَلِكَ بقَوْلِهم: (زيدٌ نِعْم الرّجُلُ)، أَي: نِعْم الشّخْصُ الجامِعُ لِصِفَات الرّجُولَةِ.

وَهِلِ المرَادُ بالأمْر هُنا الأمْرُ الكوْنِيُّ أو الأمْرُ الشّرْعِيُّ؟

والجوابُ: الأمْرُ الكوْنِيُّ، أَي أنَّ جَمِيعَ الأمورِ تَرْجِعُ إِلَى الله عز وجل، المتعَلِّقَة بأفْعَالِ العبادِ والمتعَلِّقَة بأفْعَالِ الله سبحانه وتعالى فإِنَّها راجِعَةٌ إِلَيْهِ، والأمْرُ الإلهيُّ ينْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: أَمْرٌ كَوْنِيٌّ وأَمْرٌ شَرْعِيٌّ.

مِثالُ الأمْرِ الكوْنِيِّ: قولُهُ تَعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ومثالُ الأمْرِ الشّرْعِيِّ: قوله تَعالَى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣]، أَي عَنْ أَمْرِه الشّرْعِيِّ، ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، ومِثْلُ قوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ﴾ [النساء: ٥٨]، هَذا أَمْرٌ شَرْعِيٌّ.

وعَلَيْهِ فإنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، مِنَ الأمْرِ الكوْنِيِّ، وهَذا هُوَ المتَعَيَّنُ، فَيَأمُرُهُم الله أمرًا كونِيّا بالفسْقِ فيَفْسُقُونَ، وأمَّا مَن قَال: إِنَّ المرادَ بِالأمْر في الآيَة هُو الأمْر الشّرْعِيُّ وأنَّ الله يأْمُرُهم بالطّاعَةِ فيَفْسُقونَ ثمَّ يأْخُذُهم بِالعذابِ، فَهذا القول بَاطِلٌ لأنَّهُ يقْتَضِي أنْ يكُونَ المعْنَى أنَّ الله يُرْسِلُ الرّسُلَ فيَأْمُرونَ النّاسَ بِطَاعَةِ الله؛ لأَجْلِ أنْ يَفْسُقوا فَيحلَّ بِهم العقابُ، وَهَذا يَرْجعُ إِلَى أنَّ المعْنَى أنَّ الله بعَثَ الرّسُلَ نِقْمَة عَلَى العبَادِ، وهُوَ أَمْرٌ لا يُمْكِنُ، ثمَّ إنَّنا نقُوُل: إنَّ الأمرَ الشّرْعِيَّ لَا يخْتَصُّ بالمترَفِينَ، بَلْ هُوَ عامٌّ لهُمْ ولغَيْرهمْ.

المُهِمُّ: أنَّ هَذا القوْلَ ضعيفٌ وبَاطِلٌ ويُنافي حكْمةَ الله عز وجل بإرسالِ الرّسُلِ.

فقوْلُه تَعالَى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ﴾ يُرَادُ بِه الأمرُ الكوْنِيُّ.

وقوْله تَعالَى: ﴿قَبْلُ﴾: ضُمَّتْ مَع أنَّ قبْلَها حَرْفَ الجرّ ﴿مِنْ﴾؛ لأَنَّ ﴿قَبْلُ﴾ و﴿بَعْدُ﴾ إِذَا حُذِف المضَافُ إِلَيْهِ ونُوِي مَعْنَاهُ بُنِيا عَلَى الضَّمِّ، هَذا السّبَبُ فَإِنْ وُجِد المضَافُ صَارا مُعْرَبَيْنِ فتَقُول: (أَتيتُ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِي زْيدٌ) فتَجُرَّها، وَكَذلِكَ إِذا حُذِف المضَافُ إِلَيْهِ ولم يُنْوَ لَا لفْظًا ولَا معْنًى، فإِنَّها تُعْرَبُ كَقَوْل الشّاعِر:

فَسَاغَ لِي الشّرَابُ وَكُنْتُ قَبْلًا ... أَكَادُ أَغَصُّ بِالماءِ الفرَاتِ

وَكَذلِكَ إِذَا حُذِف المضَافُ إِلَيْهِ وَنُوِي لفْظُهُ فَإِنَّها تُعْرَبُ، لكِنَّها لا تُنَوَّنُ فيُقَالُ مَثلًا: (كُنْتُ حَرِيصًا عَلَى الدّرْسِ، فأَتَيْتُ مِنْ قَبْلِ)، أَي: مِنْ قَبْلِ ابْتِدَاءِ الدّرْس، فهُنا حُذِف المضَافُ ونُوِي لفْظُهُ، وَالَّذي دلَّنا عَلَى أنَّه نُوِي لفْظُه أَوْ نُوِي مَعْناهُ الإعْرَاب نفْسُه، فَإِذا كَانَتْ مبْنِيَّةً عَلَى الضّمِّ عَلِمْنا أنَّه قَدْ حُذِف وَأُرِيد المعْنَى، وَإِذا لَم يمُنْ كَذَلِكَ عَلِمنا أَنَّهُ قدْ حُذِف وَأُرِيد اللَّفْظُ، فَإِنْ نُوِّنَتْ علِمْنا أنَّه ما أُرِيد اللَّفْظُ ولَا المعْنَى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لَو حُذِف المضاف إِلَيْهِ في كلام الله عز وجل فهل يصح أن نقول: أنَّه منوي؟

قُلْنَا: لا، لا نقول ذَلِك، لكن يصِحُّ أن نقولَ: هو المُراد، أي أنَّ الله أراد بالنّسبة للمضاف إِلَيْهِ؛ لأَنَّ الإرادَة في جنابِ الله عز وجل بمعنى النّية للخَلْق.

قوْلهُ رحمه الله [بِأَمْرِ الله إرادته]: هَذا في الحقيقةِ تحرِيفٌ، بَلِ الصّوابُ أنَّه (بأمرِه)، أيْ بقَوْلِه، قَال تَعالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فإنَّ الله تَعالَى لَا يُقَدِّر شَيْئًا إلا بالقوْلِ، و﴿شَيْئًا﴾ نَكِرَةٌ في سِيَاق الشّرطِ فتَعُمُّ كُلَّ شَيءٍ أَرادَهُ الله، فإِنما ﴿يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فالصّوابُ أنَّ المرادَ بالأمْرِ هُنا هُو القوْلُ.

وَالإرَادَةُ ليْسَت هِيَ القوْلُ فإنَّ الإرَادَةَ صِفَةٌ لا تسْتَلْزم القوْلَ إِذْ إِنَّ المرِيدَ قَدْ يفْعَلُ مَا أَرادَ، أَوْ قَدْ يقُولُهُ، وأمَّا القوْلُ فإِنَّهُ أخَصُّ مِنَ الإرَادَةِ، كُلُّ قَوْلٍ فهُوَ متضَمِّن لِلإرَادَةِ، وليْسَت كُلُّ إرادَةٍ متضمِّنَة للقوْلِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ﴾: (يومَ) ظرفٌ متعلِّق بـ (يفرح)، وهِي مُضافَةٌ إِلَى (إِذْ)، ونُوِّنَت (إِذْ) تنْوِينَ عِوَضٍ عَن جُمْلَةٍ؛ وَلِهَذا

قَال: (أَيْ يَوْمَ تَغْلِبُ الرّومُ) فالمحْذُوفُ جُمْلَةٌ، وَالفرَحُ لا يُمكن لِلإِنْسَانِ أن يُعَبِّر عنْهُ، لذا قد نقول: الفرح خِفَّةُ النّفْسِ وسُرُورُ النّفْسِ، أَوْ نَقُولُ: الفرَحُ معْلُومٌ؛ وَلِهَذا نَجِدُ صاحِبَ القامُوسِ إِذا عرَّف مثْلَ هَذِهِ الأشْيَاء قَال: (م)، يعْنِي أنَّه مَعْرُوفٌ وَلا حاجَةَ لأنْ يُبَيَّن.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾: المرَادُ بِهِم النّبيّ - ﷺ - وأصحَابُهُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ﴾: متعلِّق بـ (يفْرَحُ) وهُو مصْدَر مُضَافٌ إِلَى فاعِلِه، أمَّا مفعولُه فمَحْذوفٌ، وتقْدِيرُه (بِنَصْر الله الرّوم عَلَى الفرْسِ)، وَلِهَذا قَال المُفَسِّر رحمه الله: [بِنَصْرِ الله إِيَّاهُمْ عَلَى فَارِسَ]، والنّصْر معْناهُ العوْنُ والظّهورُ، أَيْ أنَّ الله يُعِينُهُم حتَّى يَظْهَرُوا عَلَى أعْدَائِهم.

وسُمِّي ذَلِك نَصْرًا مَع أنَّه لِكُفَّارٍ عَلَى كُفَّارٍ لأنَّ النّصْر هُو العوْنُ والظّهُورُ، وهُوَ لا فَرْق بَيْن أنْ يكُونَ بَيْن مُؤْمِنٍ وكَافِرٍ، أَوْ بَيْن كافِرٍ وكافِرٍ، ثمَّ إِنَّ أهْلَ الكتَابِ أقْرَبُ مِن الفرْسِ؛ وَلِهَذا لهمْ أحْكَامٌ خاصَّةٌ تُقرِّبُهم مِنَ المسْلِمِينَ.

قولُه رحمه الله: [فَرِحُوا بِذَلِكَ وعلِمُوا بِهِ يَوْمَ وُقوعِهِ يَوْمَ بَدْرٍ بِنُزولِ جِبْرِيلَ بِذَلِكَ مَع فَرَحِهم بِنَصْرِهِمْ عَلَى المشْرِكِينَ فِيهِ]، يعْنِي أنَّ الواقِعَة حصَلَتْ بَيْن فارِسَ والرّومِ في الزّمَن الَّذي حَصلَتْ فِيه الواقِعَةُ بيْنَ الكفَّار وَالمؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ في بَدْرٍ، وَعَلى هَذا فتكُونُ هَذِهِ الآيَة نَازِلَةً قبْلَ الهجْرَةِ بخَمْسِ سَنَواتٍ؛ لأنَّهُ إذا كانَتِ المدَّةُ التي حصَلتْ فِيها الغلَبَة سبْعَ سنَواتٍ، وبَدْرٌ كانَتْ فِي السّنَةِ الثّانِيَةِ لَزِم أنْ يكُونَ نُزولُ الآيَة وغَلَبَةُ فَارِسَ لِلرُّومِ قبْلَ الهجْرَةِ بخَمْسِ سَنوَاتٍ.

وقولُهُ رحمه الله: [مَع فَرَحِهِمْ بِنَصْرِهِمْ عَلَى المشْرِكِينَ فِيهِ]، فيَكُونُ فِي هَذا الزمَنِ اجْتَمعَ نصرُ أهْلِ الكتابِ عَلَى المجُوسِ ونَصْرُ المسْلِمينَ عَلَى المشْرِكِينَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل قولُ المُفَسّر رحمه الله علَيْه دَليلٌ نقْلِيٌّ؟

فالظّاهِرُ أنَّه تابعٌ للتَّارِيخِ فقَطْ، أمَّا عَنِ الرَّسُولِ عليه الصلاة والسلام فَلا يُوجَدُ دَلِيلٌ، لكنَّ التّارِيخَ يقُولُ هَذا.

قوْله تَعالَى: ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾: هَذِهِ عامَّةٌ تعُمُّ كلَّ منْصُورٍ، سواءٌ كانَ المنْصُورُ كافِرًا أوْ مؤمِنًا؛ لأَنَ الأمْرَ بيَدِ الله سبحانه وتعالى، وكُل شيْءٍ مقيَّدٌ بالمشِيئَةِ فإنَّهُ يتضَمَّنُ

الحكْمَةَ؛ لأَنَّ الله تَعالَى لا يَشَاءُ شيْئًا إلا لحِكْمَةٍ، فينْصُرُ مَنْ يشَاءُ نصْرَه لحكْمَةٍ اقتْضَتْ ذلِكَ.

قوْله رحمه الله: [﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب]: هَذا أحَدُ مَعانِي العزَّةِ؛ لأَنَّ العزَّةَ تنْقَسِمُ إِلَى ثَلاثَة أقْسَامٍ: عِزَّةُ القدْر، وعِزَّةُ القهْر، وعِزَّةُ الامتِنَاعِ.

عِزَّةُ القدْر: بمعْنَى أنَّه سبحانه وتعالى عظِيمُ القدْر، وكُلَّما كانَ الشّيْءُ عظِيمَ القدْرِ كان عزيزًا، أيْ قَلِيلَ الوُجُودِ، وَاللهُ سبحانه وتعالى لَا مِثل لَهُ، عَظِيم لا نَظِيرَ لَهُ في قدْرِه وعظَمَتِهِ.

وعِزَّةُ القهْر: بمعْنَى الغلَبَةِ والظّهُورِ، بمعْنَى أنَّه قاهِرٌ وَغَالب لكُلِّ شيْء.

وعِزَّةُ الامتِنَاعِ: معْنَاها امْتِنَاعُ جَمِيع النّقْصِ علَيْه سبحانه وتعالى، أيْ أنَّه يمتَنِعُ علَيْه كُلُّ نقْصٍ، ومِنْ هَذا المعْنَى قولُهُم: (أَرْض عَزَازٌ)، أي الصّلْبَةُ التي يمتَنِعُ أن يُؤثِّر فِيها شيْءٌ.

فالله عز وجل متَّصِفٌ بالعزَّةِ مِن جَمِيعِ هَذِهِ الوُجُوهِ الثّلَاثةِ.

وقوْله رحمه الله: [﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين]: استدلَالٌ بقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، والصّوابُ أنَّ رحمَةَ

الله تَعالَى تكُونُ عامَّةً وخاصَّةً، فإنَّ كُلَّ مَن في السّموَات وَالأرْض فَهُم في رَحْمَةِ الله العامَّةِ، ولَوْلا هذِهِ الرّحْمَةُ العامَّةُ لما بَقِي أحدٌ مِن الكفَّارِ، فكَوْنُ الله يُدِرُّ عليْهِمُ الأرْزَاقَ والعافِيةَ وَالنّشاطَ والعقْل ومَا أشْبَه ذَلِك لا شَكَّ أنَّه مِن رحْمَةِ الله، ولكِنَّ الرّحْمةَ التي تَكُونُ بِها رَحمَةُ الدّنيا والآخرةِ خَاصَة بالمؤمِنِينَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أنَّ كَلامَ الله عز وجل بالحروفِ، يَعْني ﴿الم﴾ حُرُوفٌ، فَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الأشْعَرِيَّةِ الَّذِين يقُولونَ إِنَّ كَلامَ الله هُو المعْنَى القائِمُ بالنّفْسِ ولَيْسَ الحرُوفَ، وَأنَّ هَذِهِ الحرُوفَ مخلُوقَةٌ لِتعبِّر عَن هَذا المعنى القائِم بنفسِهِ، ثمَّ يقُولونَ أيضًا: إِنَّ هَذا المعْنَى القائِمَ بالنّفْسِ لا يتَغَيَّرُ ولَا يخْتَلِفُ، فهُوَ واحِدٌ سوَاءً كانَ اسْتِفْهامًا أوْ خبَرًا أو أمْرًا أو نَهْيًا أو قُرآنا أوْ زَبُورًا أو تَوْرَاةً أو إِنْجِيلًا، فالتوْارَةُ هِي الإنْجِيلُ وهِي القرآنُ وهِي الزّبُورُ وهِي صُحُفُ إِبْراهِيمَ وصُحُف مُوسَى، ويقُولونَ أنَّها اخْتَلفَتْ في التّعْبيرِ، فَإِن عَبَّر عَن هَذا الكلامِ بالعرَبِيَّةِ صارَ قُرآنًا، او بالعبْرَّيةِ صَار تَوْرَاةً، أوْ بالسُّرْيانِيَّة صارَ إِنجيلًا، أوْ بلُغَةِ داوُدَ صَار زَبُورًا ... وهَكذا، وتصُوُّرُ هَذا غْيرُ ممكنٍ، وَهُو معْنًى غْيرُ معقولٍ، ثمَّ

يقُولونَ أيضًا: إنَّ الاسْتِفْهام وَالخبْر معنَاهُما واحِدٌ، فإذا جَاء اسْتِفْهام مِنَ الله عز وجل فَهُو كالخبَرِ عنْهُ ومعناهما واحدٌ، وَلا شك أن مجرَّد تصورِ هذَا القولِ كافٍ في رَدِّه وإبْطَاله.

الفائدة الثانية: إثْبَات عِلْمِ الله بِالغيْبِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾.

الفائدة الثالثة: إثْبَات رِسالَةِ النبيّ عليه الصلاة والسلام؛ لأَنَّ الإخبارَ عَنِ الغيْبِ لَا يكُونُ إلا بِوَحْيٍ.

الفائدة الرابعة: أنَّ الله سبحانه وتعالى كَامِلُ السّلْطانِ والتّدْبيرِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾.

الفائدة الخامسة: أنَّ كُل الأشْيَاء لَا تَكونُ إلا بِأَمْرِ الله؛ لأَنَّهُ لما قَالَ: ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾، قَال: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾.

إِذَنْ: فكوْنُهُمْ غلِبوا فَبِأَمْرِ الله، وكَذِلك انْتِصارُهم بِأمْرِ الله، فكُلُّ الأمُورِ بتَقْديرِ الله تَعالَى وأمْرِه، فكُلُّ الأشْيَاء بِأَمْرِه سبحانه وتعالى.

الفائدة السّادسَة: الرّدُّ عَلَى القدَرِّيةِ الَّذِين يقُولونَ باسْتِقْلالِ العبْد بفِعْلِه، فَهُم يقُولونَ: إِنَّ العبْدَ مسْتَقِلٌّ بفعْلِه ولَيْس للهِ تَعالَى فِيه تقْدِيرٌ ولَا أَمْرٌ ولَا إِنْشاءٌ ولَا مَشِيئَةٌ.

الفائدة السابعة: جَوازُ التّعْبيرِ بمَا يُدْخِلُ الخوفَ وَالحزْنَ عَلَى العدُوِّ؛ لأَنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وهِي مِن ثَلاثَةٍ إِلَى عَشْرٍ، أَو إِلَى تِسْعٍ، معْنَاه أَنَّه سيَبْقَى هَؤُلاءِ الفرْسُ في ذُعْرٍ وخَوْفٍ، كُلَّ سنَةٍ تَأْتِي يقُولونَ: هَذِهِ سَنَةُ الغلَبَةِ، ولَا شَكَّ أنَّ هَذا مما يَزِيدُهم ذُعرٍ وخوفًا؛ لأنَّهُم لَو غُلِبوا في أوَّلِ سنَةٍ انْتَهى الأمْرُ، لكِنَّ كوْنَهُم يتوَعَّدُون بأَمْرٍ لا يُدْرَى في خِلالِ سَبع سِنِينَ لَا شكَّ أنَّهُ أشَدُّ علَيْهِم مِنْ أنْ يَأْتِي الأمْرُ وَيَنْتَهِي.

الفائِدَةُ الثّامِنةُ: أنَّ مِن البلاغَةِ حذْفَ الفاعِلِ إِذْلالًا لَهُ وإِهانَةً؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾، فلَمْ يَذْكُر الغالب إِذلالًا لهم، وَرِفْقًا بِالرّومِ.

الفائدة التاسعة: جَوازُ فَرَحِ المؤْمِنينَ بانْتِصَارِ بعْضِ الكفَّار بعضِهم عَلَى بعْضٍ، إِذا كَان في ذَلِك مصلَحَة للإِسْلَامِ، لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ﴾، ما انْتَصر مُسلِمُون عَلَى كُفَّار، بَلِ انْتَصر كُفَّار عَلَى كُفَّارٍ، لكنَّ هَذا في

مصلحَةِ الإسْلام؛ فلَا بأْسَ أنْ نفْرَح بانْتِصارِ بعضِهم عَلَى بعْضٍ إذا كانَ المنتَصِرُ فِيه نفْعٌ للإسلامِ، ثمَّ يُساعِدُون المسْلِمينَ بِالمالِ والسّلاحِ، أَوْ عَلَى الأقَلِّ قدْ كَفَّ شرَّهُ مَع أنَّ الثّانِيَ فيه شرٌّ لكِنَّهُ أقَلُّ شرًّا مِن هؤُلاءِ.

فعَلى هَذا إذا اقتَتَلَتْ دوْلَتانِ مِنْ دُوَلِ الكفَّار وكانَتْ إِحْداهُما أَقْربَ إِلَى نفْعِ المسْلِمين مِنَ الأخرى، فهلْ فرَحُنا بانتصارِها جَائِزٌ، أم نقولُ: كيفَ نَفْرَح بانْتِصارِ كَافِرٍ عَلَى كَافِرٍ، فهو حرامٌ؟

والجوابُ: هُو جَائِزٌ كَما فَرِح المؤْمِنُون بانْتِصار الرّوم عَلَى فارِسَ، مَع أنَّ كِلَيْهما مِن الكفَّار، لكِنَّ هَؤُلاءِ أهلُ كِتَابٍ، فَهُمْ أقْرَبُ مِن المؤْمِنينَ، وأقْرَبُ إِلَى الإسْلام ومُرَاعاةِ المسْلِمينَ مِنَ المجُوسِ.

الفائدة العاشرة: جَوَازُ تَسْمِيةِ غَلَبةِ الكفَّار نَصْرًا، لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِل: كيْف تجْمَعُونَ بَيْن هَذِهِ الأيَة وبَيْنَ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ

وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١]، مَع أنَّ الرّوم لا يتَّصِفُون بِهَذِه الصّفَةِ؟

فالجوابُ: أنَّ النّصر نَوْعانِ:

١ - نَصْرٌ مُطْلَقٌ دَائِمٌ: فَهذَا لا يَكُونُ إلا لمَنْ يَنْصُر الله.

٢ - نَصْرٌ عارِضٌ مؤقَّتٌ: فهَذا يَكُونُ لهؤُلاءِ ولِغَيْرِهِمْ.

ونَصْرُ الله لِلرُّومِ عَلَى الفرْسِ ليْسَ نَصْرًا دائمًا، والدّلِيلُ أنَّه بعْدَ ذَلِك نَصَرَ الله المؤْمِنينَ عَلَى الفرْسِ وعَلى الرّومِ، فافْتَتَحُوا ممالك كِسْرَى وممالك قَيْصَرَ، فَلَمْ يَكُن هَذا نصْرًا دائِمًا.

الفائدة الحادية عشرة: إثْبَات المشيئَةِ للهِ عز وجل، لقوْلِه تَعالَى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾.

الفوائِدُ الثّانِيةَ عشْرةَ والثالِثةَ عشْرةَ والرّابِعةَ عشْرَةَ: إثْبَات العزَّةِ لله، لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾، وإثْبَات الرّحمةِ في قوْله تَعالَى: ﴿الرَّحِيمُ﴾، وإثْبَات كَمَالِ عِزَّتِه حيْثُ قُرِنَتْ بالرّحمَةِ؛ فإنَّنا ينبَغِي أنْ نعرِفَ أنَّ الأسْماءَ الحسْنَى تدُلّ كُلُّ واحدةٍ منْهَا عَلَى كمالٍ بانفِرادِه، ثمَّ باجْتماعِ الاسْمَيْن بعضِهما إِلَى بَعْضٍ يدُلَّان عَلَى كَمَالٍ مرَكَّبٍ، فالعزِيزُ يدُلُّ عَلَى الكَمالِ، والرّحِيمُ يدُلُّ عَلَى

الكمَالِ فإذا اجْتَمعَا أُخِذ مِن ذَلِك كَمالٌ آخَرُ فوْقَ الكمَالِ الَّذي يتضمَّنُه كُلّ اسْمٍ عَلَى انفرَادِهِ، وهُو أنْ تَكُونَ عِزَّتُه مقرونَةً بالرّحْمَةِ؛ لأَنَّ عِزَّةَ غيرِه قَدْ تكُونُ خاليَة مِنَ الرّحْمَةِ، فَإذا صَار عزِيزًا أخَذ الَّذي هُو ظاهِر علَيْه أخْذَ عزِيزٍ مُقتَدِرٍ ولم يرْحَمْه، بِخَلافِ عِزَّة الله فَهِي مقرونَة بالرّحْمَةِ، وهِيَ أيضًا مقرونَةٌ بالحكْمَةِ.

مثالُ ذَلِك: لَوْ أنَّ رجُلًا غلَب عَلَى قوْمٍ وصَار عزِيزًا وهُمْ أَذِلَّاءُ فإنَّ هَذا الرّجُلَ قدْ تأْخُذُه العزَّةُ بالإثْمِ، فيَبْطِشُ بِهم ولَا يرحمُهُم، لكِنَّ عِزَّةَ الله عز وجل ليْسَتْ كَذَلِكَ، بِل أنَّها مقرونَةٌ بالرّحْمَةِ كَما أنَّها مقرونَةٌ بالحكْمَةِ؛ وَلِهَذا دَائِمًا يَقْرِنُ الله العزَّةَ بالحكْمَةِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كلُّ اسْمٍ مِنْ أَسْماءِ الله عز وجل يتضمَّنُ صِفة، فهَلْ كُل صِفَةٍ يُشتَقُّ منْهَا اسْمٌ؟

فالجوابُ: لَا يجُوزُ، فمثلًا المشِيئةُ لَا نقُولُ إنَّ مِن أسْمَاءِ الله: (الشّائي)، أَو المرِيد أو المتكَلِّم، فلَا نقُولُ أنَّ هَذه من أسْمَاءِ الله، فالصّفَاتُ أوْسَعُ بِلا شَكٍّ، فيُخْبَر عَنِ الله بأشْيَاءَ ولَا يُسَمَّى بِها، ولكِنْ لَا يُخْبَرُ عنْهُ بصِفَةٍ إلا حيْثُ ورَدَتْ، فلَيْس كُلُّ صِفَةٍ يجُوزُ أن يُخْبَر بِها عَنِ الله، فَلا يجوزُ أنْ نُسمِّيَ الله مَثَلا بالحزِين، ولا

تُسَمِّيه بالعاشِقِ، ولا نُسَمّيه بالهمَّام، ومَا أشْبَه ذَلِك، فالصّفَاتُ تَكُون توقِيفيَّةً، لا نَخْتَرِعُ مِن أنفُسِنا صِفَةً لَهُ، لكِن الصّفاتِ أوْسَعُ مِن الأسْماءِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل (المنْعِم) مِنْ أسماءِ الله عز وجل؟

قُلْنَا: ليْسَ مِن أسْمَاءِ الله، لكنَّ الله جَلَّ وَعَلَا يُنْعِمُ، فَهِي صِفَة، قَال الله تَعالَى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١]، ولا تَكُونُ نِعْمَة بِدُون مُنْعِمٍ، وَكَذلِكَ قوْله عز وجل: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، يُؤْخَذُ منْهَا (المنْعِم).

أمَّا (المحْسِنُ) فوَرَدَ أنَّه مِن أسْمَاءِ الله عز وجل في قَوْلِهِ - ﷺ -: "إِنَّ الله مُحْسِنٌ، كَتَبَ الإحسَان عَلَى كُلِّ شَيْ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القتْلَةَ"، وَبِهذَا يَزُولُ الإشْكال الَّذي يَرِدُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النّاسِ، في التّسْمِيَةِ بـ (عَبْد المحْسِنِ).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَل يَجُوز التّسمِّي بعبْدِ المنْعِم؟

قُلْنَا: إِنْ ثَبَت أنَّه مِن أسْمَاءِ الله عز وجل، وإلا فَقَدْ يقُولُ قَائِلٌ: إنَّه يجُوزُ؛ لأَنَّ المنْعِم عَلَى الإطْلَاقِ هُوَ الله عز وجل، وكُلُّ إِنْسَانٍ لَهُ نعْمَة فهِي مقيَّدَةٌ، وإلا فقَوْلُنا: (أنْعَمْتَ علَيْهِ) تكُونُ حتَّى

للإنْسَانِ، قَال تَعالَى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ابْنُ حزمٍ رحمه الله يقولُ بجوازِ التّسْمِيَةِ بـ (عبْدِ المطَّلبِ)؟

قُلْنَا: هَذا غلطٌ مِنه رحمه الله، والتّسمِيَةُ بهِ ليْسَتْ سلِيمَةً.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَل يجُوز التّسمِّي بـ (حَمِيد) و(مُحْسِن)؟

قُلْنَا: هَذا لَيْس بالأحْسَنِ، لكِنْ إِذا لم تُقْصَد الصّفةُ فَلا بَأْسَ، فقَدْ وَردَتِ التّسمِيَةُ بِـ (حَكِيم) في عهْدِ الرّسولِ عليه الصلاة والسلام ولم يُغَيِّرْه، معَ أنَّ الحكِيمَ مِنْ أسْمَاءِ الله؛ لأنَّهُ ما أُرِيد بِه الصّفَة، فأسْمَاء الله عز وجل يُرادُ بِها إثْبَات الصّفَة مَع الاسْمِ، وَقَدْ يُسمي أحدُهم وَلده بـ (حكيم) وهُوَ مِن أسْفَهِ النّاس، وَكَذلِكَ قدْ يُسمِّيه بـ (محُسن) وهُوَ مِن أشَدِّ النّاس جَوْرًا فضْلًا عَن الإحسَان، أمَّا (عبْدُ الحكِيم) فيَجُوزُ، ولَيْس فِيه شَيْءٌ، وَكَذلِكَ (عَبْد الحمِيدِ)، لأَنَّ الحمِيدَ مِنْ أسْمَاءِ الله عز وجل، قَال تَعالَى: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوْله تَعالَى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ إِلَى آخِرِه، هَل نقِفُ عَلَى الآيَات ولو تعَلَّق بِها ما بَعْدَها، أو نَصِلُ ونُرَاعِي المعْنَى؟

قُلْنَا: في هَذا قَوْلانِ لأَهْلِ العلْمِ:

فمِنْهم مَن يَرَى أنْ نَقِف عَلَى الآيَات، وَيقُولُ هَذا هُوَ الوَارِدُ عَنِ النّبيّ - ﷺ -، أنَّهُ كَان يقْرَأُ القرآنَ آيَةً آيَةً، والدّليلُ عَلَى ذَلِك أنَّ الله عز وجل جعلَها آيَةً فتَقِفُ علَيْها ولَوْ تعلَّقَ بِها مَا بعْدَها، وَهَذا كثِيرٌ فِي القرآنِ، كَما فِي قوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤]، هَذِهِ آيَةٌ فيَجوُز أنْ نقِفَ، وقوْلُه سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فيَجُوزُ أنْ نَقِفَ عَلى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، وقوله تَعالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ آيَةٌ، وقوله تَعالَى: ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ.

وبعْضُ أهلِ العلْم يَرى أنْ تراعِي المعْنَى فتقِفَ عنْدَ انتِهَاءِ المعْنَى، ولَا تفصِلَ الآيَة عَنْ آيَةٍ تتعلَّقُ بِها.

وَلو قِيل بالتَّفْصيل، فَإِذا كانَ يَسْرِدُ وهُوَ يقْرَأُ فإِنَّهُ يَقِفُ عَلَى كُلِّ آيَةٍ؛ لأَنَّ الكلامَ لَنْ ينْقَطِع بَلْ سيَتَّصِل ويتَّضِحُ المعْنَى، وَإِذا كنْتَ

تُريد أنْ تتكَلَّم عَلَى معَانِي الآيَات فإنَّك تُرَاعِي المعْنَى، لكَانَ لَهُ وجْهٌ، لكنْ لَا أعْلَمُ هَلْ قالَ بِذَلك أحدٌ مِن أهلِ العلْمِ، إنّما القولُ بِه عَلَى حسَبِ قواعَدِ أهْلِ العلْم لَا بأْسَ بِه؛ لأَنَّ إِحْدَاثَ قولٍ ثالِث يتكوَّنُ مِن القوْلَيْنِ قبْلَه لَا بَأْسَ بِهِ.

وهَذِه مسألَةٌ محَلُّ بحثِها أصولُ الفقْهِ، وهِي هَلْ يجوزُ إِذا أجْمَع العلَماء عَلَى قوْلَيْنِ إِحْداثُ قولٍ ثالِث؟

والصّوابُ: أنَّه إِذا كانَ القولُ الثالِث لا يخْرُجُ عنْهُما فَغايَةُ مَا هُنالك أنَّه يُفَصَّل فِيه، فهُوَ جائِزٌ لأَنَّهُ لا يَكُونُ قدْ خرَج عنِ الخلَافِ، أمَّا إِذا كَانَ يخْرُجُ عنْهُما فَلا يَجُوزُ.

فإِذَا قُلْنا بالتَّفْصيل هُنا مَا خرَج عنِ القوْلَيْنِ، لكِنَّهُ يقَفِ في شيْءٍ، ولَا يقِفُ في شيْءٍ آخَرَ، ومِثْلُ هذَا الوِتْرُ، فمِنَ العلَماء مَنْ قَال بأنَّ الوترَ واجِبٌ، وقالَ آخرُونَ: إِنَّ الوِتْرَ ليْسَ بواجِبٍ، فإِذا قُلْنا إنَّه واجِبٌ عَلَى مَن كَان كَذا، وغيرُ واجبٍ عَلَى مَن كَان كَذا، كَما اخْتَار شيخُ الإِسْلام أنَّه واجِبٌ عَلَى مَن لَهُ وِرْدٌ مِن الليلِ يقُومُ بِهِ، وغَيْرُ واجِبٍ عَلَى مَن سِوَاه، صار هَذا القولُ الثالِث لا يخرُج عَنِ الإِجْمَاعِ؛ لأَنَّهُ يُوافِقُ أحَدَ القوْلَيْنِ في حالٍ، ويُوافِقُ القولَ الآخر في حالٍ أُخْرَى، فيَكُون قولًا ثالِثًا لكِنَّهُ لا يَخْرُج

عنْهُما، أمَّا إِذا كانَ واحِدٌ يَقُولُ بالتّحْرِيم وَوَاحِدٌ يقُول بالحلِّ، ثمَّ جاءَ قولٌ ثالِث يقُولُ بالوُجُوبِ فهَذا لَا يمْكِنُ؛ لأنَّهُ في هذِهِ الحالِ لَا يُوافِقُ القوْلَيْنِ.

الآية (٦)

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦].

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾، مَصْدَرٌ بَدَلٌ مِن اللَّفْظِ بِفِعْلِهِ، والأصْلُ وَعَدَهُمُ الله النّصْرَ]؛ نعْلَم أنَّه مصْدَر وليْسَ فعْلًا، مصْدَرٌ مضَافٌ إِلَى الفاعِل، يعْنِي وَعَد الله إِيَّاهُم، فالمُفَسِّر رحمه الله يقولُ: [إنه بدَلٌ مِن فِعْلِه]، أيْ نَائِبٌ منَابَ الفعْلِ، أيْ وعَدَهُمُ الله وقِيلَ: مصْدَرٌ فعلُهُ محذوفٌ وليْسَ نائِبًا عنْهُ، وعَلى هَذا فيكُونُ المقَدَّرُ كالموجُودِ، أيْ وعَدْناهُم وعْدَ الله، وَهَذا أقرَب، والمعْنَى أنَّ الله وعدَهُم وعدًا مُضافًا إِلَيْهِ، والوَعْدُ المضَافُ إِلَيْهِ لا يختَلِفُ؛ وَلِهَذا قَال: ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾، فهذِه الجمْلَةُ كالتّوكِيد لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾؛ لأَنَّ المضاف إِلَيْهِ في ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ لا يُمْكِنُ أن يخلِفَ أبَدًا، إِذ إِنَّ إِخْلَاف الوَعْدِ ناشِئٌ عَن كذِبٍ

أوْ عَجْزٍ، فإذا وَعدَكَ أحدٌ فأخْلَفَك فَهُو إمَّا كاذِبٌ وإمَّا عاجِزٌ، والكذِبُ والعجزُ ممتَنِعانِ عِنِ الله عز وجل؛ لكِمالِ صِدْقهِ وقُدرَته، فعَلى هَذا لا يُخْلِف الله وعدَه، ولَا يُمْكِنُ أن يُخْلِفَه.

وإِخْلَافُ الوَعْدِ أنْ يَأْتِي الوَاعِدُ بخلَافِ ما وَعَد بِه، مثلًا رجُلٌ قَال لَك: سأزُورُك غدًا في السّاعَةِ الثّامنَةِ، ثمَّ تأْتِي الثّامِنةُ ولَا يزُورُكَ، فهذا أخْلَف وعْدَه، وسبَبُ إخلَافِه إمَّا أنَّه عاجِزٌ أوْ هُو كاذِبٌ مِنْ أوَّلِ الأمْر أوْ نَسِي، والنّسيانُ أيضًا عَيْبٌ، فعَلى هَذا نقُولُ: إنَّ الله لا يُخْلِفُ وعدَه؛ لِكَمال صِدْقِه في خَبَرِه، وكَمالِ قُدْرَته في تنْفِيذِ وعْدِه، واللهُ سبحانه وتعالى كامِلُ القُدْرَة، وكَلامُهُ كامِلُ الصّدْقِ؛ وَلِهَذا قَال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ به]، أيْ بالنّصْر، والنّصْرُ الَّذي وُعِدوا، ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾.

وِفي الآيَات التي سبَقَتْ وعْدٌ آخَرُ للمُؤْمِنينَ بالفرَح؛ لقوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فوَعَدَ الله سبحانه وتعالى بانتصار الرّوم عَلَى الفرْس وبِفَرَح المؤْمِنينَ، ولا شَكَّ أنَّ الفرَحَ فِيه مِن انبِسَاط النّفْس وسُرورِها وانْشِراحِها مَا هُو نعمَةٌ يُنْعِمُ الله بِه عَلَى الفرِحِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ عُطِف علَيْه قولُه: ﴿وَلَكِنَّ﴾، أو يحتَمِلُ أنَّه معطُوفٌ عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾، و(لكنَّ) تنصِبُ الاسْم وترْفَعُ الخبَر، واسْمُها ﴿أَكْثَرَ﴾ وخَبَرُها جُمْلَةُ ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوْله رحمه الله: [﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أي كُفَّار مكة]: تخصِيصُ ذَلِك بكُفَّارِ مكَّةَ فِيه نَظَرٌ، والصّوابُ أنَّه يشْمَلُ كُفَّار مكَّةَ وغيرَهم، وكلُّ مَن ليْسَ عنْدَه إيمانٌ فإنَّهُ لَا يعْلَمُ ما للهِ تَعالَى مِن تنفيذِ الوَعْدِ؛ لأنَّهُ بيْنَ مكذِّب وشَاكٍّ متردِّدٍ فلَا يعْلَمُه.

قوله رحمه الله: [﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾ وعدَه تَعالَى بنصرهم]: والظّاهرُ أنَّهُم لا يعلمُونَ وعدَه تعالَى بنصرِهم، ولا يعلمونَ أنَّ الله تَعالَى لا يُخْلِف الوَعْدَ، أيْ لا يعْلَمُون الأمْرَيْنِ جميعًا، فَلا يعْلَمُون أنَّ الله تَعالَى سيُحَقِّق النّصْرَ لهمْ إمَّا لجهلهم بمَا أخْبَر الله به، وإمَّا لشَكِّهِم في صدْقِه أو قُدَرِة الله علَيْهِ، ولَا يَعْلَمُونَ أيضًا أنَّ الله لا يُخْلِفُ الَوَعْدَ فِي هَذا وفِي غيْرِهِ لشَكِّهم في صِدْقِ الله وفي قُدْرَته تبارك وتعالى عَلَى إنْفاذِ موْعُودِهِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾: مقْتَضاهُ أنَّ أقلَّ النّاس يعْلَمُونَ؛ لأنَّهم مُؤمِنُون باللهِ سبحانه وتعالى، وبما لَهُ مِن القُدْرَة

والصّدْقِ والقوْلِ.

من فوائد الآية الكريمة::

أنَّ غلبَةَ الرّومِ للْفُرسِ وفرَحَ المؤْمِنينَ بذَلِك خبَرٌ متَضَمِّنٌ للوَعْدِ.

الفائدة الثانية: امتِنَاع إخْلَافِ الله تَعالَى وعْدَه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

الفائدة الثالثة: ثُبوتُ القُدْرَة والصّدْقِ للهِ عز وجل؛ مأخُوذَةً مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾؛ لأنَّهُ متضَمنٌ لكمالِ الصّدْقِ والقُدْرَة.

الفائدة الرابعة: أنَّ أكْثَر النّاسِ غَيْرُ عَالمينَ بما يسْتَحِقُّه الله تَعالَى مِن صِفاتِ الكمالِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الفائدة الخامِسَةُ: أنَّ العلْمَ الحقيقِيَّ هُو العلْمُ باللهِ تَعالَى وأسمائِهِ وصِفاتِهِ؛ لا العلْمُ بالدّنيا؛ لقوْلِه عز وجل: ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾، ثمَّ قالَ في الآية التي بعدَهَا ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا﴾، فنَفَى العلْمَ عنْهُم لأَنَّ علْمَ الدّنيا في الحقيقةِ ليْسَ بعِلْمٍ، فيُستفَاد منْهَا أنَّ العلْم

الحقيقِيَّ الَّذي يُمْدَح علَيْه المرْءُ هُو العلْمُ باللهِ وأسمَائِه وصفَاتِه وأحْكَامِه.

الآية (٧)

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

قال المُفَسِّر رحمه الله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيْ مَعَايِشهَا مِنْ التِّجَارَة وَالزِّرَاعَة وَالبنَاء وَالغرْس وَغَيْر ذَلِك ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ إعَادَة هُمْ تأكيد] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ خَبَرٌ ثانٍ لـ (لكنَّ)، والخبَر الأوَّلُ ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾، وقِيل أنَّه بدَلٌ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾، ورُدَّ هَذا القوْلُ لأَنَّهُ لا يُبْدَلُ المثبَتُ مِن المنَفِيِّ للتَّضادِ، فَكيْفَ تُبْدِلُ شيْئًا مثبَتًا مِن شيْءٍ مضَادٍّ لَه، وعَلى هَذا فَإِنَّ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ الثّانيَةَ خبَر ثانٍ لـ (لكنَّ)، وتعَدُّد الخبَر جائِزٌ.

قوْله تَعالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سبحانَ الله العظيمِ! أثْبَت لَهُمُ العلْمَ لكِنَّهُ علْمٌ قاصِرٌ مِن وجْهَيْنِ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّهم إنّما يعلَمُونَ ظاهِرًا مِن الحياةِ الدّنْيا، لَا باطِنًا، وكَمْ مِنَ الأمورِ الخفِيَّةِ في هَذِهِ الحيَاةِ لا يعْلَمُها أُولئكَ الكفَّارُ، فالكفَّارُ لا يعْلَمُونَ كُلَّ خفِيٍّ في هَذِهِ الدّنيا، والدّليلُ عَلَى هَذا تطوُّرُ الصّنائعِ والمختَرعاتِ لأَنَّ هَذا التّطوُّرَ بالنّسبَةِ للسَّابِقينَ غيْرُ معلومٍ، ثمَّ سيَأْتِي تطوُّر آخَرُ يكونُ بالنّسبَةِ للمَوْجُودِينَ غيرَ معلومٍ.

إِذَنْ: هُم إنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، فلَا يعْلَمُون كُلَّ مَا في الدّنيا مِن ظَاهِرٍ وبَاطِنٍ.

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّهم يعلَمونَ ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وليْسَ كلَّ ظاهِرٍ، وفرْقٌ بينَ أنْ يعْلَمُوا كلَّ ظاهِرٍ مِن الحياةِ الدّنيا وأنْ يعْلَمُوا الظّاهِرَ مِن الحيَاةِ الدّنيا وأنْ يعْلَمُوا ظاهِرًا منهَا، فالتّعبِيرُ يكُونُ عَلَى هَذِهِ الوُجُوهِ، والأخِيرُ يعني أنَّهم لَا يَعْلَمُونَ كُلَّ ظاهِرٍ إنما يعْلَمُون ظاهِرًا منْهَا فقَطْ، وأنَّ هناك ظَواهِرَ أخْرَى لَا يعْلَمُونَها أيضًا، فعُلم بِهَذا قُصُورُ عِلْمِ هَؤُلاءِ، فهُمْ فِيما يتعلَّقُ باللهِ جَلَّ وَعَلَا جُهَّالٌ لا يعلمونَ، وفِيما يتعلَّق بالدّنْيا إنَّما يعْلَمُونَ ظاهِرًا مِنَ الحيَاةِ الدّنيا فقَطْ.

أمَّا فِيما يتعلَّقُ بالآخرةِ فيقولُ تعالَى: ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾، وهذَهِ جمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ أُكِّد فِيها المبتدأُ (هم) بتكرارِه، فـ (هُم) الثّانية توكِيدٌ للأُوْلى، ولَو حُذِفَت وقيلَ: (وَهُم عَن الآخرةِ غَافِلُون) كانَ الكلامُ مستقيمًا، لكنَّه كُرِّر للتَّوكِيد، يَعْني هُم بالنّسْبَة لأُمُورِ الآخرة غافِلُون مُعْرِضُون عنْها لا يُفكِّرونَ فِيها، تَجِد الواحِدَ منْهُم في أُمُور الدّنيا فتَنبَهِرُ مِن علْمِه بِها، ولكن فِي أُمورِ الآخرةِ عنْدَه غفْلَةٌ لا يُفكِّر فِيها، ولَا يُحاوِلُ أن يُعمِلَ فِكْرَهُ، ولا أنْ يَنْظُرَ في هَذا الخلْقِ العظِيم، غَافِل عنْ مَاذا يكونُ مآلُه؟ وكَيْف خُلِق؟ وإِلى أيْنَ ينتهي؟

وقالَ الله تَعالَى في آيةٍ أخْرَى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣]، يعْني مِنْ أَمْر الإِيمَان باللهِ وبِرَسُولِه - ﷺ -، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أعمَالٌ أخْرَى، ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣]، يُدرِكونَها تمامًا، لكِنْ في أمْرِ الإِيمَان باللهِ واليَوْمِ الآخر قلوبُهم في غمْرَةٍ؛ وَلِهَذا يجِدُ جزاءَ هذهِ الغمرةِ إِذا قِيلَ لَهُ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وَهَذا يكُونُ يوْمَ القيامَةِ.

المُهِمُّ: أنَّ هَؤُلاءِ الَّذِين غَفَلُوا عن الله سبحانه وتعالى وعَنِ الآخرة عنْدَهم عِلْمٌ مِنَ الحياةِ الدّنيا، راجِعِ الآن الصّنائِع تجِدْ شيْئًا يُبْهِرُك لكِنْ مِنْ قَوْمٍ هُم في أمْرِ الآخرةِ أُمِّيونَ لَا يعْلَمُونَ شيْئًا؛ لأنَّهُم - والعياذُ باللهِ - عنْدَهم غفْلةٌ وَلِهَذا تتعجَّبُ: كيْفَ يَصِلُ هؤُلاءِ إِلَى الأجْواءِ ويصْنَعونَ الطّائراتِ والآلاتِ الغرِيبَةَ، ومَع ذَلِك ليْسَ عنْدَهُم عِلْمٌ بِاللهِ واليَوْمِ الآخر، فلَو سألتَ الطّفل مِن المسْلِمينَ أجابَك، ولو سألت أكبْرَ واحدٍ منْهُم مِن المختَرِعِينَ ما أجَاب، وَذَلِكَ فضْلُ الله يُؤتيهِ مَنْ يشَاءُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هلِ الضّمِيرُ في قوْله تَعالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعودُ عَلَى الكفَّار أمْ يعُودُ عَلَى غيرِهم مِن المسْلِمينَ الغافِلِينَ؟

قُلْنَا: يَعُود عَلَى الكفَّارِ؛ لأَنَّ المقْصُودَ بِهَذا تأْكِيدُ الذّمِّ في حقِّهم، وإلّا فحَتَّى المؤمِنُون لا يَعْلَمُونَ إلا ظاهرًا مِنَ الحيَاةِ الدّنيا، بِدَليلِ قوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعْضُ المسْلِمينَ غافِلُون عَنْ أكْثَرِ أُمورِ الدّينِ، ولكنَّهُم عالمونَ بأمُور دُنياهُم؟

قُلْنَا: هذَا صحِيحٌ، وَهَذا فِيه شبَهٌ مِنَ الكفَّارِ حيْثُ حقَّق أمورَ الدّنيا، وأَعْرضَ عَن أُمورِ الآخرةِ.

الحاصِلُ: أنَّ المقْصُودَ مِن هَذا تأكِيدُ الذّمِّ بِالنّسبَةِ لهُم، هَؤُلاءِ الَّذِين جهِلُوا باللهِ وصِدْقِ وعدِه لا لِقُصورٍ فِيهم أَو في أفْهامِهِمْ، لكِنْ لغَفْلَتِهم، وإلَّا فإنَّ المؤمنِين أيضًا يعْلَمُون ظَاهرًا مِن الحيَاةِ الدّنيا ولَا يعْلَمونَ كُلَّ شيْءٍ، لكنَّ المؤمنِين معَهُم عِلْمٌ باللهِ وأسمائِهِ وصِفَاتِهِ وحِينَئِذٍ لا يكُونُ هَذا نقْصًا فِيهم، إنما مَحَطُّ النّقْصِ هُو أنَّ هَؤُلاءِ لا يَعْلَمُونَ ما يتعلَّقُ بالإيمَان باللهِ، ويَعْلَمُون ظاهِرًا مِنَ الحيَاةِ الدّنْيا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَل الكفَّارُ يُؤمِنُون بوجُودِ الله أمْ يُنْكِرونَ وُجودَه؟

قُلْنَا: يخْتَلِفُون، فمِنْهم مَن يُنْكِرُ وُجودَ الله، ومِنْهُم مَن لَا يُنْكِرُ، لكِنَّ الَّذي لا يُنْكِرُ وُجُودَ الله ويُؤْمِنُ بِوجُود الله ثمَّ يَعْبُد غيرَهُ ويُشْرِكُ فهَذا مُتَناقِضٌ.

من فوائد الآية الكريمة::

الفائدة الأولى: قُصُور عِلْم المرْءِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، ليْسَ كُلَّ الظّاهِر، وليْسَ الباطِنَ، فالمرْءُ علْمُه

قاصِرٌ حتّى في أُمورِ الدّنيَا أيضًا، فَلا يمْكِنُ للمَرْء الإحَاطَةُ بعِلْمِ الدّنْيا.

الفائدة الثانية: ذَمُّ الَّذِين يتكالَبُون عَلَى العلومِ الدّنْيويَّة مَع غفْلَتِهم عَن الآخرةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

الفائدة الثالثة: أنَّها تتضمَّنُ مدْحَ مَنْ يُقْبِلونَ عَلَى الآخرةِ، ويَحْرِصُونَ علَيْها وإِنْ فَاتهم شيْءٌ مِنْ أُمورِ الدّنيا؛ لأنَّهُ إذَا ذَمَّ مَن كانَ عَلَى العكْس فذَمُّ الضّدِّ مدْحٌ لضِدِّه، فالَّذِين يُقْبِلُونَ عَلَى الآخرةِ - وإِنْ كانَ ليْسَ عنْدَهُم إلا عُلُومٌ قليلَةٌ مِن الدّنيا - أكمَلُ بكَثِيرٍ مِنَ الَّذِين يُقْبِلُون عَلَى الدّنيا ويَغْفَلُونَ عنِ الآخرةِ، وَهَذا ما تدُلّ علَيْه هَذِهِ الآيَات.

الآية (٨)

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الرّوم: ٨].

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ ليَرْجِعُوا عَنْ غَفْلَتهمْ ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لِذَلِكَ تَفْنَى عِنْد انْتِهَائِهِ وَبَعْده البعْث ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أَيْ كُفَّار مَكَّة ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ أَيْ لَا يؤمنون بالبعث بعد الموت] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾: مثْلُ هَذا التّركيبِ فِي إعرابِه للنَّحْويِّينَ قولَان:

أحدُهُما: أنَّ الهمزَةَ مُقَدَّمَةٌ عَلَى مكانِها، وأنَّ أصلَها: (وَأَلم يِتَفَكَّرُوا)، فتكُونُ الجمْلَةُ معطوفَة عَلَى مَا سبق.

والوَجْهُ الثَّاني: أن تكُونَ الهمزَةُ داخِلَة عَلَى محذوفٍ يُقَدَّر بحسب السّيَاقِ، ويكُونُ ما بعْدَها مِن حرْفِ العطْفِ عاطِفًا عَلَى ذَلِك المحذوفِ، وفي هَذِهِ الآيَة يَكُون التّقْدِيرُ: (أَغَفَلوا وَلم يتَفَكَّرُوا)؛ لأنَّهُ لما قال: ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ قَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾، والاسْتِفْهام للتَّوبيخِ؛ لأَنَّ الإنسان مأْمُورٌ بأَنْ يتفَكَّرَ.

قوْله تَعالَى: ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾ هلْ هُو محَلُّ التّفكُّر أو آلَةُ التّفَكُّر، بمعْنَى هَل المقْصودُ مِنَ الآيَة الحثُّ عَلَى تفكُّرِهم في أنْفُسِهم

كَما في قوْله عز وجل: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، أوِ الحثّ عَلَى التّفكّرِ في خلْقِ السّموَات وَالأرْض في أنْفُسِهم؟

نَقُول: يُراد بِه كِلا الأمْرَينِ، لكنَّ الأقربَ الأخيرُ؛ وَلِهَذا قالَ: ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ﴾، فالمعْنَى: (أَوَلم يَرْجِعُوا إِلَى أنْفُسِهم ويتَفكَّروا تفكيرًا حقيقيًّا في هَذا الكوْنِ ليَعْرِفُوا بذَلِك حكمَةَ الله عز وجل وما يتضَمَّنُه مِن صفَاتِه العظِيمَةِ).

قوْله تَعالَى: ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: ﴿ومَّا﴾ نَافِيَة، والدّلِيلُ قوْله تَعالَى: ﴿مَا خَلَقَ﴾، ﴿خَلَقَ﴾ بمعْنَى أوْجَد وأبْدَع، ولا يَكُون غالبًا إلا بتَقْدِيرٍ وتنظيمٍ؛ لأَنَّ أصلَ الخلْقِ التّقْدِيرُ في النّفْسِ، كما قال الشّاعر:

وَلأنْتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وَبَعْ ... ضُ النّاس يَخْلُقُ ثمَّ لا يَفْرِي

يَعْني تُمْضِي ما قَدَّرتَ، فالخلْقُ هُو الإبْداعُ بتَقْديرٍ وتنْظِيمٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿السَّمَاوَاتِ﴾: المرَادُ بِها الطّباقُ، وكانَتْ سبْعًا.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَالْأَرْضَ﴾: مفْرَدٌ، والمرَادُ الجِنْس، فيَشْمَلُ جَميعَ الأرْضينَ وهِي سبْع، وعُطِفت عَلَى السّمَوَاتِ وهِي منصُوبَةٌ؛

وَلِهَذا فُتِحَتْ بخلَافِ ﴿السَّمَاوَاتِ﴾؛ لأنَّهَا جَمْعُ مؤنَّثٍ سالِم.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: ﴿مَا﴾ اسْمٌ موصُولٌ معطُوفٌ عَلَى السّمواتِ، والعلَماءُ يقُولونَ أنَّه إذا تعدَّدَتِ المعطُوفَاتُ فالمعطُوفُ علَيْه هُو الأوَّل؛ لأنَّهُ المبَاشِرُ للعامِلِ وما بَعْدَه فرْع علَيْهِ، فيكُونُ العطْفُ إِذَنْ عَلَى ﴿السَّمَاوَاتِ﴾، فلَو قُلْتَ: جاءَ زَيْدٌ وعمْرٌ ووبَكْر وخالدٌ وسعيدٌ، فسَعِيا معطُوفٌ عَلَى زيدٍ الأوَّلِ؛ لأَنَّهُ المباشِرُ ومَا بعْدَه فرْعٌ، والفرْعُ لا يُعْطَفُ عَلَى فرْع، بَل يُعْطَفُ عَلَى أصْلٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ البيْنيَّةُ لا تقتضِي التماسَّ، فقَدْ يكونُ الشّيْءُ بيْنَ الشّيئَيْن وهُوَ لا يمسُّ أحدَهما، فهنا الَّذي بيْنَ السّماءِ والأرْض لا يلزمُ أنْ يمَسَّ أحدَهما، لكنَّه يمكِن أن يمسَّ، فعَلى هَذا نقولُ: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يشمَلُ السّحابَ والرّياحَ والنّجومَ والشّمسَ والقمرَ وغيرَ ذَلِك مِنَ المخلوقَاتِ العظِيمَةِ التي لا نعلَمُها، وفي التّنْصيصِ عَلَى ذِكْر مَا بيْنَ السّموَاتِ وَالأرْض دليلٌ عَلَى أنَّ ما بَيْنَهُما أمْرٌ عظِيمٌ يُقارَنُ بنَفْسِ السّموَاتِ وَالأرْض، وَهَذا يعلَمُهُ أهْلُ الفلَكِ الَّذِين يَطَّلِعُونَ عَلَى مَا في الأفُقِ مِنَ

الآيَات العظِيمَةِ التي تدُلّ عَلَى مَا تدُلّ علَيْه مِنْ كَمالِ الله عز وجل.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: هَذا محَطُّ الفائِدَةِ مِنْ قَوْلِهِ سبحانه وتعالى: ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، فهذَا حصْر، أيْ هَذا الخلْقُ مُقارَن بالحقِّ، فـ (الباءُ) إِذَنْ للمُصاحَبَةِ والملَابَسَةِ، أيْ أنَّ خلْقَهُ سبحانه وتعالى مصْحُوبٌ بالحقِّ؛ لأنَّهُ مُتضمِّنٌ لكَمالِ العدْلِ وكَمالِ الصّدْق، كما قامَتِ السّموَاتُ وَالأرْض إلا بالعدْل، والعدْلُ حقٌّ، وهذَا يشْمَلُ أنْ يكُونَ الغايَةُ منْ خلقِها الحقَّ ابتداء وانتهاء، كمَا قالَ سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦]، وَلَوْ كانَتْ هَذِهِ السّموَاتُ وَالأرْض خُلِقَتْ لتَحْيا الخليقَةُ عليْها وتَعِيشَ وتمُوتَ بِدُونِ جَزَاءٍ ولا حِسابٍ ولا ثَوابٍ ولا عِقابٍ لكَانَ خلْقُها بَاطِلًا ولَيْس بحَقٍّ.

إِذَنْ: لا بُدَّ لهذهِ المخلُوقاتِ العظِيمَةِ أنْ يكُونَ لها غَايَةٌ، وهَذِه الغايَةُ هِيَ الحقُّ، فعَلى هَذا نَقُولُ: إِنَّ قوْله تَعالَى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يشْمَلُ الابْتِداءَ والانْتِهاءَ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: معطُوفٌ عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿بِالْحَقِّ﴾، يعْنِي ما خلَقَهم أيضًا إلا بأَجَلٍ مُسمًّى، أيْ مُعيَّن، والأجَلُ غايَةُ الشّيْءِ، وهُوَ مُسمًّى مِن قِبَل الله تَعالَى، فهُو الَّذي عيَّنه، وهذَا التّعْيينُ يشْمَلُ الابتِداءَ والانتِهاءَ، فابتدَاؤُها بأجَل وانتِهاؤُها بأَجَلٍ أيضًا، فإنَّ الله تَعالَى أَوْجَد هَذِهِ السّموَاتِ وَالأرْض بَعْدَ أنْ كانَتْ معدُومَة، وإيجادُهُ لها كَانَ بِالأجَلِ المعَيَّنِ عنْدَه، وَكَذلِكَ سوْفَ يُنْهِي السّموَاتِ وَالأرْضَ، وإنْهاؤُه إيَّاها بالأجَلِ.

إِذَنْ: كُلُّ شيءٍ عنْدَ الله عز وجل مُقَدَّرٌ، حتَّى الحوادِثُ التي تَحْدُث فِي السّمواتِ وَفي الأرْض بعْدَ خلْقِها، وإيجَادُها كُلُّه بأَجَلٍ لا يتَقَدَّمُ ولا يتَأَخَّرُ، وإذا تأمَّلْتَ قلِيلًا عرَفْتَ بذَلِك كَمالَ قُدْرَةِ الله سبحانه وتعالى، وكيْفَ أنَّ هَذِهِ الأمُورَ والشّؤُونَ العظِيمَةَ الكثِيرَةَ كُلَّها تُدَبَّرُ بأَجَل لا يتقَدَّمُ ولا يتأَخَّرُ، فنَحْنُ مثَلًا نُقَرِّرُ أنْ نبْدأَ الدّرْسَ في السّاعَةِ الثّامِنَةِ، ولكِنْ أحيانًا نبْدَأُ السّاعَة الثّامِنَةَ والنّصْفَ، وأحْيانًا السّاعَةَ الثّامِنَةَ والثّلُثَ، فنتَأَخَّرُ وَلا يَنتظِمُ أمرُنا مَع أنَّه بَسِيطٌ، وهَكذَا كُلُّ شُؤونِ الخلْقِ لا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يَضْبِط جَمِيعَ أعمَاله بأَجَلِها المحَدَّدِ مهْما بلَغَ فِي

الحرْصِ؛ لأنَّهُ قد يَعْتَرِيه مَا لا طَاقَةَ لهُ بِه؛ فَلا يستَطِيعُ، لكِنَّ الرّبَّ سبحانه وتعالى حدَّدَ كُلَّ شيْءٍ بأَجَلِه لا يتَقَدَّمُ ولا يتَأَخَّرُ، ولا شَكَّ أنَّ هذَا مِن كَمالِ الحكْمَةِ والصّنعْ، ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

فإذَا تأمَّلْنا هَذا الكوْنَ العظِيمَ عَلَى مَا فِيه مِنَ الحوَادِث الفلَكِيَّةِ والأرْضيَّةِ والعامَّةِ والخاصَّةِ فإنَّنا فِي الحقِيقَةِ نسْتَدِلُّ بِه دَلالَةً واضِحَةً عَلَى كَمال قُدْرَةِ المدَبِّرِ لهذَا الكوْن الخالِق لَه، وأنَّ كُلَّ شيْءٍ بِأجَلٍ.

وفي آيَةٍ أُخْرَى ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، فهُو أيضًا بمِقْدارٍ، فهُوَ بأَجَلِه وبمقْدَارِه، لا يَزِيدُ ولا يَنْقُصُ، سُبْحانَ الله العظِيمِ.

قولُه رحمه الله: [﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لِذَلِكَ تَفْنَى عِنْدَ انْتِهَائِهِ وبَعْدَهُ البعْثُ]: أي:

تَفْنى السّموَاتُ وَالأرْض وما بَيْنَهُما عنْدَ انتهاءِ هَذا الأجَلِ، ثمَّ يأْتِي البعثُ.

قوْله رحمه الله: [﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أي كُفَّار مكَّة]: خصَّه المُفَسِّر بأَهْلِ مكَّةَ، والصّوابُ العُمُوم، فيَشْمَلُ أهْلَ مكَّةَ وغيْرَهم، فَكثِيرٌ مِنَ النّاسِ يُنْكِرُونَ البعْثَ، بلْ يُمْكِنُ أنْ نَجِد في غيرِ أهْلِ مكَّةَ مَنْ هُم أشَدُّ منْهُم إنْكارًا للْبَعْثِ، فتَخْصِيصُ العامِّ في القرآنِ أمْر لا يَنْبَغِي إلا إذَا قَامَ الدّلِيلُ عَلَى هَذا.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾: اللِّقَاءُ بمعْنَى المواجَهَةِ والمقابَلَةِ، وكُلُّ إنْسَانٍ سواءٌ مؤمنًا أو كافِرًا سوْفَ يَلْقى الله عز وجل؛ ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]؛ لأنَّهُ قالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾ وَهَذا عَامٌّ، ثمَّ قالَ بعدَ قوْله تَعالَى: ﴿فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الانْشِقاق: ٦ - ٧]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانْشِقاق: ١٠]، فدَلَّ هَذا عَلَى أنَّه عامٌّ، فكُلُّ أحدٍ ملاقٍ الله عز وجل، وسوْفَ يحاسِبُه، ولكِنَّ حِسابَ الله للنَّاسِ يخْتَلِفُ، فالمؤْمِنُ يُقرِّرُه الله بذُنُوبِه، فَإِذا أقَرَّ بِها غَفَر لهُ، وأمَّا الكافِرُ - والعياذُ باللهِ - فإِنَّهُ يُخْزَى بِها ويُعاقَبُ علَيْها، وَيكُونُ هوانًا لَهُ.

والكفْرُ في اللُّغَة السّتْرُ، ومنْه سُمِّي الكفُرَّى الَّذي هُو كافُورُ النّخْل - غُلاف الطّلْع -؛ لأنَّهُ يسْتُرهُ والمرَادُ بالكفْر سَتْرُ نعمةِ الله عز

وجل عَلَى المرْءِ بحَيْثُ يَعْصِيهِ إِذا أَمَرَه ويجْحَدُه إِذا طلَبَ مِنْه الإِيمَان، وأنْوَاعُ الكفْر كثِيرَةٌ:

منْهَا: الكفْر المخْرِجُ عَن الملَّةِ.

ومنْها: الكفر أَي: خِصالُ كَفْرٍ، وليْس الكفْر المطْلَقِ.

وَهَذا يَرْجعُ إِلَى حَسَبِ النّصُوصِ الشّرْعِيَّةِ.

فَائِدَةٌ: الَّذي لَا يَعْمَلُ بمقْتَضَى إيمانِه فَوُجودُ إِيمَانِهِ كالعدَمِ؛ لأَنَّ الكفْرَ نَوْعَانِ:

- كُفْرُ جَحْدٍ.

- وكُفْرُ اسْتِكْبارٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿لَكَافِرُونَ﴾: (اللام) للتوكيد، و(كافِرُون) خبَرُ إنَّ، و﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّق بِه، وقُدِّم علَيْه لمرَاعَاةِ الفواصِلِ، ومُراعَاةُ الفواصِلِ في القرآنِ الكرِيم ظاهِر؛ لأَنَّ القرآنَ - أوْ لأَنَّ الكلامَ عامَّةً - إِذا كانَتْ لَهُ فواصِلُ متَّفِقَة يَكُونُ هَذا أنْشَطَ للنَّفْسِ وأرْغَبَ فِي استِماعِهِ وتلَاوَتهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفوائِدُ الأوْلى والثّانِيَةُ والثالِثةُ: تَوبِيخُ مَن أعْرَض عَنِ التّفكُّرِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾؛ لأَنَّ الاسْتِفْهام هُنا للتَّوبِيخِ، ويتفَرَّعُ عَلَى هَذِهِ الفائِدَةِ فائِدَةٌ ثانيَةُ: وهِي الحثُّ عَلَى التّفَكُّرِ، ويتفرَّع علَيْه الفائِدَةُ الثالِثةُ وهِي أهميَّةُ التّفكُّرِ؛ لأَنَّ الله لا يَحُثُّ عَلَى شَيْءٍ ويُوبِّخُ عَلَى ترْكِه إلا لما فِيهِ مِنَ الفائِدَةِ والمصْلَحِة.

الفائِدَتانِ الرّابِعَةُ والخامِسَةُ: أنَّ محَلَّ التّفْكِيرِ هُو العقْلُ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾، هَذا إذا قُلْنا: إنَّ المرَاد كَوْنُ النّفْسِ آلَةَ التّفَكُّر وطرِيقَ التّفَكُّرِ.

أمَّا إذا قُلْنَا أنَّها محَلُّ التّفَكُّر فيُستَفاد منِه فائِدَةٌ وهِي عظِيمُ صُنْعِ الله عز وجل في نَفْسِ الإنسان، ومَا أوْدَعهُ فِيه مَنَ العجائِبِ، وإذا أرَدْتَ أنْ تعْرِفَ ذَلِك فاذْهَبْ إِلَى أهْلِ العلومِ والطّبِّ تجدْ في جِسْمِك العجَبَ العجابَ، فهَذا الطّعامُ الَّذي تأْكُلُه يتحَوَّلُ إِلَى دَمٍ، ويتَوزَّعُ عَلَى الجسْمِ بحسَبِ أنْسِجَتِه، فتُعطَى الأعْصابُ كمِّيَّةً تلِيقُ بِها، ويُعطَى اللَّحْمُ كمِّيَّةً تلِيقُ بِه، وتُعطَى العظَامُ كميَّةً تلِيقُ بِها، فهَذِه الأنَابِيبُ الدّقِيقَةُ مثْلَ الشّعْرِ توزِّعُ عَلَى هَذا الجسْمِ بقَدْرِ ما يَحْتَاجُ إِلَيْهِ.

وقَدْ ذَكر ابْنُ القيِّم رحمه الله في كتابِ (مِفْتَاحُ دَارِ السّعادَةِ) مِنْ هَذا شيئًا كثيرًا، وهَذا قَبْلَ أنْ يَرْتَقِي الطّبُّ إِلَى ما ارْتَقى إِلَيْهِ اليَوْمَ.

الفائدة السّادِسة: أنَّ خالق السّموَاتِ وَالأرْض هُو الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، فلَمْ يخْلُقْهُما أحَدٌ، وَلِهَذا قَال فِي سُور الطّورِ ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦].

الفائدة السابعة: إثْبَات تعدُّدِ السّموَاتِ وهِي سَبع، وأمَّا الأرْض فَهِي دَائِما تُفْرَدُ فِي القرآنِ، ومَا ذُكِرَتْ في القرآنِ مجمْوعَةً، لكِنْ أُشِير إِلَى أنَّها جَمْعٌ فِي قوْله تَعالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

الفائِدَةُ الثّامِنةُ: أنَّ بَيْن السّموَاتِ وَالأرْض مِن المخْلُوقاتِ العظِيمَةِ مَا استَحَقَّ أنْ يُجْعَل قَسِيمًا لخَلْقِ السّموَات وَالأرْض، لقولِه تعالَى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وهَذِه ثلاثَةُ أشْيَاءِ: (السّموَاتُ، وَالأرْض، ومَا بَيْنَهُما)، وكُلُّنا يعْلَم عِظَم الأرْض وعِظَمَ السّماءِ، إِذَنْ: فعِظَمُ مَا بَيْنَهُما مُوازٍ لهُما.

الفائِدَتَانِ التّاسِعَةُ والعاشِرَةُ: عِظَم قُدْرَةِ الله عز وجل وبَالغ حكْمَتِه، أمَّا الحكْمَةُ فنَأْخُذُها مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، فهِي ليْسَتْ عبَثًا بِل بالحقِّ، أمَّا القُدْرَة فنأْخُذُها مِن عِظَم المقْدُورِ، فعِظَمُ المقْدُورِ يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ الخلْقِ، وَهَذا مِنَ الدّلالَةِ بِاللَّازِم، وَإِنَّ الله إِذا فتَحَ عَلَى العبْدِ مَعْرِفَةُ لوَازِمِ النّصوصِ اسْتَفادَ بِذَلِكَ فوَائِدَ عظِيمَة، حتَّى أنَّه يأْخُذُ مِنَ النّصِّ الوَاحِدِ مِنَ المسَائِلِ مَا لا يَأْخُذُ غيرُه نِصْفَها أوْ أقَلَّ.

الفائدة الحادية عشرة: أنَّه ينْبَغِي لِلإِنْسَانِ أنْ لا يُضيِّعَ وقتَهُ سبَهْلَلًا وسُدًى؛ نأْخُذُه مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ لأَنَّ ضِدَّهُ الباطِلُ، والباطِلُ إِمَّا ضارٌّ وإِمَّا غيرُ ضارٍّ ولَا نافِعٍ، وكُلُّ لهوٍ يلْهُو بِه ابْنُ آدَم فهُوَ بَاطِلٌ إلا كَذا وكَذا.

والمُهِمُّ: أنَّه ما دَامَتِ السّموَاتُ وَالأرْض كُلُّها خُلِقَتْ بالحقِّ والجدِّ والصّدْقِ والثّباتِ فيَنْبغِي لكَ أنْ تكُونَ موافِقًا لهذِه الحكْمَةِ التي مِنْ أجْلِها خُلِقَتِ السّموَاتُ وَالأرْض.

الفائِدَتانِ الثّانِيَةَ عشْرَةَ والثالِثةَ عشْرَةَ: أنَّ هَذا الخلْقَ عَلَى عِظَمِه لَه أَجَلٌ محدُودٌ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي مُعَيّنٍ، وكلُّ شيءٍ في السّموَاتِ وَالأرْض كُلِّيًّا كَان أمْ جُزْئِيًّا فإِنَّهُ مُحَدَّدٌ

إِلَى أجَلٍ مُسَمًّى، وسوَاءٌ كانَ ذَلِك عيْنًا أَوْ صِفَةً فإِنَّها محدَّدَة إِلَى أجَلٍ مُسَمًّى؛ وَمن الحكَم المشْهُور (دَوَامُ الحالِ مِنَ المحَالِ)، وَهَذا يتفَرَّعُ علَيْه فائِدَةٌ أُخْرَى وَهِي أنَّ الخلْقَ ناقِصٌ، حيْثُ لم يُقَدَّر لَهُ الأبَدِيَّةُ، فَهُوَ نَاقِصٌ، وَلِهَذا تأْتِي الحيَاةُ الآخرةُ كامِلَةً؛ لأنَّهَا مؤَبَّدَةٌ.

الفائدة الرابعة عشرة: كَمالُ الحكْمَةِ؛ حيْثُ كانَ كُلُّ شيْءٍ لَهُ أجَلٌ مقَدَّرٌ منَظَّمٌ، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، والمقْدَارُ يشْمَلُ مِقْدَارَ الكمِّيَّةِ ومِقْدَارَ الكيفيَّةِ ومِقْدَارَ الزّمنِيَّةِ ومِقْدَارَ المكَانِيَّةِ، فكُلُّ هذِه الأنواعِ الأرْبَعَةِ يشْمُلُها قوْلُه تَعالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

الفائدة الخامسة عشرة: أنَّه مَع هَذِهِ الآيَات العظْمَى - خَلَقِ السّموَاتِ وَالأرْض وما بَيْنَهُما، وتأَجِيلِ ذَلِك بأَجَلٍ مُسَمًّى، وتقْدِيرِه بتَقْدِيرٍ مُعَيَّنٍ - كَثِيرٌ مِن النّاسِ يُنْكِرُون لِقاءَ الله.

والحقِيقَةُ أنَّ العاقِلَ يَسْتَدِلُّ بِهَذا التّأجِيلِ عَلَى وُجوبِ لِقَاءِ الله إِذَا رَأَى أصْحابَهُ وقُرنَاءَه الَّذِين كانُوا بالأمْسِ معَهُ يذْهَبُون واحِدًا فَواحِدًا، فَلا شكَّ أنَّ هذَا يحْمِلُه عَلَى الإيمَان؛ لأنَّهُ يعْلَمُ

أنَّه لَو دامَتِ الدّنيا لأَحَدٍ مَا وصَلَتْ إِلَيْهِ، فإنَّها مَا وصلَتْ إِلَيْك إلا بعْدَ أنْ خلَّفَتْ غيرَكَ.

إِذَنْ: يُستْدَلُّ بهذِه الآجالِ المقَدَّر عَلَى أنَّه لا بُدَّ أنْ يكُونَ هُناكَ شيْءٌ ورَاء هَذا كلِّهِ، ومنَ المؤَكَّد أنَّه ليْسَ مِن الحكْمَةِ أنْ تُنْشَأَ هَذِهِ الخلِيقَةُ العظِيمَةُ، وَبِهذَا النّظَامِ البدِيعِ، ثمَّ تكُونُ النّهايَةُ أنْ يَمُوتَ الإنسان كَجِيفَةِ حِمَارٍ؛ وَلِهَذا قالَ الله تَعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، فهَذِه الشّرائِعُ التي نزَلتْ لا بُدَّ أنْ يكُونَ وراءَها شيْءٌ وهُوَ البعْثُ الَّذي بِه لِقَاءُ الله عز وجل، لكِنْ مَع هَذا ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾.

الفائدة السادسة عشرة: إثْبَات البعْثِ المفْهُومِ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾.

الفائدة السابعة عشرة: أنَّ كُلَّ أحَدٍ سيُلاقِي الله عز وجل؛ نأْخُذُه مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾، وقَال تَعالَى فِي سُورَةِ الانْشِقاق: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَل هَذا اللِّقاءُ شامِلٌ للمُؤْمِنِ والكافِر؟

قُلْنَا: نَعَمْ، لكِنْ هُناكَ فَرْق بيْنَ اللِّقائَيْنِ، كَما أنَّ الرّجُلَ يُلاقِي زْيدًا ويُلاقِي عَمْرًا وَيكُونُ بَيْن اللِّقائَيْنِ فَرْقٌ عظِيمٌ، فَيُلاقِي هَذا بِوَجْهِ غَضَبٍ، ويُلاقِي هَذا بوَجْهِ رِضًا، وَهَذا بِوَجْهِ انْقبَاضٍ وَهَذا بِوَجْهِ انْبِسَاطٍ، ومَا أشْبَهَ ذَلِكَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَلِ المرادُ باللِّقاءِ هُنا اللِّقاءُ المجَرَّدُ أَم المرادُ بِه الرّؤيةُ؟

قُلْنَا: المرْادُ باللِّقاءِ الموَاجَهَةُ، لكِنَّها بَعْد البعْثِ، فمِنْ لازَمِها البعْثُ، أمَّا مسأَلةُ الرّؤْيَةِ فاللهُ أعْلَمُ؛ لأَنَّ الله سبحانه وتعالى ذَكر فِي الكفَّارِ ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

الفائدة الثامنة عشرة: إثْبَات الرّبُوبِيَّة العامَّةِ، لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾، معَ أنَّه يتكَلَّمُ عَن الكافِرِينَ، فَهِي الرّبُوبِيَّة العامَّةُ.

والرّبُوبِيَّةُ تنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عامَّةٍ وخَاصَّةٍ، وقَدِ اجْتَمعَا فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١ - ١٢٢]، فالأُولى عامَّةٌ والثّانِيَةُ خاصَّةٌ، والفرْقُ بَيْنَهُما أنَّ الرُّبوبِيَّةَ العامَّةَ تَسْتَلْزمُ التّصرُّفَ المطْلَقَ فِي المرْبُوبِ، والخاصَّةُ تسْتَلْزِم مَع التّصرُّفِ المطْلَقِ العنَايَةَ بِهِ ونصْرَه وتأْيِيدَهُ

ومَا أشْبَه ذَلِك، ومِثْلُ هذَا نقُوْله فِي المعِيَّةِ العامَّةِ والخاصَّةِ، ومَسائِلَ كثِيرةٍ مِن هَذا النّوْعِ.

الفائدة التاسعة عشرة؛ ذَمُّ مَن كَفَرُوا بِلِقاءِ الله عز وجل مَع آيَاتِهِ العظِيمَةِ الدّالَّةِ عَلَى وُجُودِهِ وحِكْمَتِه؛ لقوْلِه عز وجل: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾، وهَذِه الجمْلَةُ بِلا ريبٍ تدُلّ عَلَى الذّمِّ.

الآية (٩)

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩]

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِنْ الأمَم وَهِيَ إهْلَاكهمْ بِتكْذِيبِهِمْ رُسُلهمْ ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كَعَادٍ وَثَمُود ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ حَرَثُوهَا وَقَلَّبُوهَا لِلزَّرْعِ وَالغرْس ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أَيْ كُفَّار مَكَّة ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالحجَجِ الظّاهِرَات

{فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ} بِإِهْلَاكِهِمْ بِغَيْرِ جُرْمٍ {وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} بِتكْذِيبِهِمْ رُسُلهمْ] اهـ.

قوْله سبحانه وتعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ} معْطُوفٌ عَلَى قوْلِه تَعالَى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا}، فالتّفَكُّر في خلْقِ السّموَاتِ وَالأرْض، والسّيرُ في الأرْض فقَط، ثمَّ السّيْرُ في الأرْضِ إِمَّا أنْ يكُونَ سيْرًا بالأقْدَامِ أوْ سَيْرًا بالأفْهَامِ، فَإنْ كانَ سيْرًا بالأفْهامِ فَهُو داخِلٌ فِيما سبَقَ، وقَدْ نَقُولُ: إِنَّ هَذا أخَصُّ مما سَبَقَ؛ لأنَّهُ قَال هُنَا: {فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}، فهُوَ نَظَرٌ في حوَادِثَ لَا في خلْقِ الأرْض؛ فتكُونُ هَذِهِ الآيَة منفصَلِةً عَنِ التي قبْلَها مِن حيْثُ المعْنَى، فالأُولى تفْكِيرٌ؛ وَلِهَذا جاءَ متعلِّقُها عامًّا: (فِي السّمَوَاتِ والأرْض ومَا بَيْنَهُما)، وَهَذا السّيْرُ لأمْرٍ مخصُوصٍ، أي الحوادِثِ، أنْ ينْظُروا كيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِين مِنْ قبْلِهِمْ، فيَشْمَلُ السّيْرَ بالقدَمِ، والسّيْرَ بالفكْرِ والفهْمِ، عَلَى القوْلِ بأنَّه سيْرُ أقْدَامٍ يكُونُ السّيْرُ حسِّيًّا، وعَلى الثّاني يكُونُ معنَوِيًّا، فيَشْمَلُ السّيْرَ الحسِّيَّ والسّيْرَ المعْنَوِيَّ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيْفَ تطْلُبونَ مِنَ الإنسان أنْ يسيرَ بقَدَمِه إِلَى مَواقِعِ العذابِ وقَدْ نَهى النّبيّ عليه الصلاة والسلام أَنْ ندْخُلَ

مواقِعَ العقَابِ إلا ونحْنُ بَاكُونَ؟

قُلْنَا: لا تعارُضَ؛ لأَنَّ هَذا هُو المقْصُودُ، فالسّيْرُ إِلَى موَاقِعِ العذابِ المقْصُودُ بِه الاتِّعاظُ والانْزِجارُ، وَهَذا يتحَقَّقُ بالبكاءِ، وَلِهَذا نَهى النّبيُّ عليه الصلاة والسلام أنْ ندْخُل دِيَارَ ثَمُودَ إلا ونَحْنُ بَاكُونَ، وقَالَ: "إِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا"، وبعْضُ النّاسِ يذْهَبُ إِلَى دِيَارِ ثمُودَ عَلَى سبِيلِ النّزْهةِ والطّرَبِ والتّمتُّعِ بالمنَاظِرِ، وَلِهَذا يأْخُذُونَ لها صُوَرًا؛ إعْجابًا بها لا خوفًا، وَهَذا مِنْ قسْوَةِ القلْبِ - والعياذُ باللهِ -، والجهْلِ بِمَا جَاء بِهِ النّبيّ - ﷺ -؛ لأَنَّ غالب هَؤُلاءِ الَّذِين يذْهَبُون لِهَذا المقْصَدِ يَكُونُونَ جاهِلِينَ، ولَا نَقُولُ: إِنَّ كلَّهم عنْدَهم قسْوَةُ قلْبٍ تعمَّدوا مخالفةَ الحقِّ، لكنَّنا نقُولُ أنَّ عنْدَهم شيْئًا مِنَ الجهْلِ أوِ الغالب عليْهِمُ الجهْلُ، وإلا لا يُمْكِنُ أنْ يفرَحَ أحدٌ في مكَانٍ نَهى الرّسُولُ عليه الصلاة والسلام عنْ دُخُولِه إلا في حَالِ البكاءِ، وإلا فَإِنَّ الإنسان الَّذي لا يعْرِفُ مِن نفْسِه اَنه إِذا ذَهَبَ سيتَأَثَّرُ حتّى يَبْكي لا يَجُوزُ لَهُ أنْ يدْخُلَ؛ لأَنَّ النّبيّ - ﷺ - نَهى عَنْ ذَلِك.

وقوْله تَعالَى: ﴿فِي﴾ معنَاها (عَلى)؛ لأَنَّهَا لوْ أُخِذَتْ بِظاهِرِهَا لكَانَ السّيْرُ في سرَادِيبَ تحْتَ الأَرْض؛ لأَنَّ ﴿فِي﴾ للظَّرْفِيَّةِ، والظّرْفُ

مِحِيطٌ بِالمظْروفِ مِن جَمِيعِ الجوَانِبِ، ولا يُمْكِنُ أنْ تُحِيطَ بِك الأرْض مِن جَميعِ الجوانِبِ إلا إِذَا كُنْتَ دَاخِلَ الأرْض في سرْدَابٍ، ولَيْس هَذا مُرادًا، فَعلَى هَذا تكُونُ ﴿فِي﴾ بِمَعْنَى (عَلَى).

وقِيلَ إِنَّ ﴿فِي﴾ للظَّرْفِيَّةِ عَلَى بَابِها ولَا حاجَةَ إِلَى تأْوِيلِها، وأنَّ ظَرْفِيَّةَ كُلِّ شيءٍ بحسَبِه، فيَكونَ معنَى قوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: فِي ظَهْر الأرْض، وكُلُّ أحدٍ يعْرِفُ أنَّه لا يُرادُ أنْ تخْرِقَ الأرْض وتَمْشِيَ في أسْفَلِها، ولَا أحدَ يفْهَمُ هَذا، وأيًّا كَان فَإِنَّ المرَادَ السّيْرُ عَلَى ظَهْرِ الأرْضِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِذَا كانَ يسِيرُ عَلَى ظهْرِ الأرْضِ فإِنَّ الأرْضَ تكونُ محيطَةً بِه؟

قُلْنَا: لَا تكونُ محيطَةً بِه مِنْ يمينِه وَيسَارِه، إِذْ لَا تُوجَدُ جُدْرانٌ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: فالمعْنَى واضِحٌ، وحَتّى لَوْ قُلْنا إِنّ ﴿فِي﴾ للظَّرْفِيَّةِ، فإِنَّ الظّرْفَ في كُلِّ موْضِعٍ بحسَبِهِ، وليْسَ بِلَازِمٍ أنْ يكُونَ (في) بمعنَى جَوْف.

وقوْله سبحانه وتعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾: الأرْضُ مفرَدٌ، والمرادُ بِه الجِنْس، أي الأراضِي التي وَقَع العذَابُ بأَهْلِها، مثْلَ

دِيارِ ثَمُودَ والأحْقَافِ ودِيَارِ قَوْمِ لُوطٍ، كَما قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦].

قوْله تَعالَى: ﴿فَيَنْظُرُوا﴾: هَل نظَرَ بَصَرٍ أوْ نظَرَ بَصِيرَةٍ؟

والجوابُ: إنْ كانَ السّيْرُ بالقدَمِ فالنّظَرُ نظَرُ البصَرِ، وإنْ كانَ السّيْرُ بالفهْمِ فالنّظَرُ نظَرُ بَصِيرَةٍ، يعْني فينْظُروا بعَيْنِ البصِيرَةِ أوْ بعَيْن البصَر حسَبَ السّيْرِ كَمَا سَبَق.

والمرَادُ بعَيْنِ البصِر الَّذي يُؤدِّي إِلَى عيْنِ البصِيرَةِ، وَليْس المقْصُود أنَّك إذا سِرْتَ بقدَمِك وَوصلْتَ المكانَ تُغْمِضُ، بلْ تنْظُر بعَيْنِك.

وهلْ النّظَرُ بالعيْن يُفيدُ أوْ لا يُفيدُ؟

إن كانَ ليْسَ فِيه بصِيرَةٌ فَلا يفيدُ، فالمرَادُ بالسّيْرِ عَلَى القدَمِ النّظَرُ بالعيْنِ لِيُؤدِّيَ ذَلِك إِلَى النّظَرِ بالبصِيرةِ، وإلّا فالنّظرُ المبَاشِرُ بالسّيرِ عَلَى القدمِ هُو بِالعيْن.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَيَنْظُرُوا﴾: (الفاء) هنَا يَجوز فِيها وجْهَانِ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنْ تكُونَ عاطِفَةً، والمعْنَى: أفَلَمْ يَسيرُوا فَلَمْ ينْظُروا.

الوَجْهُ الثَّاني: أنْ تكُونَ سَبَبِيَّةً، والمعْنَى: أفَلَمْ يَسيرُوا فَيَنْظُروا، فبِسَبب سيْرِهم ينْظُرون كيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِين مِن قبْلِهم.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَسِيرُوا﴾ و﴿فَيَنْظُرُوا﴾: مجْزومانِ بحذْفِ النّونِ، والوَاوُ فَاعِلٌ؛ لأنَّهما مِنَ الأفْعَالِ الخمْسَةِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿كَيْفَ﴾: اسمُ اسْتِفْهامٍ خبرُ ﴿كَانَ﴾ مقَدَّمًا، و﴿عَاقِبَةُ﴾ اسْمُها في مكانِها، والعاقِبَةُ مصْدَرٌ بمعْنَى العقْبى، وعاقِبَةُ الشّيْءِ ما يتْلُوه وَيأْتِي بعْدَهُ، فقوْلُه تَعالَى: ﴿عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أيْ مَا تَلا تكْذِيبَهُمْ لِلرُّسُلِ.

قولُه رحمه الله: [﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ مِنَ الأمَم، وهِي إهْلَاكُهُم بتكْذِيبهم رُسُلَهم]: كانَت عاقِبَةُ ثمودَ الإهلاكَ والدّمارَ، وعادٌ الَّذِين استكْبَرُوا في الأرْضِ وقَالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أيْ: لَا يُوجَدُ أحَدٌ أشَدُّ منَّا قُوَّةً، كانَتْ عاقبَتُهم أنْ أُهْلِكُوا بأَمْرٍ مِن ألْطَف الأشْيَاء وهُو الرّيحُ، وَالرّيحُ جسْمٌ لطِيفٌ لَا يُرَى، لكنَّ هَؤُلاءِ كِبارَ الأجسامِ شدَيدي القوى أُهْلِكُوا بهذِه الرّيحِ اللَّطيفَةِ التي لا تُرى ليتبيَّنَ ضعْفُ الإنسان، وأنه مهْما كانَ فاللهُ عز وجل أقْوَى مِنْهُ، كَما قَال تعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وَكَذلِكَ قُرَى قومِ لوطٍ الَّذِين

أُتْرِفُوا فتَلِفُوا - والعياذُ باللهِ -، أُتْرِفُوا وتُعِّمُوا حتَّى كانُوا مِنْ شِدَّةِ التّرفِ - والعياذُ باللهِ - يعْدِلُونَ عمَّا خلقَ الله لهمْ مِنْ أزْوَاجِهِمْ إِلَى إِتْيانِ الذّكُورِ، نسْأَل الله العافِيَةَ.

قوْله تَعالَى: ﴿كَانُوا﴾: جمَلةٌ استئنَافِيَّةٌ يُراد بِها بَيان حَال هَؤُلاءِ السّابِقِينَ.

قولُه رحمه الله: [﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كعاد وثمود]: لا أشُكُّ أنَّهم أشَدُّ مِن قُرَيْشٍ قوَّةً، فعَادٌ معرُوفَةٌ قوَّتُهم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ٨] وثمودُ أيضًا الَّذِين ينْحِتُون مِن الجبال بُيوتًا فارِهِين، بُيوتًا آمِنَة عاليَةً شامخةً مِنَ الجبَالِ وَالأحْجَار، وَهَذا يدُلُّ عَلَى القوَّةِ، ومنَ السّهولِ يتَّخِذُون قصورًا عظِيمةً فخْمَةً، ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، وهَذا لمْ يحَصُلْ لأهْلِ مكَّةَ، ومَع ذَلِك دمَّرهم الله عز وجل بكُفْرِهم وتكْذِيبِهِمْ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾: معطُوفٌ عَلَى ﴿كَانَ﴾، وليْسَ معطوفًا عَلَى خَبَرِ كانَ، أيْ عاقبةُ الَّذِين مِنْ قبْلِهم أثَارُوا الأرْضَ، وليْسَتْ معطُوفةً عَلَى ﴿أَشَدَّ﴾، حتَّى نقُولَ: كانُوا أشَدَّ منْهُم وكانُوا أثَارُوا الأرْضَ وعَمَرُوها، بَلْ معطُوفَةً عَلَى كَانَ.

قوْله رحمه الله: [﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ حرثوها وقلبوها للزرع والغرس]: هَذِهِ إثارَةُ الأرْض، فالإنسان إذا حرَثَ الأرْضَ لَا شكَّ أنَّه يُثيرُهَا، والحرْثُ معرُوفٌ بالمسحاة أوْ بالجرَّاراتِ تُثِيرُ الأرْض يعْنِي ترفَعُها، وَكَذلِكَ أيضًا الغرْس فإنَّ الإنسان يُثيرُ الأرْضَ ليَحْفِرَ للشَّجَرةِ حتَّى يثبَتها، فهَؤُلاءِ أشَدُّ منْهُم قوَّةً، وأيضًا قَد أثَارُوا الأرَاضِيَ، أمَّا أهْلُ مكَّةَ فلَمْ يُثيروا الأرْضَ؛ لأنَّهُم في وادٍ غيْرِ ذِي زَرْعٍ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾: أي السّابِقُون عمَرُوا الأرْضَ بالتّجارَةِ والبنَاءِ والمصانِع وغيرِها، فسُلَيْمانُ عليه الصلاة والسلام قالَ الله لَهُ: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ: ١٣] والجفانُ الصّحَافُ التي فِيها الطّعامُ، ﴿كَالْجَوَابِ﴾ والجابِيَةُ هِي بِرْكَة الماءِ، فَالصّحْفَةُ مِثْل بِرْكَةِ الماءِ، هَذا عظِيمٌ ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ لا تُحمَلُ مِنْ كِبَرها وكثْرَةِ الطّعامِ فِيها، هَذا كُلُّه ومَا هُو مِثْلُه لمْ يحْصُلْ لِقُرَيْشٍ.

قوْله رحمه الله: [﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجَجِ الظّاهِرَاتِ]: (الباءُ) للمُصَاحَبةِ أوْ للتَّعْدِية، والمعْنَى أنَّ الرّسَل -

عَلَيْهِمُ الصلاةُ والسّلامُ - جاءَتْهُم مِنْ قِبَل الله تعالى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي بالحجَج البيِّنات، أوْ قُل: بِالآيَات البيِّنَاتِ التي تشْمَلُ الحجَجَ والأحْكامَ؛ فإنَّ الحكْمَ إذا كانَ حُكْمًا عادِلًا نافِعًا للعِبَادِ فإنَّهُ بَيِّنَةٌ تدُلّ عَلَى صِدْق مَن أتى بِه، فَالرّسُلُ كُلّهم جَاؤُوا بالبيِّناتِ، ومَا مِنْ رسُولي إلا أَتى بِبَيِّنَةٍ، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

إِذَنْ: فمَعَ كُلِّ نَبِي كِتاب، كُلُّ نبِي لَهُ كِتَابٌ، وكُلُّ نَبِي لَه آيات بَيِّنَاتٌ، ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

المُهِمُّ: أنَّه مَا مِن رسُولٍ إلا مَعَه بَيِّنة وكِتَابٌ.

قوْله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: (اللَّامُ) في قولِه ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ تُسَمَّى لامَ الجحُودِ، أيْ لامَ النّفْي؛ لملازَمَتِها لَهُ، وهِي التي سبقَها (لم يكن)، أو (ما كان)، وهِيَ تنْصِبُ الفعْلَ المضَارعَ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: إذا قِيلَ: (مَا كانَ الله ليَفْعَل كَذا)

ومَا أشْبَه ذَلِك فاعْلَم أنَّه مُمتنِع غايةَ الامْتِنَاعِ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، أيْ ممتَنِعٌ غايَةَ الامْتِنَاعِ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩]، مُمتنِع غايَةَ الامتِنَاعِ، وهَكذا كُلَّما جَاء مثْلُ هَذا التّعبيرِ، فالمرَادُ أنَّه ممتَنِع غايَةَ الامْتِنَاعِ.

والظّلمُ في أصْلِ اللُّغَة النّقْصُ، ومنْهُ قولُه تَعالَى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣] وهُوَ في الشّرعِ كَذَلِكَ نَقْصٌ فِيما يَجِبُ، فيَشْمَلُ الإهْمالَ في الوَاجِبِ والتّعدِّي في المحَرَّم، فالتّعدّي في المحَرَّمِ نقْصٌ؛ لأنك بَخَسْتَ نفْسَك حقَّها؛ حيْثُ لَمْ تجتَنِبِ المحَرَّمَ، وَكَذلِكَ أيضًا التّقْصِيرُ في الوَاجِبِ نقْصٌ، فمَنْ قصَّرَ في واجبٍ فقَدْ ظَلَم نفْسَهُ، ومَنْ تعدَّى في مُحرَمٍ فقَدْ ظلَم نفْسَهُ؛ لأَنهُ نَقَصَ مِمَّا يَجِبُ أنْ يُعامِلَ بِه نفْسَهُ، فيَكُونُ الظّلْمُ إمَّا تركًا لوَاجِبٍ، وإمَّا فِعْلًا لمُحَرَّمٍ.

وبِالنّسبَةِ للهِ سبحانه وتعالى فإنَّ نَفْيَ الظّلْمِ صِفَة سلبِيَّةٌ، تتضَمَّنُ كَمالَ العدْل، فهُوَ لَا يظْلِمُهُمْ لا لأَنهُ عاجِز عنْهُم، ولا لأنهُ غَيْرُ قابِلٍ لَهُ، ولكِنَّهُ لِكَمالِ عدْلِه عز وجل لَا يُمْكِنُ أنْ يَظْلِم.

ونَفْيُ الظّلْمِ يكُونُ لِثلاثَةِ أسْبَابٍ: إِمَّا لِكمال العدْلِ، أَو العجْزِ، أوْ عدَمِ القابِلِيَّةِ.

فَإِذا قُلْت: إِنَّ الجدارَ لَا يَظْلِمُ فهُو لِعَدم القابِلِيَّةِ لَا يَقَع منْهُ الظّلْمُ أصْلًا.

وإِذا قُلْتَ: فُلانٌ ضعِيف لَا يظْلِمُ عدُوَّه، فهَذا للْعَجْزِ، قَال الشّاعِرُ:

قَبِيلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ فهُم لا يظْلِمُونَ لِعَجْزِهم.

وإِذَا قُلْتَ: إِنَّ الله لا يَظْلِمُ النّاسَ شيْئًا، فهُوَ لِكَمَالِ عدْلِه، فإِنَّه قادِرٌ جَلَّ وَعَلَا أَنْ يظْلِمَ لكِنَّهُ ممتَنِع علَيْه لكَمَالِ صِفاتِهِ، وقَالت الجبرَّيةُ أنَّه لا يَظْلِمُ لعَدَمِ قابِلِيَّته، واللهُ سبحانه وتعالى يمْلِكُ جَمِيعَ الخلْقِ فتصَرُّفُه في مُلْكِه ليْسَ بظُلْمٍ، ولا يُتَصَوَّرُ الظَّلْمُ في حَقِّ الله لَا لِكَمَالِ عدْلِه، ولكِنْ لأنهُ غيْرُ قابِلٍ لهُ؛ وَهذا قَال ابْنُ القيِّم:

وَالظّلْمُ عِنْدَهُمُ المحُالُ لِذَاتِهِ ... ...

فهُو مُحَالٌ لذَاتِه عنْدَهُمْ، لا يُتَصَوَّرُ الظّلْمُ في حقِّ الله، ولكِنَّ قولَهم هَذا لَا يُعَدُّ مدْحًا لله عز وجل ولا ثناءً ولا كمالًا، إِذْ نَفْيُ

الظّلمِ لا يكونُ مدْحًا وكمَالًا إلا إذا كانَ مَع القُدْرَة علَيْه وإمْكَانِه، لكِنْ منَعَه كمالُ عدلِه منْهُ.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾: منْصوبَة عَلَى أنَّها مفْعُولٌ مُقَدَّمٌ لـ ﴿يَظْلِمُونَ﴾، يعْنِي ولَكِنْ كانُوا يظْلِمُونَ أنْفُسَهُم، والمرادُ أنَّهم يظْلِمُونَ أنْفُسَهم بمعصِيَةِ الله، إمَّا بتَرْك واجِبٍ أوْ فِعْلِ مُحرَمٍ، وسيَأْتِينا إنْ شَاءَ الله في الفوائِدِ مَا تدُلّ علَيْه هَذِهِ الجمْلَةُ.

المُهِمُّ: أنَّ الله تَعالَى مَا ظَلَم هَؤُلاءِ المكَذِّبِينَ الَّذِين أهْلَكُهم، ولَكِنْ هُمُ الَّذِين ظلَمُوا أنْفُسَهم، فالجنَايَةُ منْهُم عَلَى أنْفُسِهم، واللهُ عز وجل عامَلَهُم بِكَمَالِ العدْلِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَتَانِ الأوْلَى والثانِيَةُ: تَوْبِيخُ مَنْ غَفِلوا عَنِ السّيْرِ في الأرْضِ سواء بأبْدَانِهِم أوْ بقُلُوبِهم، لأَنَّ الاسْتِفْهام في قوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ للتَّوبيخِ، ويتفَرَّعُ عَلَى ذَلِك الحثُّ عَلَى السّيْرِ في الأرْضِ، ومن السّيْرِ في الأرْضِ بالقلوب مراجَعَةُ كُتُبِ التّارِيخِ والأمَمِ؛ لأَنَّ مَن راجَعَها لا سِيَّما التّوارِيخَ الحرِيصَةَ عَلَى الضّبْطِ والموْثُوقَةِ، مَن راجَعَها يتبيَنُ لَه العجَبُ العجَابُ في خَلْقِ الله عز وجل ومداوَلتِه الأيامَ بَيْنَ النّاسِ، وتغْييره للْأُمورِ،

وتَزِيدُ الإنسان إيمانا باللهِ، لكِنْ إِنْ كانَتْ هَذِهِ الحوادِثُ مِنَ السّير النّبويَّةِ وسِيَرِ الخلَفاءِ الرّاشِدِينَ ازْدَادَ بِها مَع الإيمَان باللهِ أنْ يصْطَبِغَ بصِبْغَتِها، ويَحْتَذي حذْوَها في السّيْرِ، وإِنْ كانَتْ مِنَ الأمُورِ العامَّةِ العابِرَةِ فإِنَّهُ يَسْتدِلُّ بِها عَلَى قُدْرَةِ الله عز وجل وكَمَالِ سُلطانِهِ وتغْيِيرِ الأمُورِ.

فالمُهِمُّ: أنَّ السّيْرَ في الأرْضِ - بمعْنَى مُراجَعةِ الحوادِثِ والتّوارِيخِ - يفيدُ المرْءَ، وَيعْتَبِر بِها، ولكِنَّها لا تُفِيد كُلَّ أحَدٍ، كَما قَال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾ [ق: ٣٧].

الفائدة الثالثة: أنَّ عاقِبةَ الكفَّارِ وخِيمَةٌ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

الفائدة الرابعة: أنَّ الإنسان مهْمَا قَوِيَ فهُو ضعِيفٌ بالنّسْبَةِ لِقُوَّةِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، ومَعَ ذَلِك لَمْ يتَحَصَّنُوا بِهَذا مِنْ عَذابِ الله، بَلْ إِنَّ الله تَعالَى بحكْمَتِه أهْلَك أعْتَى أهْلِ الأرْضِ بأَهْوَنِ الأشْيَاءِ وألطَفِها، وهُمْ عَادٌ أُهْلِكُوا بالرّيحِ، ومَنْ كَانَ يفْتَخِرُ بالأنْهَارِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ أهْلَكَهُ بالماءِ الَّذي كانَ يفْتَخِرُ بِه بالأمْسِ، وَهَذا مما

يدُلُّ عَلَى كمَالِ سُلطانِ الله تَعالَى وعظَمَتِهِ، وأَنَّه مهْمَا قوِيَ الإنسان فهُوَ ضَعِيفٌ بالنّسْبَةِ لقُوَّةِ الله سبحانه وتعالى، وأظُنُّ أنَّهُ في حَوَالي عَامِ ألف وأرْبَعِمِئة حصَلتْ هزَّةٌ أرضِيَّةٌ في إيرانَ دمَّرَتْ في لمْحِ البصِر خمسًا وعِشْرِينَ ألف نَسمَة مِنْ بَني آدَم، فضْلًا عَنِ الحيَواناتِ والمواشِي ومَا إِلَى ذَلِكَ، ودمَّرَتْ مِئَتَيْنِ وثَلاثِينَ قرْيَةً ومَدِينتيْنِ كبِيرَتَيْنِ، والهزَّة ليْسَت تهُزُّ مثْلَ الأرْجُوحَةِ، إنَّما هِي كلَمْحِ البصرِ مثْلَ ما حكَاهَا إِنْسَان كَتَبَ للشَّيخِ عبْدِ العزيزِ بْنِ بَازٍ في الهزَّةِ التي أصَابَتِ اليَمَنَ، فصوَّرَها تصْوِيرًا عجِيبًا في سُرْعَتِها، وأصواتٍ صَحِبَتْهَا وحالِ النّاسِ والرّعْبِ الَّذي أصَابَهُم حتَّى أنَّها، ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج: ٢].

فهَذِه القُدْرَة العظِيمَةُ لَا يُمْكِنُ لأحَدٍ أنْ ينْجُو منْهَا إذا شاءَها الله عز وجل أبدًا، ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

الفائدة الخامسة: أنَّ التّأمّلَ في حَال الكفَّارِ للاعْتِبَارِ، يعْني أنْ يعْتَبِر بِه الإنسان أمْرًا مطلوبًا لَوْ جَاء إِنْسَانٌ وَأرَادَ أنْ يدْرُسَ

تارِيخَ أمَّةٍ كافِرَةٍ ماذَا حصَل لَها ومَا الَّذي جاءَها، فإنَّنا لا نَنْهاه عنْ ذَلك ما دامَ يُريدُ أنْ ينتفِع بِهَذا، وَيعْرِفَ مَاذا كانَت عاقِبَةُ المجْرِمينَ، فإنَّهُ مأمُور بِه، أمَّا إذا كَانَ يُريدُ أن يتَعَجَّبَ مِنْ قُوَّتهم وصنْعَتِهم ومَا إلَى ذَلِك فإنَّهُ يُنْهَى عنْهُ، مِثْل مَا قُلْنا في الَّذِين يذْهَبُونَ إلَى دِيَارِ ثَمُودَ قصْدُهُمُ التّفْرّج والنّزْهَةُ، فهَذا حرَامٌ والذِين قصْدُهُم الاعْتِبار فهَذا جَائِزٌ بالشّرْطِ الَّذي ذَكَرَهُ النّبيُّ عليه الصلاة والسلام، وهُوَ ألَّا يدْخُلوها إلا وهُم بَاكُون.

الفائدة السادسة: أنَّ إثارَةَ الأرْضِ مِنْ أسْبَابِ القوَّةِ، أي الاشْتِغَالُ بِالزّراعَةِ مِنْ أسْبَابِ القوَّةِ بِلا شَكٍّ؛ لأنَّهَا يحْصُل بها الاكْتِفاءُ الذّاتِيُّ عَنِ الغيْرِ، فإذا كَانَت بِلادُنا - مثَلًا - تُنْتِجُ الثّمارَ والزّروعَ استَغْنينَا بذَلِك عنْ غَيرِنا، وَرُبَّما يكُونُ لدَيْنا فائِضٌ نُصدِّرُه لغَيرنا فنكسبُ، فإثَارَة الأرْضِ مِنْ أسْبَابِ القوَّةِ، وَكَذلِكَ عُمْرَانُ الأرْضِ بِغَيْر الإثَارةِ بالبنَاءِ والتّجَارَةِ وما أشْبَهَ ذَلِك مِنْ أسْبابِ القوَّةِ.

الفائدة السابعة: أنَّ الله سبحانه وتعالى ما تَرك أحدًا بدُونِ رُسُلٍ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنةُ: أنَّ كلَّ رسولٍ معَه بيِّنَة تُؤَيِّدُهُ؛ لقوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

الفائِدَتانِ التّاسِعَةُ والعاشِرَةُ: نسْتَفِيدُ مِن إِرْسالِ الرّسُلِ وإيتَائِهِمُ البيِّناتِ فائِدَتَيْن وهُمَا:

أولًا: رحْمَةُ الله عز وجل وحِكْمَتُه، أمَّا الرّحمَةُ فلأنَّ العقُولَ لا يُمْكِنُ أن تهتَدِيَ لما يُريدُهُ الله منْهَا إلا بالوَحْي، فَلا يُمْكِنُ لِلإِنْسَانِ بعقْلِه أنْ يعْرِفَ كيْفَ يتوضَّأُ، وكَيْف يُصلّي، وكَيْفَ يصُومُ، وكَيْفَ يحجُّ.

إِذَنْ: لا بُدَّ مِن أنْ يكُونَ هناكَ رسُولٌ يَأتِيهِ الوَحْيُ مِنَ الله عز وجل ليبين لنا مَا يرْضَاهُ الله ومَا لا يَرْضَاهُ.

ثانيًا: كونُ هَؤُلاءِ الرّسُل يأتونَ بالبيِّناتِ مِن الرّحمَةِ لَوْ أَرْسَل الله الرّسُلَ بدُونِ بينات وألزَم العبَادَ أنْ يَخْضَعُوا لهمْ بِدُون أنْ يكُونَ هُناكَ بيِّنَةٌ يطْمَئنُّونَ إلَيْها يكُون في هَذا مِن العنَتِ والمشَقَّةِ مَا لا يعْلَمُه إلا الله، ولكِنْ مِن رَحْمَةِ الله جَلَّ وَعَلَا أنْ جعَلَ مَعَ كُلِّ نَبي بيِّنَةً، ولَاحِظ أنَّ الأنبِياءَ الَّذِين تُقَيَّدُ نُبوَّتُهم ورسالَتُهم بزَمَنٍ أوْ مكَانٍ وهُمْ جَمِيعُ الأنبِياءِ مَا عَدا محَمَّدًا عليه الصلاة والسلام تَجِدْ آياتهمْ غالبًا آيات حِسيَّةً تنتهي بانْتِهائِهِمْ، وتكُونُ بعْدَ موتهم خبَرًا يُنْقَلُ ويُؤثَر، أمَّا النّبيّ - ﷺ - فآياتُه اشتَمَلَتْ عَلَى الأمْرَيْنِ: عَلَى أُمورٍ حِسِّيَّةٍ نُقِلَتْ بعْدَه وأُثِرَتْ، وعَلى أُمورٍ

معْنَوِيَّةٍ بقِيَتْ بعْدَه مثْلَ القرآنِ العظِيمِ، ومثْلَ إخْبَارِه ببَعْض الأمُورِ الغيْبِيَّةِ التي وقعَتْ كَما أخْبَر؛ لأَنَّ رسالَةَ النّبيّ - ﷺ - دائِمَةٌ ومستَمِرَّةٌ وثابِتَةٌ، فلا بُدَّ أن تكُونَ الآيات المؤيِّدةُ للرَّسُولِ - ﷺ - باقية حتَّى تقُومَ بها الحجة عَلَى الباقينَ مِنَ النّاس لأَنَّ الباقِينَ مِنَ النّاسِ لم يشْهَدُوا الشّيْءَ بأيْدِيهم، وإنما هِي أخْبَارٌ تُؤْثَرُ، فإِنَّهُ كَما جاءَ في الحدِيث: "لَيْسَ الخبَرُ كالمعَاينة".

الفائدة الحادية عشرة: انتِفَاءُ الظّلْمِ عنِ الله؛ لكَمَالِ عدْلِهِ؛ لقوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: انتفَاءُ الظّلْمِ عنِ الله نُوافِقُكُمْ علَيْه؛ لأَنَّ الله نفَاهُ عَنْ نفْسِه ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، لكنْ مِن أيْنَ لكُم قولَكُمْ: (لكَمَالِ عدْلِه)؟

فالجوابُ؛ لأنَّ النّفيَ يدُلُّ عَلَى انْتِفَاءِ المنْفَي، والانْتِفاءُ يُساوِي العدَمَ، والعدَمُ نفْسُه ليْسَ بشَيْءٍ، العدَمُ عدَمٌ عَلَى اسْمِهِ، فإِذا كَانَ ليْسَ بشَيْءٍ فلَا يكُونُ صفَةَ كَمالٍ يُثْنِي الله بِها عَلَى نفْسِه لانهُ ليْسَ بشَيْءٍ.

إِذَنْ: لاُ بدَّ مِن أنْ يكُونَ متضَمِّنًا لشَيْءٍ وهُو الإثْبَات، هَذا الإثْبَات إمَّا أنْ يكُونَ للعَجْزِ، وإِمَّا أنْ يكُونَ لعدَمِ القابليَّةِ، وإمَّا أنْ يكُونَ

لكَمَالِ العدْلِ، والاحْتِمال اللائِقُ بالله عز وجل هوَ كمالُ العدْلِ، وَبِهذَا عرَفْنَا أنَّ التِزام نفْيِ الظّلْمِ لكمالِ العدْلِ لازِمٌ عقلي لا بُدَّ منْهُ بالنّسْبَةِ للهِ عز وجل ليْسَ بالنّسْبةِ لكُلِّ مَن يُنْفَى عنْه الظّلْمُ، وحِينَئِذٍ يُسْتَفَادُ منْهَا انتِفَاءُ الظّلْمِ لِكَمَالِ عدْلِ الله عز وجل.

الفائِدَةُ الثّانِيةَ عَشْرَةَ: أنَّ نفسَ الإنسان عنْدَه أمانَةٌ؛ تُؤخَذُ مِنْ قَوْلِهِ عز وجل: ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، فأثْبَتَ الله تَعالَى ظُلْمَ الإنسان نفسَه، ولو كانَتْ غيْرَ أمانَةٍ لكَان غيرَ ظالم؛ لأنَهُ يتصرَّفُ ويتحَكَّمُ، لكنَّها أمانَة عنْدَهُ يَجِبُ علَيْه أن يَرْعاهَا حقَّ رعايَتها، وَهذا قَالَ النّبيُّ - ﷺ -: "إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا"، وَهَذا كَما يشْمَلُ إعْطَاءَ النّفْسِ راحَتَها يشْمَلُ إعْطَاءَ النّفْسِ حقَّها مِنَ العبادَةِ فَلا تُهْمِلْها، والإنسان فِيه ثلاثَةُ أنْفُسٍ: أمَّارَةٌ، ومطمَئِنّةٌ، ولوَّامَةٌ.

أمَّا المطْمَئِنَّةُ: فهِيَ التي تأمُرُه بِرِضَى الله.

وأمَّا الأمَّارَةُ بالسّوءِ: فهِيَ التي تأمُرُه بمعْصِيَةِ الله.

وأمَّا اللَّوَّامَةُ: فَهِي التي تلُومُه، سواءٌ لامَتْه عَلَى ترْكِ الشّرِّ فهذِه مِنَ النّفْسِ الأمَّارة التي تقولُ لَهُ: لماذا لَمْ تذْهَبْ مَع هَؤُلاءِ تشْرَبُ الخمْرَ وتَزْني وتُقامِرُ إِلَى آخرِه، فتَلُومُه عَلَى ما تَركَ من

فِعْل السّوءِ، فهذِه تكونُ مِن الأمَّارة بالسّوءِ، وكذَلِك تُوجدُ نفْس لوَّامَة تلُومُهُ عَلَى فِعْل الشّرِّ وتَرْكِ الخيْرِ، وهَذِه هِي النّفْسُ المطْمَئِنّة.

فَفِي الإنسان ثَلاثُ أنْفُسٍ، كَما ذكرَ الله تَعالَى، وكُلُّ إِنْسَانٍ لابدَّ أنْ يكُونَ لَدَيْهِ هَذِهِ الأنفُسُ، وهِي فَي الحقِيقَةِ أوْصَافٌ وإلَّا فنَفْس العقْل أوِ التّفكِيرُ واحِد، الإنسان يُوجَدُ فِيه الجميعُ، يحسُّ مِن نفسِه أحْيانًا بما يأْمُرُه بالمعْصِيَةِ، ويحسُّ أحْيانًا بما يَعْمَلُ مِنَ الخْير، ويحسُّ أحيَانًا بما يَلُومُهُ.

ويُنْظَرُ أيُّهما التي تغْلِبُ، فَمِن النّاس مَن تغْلِبُه نفْسُهُ الأمَّارَةُ، وَمِنَ النّاسِ مَنْ تغْلِبُه المطْمَئِنّة، لكِنِ ابْتداءً خَلَق الله فِيه هَذِهِ القوى، فهَذِه القوَى النّفسِيَّةُ مخْلُوقَة في الإنسان.

الفائدة الثالثة عشرة: أنَّ الإنسان بمعصِيَته لا يضُرُّ إلا نفسَهُ، ويدُلُّ لهذَا قوْلُ الله عز وجل في الحدِيثِ القدسِيِّ: "يَا عِبَادِيَ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِك في مُلْكِي شَيْئًا"، يعْنِي لا يضُرُّه، فحتَّى لوْ خَرَجْتُم عنْ عِبَادِتي والتّعبُّدِ لي فإِنَّ ذَلِك لا يَضُرُّني.

الفائدة الرابعة عشرة: أنَّ العبْدَ فاعِل مختار؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، فأثْبَتَ الظّلْمَ منْهُم لأنفُسِهِمْ، ومنْ وجْهٍ آخَر يُؤْخَذُ أيضًا مِن نفْسِ الآية ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾؛ لانهُ لَو كانَ يُجْبِرُهم عَلَى ذَلِك لكانَتْ عُقوبَتُهم ظُلْما، لو اعْتَقَدَ الإنسان أنَّ الله يُجْبِرُ الإنسان عَلَى فِعْلِ المعْصِيةِ ثمَّ يُعاقِبُهُ علَيْها فإنَّ هَذا ظلم، فَفِيها دَلِيل عَلَى الأفْعَالِ الاخْتِيارَّيةِ مِن جِهَتَيْنِ:

• مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

• ومنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾.

الفائدة الخامسة عشرة: أنَّ الظّلْمَ في حَقِّ الله مِنْ حيْثُ هُو مُمكنٌ يعْني مِن حيْثُ القُدْرَةُ علَيْه فهُو ممكنٌ؛ وَهذا أثْنَى الله عَلَى نفْسِه بانْتِفَاءِ الظّلمِ عنْهُ، أوْ أثنَى عَلَى نفْسِه بنَفْيِهِ ظُلْمَه للعِبادِ، وَهَذا أحْسَنُ، ولَوْ كَان هَذا مِنَ الأمورِ المستَحِيلَةِ مَا كانَ هُناكَ محَلٌّ للثَّناءِ، فهُوَ قَادِرٌ عز وجل عَلَى أَنْ يظْلِمَ لَوْ شَاء، لكِنَّهُ لا يَشَاءُ ذَلِك لكَمَالِ عدْلِه.

إِذَنْ: فالظّلْمُ ممتَنِع عَنِ الله لكَمَالِ عدْلِهِ خِلافًا للجَهْمِيَّةِ الَّذِين يقُولونَ إِنَّ الظّلْمَ ممتَنِع لاستحالته بذَاتِهِ عَلَى الله، قَالُوا هَذا

شيْءٌ مستَحِيلٌ فجَعلُوا محَلَّ الثّناءِ أمْرًا مستَحِيلًا عقْلًا.

الآية (١٠)

* قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)﴾ [الروم: ١٠].

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ﴾ تَأْنيث الأسْوَأ الأقْبَح خَبَر كَانَ عَلَى رَفْع عَاقِبَة وَاسْم كَانَ عَلَى نَصْب عَاقِبَة وَالمرَاد بِهَا جَهَنَّم وَإِسَاءَتهمْ ﴿أَنْ﴾ أَيْ بِأَنْ ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ القرآن ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ﴾ مصْدَرٌ بمَعْنى العقْبَى، وفِيها قِراءَتَانِ سبْعِيّتَانِ: النّصبُ ﴿عَاقِبَةَ﴾، والثّانِيَةُ الرّفْعُ "عاقبةُ"، أمَّا عَلَى قِرَاءَةِ الرّفْعِ فإنَّها اسْمُ ﴿كَانَ﴾، وأمَّا عَلَى قِرَاءَةِ النّصْبِ فإنَّها خبَرُ ﴿كَانَ﴾ مُقَدَّمًا، يَبْقَى النّظَرُ: أيْنَ اسْمُ ﴿كَانَ﴾ عَلَى قِراءَةِ النّصْبِ، أوْ خبَرُها عَلَى قراءَةِ الرّفْعِ، سيَذْكُرُه المُفَسِّر.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾: أيْ عَمِلُوا العملَ السَّيِّئَ مِن الكفَّارِ المكذِّبِينَ للرُّسُلِ كَما قَصَّ الله عز وجل،

و﴿أَسَاءُوا﴾ ضِدَّها أحْسَنُوا. فالَّذِين أَحْسَنوا قالَ الله فِيهِمْ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦]، والَّذِين أسَاؤُوا كَان عاقِبَتَهُم مَا ذَكرَ الله هُنَا.

قو لُه رحمه الله: ﴿السُّوأَى﴾ تأنيث الأسوأ الأقبح]، قوْله تَعالَى: ﴿السُّوأَى﴾ اسْمُ تفْضِيلٍ مثْلِ ما نَقُولُ الفضْلَى اسْمَ تفْضِيلٍ، والعظْمَى اسْمَ تفْضِيلٍ، ومُذَكَّرُ الفضْلَى الأفْضَلُ، ومُذَكَّرُ العظْمى الأعْظَم، ومُذَكَّر الأُولى الأوَّلُ، ومُذَكَّرُ ﴿السُّوأَى﴾ الأسْوَأُ.

إِذَنْ: فـ ﴿السُّوأَى﴾ اسْمُ تفْضِيلٍ مؤَنَّثِ (الأسْوَأِ)، ومعْنَى الأسْوَأِ: الأقْبَحُ، يعْنِي عمَلُهم السّيِّئ كانَتْ نَتِيجَتُه أسْوأَ، وَهَذا أسْوَأُ بالنّسْبَةِ لما هُمْ علَيْه مِنَ النّعِيمِ في الدّنْيَا فلَاقَوْا بعْدَ ذَلِك الجحِيمَ، ولا تَظُنَّ أنَّ هَذه الآية تدُلّ عَلَى أن السّيئةَ تُجزَى بأسْوَأ منْهَا، ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)﴾ [الأنعام: ١٦٠]، لكِنَّ الأسْوَأ باعْتِبَارِ حالهم لَا باعْتِبَارِ الجزاءِ عَلَى سُوئِهِمْ، فهُمْ كانُوا في الدّنيا مُنَعَّمِينَ وكانَتِ الدّنيا بالنّسْبَةِ للْكَافِر جنّة فلمَّا ماتُوا عَلَى الكفْر انتَقَلُوا إِلَى أسْوَأَ وأسْوَأَ بكَثِيرٍ، ولا يُنْسَبُ إِلَى حالهم في الدّنْيَا.

قولُه رحمه الله: [﴿السُّوأَى﴾: خبَرُ ﴿كَانَ﴾ عَلَى رَفْعِ (عَاقِبةُ)، واسْمُ كَان عَلَى نَصْبِ ﴿عَاقِبَةَ﴾]، أفَادَنا المُفَسِّر أنَّ في ﴿عَاقِبَةَ﴾ قرَاءَتَيْن: النّصْبُ والرّفْعُ، فعَلى قِراءَةِ الرّفْع نعْرِب ﴿السُّوأَى﴾ اسمَ ﴿كَانَ﴾ و﴿السُّوأَى﴾ خبرُهَا منْصُوب بفَتْحَةٍ مُقَدَّرَةٍ عَلَى الأَلِف منَع مِنْ ظُهورِها التّعَذُّرُ، وعَلى قِراءَةِ النّصْبِ نعْرِبُ ﴿عَاقِبَةَ﴾ خبَرَ ﴿كَانَ﴾ مُقَدَّمًا، و﴿السُّوأَى﴾ اسمُها مؤخَّرٌ، وهَذا أحَدُ الأوْجُه في الأعْرَابِ.

وقِيل إِنَّ ﴿السُّوأَى﴾ مفْعُولٌ مُطْلَق يعْنِي أسَاؤُوا السّيِّئَة السّوأَى، فيَكُونُ مفْعُولًا مُطْلَقًا وَيكُونُ الخبَرُ أَو الاسْم هُو المصْدَرُ المؤَوَّلُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَنْ كَذَّبُوا﴾، أيْ صَار عاقِبَتُهم حِين أسَاؤُوا أنْ كَذَّبُوا؛ لأَنَّ الأعْمَالَ السّيِّئةَ - والعياذُ باللهِ - تجرّ إِلَى السّيئةِ كَما أنَّ الحسَنَاتِ يَجْرُرْن إِلَى الحسَنَاتِ.

ولكِنْ مَا ذَهبَ إِلَيْهِ المُفَسِّر رحمه الله أَوْلى، فنَجْعَلُ السّوأَى إِمَّا خبَرَ ﴿كَانَ﴾ عَلَى قِراءَةِ الرّفْعِ، وإِمَّا اسمَها عَلَى قِراءَةِ النّصْبِ.

قوْلُهُ رحمه الله: [وَالمرَادُ بِها جهَنَّم وَإِسَاءَتَم ﴿أَنْ﴾ أَيْ بِأَنْ ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ القرْآنِ ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾]: بَيَّنَ لنا المُفَسِّر أنَّ العاقِبَةَ أنَّهُم عُذِّبُوا بالنّارِ، وأنَّ المصْدَر في قوْلِه

تَعالَى: ﴿أَنْ كَذَّبُوا﴾ عِلَّة لكَوْنِ عاقِبَتِهم السّوءَ، أيْ لأَنَّهم كذَّبُوا بآياتِنا، لكِنَّ المُفَسِّر أَتى بـ (الباءِ)، والباءُ تكُونُ للسَّبَبِيَّةِ وللتَّعْلِيل، والمعْنَى واحِدٌ، أيْ كانَتْ عاقِبَتُهم السّوأَى لأنَّهم كذَّبُوا بآياتِ الله، هَذا بِالنّسْبَةِ لأخْبَار الآيات كذَّبُوا بِها، وقَالُوا ليْسَتْ بِصَحِيحَةٍ، وبِالنّسْبَةِ للْعَمَل ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾، فجَمَعُوا بيْنَ الاسْتِهْزَاءِ بالأحْكَامِ والتكْذِيبِ بالأخْبَارِ وَهَذا الَّذي ذَهَب إِلَيْهِ في إِعْرَابِ ﴿أَنْ كَذَّبُوا﴾ أحدُ الأوْجُهِ أيْضًا؛ لأَنَّ هناكَ وجهًا آخَرَ يقُولُ: إِنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿أَنْ كَذَّبُوا﴾ بَدل مِنَ السّوأَى، أوْ بَيان لَها، وَيكُونُ المعْنَى أسَاؤُوا السّوأَى، وهُوَ تكذِيبُهم فيَكُون عاقِبَتَهم إِذَن التكذيب والاستهزاءُ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: سواءً قُلْنا أنَّها بدَلٌ أو عطْفُ بَيان مِنَ السّوأَى، أوْ: أنَّها لِلتَّعْلِيلِ في ثُبوتِ السّوأَى لهم فإِنَّهُ يدُلُّ عَلَى أنَّ هَؤُلاءِ كانُوا مُكَذِّبينَ ومُسْتهزِئِينَ مُكَذِّبِينَ بالخبَرِ ومُسْتهزِئينَ بالحكْمِ، يتَّخذُونَ آياتِ الله هُزُوًا في الأحْكامِ وكَذِبًا بالأخْبارِ، فتَجِدُهم مَثَلا في صَلاتِهم عنْدَ البيْتِ يُصَلُّون مُكَاءً وتَصْدِيَة، ويسْخَرُونَ مِن الَّذِين آمَنُوا، ومَا إِلَى ذَلِك فيتَّخِذُونَه هُزُوًا.

قولُه رحمه الله: ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ القرآن]: فِيه نَظَرٌ ظَاهِرٌ؛ لأَنَّ الآية عامَّة، فتَشْمَلُ مَن كذَّبَ بآياتِ الله بالقرآنِ بعْدَ بعْثَةِ الرّسُولِ - ﷺ -، ومَنْ كذَّب بالتّورَاة في زَمَن مُوسَى، وبالإنْجيلِ في زَمن عِيسَى، فالصّوابُ في الآية العُمُوم.

بَل لَوْ قِيلَ: لا يَدْخُل فِيها مَنْ كَذَّب بالقرآنِ لكَانَ لَهُ وجْهٌ، يعْنِي لَوْ قِيلَ: إِنَّ الأمْرَ عَكْسُ مَا قَالَ المُفَسِّر رحمه الله لأَنَّ الله عز وجل قَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ﴾، فالسّياقُ في قومٍ سَبقُوا لَا في قومٍ حَاضِرينَ، فكَوْنُ المُفَسِّر رحمه الله يجْعَلُ الآيات هُنا بمَعْنَى القرآنِ بَعِيدٌ جدًّا، بَلْ إِمَّا أنْ نَجْعَلَها للعُمُوم، وإِمَّا أنْ نجْعَلها للأُمَم السّابِقِينَ، أمَّا أنْ نَخُصَّها بالقرآنِ فهَذا فِيه نَظَرٌ ظَاهِرٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ المرَادُ بالآيات هُنا الآيات الشّرْعِيَّةُ لأنَّها محَلُّ التكذِيبِ، وقَدْ يَكُونُ التكذِيبُ أيْضًا بالآيات الكوْنِيَّةِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾: الاسْتِهزَاءُ يشْمَلُ الاسْتِهزاءَ القوْلِيَّ، والاسْتِهزاءَ الفعليَّ، فالاسْتِهزاءُ القوْلِيُّ أنْ يسْخَر بِها، مثْلَ مَا وَردَ في المنَافِقِينَ، قَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قرّائِنَا هَؤُلاءِ أَرْغَبَ بُطَونًا، وَلَا أَكْذَبَ ألسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ، والاستِهْزاءُ الفعليُّ كأَنْ يحجَّ ساخِرًا، أوْ يفْعَلَ شيْئا مِن العبادَاتِ عَلَى وَجْهِ السّخرِيَةِ والاسْتِهزَاءِ والتّحْقِيرِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدتَانِ الأوْلى والثّانِيَةُ: سُوءُ العاقِبَةِ للمُسيئينَ؛ لأَنَّ عاقِبَةَ هَؤُلاءِ الَّذِين أسَاؤُوا عاقِبَتُهم السّوأَى؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿السُّوأَى﴾، وَهَذا عَلَى رأْيِ المُفَسِّر ظَاهِر؛ لأَنهُ جَعَل ﴿السُّوأَى﴾ هِي خبَرَ ﴿كَانَ﴾ أوِ اسْمَها عَلَى اخْتِلَافِ القرَاءَةِ في ﴿عَاقِبَةُ﴾، ويتَفَرَّعُ عَلَى هَذِهِ الفائِدَةِ أنَّ عاقِبَةَ المحْسِن الحسْنَى لأَنَّ الحكْم يدُورُ مَع علَّتِه، فإِذا كانَتْ عاقِبَةُ المسيئينَ السّوأَى، كَانتْ عاقِبةُ المحسِنينَ الحسْنَى، ويُؤيِّدُ ذَلِك قوْله تَعالَى:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

الفائدة الثالثة: أنَّ الإساءَة هُنا هِي التكذِيبُ بآيَاتِ الله، والاسْتِهزاءُ بِها عَلَى تقْدِيرِ المُفَسِّر، لأَنَّهُ قَال بأنْ كَذَّبُوا، وعَلى

الرّأْيِ الثّاني يكُونُ قوْلُه سبحانه وتعالى: ﴿أَنْ كَذَّبُوا﴾ هِي العاقِبَةُ فيُستَفادُ منْهَا أنَّ عاقِبَةَ المعَاصِي تكُون الكفَّر والتكذيبَ بآيَاتِ الله والاسْتهزَاءَ بِها، لقَوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾، إذا قلْنَا إنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿أَسَاءُوا السُّوأَىٰ﴾ أيْ عَمِلُوا السّيِّئاتِ فكان عاقِبتُهُم التكذِيبَ والاستِهْزاءَ، ويكُونُ معْنَى ذَلِك أنَّ المعَاصِي تكُونُ سبَبًا للْكُفْرِ، وهُو كَذَلِكَ، وقَدْ قَال أهْلُ العلْم: إنَّ المعَاصِيَ بَرِيدُ الكفْرِ.

الفائدة الرابعة: أنَّ الوَحْي الَّذي أنْزَلَهُ الله عَلَى الرّسُلِ مِن آيَاتِه لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وإنَّما كانَ مِن آياتِه لمَا يشْتَمِلُ علَيْه مِنَ الصّدْقِ في الأخْبَارِ والنّفْعِ في القصَصِ والعدْلِ في الأحْكامِ والإصْلاح، فكُلُّ الكتُبِ النّازِلَةِ متضمِّنَة لهذِه الأمورِ: صِدْق في الخبَرِ، نفْعُ القصَصِ، عدْلٌ في الأحْكَامِ، مصْلَحَة للعِبَادِ، فلِهَذا كانَتْ هَذِهِ الكتُبُ مِن آيَاتِ الله؛ لأنَّهُ لا يُمْكِنُ للْبَشَرِ أنْ يضَعُوا مثْلَها.

الفائدة الخامسة: الفرْقُ بيْنَ التكذِيبِ والاستِهْزَاءِ، فالتكذِيبُ ردُّ الخبَرِ، والاستِهْزاءُ السّخرِيَةُ بالأعْمَالِ الظّاهرَةِ أوِ الباطِنَةِ، والاستِهْزَاءُ أشَدُّ؛ لأنَّهُ جامِعٌ بيْنَ التكذِيبِ والسّخرِيَةِ.

الفائدة السادسة: التّحذِيرُ مِنْ أعْمَالِ السّيِّئاتِ حيْثُ كانَتْ هَذه عاقبَتَها، سواء قلْنَا إِنَّ السّوأَى هِي العاقِبَةُ، أوْ أنَّ العاقِبَةَ هِي التكْذيبُ، فإِنَّهُ يتضَمَّنُ التّحذِيرَ مِنَ الأعْمَالِ السّيَئةِ.

الآية (١١)

* قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١].

هَذا لتَأْكِيدِ الإِيمَان بِاليْومِ الآخر، ذَكَّر الله سبحانه وتعالى عبَادَه بأَمْرٍ يعْتَرِفُون بِه، وهُو أنَّه بدَأَ الخلْقَ ولَا أحَدَ يُنْكِرُ ذَلِك، لا أحَدَ يدَّعِي أنَّه خلَقَ نفْسَه، فَكُلُّ إِنْسَانٍ يعْرِف أنَّه مخلُوقٌ مِن عدَمٍ، ومنَ المعْلُومِ أنَّه لو ادَّعى أنَّه خُلِق مِنْ غير خالق فإِنَّ كُلَّ أحدٍ يُكذِّبُه، وإِذَا أقَرَّ بأنَّه لَا بُدَّ مِن خالق فنَقُول لَهُ: مَنْ، عَيِّنهُ لنا؟ وحِينَئِذٍ لَا يستَطِيعُ أن يعيِّنَ، فنَقُولُ: إِنَّ الَّذي خلَقَكَ هُوَ الله.

قوْله تَعالَى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ أيْ يُنْشِئُه أوَّلَ مرَّةٍ، كَما قالَ سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، وتطْوِيرُ الخلْقِ وجعْلُه أطوارًا أمْرٌ معلُومٌ؛ لأَنَّ هَذا هُو مقْتَضَى

الحكْمَةِ، فمُقْتَضى حِكْمَةِ الله تَعالَى أنَّ الأشْيَاءَ تَتَطَوَّرُ شيْئًا فشيْئًا حتَّى تَصِل إِلَى حَدِّ الكمَالِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿ثُمَ﴾ للترتيب بمهلَةٍ؛ لأَنَّ الإعادَةَ لا تكون إلا عنْدَ قِيَامِ السّاعَةِ، فقِيامُ السّاعَة يتأخَّرُ كَثِيرا عَنِ ابْتِدَاءِ الخلْقِ، ﴿يُعِيدُهُ﴾ أيْ يُرْجِعُه مرَّة ثانِيَة، وليْسَ يَبْتَدِئ خلْقًا جديدًا، وَإنما يُعِيدُ المخْلُوقَ الأوَّلَ، فلَيْس إنْشَاءَ خلْقٍ جدِيدٍ، بَلْ إعادَةُ مَا سبَقَ، وفرْق بَيْن الأمْرَيْن؛ لأَنَّنا إذا قُلْنا أنَّه ابْتِدَاءُ خلْقٍ جدِيدٍ فمَعْنى ذَلِكَ أنْ يُعَذِّبَ مَنْ لم يَعْمَل، وأنْ يُنْعِّم مَنْ لم يعْمَل، وأيْضًا فإنَّ كوْنَه يَبْتَدِئ خلقًا جديدًا لا ينكرُه المكذِّبونَ بالبعْثِ؛ لأنَّهم يُقرُّونَ بالابْتِدَاءِ، إنما هُمْ يُنْكِرُون الإعادَةَ، ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، وعَلَى هَذا فالبعْثُ إعَادَةُ وجمْعُ مَا تفرَّقَ، وليْس ابتدَاءَ خلْقٍ جدِيدٍ.

وَإذا قِيلَ: هَذا المتفَرِّقُ صَار رَميمًا، ثمَّ تُرابًا وتَلاشَى، أوْ أنَّ الإنسان أكلَتْه السّباعُ أوْ الحيتَانُ، أَوْ مَا أشْبَهَ ذَلِك.

قُلْنَا: مَهما كَانَ، فاللهُ تَعالَى قادِر عَلَى أنْ يجْمَعَهُ ثمَّ يُعيدَه، وَلهذا قَالَ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ لَا إِلَى غيْرِه، ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فِيها قراءَتَانِ "يُرْجَعُونَ" و﴿تُرْجَعُونَ﴾، فعَلى قراءَةِ التاء تكونُ الجمْلَةُ للخِطَابِ، وعَلى قِراءَةِ اليَاءِ تَكونُ الجمْلَةُ للغَيْبَةِ.

ويُشْكِلُ عَلَى هَذا أنَّه قَال: "يُرْجَعُونَ" مَع أنَّ الخلْق في قوْلِه تَعالَى: ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ مفْرَدٌ، ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، ومقْتَضى السّياقِ أنْ يقُولَ: "ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُ"، لكنَّه قال: "يُرْجَعُونَ".

والجوابُ عَلَى ذَلِكَ: أنَّ (الخلْقَ) مصْدَر بمعْنَى اسْمِ مفْعُولٍ، فمَعْنَى يبْدَأُ الخلْق يعْنِي يبْدَأُ المخْلُوقِينَ، ولكنْ لمَّا كَان مصْدَرًا فإِنَّ المصْدَر لا يُثَنَّى ولَا يُجْمَعُ، قَال ابْنُ مَالك في الألفيَّةِ:

ونَعتُوا بِمَصْدَرٍ كثِيرَا ... فالتزَمُوا الإفْرَادَ وَالتّذْكيرَا وعَلى هَذا فنَقُول: إِنَّ الخلْقَ بمعْنَى المخْلُوقِين، يَعْنِي ثمَّ إِلَى الله يَرْجِعُ هَؤُلاءِ المخلُوقُونَ بَعْدَ الإعادَةِ، وَهَذا الرّدُّ إِلَى الله والإرْجاعُ مِنْ أجْلِ الجزاءِ والحسَابِ، ثمَّ المآلُ إِلَى دَار النّعِيمِ أوْ إِلَى دَارِ الجحِيم.

من فوائد الآية الكريمة

الفائدة الأولى: قدْرَةُ الله سبحانه وتعالى، حيْثُ ابْتَدَأ الخلْقَ.

الفائدة الثانية: ثُبوتُ حُدوثِ العالم، وأنهُ ليْسَ قَدِيمًا لَا أوَّلَ لَه كَما زعَمَتِ الفلاسفَةُ أنَّ الله ابْتَدأَهُ، والمبْتَدَأُ معْنَاه كَان بالأوَّلِ عدمًا.

الفائدة الثالثة: ثُبُوت البعْثِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

الفائدة الرابعة: أنَّ البعْثَ ليْسَ ابْتِداءَ خلْقٍ، ولكنَّه إعادَةٌ، خِلافًا لمَنْ قَال: إِنَّ البعْثَ ابتِدَاءُ خلْق؛ نأخُذُها مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، والضّمِيرُ يعُودُ إِلَى الخلْق المبْتَدَأِ، وقَد سبَق في كلامِنا عَلَى هَذه الآية أنَّه لوْ كانَتِ الإعادَةُ ابتداءَ خلْق جدِيدٍ لكانَ يُعَذَّبُ مَنْ لم يَعْمَلْ، ويُنَعَّمُ مَنْ لم يَعْمَلْ، ولكِنَّ البعْثَ إعادَةٌ لما سَبَقَ.

لَوْ قَالَ قَائِل: هلِ المرَادُ إعادَةُ نفْسِ الأجْسَام أمْ تنْبُتُ نَباتًا جديدًا؟

قُلْنَا: نفْسُ الأعْيَانِ التي تفتَّتت وذَهبَتْ يُعِيدُها الله، فإذَا تحوَّلَ إِلَى تُرابٍ يُعادُ، وَهَذا الجسْمُ المخْلُوقُ هُو نفْسُ الأوَّل، يجْمَعُ الله تَعالَى ما تفَرَّقَ منْهُ ثمَّ يُحْيِيهِ.

الفائدة الخامسة: الاسْتِدلال بالمبْدَأ عَلَى المعَادِ، تُؤْخَذُ مِنْ قوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿يَبْدَأُ﴾، و﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، فإنَّ هَذا استِدْلالٌ بالمبْدَإِ عَلَى المعَادِ، والاسْتِدلال بالمبْدَإِ عَلَى المعَادِ استِدْلَالٌ حقِيقِيّ ومنْطِقِيٌّ ومعقُولٌ، فالمبْدَأُ أشَدُّ وأصْعَبُ، فالقادِرُ عَلَى الابتِدَاءِ قادِر عَلَى الإعادَةِ؛ وَهذا قالَ الله تَعالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]، الكلُّ هيّنٌ لكِنَّ هَذا أهْوَنُ؛ لأَنَّ هَذا إعَادَةٌ.

الفائدة السادسة: أنَّ مرجعَ الخلائِق إِلَى الله عز وجل في الدّنْيا وِفي الآخرةِ، أمَّا في الآخرةِ فيَرْجِعُونَ إِلَى الله ليحْكُم بيْنَهُم بالجزاءِ، وأمَّا في الدّنيا فيَرْجِعُونَ إِلَى الله عز وجل ليحْكُمَ بيْنَهُم بالعمَلِ، ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، هَذا خَبَرٌ، وقالَ ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

فالمُهِمُّ: أنَّ المرْجِعَ إِلَى الله في الدّنْيا والآخرةِ، فالمرْجِعُ إِلَى الله تَعالَى في أُمُورِ دُنْيانا وفِي أُمورِ دِيننا، وَكَذلِكَ في أمْرِ الآخرةِ نُرجَع إِلَى الله ويُجازِينا بِمَا نستَحِقُّ، وإنْ كانَتْ تَعْني الآخرةُ

بالأوْلَويَّةِ فقَطْ؛ لأنَّهَا في سِيَاقِ هَذا، لكِنْ لَا مانِعَ مِنْ أنْ تُحْمَل عَلَى العُمُوم، لا سِيَّما أنَّه ذَكَر ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾.

الفائدة السابعة: أنَّه لا يَجوزُ التّحاكُمُ إِلَى غيرِ الله، تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾، وجهُه الحصْرُ في قوْلِه تَعالَى: ﴿إِلَيْهِ﴾، يعْنِي لَا إِلَى غيرِهِ.

الآية (١٢)

---

* قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢]

قال المُفَسّر رحمه الله: [﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يَسْكُت المشْرِكُونَ لانقطاع حجتهم] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَيَوْمَ﴾: ظرْفٌ متعلّق بقوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿يُبْلِسُ﴾، وهِي مُضافَةٌ إِلَى الجمْلَةِ بعْدَها، والجمْلَةُ بعْدَها ﴿تَقُومُ السَّاعَةُ﴾، فالجمْلَةُ إِذَنْ في محَلِّ جَر بالإضافَةِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾: أيْ تأْتِي، كَما قَالَ الله تَعالَى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، والسّاعةُ المرادُ بِها ساعَةُ البعْثِ، فـ

(أل) فِيها لِلْعَهْدِ الذّهْنِيِّ، يعْنِي السّاعَةَ المعهُودَةَ العظِيمةَ التي فِيها قِيَامُ الخلْقِ مِنْ قُبورِهِم إِلَى الله عز وجل.

قوْله رحمه الله: [﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يسكت]: فالإِبْلاس بمعْنَى السّكوتِ، وقيلَ الإِبْلاس بمَعْنى اليَأسِ؛ لقوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٩] أي لآيِسِينَ، وجمنْه (إِبْلِيسُ)، لأنَّهُ أَيِس مِن رحْمَةِ الله، وعَلى هَذا فيَكُونُ (يُبْلِسُ) بمعْنَى يَيأَسُ، ولا يَبْعُدُ أنْ تَكُونَ الآية جامِعَةً للمَعْنيَيْنِ أيْ يَيْأَسُونَ فيَسْكُتُونَ؛ لأنَّهُ إِذا أَيِس سكَتَ ولَمْ يتكَلَّمْ بشَيْءٍ، إِذ إِنَّ الكلامَ لَا ينْفَعُهُ، وعَلى هَذا فنَقُولُ: إِنَّ مَعْنى (يُبْلِسُ) يَيْأَسُ مَع السّكوتِ.

وقوْله سبحانه وتعالى: ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾: اسْمُ فاعِل مِنْ (أَجْرَمَ)، أيْ فَعَل الجرْمَ، وهُو الذنْبُ العظِيم؛ وَهذا فسَّرها المُفَسِّر بقَوْلِه: (المشْرِكُونَ)، ويُسْتَدَلُّ عَلَى أنَّ المرَادَ بِه المشْرِكُونَ بقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾، فهُمْ يَوْمَ القيامَةِ يَيْأَسُونَ وَيَسْكُتونَ ولَا يجِدُونَ لهُمْ حُجَّة.

الآية (١٣)

* قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الروم: ١٣].

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَلَمْ يَكُنْ﴾ أَيْ لَا يَكُون ﴿لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ﴾ مِمَّنْ أَشْرَكُوهُمْ بِالله وَهُمْ الأصْنَام لِيشْفَعُوا لهمْ ﴿شُفَعَاءُ وَكَانُوا﴾ أَيْ يَكُونُونَ ﴿بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أَيْ مُتَبرئين مِنْهُمْ] اهـ.

قوْله رحمه الله: [﴿وَلَمْ يَكُنْ﴾ أي لا يكون]: فسَّر (لم) بـ (لا)، لأَنَّ (لم) في قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ﴾ للْمَاضِي، فتَقْتَضِي أن يكونَ هَذا الأمْرُ قدْ وَقَع وهُوَ لم يأتِ لأنَّهُ يَوْمَ القيَامَةِ، فَعلَى هَذا يكُونُ الماضِي بمَعْنى المسْتَقْبَلِ، أيْ: ولَمْ يَكُنْ لهم حِينَئِذٍ، وعِنْدِي أنَّه لَا حاجَةَ إِلَى هَذا التّأويلِ، أيْ لَا حاجَةَ إِلَى أنْ نَجْعَلَ (لم) بمعْنَى (لا)، لأَنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ﴾ مقيَّدَةٌ بِكلِمَةِ (يُبْلِس)، يعْنِي ولَمْ يكُنْ لهم في حالِ الإِبْلاس، وحَالُ الإِبْلاس يكُونُ يوْمَ القيامَةِ، لكِنَّ المُفَسِّر أخَذ الآية عَلَى

أنَّها مُطْلَقَةٌ بدُونِ أنْ تُقَيَّدَ بقَوْلِهِ: (يُبْلِسُ)، وعَلى هَذا لا بُدَّ أنْ نَقُولَ: إنَّ (لم) بمَعْنَى (لا).

قوْله سبحانه وتعالى: ﴿شُفَعَاءُ﴾ اسْمُ ﴿يَكُنْ﴾، ﴿مِّن شُرَكَائِهِمْ﴾ خبرُها مقَدَّمٌ، و﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ جمْعُ شَريكٍ، وهُو بمَعْنى اسْمِ مفْعُولٍ، مثلُ قَتِيل بمَعْنى مقْتُول، أيْ مشْرُوك بِه، والمعْنى مَن جَعلُوهم شُركَاءَ مَع الله كَما قَال المُفَسِّر رحمه الله: [أَيْ مَنْ أَشْرَكُوهُمْ بِاللهِ]، فصَارَتِ الإضافَةُ هُنا مِنْ بَابِ إِضافَةِ الشّيْءِ إِلَى مفْعُولِهِ، أي الَّذِين جَعلُوهُمْ شُركَاءَ لَهُمْ.

وقوْله تَعالَى: ﴿شُفَعَاءُ﴾ جَمْعُ (شَفيع) بمعْنَى شَافِع، وَالشّافِعُ هُو مَن يتوسَّطُ للغَيْرِ إمَّا لجَلْبِ منفَعَةٍ، وإمَّا لدَفْع مضَرَّةٍ، وسُمِّي شافِعًا لأنك بِه كُنْتَ شِفْعًا بعْدَما كنْتَ قبْلَه منْفَرِدًا، وَهذا سُمِّي الشّفِيع شافِعًا لهذا الوَجْهِ، أما الشّفاعةُ لجلْبِ المنْفَعة فَكأَنْ يَكُونَ فَقِيرًا فيتوسَّطُ لَه عنْدَ الملِكِ ليُعْطِيَه مالًا. وأمَّا دفْعُ المضَرَّة فكَأَنْ يتوسَّطَ لَهُ ليُخْرِجَهُ مِن السّجْنِ، ومثاله أيْضًا في الشّرْعِ شفاعَةُ النّبيِّ عليه الصلاة والسلام في أهْلِ النّارِ أنْ لَا يدْخُلوهَا، فهَذِهِ شفاعَة لدَفْعِ مضَرَّةٍ، وشفاعَتُه لأهْلِ الجنَّة أنْ يدْخلُوهَا جلْبٌ لمنْفَعَةٍ، فهَؤُلاءِ لم يَكُنْ لهم مِنْ شُركائِهم شُفَعَاءُ.

قولُه رحمه الله: [﴿وَكَانُوا﴾ أي يكونونٍ]: مثْلُ مَا قَال في: ﴿وَلَمْ يَكُنْ﴾.

قولُه رحمه الله: ﴿بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي متبرِّئينَ منهم]: نَعَمْ، في يوْمِ القيَامَةِ هَؤُلاءِ الشّركَاءُ الَّذِين كانُوا يَرْجُونَ منْفَعَتَهُم في يوْمِ القيامَةِ يَكْفُرونَ بِهم ويتبَرَّؤُونَ منْهُم، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٧]، فهُمْ يكْفُرونَ بِهم يوْمَ القيامَةِ لَا هَؤُلاءِ ولَا هَؤُلاءِ المعبُودُونَ يكْفُرونَ والعابِدُون أيضًا يكْفُرونُ، كُل منْهُم يكْفُرُ بِبَعْضٍ - والعياذُ باللهِ -، بيْنَما كانُوا في الدّنيا يَرْجُونَ شفَاعَتَهُم وخيْرَهُم، قَال سبحانه وتعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] لكِنَّهُم في يَوْمِ القيَامَةِ - والعياذُ باللهِ - يتبرَّأُ بعضُهُمْ مِن بعضٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: قِيامُ السّاعَة وأَنَّه كائِن لَا محالَةَ؛ لقوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾.

الفائدة الثانية: أنَّ أهْلَ الشّرْكِ إذا قامَتِ القيَامَةُ سكَتُوا وأَيِسُوا مِن الرّحْمَةِ؛ لقوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ بخِلَافِهم في الدّنْيا، فإِنَّهم في الدّنيا يُعانِدُونَ ويسْتَعْلُونَ بآلهتِهم كَما قَال

أبو سُفْيانَ: أُعْلُ هُبَل، ولكِنْ في الآخرةِ لَا حِراكَ لهمْ ولَا قولَ، ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

الفائدة الثالثة: أنَّ هَذِهِ المعبُوداتِ لا تنْفَعُ أصحَابَها في أَحْوَجِ ما يَكُونُونَ إليْها، وجْهُ ذَلِك من الآية ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾، فذَلِك اليَوْم هُو محَلُّ الشّفاعَةِ لكِنَّهُم لَا يسْتَفِيدُونَ مِن هَذِهِ الأصْنَامِ، بَلْ أكْثَرُ مِن هَذا أنَّهُم يَكْفُرون بِهَذا، ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾، يكْفُرون بِهم كَما أنَّ الأصْنَامَ تَكْفُر بِهم أيضًا، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] فيتبَرَّأُ كُلّ مِن الآخر مَع أنَّ ذَلِك هُو محَلُّ الأزْمَةِ ومحلُّ الفرَج.

الفائدة الرابعة: الإِشارة إِلَى أنَّ هَؤُلاءِ المشْرِكينَ إِنَّما أشْركُوا لطلَبِ أنْ يكُونَ هَؤُلاءِ المشْرَك بِهِم شُفعاءَ، وَهَذا ما صرَّح الله بِه في قوْلِه تَعالَى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، فإِذا قَال هَؤُلاءِ الَّذِين يعْبُدونَ القبورَ: نَحْن مَا نعْبُدهُمْ لأننا نرْجو منْهُم نفعًا مباشِرًا لكِن نعْبُدهم ليَشْفَعُوا لنَا إِلَى الله.

قُلْنَا: هَذا شِرْكُ الأوَّلين، وَهَذا مَا حَكاهُ الله عَن المشْرِكِينَ أنَّهم لَا يريدُونَ النّفْع المبَاشِرَ لكنَّهُم يُريدُونَ أنْ تَكُونَ شفِيعَةً لهمْ عِنْدَ الله عز وجل.

الآيتان (١٤، ١٥)

---

* قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٣ - ١٥].

* قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ﴾ تَأْكِيد ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ المؤْمِنُونَ والكافرون، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ جَنَّة ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يَسُرُّونَ، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ القرْآن ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ البعث وغيره ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾] اهـ.

نقُولُ فِيها كَما قُلْنا فِيما سبَقَ أَنَّ المرَادَ بالسّاعَةِ ساعَةُ البعْثِ المعْهُودَةِ المعْلُومَةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾: مُتَعَلَّقُ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يعْنَي أنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تأكيدٌ للأُوْلَى، والدّليلُ عَلَى أنَّها تأكِيدٌ أنَّها لَوْ حُذِفَتْ وقِيلَ: (وَيوْم تَقُومُ السّاعَةُ يتفَرَّقُون) اسْتَقامَ الكلامُ لكِنْ يفُوتُ التّوْكِيدُ الَّذي أرادَهُ الله عز وجل، يعْنِي في ذَلِك اليَوْمِ بالتّأكِيدِ.

والتّنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ - وفي كُلِّ موارِدِها - عِوَضٌ عنْ جُمْلَةٍ، أيْ (يوْمَ إِذْ تَقُومُ السّاعَةُ) وَكَذلِكَ يُقَالُ في (حينَئِذٍ) و(وقتِئذٍ)، التّنوينُ فِيها عِوَضٌ عنْ جُمْلَةٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾: الضّميرُ يعُودُ عَلَى الخلْقِ فيشْمَلُ المؤْمِنَ والكافِرَ حَتَّى لَو كانُوا أقَارِبَ لوْ كَان أبٌ مسْلِمٌ وابْنٌ كافِرٌ أوْ بالعكْسِ تفَرَّقُوا لأنَّهَا دارُ الجزاءِ وكلٌّ يُجْزَى بعمَلِه.

قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا﴾: حرْفُ شَرْطٍ وتفْصِيلٍ؛ ولذَلِك يُؤْتَى بِها دَائِمًا في مَواضِعِ التَّفْصيل، كَما في قوْلِه تَعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ [الليل: ٥]، ثمَّ قالَ في ضِدِّه: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ [الليل: ٨]، وهِي أيْضًا حرْفُ شرْطٍ، ولذَلِك تَحْتاجُ إِلَى جَوابٍ، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ [الليل: ٥ - ٧] وهنَا قالَ تعالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ فتكُونُ إِذَنْ حرْفَ شرْطٍ وتفْصيلٍ، وهِي أيْضًا متضَمِّنَة لمعْنَى التّوكِيدِ، فإِنَّها تُؤكِّدُ لأَنَّ قولَك: (أَمَّا مَن فَعلَ كَذا فَلَهُ كذا) أقْوَى مِنْ قَولِكَ: (مَن فعَلَ كذا فلَهُ كَذا)، فهيَ عَلَى هَذا تفِيدُ الشّرْطِيَّةَ وَالتَّفْصيل والتّوكِيدَ، وهُوَ تقْوِيةُ الكلامِ، وأيْضًا تُفيدُ حصْرَ التّفرُّق عَلَى هذَيْنِ الفريقَيْنِ.

قوْله تَعالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مبْتَدأ، والخبَرُ ﴿فَهُمْ﴾ مِنْ جُملة ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾.

وقوْله تَعالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعْنِي جَمَعُوا بيْنَ الإِيمَان وَالعمَلِ، واعْلَمْ أنَّ الإِيمَان إِذا أُفْرِد شَمِلَ العمَل كَما أنَّ عمَلَ الصّالحاتِ إِذا أُفْرِد يشْمَلُ الإِيمَان، فَإِذا قُرِن أحَدُهما بالآخر صَار الإِيمَان يعْني الأعمالَ الباطِنَةَ، وعَملُ الصّالحاتِ للأَعْمالِ الظّاهِرة أيْ عَمل الجوارِحِ، والإِيمَان يَشْمَلُ الإِيمَان باللهِ وملائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ والَيْومِ الآخر والقدَرِ خيْرِه وشَرِّه، هكَذا فسَّرهُ النّبيُّ - ﷺ - لجبْرِيلَ حينَ سأله مَا الإِيمَان؟ قَال: "أنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلاِئكَتِهِ وَكتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخر وَتُؤْمنَ بِالقدَرِ حَير وَشَرَهِ".

قوْله تَعالَى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: ﴿عَمِلُوا﴾ تشمَلُ الفعْلَ والقوْلَ، والعمَلُ الصّالح يشْمَل قوْلَ اللَّسانِ وعمَلَ الجوارِحِ، والعمَلُ الصّالح هُو ما جَمعَ بَيْنَ أمْرَينِ: - الإِخْلاص للهِ عز وجل.

- والمتَابَعَة لرَسُولِهِ - ﷺ -.

فقولُه تَعالَى: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مِن هَذيْن الأمْرَيْنِ إيمانٌ وعمَلٌ، ومجردُ الإيمَان لا ينْفَعُ بدُونِ عمَلٍ، وَالعمَلُ بدُونِ إيمانٍ أيْضًا لا ينْفَعُ، بلْ لا بُدَّ مِن إيمانٍ وعمَلٍ، وَبِهذَا نعْرِفُ أنَّ بعْضَ النّصوصِ المطْلَقَةِ التي فيها الوَعْدُ بالجنَّةِ لمنْ كَانَ في قلْبِهِ أدْنَى حَبَّةِ خرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ ومَا أشْبَهَ ذَلِك أنَّ المرادَ الإيمَان المتضمِّنُ للعَملِ تحقِيقًا أو تقْديرًا، تحقِيقًا بأنْ يكُونَ عامِلًا فعْلًا، وتقْدِيرًا بأنْ يكُونَ لم يتمَكَّنْ مِن العمَلِ، ولكِن مَعه الإيمَان، كَما لَوْ آمَن عنْدَ قُرب وفَاتِهِ مثْل الأصَيْرِم مِن بَنِي عبْدِ الأشْهَل قصَّتُه معروفَةٌ في أُحُدٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾: جمْلَة اسْميَّةٌ، للدّلالَةِ عَلَى الثّبوتِ والاسْتِمرارِ ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾ يقول المُفَسّر رحمه الله: [جنَّة] وهِي كذَلِك، فالرّوْضَةُ عبَارَة عَنِ البساتِينِ المشْتَمِلَةِ عَلَى الأزْهارِ وَالأشْجارِ وَالرّوائِح الطّيبَةِ وَالمنَاظِرِ البهِيجَةِ؛ وَلهذا قَالَ

رحمه الله: ﴿يُحْبَرُونَ﴾: أيْ يُسَرُّون]، وقِيلَ: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يُنَعَّمُون، وهُمَا متَلازِمَانِ؛ لأَنَّ النّعِيمَ يحْصُلُ بِه السّرورُ، هَؤُلاءِ الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ في رَوْضَةٍ يحبَرُون.

قوْله سبحانه وتعالى: ﴿يُحْبَرُونَ﴾: الماضِي منْهُ (حُبِرَ)، وهُوَ فِعْلٌ مضَارعٌ مبْنِيٌّ للمَجْهُولِ والماضِي منْهُ إِذا كَان فِيه الفاعِلُ الظّاهِرُ بالكسْرِ (حَبِرَ)، فتكُونُ مثْلَ (فَرِح يَفْرَح، حَبِرَ يَحْبَرُ).

الآية (١٦)

---

* قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٦].

قال المُفَسِّر رحمه الله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ القرْآن ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ البعث وغيره ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾] اهـ.

في هذه الآيَة بَيان للْقِسْمِ الثّانِي، وَهُمُ الَّذِين كفَرُوا بتَرْك العمل الصّالح، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فلَمْ يُؤْمِنُوا.

وقولُه رحمه الله: [﴿بِآيَاتِنَا﴾ القرْآن]، غيرُ صحِيحٍ، بَل قطْعًا يشْمَلُ القرآنَ وغَيْرَ القرآنِ؛ لأَنَّ الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحاتِ والَّذِين كَفَرُوا وكذَّبُوا بِآياتِ الله ولقَائِهِ هَؤُلاءِ يَكُونُونَ في هَذِهِ الأمَّةِ وَيكُونُونَ في غيْرِها.

وقوْلهُ رحمه الله: ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ البعْثِ وغَيْرِه]، البعْثُ الإخراج مِنَ القبورِ وغَيْرُه مِن الحسَابِ والجزاءِ وَالجنَّةِ والنّار، فيُكَذِّبُونَ بِها فتقُولونَ لَا تُوجدُ جَنَّةٌ ولا نَارٌ ولا حِسابٌ ولَا عَذابٌ، والعجِيبُ أنَّ هَذا القوْلَ الباطِلَ الفاسِدَ نَحا إِلَيْهِ مَنْ يُسمُّونَ أنفسَهُم بِالحكمَاءِ وهُمُ الفلاسِفة، يقولون أنه لا توجَد جنة ولا نَارٌ ولا بَعْثٌ، ولكِنّ الرّسلَ قَالوا لِلنَّاسِ هَذا مِن أجْل إقامَتِهم عَلَى الطّريق التي اختَرعُوها لهم، وَيزْعُمونَ - وَالعياذُ بِاللهِ - أنَّ الرّسُلَ رجَالٌ عبَاقِرَةٌ عنْدَهُم ذكَاءٌ وحُسْنُ سِيرةٍ وتنْظِيمٌ، لكِنَّهم لَو قَالُوا لِلنَّاس: افْعَلُوا كَذا أوْ لَا تفْعَلُوا كَذا بدُونِ ترْهِيبٍ ولَا ترْغِيبٍ مَا أطَاعَهُم النّاسُ، فكَانُوا يقُولونَ لِلنَّاسِ: إِنَّ لكُم ربًّا عظِيمًا وإلهًا قادِرًا، وإِنَّ لكُم معادًا يَكُونُ فِيه الجنَّة أوِ النَّارُ، والأمْرُ ليْسَ كَذَلِكَ عنْدَهُم، يعْنِي إِنَّما ذَكَرُوا ذَلِك مِنْ أجْلِ إِقَامَةِ النّاسِ عَلَى الطّريقِ التي سَنُّوها لهم، وَهَذا معْنَاهُ الكفْر

بالبعْثِ وَبِالرّسالَةِ وحتَّى بأنفُسِهم؛ لأَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ باللهِ عز وجل فقَدْ كَفَر أوَّلَ مَا كَفَر بنَفْسِه؛ لأنهُ أنْكَرُ أنْ يكُونَ لَه خالقٌ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾: أعُوذُ باللهِ، المرَادُ بِالعذَابِ هُنَا العقوبَةُ، وجَعل العذابَ ظرْفًا لهم لأنَّهُ محِيطٌ بِهِمْ مِن كُلِّ جانِبٍ، كَما قَالَ الله تَعالَى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وقوْله تَعالَى: ﴿مُحْضَرُونَ﴾ مِن الإحْضَارِ أحْضَرْتُه، بمَعْنى: جعَلْتُه يَحْضُر هَذا الشّيْءَ، فهَؤُلاءِ محُضرُونَ في العذابِ بدُونِ اخْتِيارِهِمْ، لَوْ رَجع الأمْرُ إِلَى أنْفُسِهم مَا حَضَرُوا، لكِنَّهم يُحْضَرونَ فِيه كَرْهًا.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: إثْبَات القيَامَةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾.

الفائدة الثانية: أنَّه في ذَلِك اليَومِ يتفَرَّقُ النّاسُ إِلَى فَريقَيْنِ: فَريقٌ في الجنَّةِ، وفَريقٌ في السّعِيرِ.

الفائدة الثالثة: أنَّ الآباءَ مَع أوْلادِهِم والأمَّهاتِ مَع أوْلَادِهم إذا كانَ أحَدُهم كافِرًا والثّاني مُؤْمِنًا يتفرَّقونَ، ولَا يُمْكِنُ أنْ يُنْقِذَ أحَدٌ أحدًا في ذَلِك اليَوْمِ لِعُمُوم قوْله تَعالَى: ﴿يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ولم يَسْتَثْنِ الأوْلادَ مَع والدِيهم أوْ بالعكْس فَفي ذَلِكَ اليَومِ لَا يُوجَدُ اجتِماعٌ إلا إذا كَانُوا عَلَى الحقِّ، وَهَذا لا يَشْمَلُ المؤْمِنينَ؛ لأَنَّ المؤْمِنينَ تَفرُّقُهم إلَى جِهَةٍ واحِدَةٍ، وَهذا قَال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فجَعلَهُم قِسْمَيْنِ: إمَّا في منَازِلِهم في الجنَّةِ، كُلٌّ في منْزِلَتِه لكِنْ في عَرُصاتِ القيَامَةِ يَكُونُ فَرِيقُ المؤْمِنينَ جَمِيعًا، وفَرِيقُ الكفَّارِ جَمِيعًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل كُلُّ إنْسَانٍ مستقِلٌّ بنفْسِه حتَّى ولَوْ كانَ مُؤْمِنًا؟

قُلْنَا: هَذا لَيْسَ بظَاهِرٍ؛ لأَنَّ قوْلَه سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وقولَه: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يقْتَضِي أنَّ المقْصُودَ تفرَّقُ الجِنْس ينْقَسِمُونَ مثْلَ مَا قَالَ الله تَعالَى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

الفائدة الرابعة: إثْبَات الجزَاءِ، لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾، وقوْلِه تَعالَى: ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

الفائِدتَانِ الخامِسَةُ والسّادِسَةُ: فضِيلَةُ الإِيمَان والعمَلِ الصّالح؛ حيْثُ كانَ جَزاؤُه مَا ذَكر والتّحْذِيرُ مِنَ الكفْر، حيْثُ كَان جَزاؤُه مَا ذَكر أيْضًا.

الفائدة السابعة: أنَّ الإِيمَان والعمل يتَّفِقانِ إِذا افْتَرقَا ويَخْتلِفانِ إِذا اجتْمَعا، فعَلى هَذا يكُونُ كُلٌّ منْهُما بمَعْنَى الآخر عنْدَ الانْفِرادِ، ويخْتَلِفُ كلٌّ منْهُما عَنِ الآخر عنْدَ الاجْتِماعِ.

الفائِدتَانِ الثّامِنةُ والتّاسِعةُ: أنَّ العمَل لا ينْفَعُ إلا إِذا كَان صَالحًا، لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وحيْثُ إِنَّنا فسَّرْنا الصّالح بأنَّه مَا اجْتَمع فِيه الإِخْلاص والمتابَعَةُ يُسْتَفادُ مِنْهُ أنَّ العمَل الَّذي فِيه الشِّرْكُ لَا ينْفَعُ صاحِبَهُ، وَهَذا واضِحٌ، وفي الصّحيحِ مِن حَدِيثِ أَبي هُريْرَةَ - رضي الله عنه - عَنِ النّبيِّ عليه الصلاة والسلام أنَّ الله قَال: "مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُه وَشِرْكَهُ"، وهَل هَذا يشْمَلُ الشّركَ في الصّفَةِ، وفِي أصْل العمَلِ، أوْ نَقُولُ: إِذا كَانَ أصْلُ العمَلِ لَا شِرْكَ فِيه والصّفَةُ فِيها شِرْكٌ قُبِل أصْلُ العمَل دُونَ صِفَتِه، مثَلًا رجَلٌ أرَادَ أنْ يُصلِّي الرّاتِبةَ لكِنَّهُ أحَسنَها وأتْقَنَها واطمَأَنَّ فِيها رياءً، فإِنَّ هَذا لا ينْفَعُه، فَمَنْ ذَكَر الله: يُسَبِّحُ مرَّةً واحِدَةً، ولكنَّه من باب الرّياءِ

يُسَبِّحُ ثلاثًا، فَتسبِيحُه الثّلاثُ لَا ينْفَعُه، لكِنْ لا نقُولُ أنَّه يحْبَطُ عَمَلُه، بَل يأْثَمُ عَلَى ذَلِك؛ لقوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فالشرك مِن خصائِصه ولَوْ كانَ أصْغَر ألا يُغفَر إلا بتَوْبَةٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَل يُفرَّقُ بيْنَ الاسْتمرارِ عَلَى الشرْك الأصْغَرِ وعَدمِ الاسْتمرارِ؟

قُلْنَا: لا يُفرَّق بَيْنَهُما، مَا دامَ أنَّه لَا يصِلُ إِلَى حدِّ الأكبْرَ فهُوَ أصْغَرُ، لكِنْ يُفَرَّقُ بيْنَهم مِن جِهَةِ الإصْرارِ علَيْه، فيَكُون أعْظَم مِن فِعْلِه من ثمَّ ترْكِه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الرّياءُ إِذا طرَأَ في أثْنَاءِ العبادَةِ، هلْ يَكُون مُبْطِلًا للعِبادَةِ؟

قُلْنَا: الرّياءُ إِذا طَرأَ في أثْناءِ العبادَةِ فإِنْ كافَحَه ودَافَعه مَا ضَرَّه، وإِنِ اسْتَرْسَل معَه واطمأَنَّ إِلَيْهِ فإِنَّهُ يضُرُّه، أمَّا هَل يكُونُ مُبْطِلًا للعِبادَةِ أوْ غيْرَ مُبْطِلٍ فإِنْ كانَتِ العبادَةُ تتَجَزَّأُ، كَما لَو أرَادَ أنْ يتَصدَّقَ بصَاعَيْنِ فأخْرَج صاعًا بدُونِ رِياءٍ، ثمَّ أخْرَج الثّانِي بِرِيَاءٍ فإِنَّ البطْلانَ يخْتَصُّ بِما حصَل بِه الرّياءُ فقَطْ، يعْني الأوَّلُ يكُونُ صحِيحًا، وَإِنْ كانَتِ العبادةُ لا تتجَزَّأُ - كَما في الصّلاةِ -

فإِنَّ مِن أهْلِ العلْمِ مَن يَرى أنَّ الصّلاةَ تبْطُل لأَنَّ الرّياءَ طَرَأَ عليْهَا وهِي لا تتَجَزَّأُ، فَلا يُمْكِنُ أنْ يَصِحَّ أوَّلهُا دُونَ آخِرِها ومنْهُم مَن يقُولُ: لَا تَبْطُل لأَنَّ أصْلَ هَذا العمَلِ خَالصٌ للهِ عز وجل، فَلا يُبْطِلُه الرّياءُ.

الفائدة العاشرة: أنَّ الجنَّة روْضَةٌ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾، ويُرْوَى أنَّ إبْرَاهِيمَ عليه الصلاة والسلام قَال لِلنَّبيِّ - ﷺ - ليْلَة عُرِج بِه: "أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السّلَامَ، وَأَخْبِرهُمْ أنَّ الجنّةَ قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَها: سُبْحَانَ الله، وَالحمْدُ لله، وَلَا إله إلا الله، وَاللهُ أَكْبَرُ".

الفائدة الحادية عشرة: أنَّ هَذِهِ الجنّةَ مملُوءَةٌ بالسّرورِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾؛ لأَنَّ الحبورَ معْنَاه التّنَعُّمُ والسّرور الَّذي لا شيْءَ فوْقَهُ.

الفائدة الثانية عشرة: أنَّ الكفْر أعَمُّ مِن التكذِيبِ؛ لأَنَّ العطْفَ يقْتَضِي المغايَرَةَ، كَفَرُوا وكَذَّبُوا لأَنَّ الكفْر ينْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: إمَّا جحْدٌ وإِمَّا اسْتِكْبَارٌ، وَهذا كَان أعَمَّ مِنَ التكْذِيبِ.

الفائدة الثالثة عشرة: أنَّ الكتُبَ المنَزَّلَةَ مِن آياتِ الله، وسبَقَ قبْلَ قلِيلٍ وجْهُ كونِها مِنْ آيَاتِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

الفائدة الرابعة عشرة: إثْبَات البعْثِ، وأنَّ مُنْكِرَه كافِرٌ؛ لقوْ لِه تَعالَى: ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾، هَذا اللِّقاءُ العظِيمُ الَّذي يتَلاقَى فِيه كُلُّ المخْلُوقاتِ، ويُلاقُونَ الله تَعالَى.

الفائدة الخامسة عشرة: أنَّ هَؤُلاءِ المكذِّبِينَ الكافِرينَ يُحْضَرونَ إِلَى العذَابِ قصْرًا وقهْرًا؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، وهُوَ كقوْلِه تَعالَى:

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] يعْنِي يُدْفَعُونَ بعُنْفٍ وشِدَّةٍ - والعياذُ باللهِ -، ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤] ومعْلُومٌ أنَّهم لوْ رجَعَ الأمْرُ لاخْتِيارِهِم لَا يدْخُلونَ، لكنَّهم يُدْفَعُونَ بعُنْفٍ وشِدَّةٍ حتَّى يدْخُلُوها.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الصّحِيحُ فيمَنْ تُوفِّي قبْلَ البلُوغِ؟

قُلْنَا: الصّحِيحُ فيمَنْ تُوفِّي دُونَ البلوغِ ومَنْ لَمْ تبلُغْه الدّعوَةُ أيْضًا، إنْ كانَ مَن تُوفِّي قبْلَ البلوغ مِن أوْلادِ المؤْمِنينَ فهُو مؤْمِن مطلقا؛ تبعًا لأبوَيْه أوْ للمُؤْمِن منْهُما، ولَا يُشْهَدُ لهم بالجنَّةِ كَما لَا يُشْهَد لآبائِهم، لكِنْ يُشْهَد بالعُمُوم والجِنْس، فنَشْهَدُ لكلِّ مُؤمِنٍ بأنَّه في الجنَّةِ، وأَمَّا التعيينُ فيَحْتَاجُ إِلَى نَصٍّ، وأمَّا مَن تُوفِّي وهُو لَمْ يُميِّزْ، يعْنِي قبْلَ البلُوغِ، وهُو مِن الكفَّارِ فالمنَاطُ

التّمْييزُ لَا البلوغُ، فإنَّ أصَحَّ الأقْوالِ فِيه أنَّه يُمْتَحَنُ يومَ القيامَةِ بِما يشَاءُ الله عز وجل، ثمَّ تَكونُ النّتيجَةُ إمَّا إلَى الجنَّةِ وإمَّا إلَى النّارِ، والامْتِحانُ ورَد فِيه آثَارٌ: أحادِيثُ ضعيفَةٌ وآثَارٌ عنِ الصّحابَةِ.

وقَدْ وَرَد حدِيثَانِ في أوْلادِ المشْرِكينَ، قَال - ﷺ -: "هُمْ مِنْهُمْ"، وقال: "الله أعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ"، أما قولُه: "هُمْ مِنْهُمْ" فالمرادُ بِه أحكامُ الدّنْيا، فوَلَدُ المشْرِكِ الَّذي أبواهُ كافِرَانِ يُحْكَمُ بأنه كافِرٌ فَلا يُغَسَّلُ، ولَا يُكَفَّنُ، ولَا يُصَلَّى علَيْهِ، ولَا يُدْفَنُ مِع المسْلِمينَ، ولكِنْ في الآخرةِ يكونُ الجوَابُ الثّاني، حِينَ قالَ الرّسولُ - ﷺ - لِعَائِشَةَ: "الله أعْلَمُ بِما كَانُوا عَامِلِينَ".

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لو امتُحِنَ لآمَنَ؛ لأَنَّ الله هُو المُمْتَحِنُ، وكُلُّ شَيْءٍ مِن أهْوالِ القيَامَةِ أمَامَه؟

فالجوابُ: أنَّ الله عز وجل يقُولُ: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، فالآيات التي جاءَتْ بِها الرّسلُ واضِحَةٌ، ومَعَ ذَلِك كفَرُوا وأيْضًا قدْ لَا يُمْتَحن بأنْ يُقالَ لَهُ: هَل تُصدِّقُ بِهَذا اليْومِ أوْ لَا؟ وقَدْ يُمْتَحَن في أُمورٍ أُخْرَى؛ وَهذا قُلنَا:

الله أعْلَمُ فِيما يمتَحِنُه بِه، قَدْ يمتَحِنُه بأمْرٍ يُمْكِنُ أنْ يَقع فِيه اشْتِبَاهٌ.

الآيتان (١٧، ١٨)

* قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أَيْ سَبِّحُوا الله بِمَعْنَى صَلُّوا ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أَيْ تَدْخُلُونَ في المسَاء وَفِيهِ صَلَاتَانِ المغْرِب وَالعشَاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ تَدْخُلُونَ في الصّبَاح وَفِيهِ صَلَاة الصّبْح، ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اعْتِرَاض وَمَعْنَاهُ يَحْمَدهُ أَهْلهمَا ﴿وَعَشِيًّا﴾ عَطْف عَلَى حِين وَفِيهِ صَلَاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ تَدْخُلُونَ في الظّهِيرَة وَفِيهِ صَلَاة الظّهْر] اهـ.

قوله رحمه الله: [﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أيْ سَبِّحُوا الله]، (سبحان) منصُوبَةٌ عَلَى المفْعُولِيَّةِ المطْلَقَةِ، وعامِلُها محذُوفٌ، والمُفَسِّر

رحمه الله جَعلَ المفْعُولَ المطْلَق بمَعْنى فِعل الأمْر، لَا عَلَى أنَّ عامِلَه محذُوفٌ بَلْ جعَلَه نائبًا عَن فِعلِه.

وتَسْبِيحُ الله سبحانه وتعالى معْنَاه تنْزِيههُ عمَّا لا يَلِيقُ بِه، والتّنزيهُ يتضمَّنُ أمْرَيْن:

أحدُهما: تَنزيهُ الله عَنْ كُلِّ نَقْصٍ في صِفات كمَاله.

وثَانِيهما: تَنْزيهُ الله عَنْ مُشابَهَةِ المخْلُوقِين.

أمَّا الأوَّلُ: فإنَّنا نَرى كَثيرًا مَا يَذْكُر الله عز وجل أنَّه لا يَتْعَبُ ولَا يظْلِمُ ولَا يَغْفُل ومَا أشْبَه ذَلِك، لِكمَالِ صِفاتِه.

وأمَّا مشابَهةُ المخلُوقِين: فقَدْ قَال الله تَعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وتَنْزيهُ الله عَنْ مُشابَهَةِ المخْلُوقِينَ هُو في الحقِيقَةِ تنْزِيهٌ لهُ عَنِ النّقْص؛ لأَنَّ المخلُوقَ ناقِصٌ، وتشْبِيهُ الكامِل بالنّاقِص يجْعَلُه ناقِصًا، بِل إنَّ المقَارنَةَ بينَهما تحُطُّ مِن رُتبة الكامِل، كَما قِيلَ:

ألم تَرَ أنَّ السّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ ... إِذَا قِيلَ إِنَّ السّيْفَ أَمْضَى مِنَ العصَا

قوْله رحمه الله: [سبحوا الله بمعنى صلوا]: أفادَنا المُفَسِّر بهذَا أنَّ المرادَ بتَسْبِيحِ الله تَعالَى هنَا تَسبِيح خاصٌّ وهُوَ الصّلاة، فلَمْ يجْعل التّسبيحَ عامًّا يشْمَلُ الصّلاةَ وغيْرَها، لتَقْييدِه بهَذِه الأوقاتِ، فإِنَّ تقْييدَه بهَذِه الأوْقَاتِ يدُلُّ عَلَى أنَّ المرَادَ الصّلاةُ وأُطْلِق عَلَى الصّلاةِ تَسْبِيح لأَنَّ التّسبِيحَ مِن واجِباتِها كَما قَال الله تَعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾ [الواقعة: ٧٤] قَالَ النّبيُّ - ﷺ -: "اجْعَلُوها في رُكوعِكُمْ"، و﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى: ١] قَالَ: "اجْعَلُوهَا في سُجُودِكمْ"، وعَلى هَذا فتكُونُ الصّلاةُ هِي المرَادُ بالتّسبِيحِ، وَيدُلُّ عَلَى التّخِصيصِ تقْييدُها بأوْقَاتِ الصّلاةِ، وأيضا التّسبيحُ المطْلَقُ خصّهُ الله بوَقْتَيْنِ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، وَلمَّا جعَل هَذا خمْسَةَ أوْقَاتٍ عُلِم مِنْ قَرينَةِ التّقْسِيمِ في الوَقْتِ أنَّ المرادَ بِذَلِكَ الصّلواتُ الخمْسُ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ مبْتَدأٌ وخَبرٌ، والخبَرُ مُقدَّمٌ لإِفادَةِ الحصْرِ، فَلَهُ وحْدَه الحمْدُ، وحَمْدُ الله تَعالَى يختَصُّ بأنَّه حمْدٌ يستَحِقُّه المحمودُ؛ وَلهذا نقُولُ: إِنَّ (اللامَ)

هُنا للاستِحْقاقِ والاخْتِصَاصِ، وقولُه (أَل) في (الحمْد) للعُمُوم، يعْنِي جميعُ المحامِدِ لله سبحانه وتعالى في السّمَوَاتِ وَالأرْضِ، وهُو سبحانه وتعالى محْمُودٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَكانَ النّبيّ - ﷺ - إِذا أصَابَه ما يَسرُّه قَال: "الحمْدُ للهِ الَّذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمّ الصّالحاتُ"، وَإِذا كَان الأمْرُ عَلَى خِلافِ ذَلِك قَالَ: "الحمْدُ للهِ عَلَى كُلّ حَالٍ"، وأمَّا مَا يقُولُه بعْضُ العامَّةِ: (الحمد لله الَّذي لا يُحمَدُ عَلَى مكروهٍ سواه) فهَذا وِإن كانَ حقًّا لكِنَّهُ لا ينْبَغِي التّعبِيرُ بِهَذا الشّيْءِ؛ لأَنَ فِيه شيئًا مِن العتب عَلَى الله عز وجل في قولهِ: (الَّذي لا يُحْمَد عَلَى مكروه سواه)، وإِنَّما يُقالُ كَما قالَ النّبيّ عليه الصلاة والسلام: "الحمْدُ للهِ عَلَى كُلَ حَالٍ".

قوْلُه رحمه الله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اعْتِرَاضٌ، ومَعْنَاهُ يَحْمَدُهُ أهْلُهُمَا): لا شَكَّ أنَّه داخِلٌ في الآية، وأنَّ قوْله تَعالَى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ يَعْني أنَّه يُحْمَدُ، ولكِنْ ينْبَغِي أنْ يُقالَ بَما هُو أعَمُّ، أيْ أنَّ مَا خَلَقَهُ في السّموِاتِ والأرْضِ فإِنَّهُ مُستَحِقّ لِلْحَمْدِ علَيْه، سواء حُمِدَ أمْ لم يُحْمَدْ، فكُلُّ مَا في السّموَات وَالأرْضِ فإِنَّهُ شيْءٌ يُحمَدُ الله علَيْه، أمَّا في أمُورِ الخيِر فظَاهِرٌ، وأمَّا في أُمُورِ الشّرِّ فيَظْهَرُ ذَلِك؛ لأَنَّ الشّرَّ بالنّسبةِ لفِعْلِ الله

وإيجَادِه لَه ليْسَ بِشَرٍّ، بَل قالَ النّبيُّ عليه الصلاة والسلام: "وَالشّرّ لَيْسَ إِلَيْكَ"، فلا يُنْسَب إِلَيْهِ الشّرُّ.

مثَالُ ذَلِكَ: الجدْبُ والمرضُ والفقْرُ والجهْلُ والاقْتِتالُ بينَ النّاسِ والخسوفاتُ في الأرْضِ، هَذِهِ كلُّها بالنّسبَةِ لِلإِنْسَانِ شَرٌّ، لكِنَّها بالنّسبَةِ لقَضاءِ الله خيْرٌ لأَنَّ الله ما قَضاهَا إلا لحِكْمَةٍ، وحِينَئِذٍ يكونُ محْمُودًا علَيْها، والشّر في المقْضِيِّ لا في القضاءِ؛ وَهذا في حَدِيث الحسَنِ بْنِ عَليٍّ قَال: "وَقِني شَرَّ مَا قَضَيْتَ"، أيْ شَرَّ الَّذي قضَيْتَ، فأَضافَ الشّرَّ إِلَى المقْضيِّ لَا إِلَى القضاءِ.

واعْلَم أيْضا أنَّ المقْضِيَّ نفسَه ليْسَ شَرًّا محْضًا، بَل هُو شَرٌّ مِنْ وَجْهٍ، خَيْرٌ مِنْ وجْهٍ آخَر، أوْ شَرّ في محَلٍّ، خير في محل آخَر، مثَلا الفسادُ في البرِ والبحْرِ شَرّ، لكِنَّهُ خير مِن جِهَة عاقِبَتِه، لأَنَّ الله قالَ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

إِذَنْ: هَذا خَيْرٌ، كَذَلِكَ أيْضا قدْ يَكُون شَرًّا في مكَانٍ لكِنَّهُ خيْر في مَكَانٍ آخَر، فإِهْلَاكُ الأمَم السّابِقينَ بذُنُوبِهم شَر بالنّسْبةِ لهمْ، فقدْ أُهْلكوا ولم يَرْجِعُوا ولَم يَسْتَفِيدُوا، لكِنْ بالنّسْبَةِ لغَيْرِهم ممَّن

يَعْتَبِرُ بحالهم خيْر، فيَكُونُ هَذا شرًّا في محَلِّه خيرًا في محَل آخَر.

والمُهِمُّ: أنَّ قضَاء الله نفسَه ليْسَ فِيه شَرٌّ أبدًا، بَل هُو خَيْرٌ، وَهذا قالَ: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في جَمِيعِ الأحْوَالِ، المقْضِيُّ يَكُون فِيه الشّرُّ، ومَع ذَلِك فإنَّنا نَقُولُ أيْ مَع إثْبَاتنا أنَّ الشّرَّ في المفْعُولاتِ لَا في الفعْل، نَقُول أيْضًا إنَّ هَذا الشّرَّ في المفْعُولاتِ ليْسَ شرًّا محْضًا لَا خَيْرَ فِيه، بَلْ قَدْ يَكُونُ شرًّا مِن وَجْهٍ وخيرًا مِنْ وَجْهٍ في نفْسِ المحَلِّ، كقوْلِه تَعالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] وقدْ يَكُون أكثرًا في محَلِّه خيرًا في محَل آخَر.

وقوْلُه سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خصَّهُما بِالذّكْر لأنَّهُما محَلُّ نُفوذِ فعْلِه، فإنَّ الَّذي في السّموَات وَالأرْض مِن الملائِكَةِ والبشر والجنِّ وغيرِها كلُّها تَحْمَدُ الله، وكلُّها محَلُّ حمْدِه.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هلِ الكافِرُ يحَمَدُ الله؟

فالجوابُ: بِلِسانِ المقَالِ لَا، أمّا بِلِسَانِ الحالِ فنَعم، بمَعْنى أنَّ حاله تسْتَوْجِبُ لمَنْ تأمَّلَها أنْ يَحْمَدَ الله، هَذا معْنَى قوْلِهم: إِنَّ هَذا يحْمَدُ بلِسَانِ الحالِ، أوْ يُسَبِّحُ بِلسانِ الحالِ، يَعْنِي أنَّ حاله مَن تأمَّلَها عرَفَ بِها مَا يسْتَحِقُّه الله تَعالَى مِنَ الحمْدِ والتّنْزِيه.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَعَشِيًّا﴾: معْطوفٌ عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، يعْنِي وسَبِّحُوا الله عَشِيًّا، والعشِيُّ مِنَ الزّوالِ إِلَى غُروبِ الشّمْسِ، وَفي حدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ في المسِيءِ في صَلاتِه قَالَ: "صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله - ﷺ - إِحْدَىَ صَلَاتَي العشِيِّ".

قوْله تَعالَى: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: معْطوفٌ عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، والقاعِدَةُ في المعطُوفاتِ أنْ يكُونَ العطْفُ عَلَى أوَّلِ واحِدٍ لأنهُ هُو المحَلُّ الَّذي وَقع علَيْه عمَلُ العامِلِ، فيَكُونُ العطْفُ عَلَى الأوَّلِ، فإِذا قُلْتَ: (قامَ زيْدٌ وبَكْرٌ وعمْرٌو) فإِن عمرًا معْطُوفٌ عَلَى زيدٍ، فهَذِهِ الأوْقاتُ الخمْسَةُ هِي أبْسَطُ مَا ذكَرهُ الله تَعالَى في القرآنِ مِن أوْقَاتِ الصّلَواتِ وذَكَرها مُجْمَلَةً في قوْلِه تَعالَى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، ففِي هَذِهِ الآية ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾، يَعْنِي وقْتَ دُلُوكِ الشّمْسِ؛ لأَنَّ (اللامَ) للتَّوْقِيتِ مثْلَ

{فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} [الطلاق: ١] أيْ وقْتَ اسْتِقبَالِ عِدَّتِهِنَّ، فَـ{لِدُلُوكِ الشَّمْسِ} لِزَوالها {إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ}، أي نصْفِه، وهُو شِدَّةُ ظلْمَتِه، وَذَلِكَ عنْدَ انتِصافِه؛ لأَنَّ أشدَّ ما يَكُون اللَّيلُ ظلْمَةً إِذا انْتصفَ، لأَنَّ نصفَ اللَّيْل هُو أبْعَدُ مَا تكُون الشّمْسُ عَن سطْحِ الأرْضِ، ويدْخُل في هَذا - مِن زَوالِ الشّمْسِ إِلَى نصْفِ اللَّيلِ - أرْبَعُ صلَواتٍ: الظّهرُ والعصْرُ والمغْرِبُ والعشاءُ ثمَّ قالَ: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} فَفَصَلَه والمرَادُ بِه صلاةُ الصّبحِ، وفَصْلُه عمَّا قبْلَه يدُلُّ عَلَى أنَّ وقْتَ العشاءِ ينتهي بنِصْفِ اللَّيْلِ، وَهَذا هُو الَّذي دلَّتْ علَيْهِ السّنّة أيْضًا، ومَنْ قَال أنَّه ينتهِي بِطُلوعِ الفجْر فلَا دَلِيلَ لَه، وهَذِه المسألَةُ ينْبَنِي علَيْها مَا لو طَهُرت المرْأَةُ في نصْفِ اللَّيلِ الثّاني هَلْ يلْزَمُها صلَاةُ العشَاءِ؟ فعَلى قَوْل مَن يقُولُ إِنَّ وقْتَ العشَاءِ يمتَدُّ إِلَى طُلوعِ الفجْر يلْزَمُها العشَاءُ، وَكَذلِكَ المغْرِبُ أيْضًا، وعَلى القوْل الرّاجِح لا تلْزَمُها صَلاةُ العشَاءِ لأَنَّ صلاةَ العشَاءِ إِلَى مُنتصَفِ اللَّيلِ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: رحْمَةُ الله تَعالَى بعِبَادِه؛ حيْثُ علَّمَهُم مَا فِيه مصْلَحَتُهم.

الفائدة الثانية: أنَّ الصّلاةَ تسْبِيحٌ وتنْزِيهٌ للهِ؛ لأَنَّ الله أطْلَقَ علَيْها اسْمَ التّسْبيحِ.

الفائدة الثالثة: وُجوبُ التّسبيحِ في الصّلاةِ؛ لأنَّ القاعِدة أنَّه إِذا أُطْلِق عَلَى العبادَةِ جُزْءٌ منْهَا دَلَّ ذَلِك عَلَى أنَّ هَذا الجزْء مِن وَاجِباتِها، وأَنَّه لا بُدَّ منْهُ فِيها.

الفائدة الرابعة: بَيان الأوْقَاتِ الخمْسَةِ مفصَّلَةً؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾.

الفائِدَتانِ الخامِسَةُ والسّادِسَةُ: أنَّ المسَاء يُطلَقُ عَلَى أوَّلِ اللَّيلِ، فإنَّ قوْله تَعالَى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ يدْخُل فِيه المغْرِبُ والعشَاءُ، وقَدْ يُؤْخَذُ مِن هَذا جَوازُ رَمْيِ الجمَراتِ ليْلًا؛ لأَنَّ رجُلًا قَال: يَا رسُولَ الله! رَمَيْتُ بعْدَ مَا أمْسَيْتُ؟ فقَالَ: "لَا حَرَجَ"، فإِذا كَان المسَاءُ يُطْلقُ عَلَى أوَّلِ اللَّيْل، وأطْلَق النّبيُّ - ﷺ - نَفْيَ الحرَجِ، عُلِمَ أنَّه جَائِزٌ.

الفائدة السابعة: حِكْمَةُ الله عز وجل في تَوْزِيع الصّلوَاتِ عَلَى هَذِهِ الأوْقَاتِ، ووَجْهُ الحكْمَةِ أمْرَانِ:

الأمْرُ الأوَّلُ: أنَّها لَو جُمِعَت في وقْتٍ واحِدٍ لخلَتْ بقيَّةُ الأوْقَاتِ عَن الاتِّصال باللهِ سبحانه وتعالى، يعْني لَو جَعَل الإنسان يُصلي في الفجْرِ كُلَّ الصّلواتِ الخمْسِ جميعًا فسَيَبْقى بقيَّةَ النّهارِ واللَّيْل بِلا صَلواتٍ مفْروضَةٍ.

الأمْرُ الثّانِي: أنَّه لو جُعِلت هَذه في وقْتٍ واحدٍ لكَان في ذَلِك نَوعٌ مِن المشَقَّةِ، يعْنِي يُوجِبُ عَلَى الإنسان أنْ يُصَلِّي سبع عشَرْةَ ركْعَةً في آنٍ واحِدٍ، فَهَذا فِيه مشقَةٌ عَلَى الأقْوِياءِ الأصحَّاءِ، فكَيْف بِالضّعفَاءِ والمرْضَى؟ !

الفائدة الثامنة: كَمالُ الله عز وجل؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

الفائدة التاسعة: أنَّه وحْدَه المستَحِقُّ لأَنْ يُحمَد عَلَى وَجْهِ الإطْلاقِ؛ نأْخُذه مِن تقْدِيم الخبَرِ في ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾.

الفائدة العاشرة: أنَّ كُلَّ ما يحْدُث في السّموَات وَالأرْضِ مِن خيْرٍ أوْ شَرٍّ فإنَّ الله تَعالَى يستَحِقُّ علَيْه الحمْدَ؛ تُؤْخَذُ مِن الإطْلاقِ في قوْله تَعالَى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾، ولم يَقُلْ: عَلَى الخيْر أوْ عَلَى مَا يَنْفَعُ، بَلْ أطْلَق، فيُسْتفادُ مِنْه أنَّ الله تَعالَى محمُودٌ عَلَى كُلَ حَالٍ.

الآية (١٩)

* قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩].

قال المفسر رَحَمَهُ اَللهُ: [﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالإنسانِ مِنَ النُّطفَةِ، والطّيرِ مِن البَيْضةِ]: أما البيضَةُ فليس عنْدِي فيها عِلْمٌ فلا نَقْدِرُ أن ننْفِي إنْ كانَ فِيها حياة في بعْضِ الأجْزاءِ التي يتكون منْهَا الطّائِرُ أم لا، والنّطفَةُ باعْتبارِ مَا يظْهَرُ لنا ميتّةَ، وَكَذلِكَ البَيْضةُ، لكِنْ في الواقِعِ إنَّ النّطفَة ليْسَتْ ميتّةً، فلقَدْ سُئِل النّبيّ - ﷺ - عَن العَزْل فقَالَ: "هُوَ الوَأْدُ الخَفِيُّ"، فجَعَله وأدًا، والوَأْدُ لا يكُونُ إلَّا لحيٍّ، فالحيَوانَاتُ المنوِيَّةُ حيَّةٌ، لكِنَّها لَا تُرى، وهَذهِ النّطْفَةُ البَسيطَةُ التي ليْسَتْ بشَيْءٍ يقُولونَ - والله أعلمُ إنْ كانَ هذَا مبالغةً أو لا - فِيها حوالَي خمْسَةِ مَلايِينَ أوْ أكْثَر مِن الحيَوانَاتِ المنَوِيَّةِ، وهِي التي تُرى بَسِيطَةً.

إذَنْ: فبِاعْتِبارِ مَا يُرى وَيظْهَر أن النُّطفةَ ميّتةَ جَمادٌ، لكِنْ باعتِبارِ الحقِيقَةِ ليْسَتْ كَذلِكَ، وإخْراجُ الميِّتِ مِن الحيِّ ليْسَ مشْكِلَةً، لكِنَّ المشْكِلَةَ إخْرَاجُ الحيِّ مِن الميِّت.

وقوْله تَعالَى: ﴿الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾، هَل المُرادُ الحياةُ الحسيِّة أوِ المعنَوِيَّة؟

والحقِيقَةُ أنَّ المُرادَ الأمْرانِ، فإنَّ الكافر ميِّتٌ معنًى، ويخْرُج منْه المسْلِمُ أوِ بالعَكْسِ، قَال الله تَعَالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾، يعْنِي أنَّ هَؤُلاءِ الكفَّارَ بمنْزِلةِ الأمْواتِ، والمُؤمِنُ حيٌّ ولا سيِّما العالم، قالَ الله تَعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وسمَّى الله القرآنَ رُوحًا فدَلَّ هَذا عَلَى أنَّ مَن عَمِل بِه فهُوَ حَي فالآية أعمُّ مما قاله المُفَسِّر، وَإِن كَان سياقُها يقْتَضِي أنَّ المرادَ بِها بالأَوْلى الحياةُ الحسِّيَّةُ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: بِما أنْزَل الله علَيْها مِن المَطَرِ، ولَا أحَدَ يسْتَطِيعُ أنْ يفْعَل ذَلِك إِلَّا الله عز وجل، هَذِهِ الأرْضُ الهامِدَةُ اليَابسَةُ التي ليْس فِيها خُضْرَةٌ يُنزِلُ الله علَيْها الماءَ فتُصْبح الأرْضُ مخضَرَّةً بأمْرِ الله تَعَالى، ولَوِ اجْتَمعَ الخلائِقُ كلُّهُم عَلَى أنْ يفْعَلُوا ذَلِك لمَا استطَاعُوا، ولَنْ يُخْرِجُوا ولَا أدْنى حشِيشَةٍ مِن هَذهِ الحشائِشِ، ولكِنَّ الله تَعالَى بقُدْرَته يفْعَلُ ذَلِكَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعْضُ الحشراتِ تتوَلَّدُ وتَخْرُجُ مِنْ طَعامٍ أوْ غيرِه، ونُوَاةُ التَّمر يخْرُج منْهَا نبَاتٌ؟

قُلْنَا: هَذِهِ حياةٌ بِلا إِدْراكٍ، والمتَوَلِّدُ واضِحٌ أيضًا أنَّه حَيٌّ مِن ميِّتٍ؛ لأَنَّ المتَولِّد يخْرُج مِن العفونات والقاذورات وهو حيٌّ يتحرك.

قوْله تَعالَى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾: الكافُ اسْم بمَعْنى مثْل، يعْنِي ومثْلُ ذَلِك الإخراج تخْرُجونَ، فتكونُ مفعُولًا مطْلَقًا، ويجوزُ أنْ تكُونَ هُنا حرْفَ جَرٍّ، و(إذَا) اسْمُ إِشارَةٍ مبْنِيٌّ عَلَى السُّكونِ في محَلِّ جرٍّ، يعْنِي وكَهذا الإخراجِ تخْرُجونَ، ولَا تكُونُ مفعولًا مُطْلَقًا.

وقوْلهُ رحمه الله: [تَخْرُجُونَ مِنَ القُبُورِ]: ظاهِرُ الآيات الكَريمَاتِ أنَّ خُروجَ النّاسِ مِنَ القُبورِ يُشْبِهُ خُروجَ النّباتِ مِنَ الأرْضِ، وخُروجُ النّباتِ مِنَ الأرْضِ يكُون بِنُزولِ المَطرِ علَيْها، فيَكُونُ في هَذِهِ الآية إِشَارَةٌ إِلَى مَا ورَد في الحديثِ مِنْ أنَّ الله تَعالَى يُمْطِرُ عَلَى القُبورِ مَطرًا غَلِيظًا كَمَنِيِّ الرّجالِ أرْبَعِينَ يوْمًا تنْبتُ مِنْهُ الأجسادُ في القُبورِ، ثمَّ بعْدَ ذَلِك تخْرُج إِذا نُفِخ في الصّور، وَهَذا ورَدَتْ بِه أحادِيث في إِسْنَادِها مقَالٌ، لكِنَّ مجمُوعَها يقْضِي بأنّها أحادِيثُ حسَنَةٌ، وظَاهِرُ القرآنِ أيضًا يُشيرُ إِلَيه.

وقوْلهُ رحمه الله: [بالبِنَاءِ للْفَاعِل والمَفْعولِ]: البَناءُ للفاعل "تَخْرجُون"، وللمَفْعول "تُخْرجَوُن"، قراءَتَانِ سبْعِيَّتانِ، لأَنَّ مِن عادَةِ المُفَسِّر رحمه الله أنَّه إذا إلى بقِرَاءَةٍ شاذَّةٍ يقولُ: (وَقُرِئ).

من فوائد الآية الكريمة::

الفائدة الأولى: بَيانُ قُدْرَةِ الله عز وجل؛ حيْثُ يُخرِجُ الحيَّ مِن الميَتِ وبالعَكْس، وَهَذا مِن تمَامِ القُدْرَة أنَّه يُخرِج الشّيْءَ مِن ضِدِّه.

الفائدة الثانية: قُدْرَتُه عَلَى إحْيَاءِ الأرْض مِنْ بعْدِ موتها؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

الفائدة الثالثة: ثُبوتُ قِيامِ الأفْعَالِ الاخْتِيارَّية باللهِ عز وجل، وَالأفْعالُ الاخْتِيارِّيةُ هِي التي يفْعَلُها بمشِيئَتِه، إِنْ شَاء فَعَلَ وإِنْ شاءَ لَمْ يفْعَلْ؛ تُؤخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى:

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾، وقوْلِه تَعالَى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ والبَعْدِيَّةُ تقْتَضِي حُدوثَ هَذَا الشّيْءِ، وقِيامُ الأفْعَالِ الاخْتِيارَّيةِ باللهِ عز وجل هُو الَّذي علَيْهِ أهْلُ السّنَّةِ والجمَاعةِ قاطِبَةً، ولَا أحَدَ منْهُمْ أنْكَر ذَلِك، فيُثْبِتُونَ الاسْتِواءَ عَلَى العرْشِ

فعْلًا لله، والنزولَ إِلَى السَّماءِ الدّنْيا فعْلًا لله، والمَجِيءَ للفَصْل بيْنَ العِبادِ فعْلًا لله، والعجَبَ فعْلًا لله، والضَّحِكَ فعْلًا لله، والخلْقُ فِعْلًا لله، وَيقُولونَ إِنَّ الله تَعالَى يفْعَلُ مَا يشَاءُ، كيْفَ شَاءَ، متَى شَاءَ.

ولكِنَّ أهْلَ البدَعِ مِن المُعْتزِلة والأشعَرِيَّة وغيرِهم يُنْكِرُون قِيامَ الأفْعالِ الاخْتِيارِّيةِ بِه، وَيقُولونَ لَو قامَتْ بِه الحوادِثُ لكَان حادِثًا، واللهُ تَعالَى لَمْ وَلا يَزالُ، فنَقُولُ: هَذا قولٌ بَاطِلٌ؛ أوَّلًا لأنهُ قِياسٌ في مُقابَلَةِ النّصِّ، فإِنَّ النُّصوصَ متكاثِرَةٌ في إثْبَات الأفعالِ الاخْتِيارِّية للهِ عز وجل التي تتعَلَّقُ بمشِيئَتِه، وثَانِيًا قوْلُكُم إِنَّ الحوادِثَ لَا تَقُوم إِلا بحَادِثٍ ليْسَ بِصَحِيحٍ فإِنَّ الحوادِثَ لَا تَقُومُ إِلَّا بِكامِلٍ قَادِرٍ عَلَى مَا يَشَاءُ، أمَّا كوْنُها لَا تقُومُ إِلا بحَادِثٍ فَما هُو العَقْلُ الَّذي يُوجِبُ هَذا.

الفائدة الرابعة: قِياسُ الغِائِبِ عَلَى الشّاهِدِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، فإِنَّ قِياسَ الغائِب عَلَى الشّاهِد لَيَحْمِلُ عَلَى الإقرار بِه طريقَةً مُتبعَةً.

الفائدة الخامسة: إثْبَاتُ البَعْثِ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

الفائدة السادسة: إثْبَاتُ القِياسِ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، وإثْبَاتُ القِياسِ لَه أدِلَّةٌ كثِيرَةٌ في القُرآنِ منْهَا عَلَى سَبِيلِ التّعْمِيم والحدِّ كُلُّ مَثَلٍ ضَربَه الله في القُرْآنِ فَهُو وإلى عَلَى ثبُوتِ القِيَاسِ، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٢٤] و﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] ومَا أشْبَه ذَلِك، فإنَّ الأمْثَالَ ضَرْبُها تشْبِيهُ حالٍ بحالٍ، أوْ فَرْدٍ بِفَرْدٍ، فتكُونُ دالَّةً عَلَى ثُبُوتِ القِياسِ، وَكَذلِكَ القَصَصُ التي قَال الله تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وفي السُّنَّة أيْضا كثِيرٌ مِن ذَلِك، مثْلَ قوْلِه - ﷺ -: "هَلْ لَكَ مِنْ إبلٍ؟ " قال: نعم، قال: "فما لَوْنُه" قال: حمر، الحديثَ، وقوْلُه: "أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أمِّكِ دَيْن أَكُنْتِ قَاضِيتَهُ".

وَكَذلِكَ العَقْلُ يقْتَضِي ثُبوتَ القِيَاسِ، فإنَّ العَقْلَ السّلِيمَ الصَّرِيحَ لَا يُمْكِنُ أنْ يُفَرِّقَ بيْنَ مُتماثِلَيْنِ أبدًا، ودَائِمًا حتَّى الصّبيُّ إذا منَعْتَه مِن شَيْءٍ وأبحْتَ لَهُ نَظِيرَه، قَال: لماذا؟ أَلَيْسَ هَذا مثْلَ هَذَا؟ ! فهَذا مما تشْهَدُ العُقولُ وَالنّصوصُ والفِطَرُ بثُبوتِه، لكنَّ القِياسَ الباطِلَ الَّذي يتوَسَّعُ فِيه بعضُ النّاسِ حتَّى يُعطِّلُوا دِلالَةَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ لا شَكَّ أنَّه بَاطِل، أمَّا القِيَاسُ الصَّحِيحُ فإنَّهُ لَا

ريبَ في ثُبوتِهِ، والَّذِين أنكَرُوا القِيَاسَ هُمْ في الحقِيقَةِ مُضطَّرِبُونَ، فأحْيَانًا يقُولُونَ بالقِياسِ مِن حيْثُ لا يَشْعُرونَ وَلا يُمْكِنُهم إِلَّا أنْ يقيسُوا لأَنَّنا لَو أرَدْنا أنْ نَحْصرَ دَلالةَ الكِتابِ والسُّنَّةِ عَلَى الأحْكامِ عَلَى سَبِيلِ العُمُوم والقَواعِدِ والضَّوابِطِ فهِي وَافِيةٌ، لكِنَّ الأفْرادَ والجزْئِيَّاتِ لَا مُنتهى لَها وَلا حصْرَ لَها، وهُمْ لا بُدَّ أنْ يُضطَّرُوا إِلَى إثْبَاتِ ذَلِك.

يدخلُ في العُمُومِ مِن حيْثُ الشُّمولُ اللَّفْظِي إِنْ كَان داخِلًا في اللَّفْظِ أحْيانًا لَا يدْخُلُ في اللَّفْظ لكِنْ يشْمَلُه العُمُومُ المعنَوِيُّ وهُوَ القِياسُ؛ لأَنَّ العُمُومَ المعْنَوِيَّ هُو القِيَاسُ.

الآية (٢٠)

* قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠)﴾ [الروم: ٢٠].

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ تَعَالَى الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَته ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أَيْ أَصلكُمْ آدَمُ، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ﴾ مِنْ دَمٍ وَلحمٍ ﴿تَنْتَشِرُونَ﴾ في الأَرْضِ] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾: (من) للتَّبْعِيضِ، يعْنِي بعْضُ آياتِه، و(مِنَ) التّبْعِيضِيَّةِ قالَ العلَماءُ: هِي التي يصِحُّ أنْ محلَّ محَلَّها بعْضُ، وَ(آيَاتِه) جمْعُ آيَةٍ، وهِي العَلامَةُ، أي العَلامَةُ البَيِّنةُ الواضِحَةُ الدّالَّةُ عَلَى مَا تخْتَصُّ بِه مِنْ صِفاتِ الله حسَبَ مَا سِيقَتْ لَهُ، وكُلُّ شيءٍ مِن آياتِ الله عز وجل فإِنَّه يدُلُّ عَلَى كَثيرٍ مِن صِفَاتِ الله تَعالَى دلالَةً مطَابِقَةً باعْتِبَارِ مَا ذَكَر فِيها أوْ مَا ذَكَر مِنْ هَذِهِ الآيات، ودَلالَةُ التِزامٍ بِما يلْزَمُ مِنْ وُجودِ هَذِهِ الصِّفَةِ، مَثلًا قوْلُه تَعالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، فخَلْقُنا مِن تُرابٍ إِلَى أنْ نكونَ بَشرًا، هَذا مِن الآيات إِذْ إنَّ قلْبَ الجمادِ إِلَى حَيَوانٍ لَا شَكَّ أنه مِنَ الآيات، ولكِنَّ كوْنَهُ دالًّا مثَلًا عَلَى القُدْرَة والعِلْم والحكْمَةِ ومَا أشْبَه ذَلِك، هَذه دلَالَةُ التِزامٍ، ودلالة الالتِزام مِن أفْيَدِ مَا يَكُون لِطالب العِلْم إِذا وُفِّق للْفَهْم الصَّحيحِ فِيما يَلْزَمُ مِن كَلامٍ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كيْفَ تكون الأشْيَاءُ عَلامَةً عَلَى الله عز وجل وهُوَ أبْيَنُ وأظْهَرُ؛ لأَنَّ معرِفَتَهُ مرْكُوزَةٌ في الفِطَر والعُقولِ؟

فالجوابُ: أوَّلًا: أنَّ بعْضَ الفِطَرِ قَدْ يَعْتَريها مَا يصْرِفُها عَن الصِّراطِ المُسْتَقِيم فتَحْتَاجُ إِلَى دَعْمٍ لِبَيانِ الآيات.

ثانيًا: أنَّ هَذِهِ الآيات كُلُّ آيَةٍ تدُلّ عَلَى نوعٍ خَاصٍّ مِن صِفَاتِ الله سبحانه وتعالى بِخِلافِ العَقْلِ والفِطْرَةِ، فإِنَّهُ يهْتَدِي إِلَى وُجودِ الخالِق عز وجل، مِنْ حيْثُ الجمْلَةُ أمَّا التَّفْصيلُ فَلا يُمْكِنُ إِلا بِذِكْرِ هَذِهِ الأجْنَاس والأنوَاعِ؛ وَهذا لَا يُمْكِنُ الوُصولُ إِلَى الإِحاطَةِ بِذَاتِ الله عز وجل، نُحِيطُ بِالآيات الدّالَّةِ عَلَى صِفَاتِه، أمَّا أنْ تُحِيطَ بِذَاتِ الله فَهذَا أمْر لَا يُمْكِنُ؛ وَهذا يُرْوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - أنَّه قَال: "تَفَكَّرُوا في آياتِ الله، وَلَا تَفَكَّرُوا في ذَاتِ الله".

قوْله تَعالَى: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾: ﴿أَنْ﴾ مَصْدَرِّية لأَنَّ المخَفَّفَةَ هِي التي تَكُونُ بَعْدَ عِلْمٍ أوْ ظَنٍّ، مثْلُ قوْلِه تَعالَى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ [المزمل: ٢٠]، ومثْلُ قوْلِه تَعالَى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وأَمَّا هَذِهِ فليْسَتْ كَذَلِكَ، وَعَلى هَذا فتكُونُ مصْدَرِّيةً، ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ فتكُونُ هِي ومَا بعْدَها في تأْوِيلِ مصْدَرٍ مبْتَدَأ مؤَخَّر يعْنِي خلَقَكُم والخبرُ قوْلُه تَعالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾.

قوله رحمه الله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ تَعالَى الدّالة عَلَى قدرته]: قيَّدها بالدّالَّةِ عَلَى قُدْرَته لأنَّهَا أبْرَزُ شَيْءٍ في الآيات في هَذا الخلْقِ،

وَإِلَّا فَهُو دَالٌّ عَلَى الحكْمَةِ العَظِيمَةِ إِذْ لَا خلْقَ إِلَّا بعْدَ عِلْمٍ، كَما قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك: ١٤].

قوله رحمه الله: [﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: أصلكم آدم]: (أصلكم) تفسيرٌ للكَاف في قوْلِه: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، يعْنِي باعْتِبَارِ أَصْلِنا بالاعْتِبار المُباشِرِ فإِنَّ الإِنْسانَ خُلِق مِنْ نُطْفَةٍ كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣]، والسُّلالَةُ خالصُ كُلِّ شيْءٍ عَلَى حَسَب مَا يَبِينُ، فقوْلُه تَعالَى: ﴿مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ آدَم، وقوْلُه تَعالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ هَؤُلاءِ بَنُو آدَمَ، وقَوْلُه: ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ هو أيِ الإِنسانُ بِاعْتِبَارِ جِنْسِه.

قوْله تَعالَى: ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾: (مِنْ) لابْتِدَاءِ الغايَةِ، وَالمَعْنى أَنَّ ابْتِدَاءَ الخلْقِ مِن التُرابِ.

قولُه رحمه الله: [﴿إِذَا أَنتُم بَشَرٌ﴾ مِنْ دَمٍ وَلحمٍ ﴿تَنْتَشِرُونَ﴾ فِي الأَرْضِ]: كُنْتُم تُرابًا والتُّرابُ لا يتَحَرَّكُ مِن مَكانِهِ ولَا يَنْتَشِرُ وَلَيْس فِيه حرَكَةٌ، ثمَّ بعْدَ ذَلِك إِذَا أَنْتُم بَشَرٌ تنتَشِرُونَ، (ثُمَّ) دالَّةٌ

عَلَى المُهْلَةِ؛ لأنَّهُ بعْدَ خلْقِ آدَم لَمْ يأْتِ الأوْلَادُ مبَاشَرَةً بَلْ خُلِق لَهُ زوْجَةٌ ثمَّ جَاء مِنْ هَذِهِ الزّوْجَةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿إِذَا أَنتُم بَشَرٌ﴾: ﴿إِذَا﴾ فُجائِيَّةٌ، يعْنِي ثمَّ صَارَتِ المُفاجَأَةُ عَلَى هَذا الوَجْه.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا﴾: قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إنَّ في هَذا ما ظَاهِرُه التَّناقُضُ لأَنَّ (إِذَا) هُنا فُجائِيَّةٌ، وَ(ثُمَّ) للمُهْلَةِ، والمُفاجَأَةُ والمُهْلَةُ متناقِضَانِ، إذ إنَّ المُفاجَأَةَ تدُلّ عَلَى المُبادَرة فيُجَابُ عَنْ ذَلِك بأنَّ المفاجَأَةَ بعْدَ المُهْلَةِ؛ لأَنَّ التّرابَ لَا يَكُونُ بَشرًا في الحالِ، وإنَّما تطَوَّر لمدَّةٍ حتَّى وَصَلَ إِلَى البَشرِيَّةِ، هَذا إذا قُلْنا: إنَّ المُرادَ بالبَشَر خُصوصُ آدَم، أمَّا إذا قُلْنَا: المُرادُ بِهِ ذُرّيَّتُه، فالمُهْلَةُ ظَاهِرَةٌ، لأَنَّ هَذا يشْمَلُ الذّرِّيَّةَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَة فالمُهلَةُ ظاهِرَةٌ، لكِنَّ المفاجَأةَ فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿إِذَا أَنتُم بَشَرٌ﴾، قدْ تُوحِي إِلَى أنَّ المُرادَ بِه آدَمُ، فإِنَّ آدَم بَشَرٌ وذُرِّيَّتُه انْتَشرَتْ فِي الأرْضِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا أَنتُم بَشَرٌ﴾ مبتَدَأٌ وخبَرٌ، وجُمْلَةُ ﴿تَنْتَشِرُونَ﴾ في محَلِّ رفْعِ صفَةٍ لـ (بَشَر)، وإذا جعَلْناها صِفَةً لِـ (بَشَر) صَار فِيها إشْكَالٌ مِنْ جِهة أنَّ (بشَرٌ) مفْرَدٌ و(تنتشرون) جمْعٌ، لكن المُفْرد المُرادَ بِه الجِنْس يكُونُ لِلْجَمْعِ.

وسُمِي الإنْسانُ بَشرًا قِيلَ لأَنَّ بشْرَتَه بَادِيَةٌ، إِذْ إِنَّ الحيوانَاتِ الأخرى عَلَى أبْشَارِها مَا يستُرُها لحكْمَةٍ، وأمَّا الآدَمِيّ فإنَّ بشْرَتَهُ بَارِزَةٌ ظَاهِرَةٌ، وقِيلَ: لأنَّهُ تبْدُو عَلَى بشْرَتِه انفعالاتُه النّفسيَّةُ، مثْلُ الغَضبِ والفَرَحِ ومَا أشْبَهَ ذَلِك، فإِنَّها تبْدُو ظَاهِرَةً عَلَى وجْهِه.

وقوله رحمه الله: [﴿تَنْتَشِرُونَ﴾ في الأرْض]، قيَّدَ المُفَسِّر رحمه الله الانْتِشارَ بأنَّه فِي الأَرْضِ، لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، فالانتِشارُ والتّوسُّع فِي الأرْضِ، فقوْله سبحانه وتعالى: ﴿تَنْتَشِرُونَ﴾ أيْ تذْهَبُون يَمِينًا وَشمالًا؛ وَلهَذا لا شَكَّ أنَّ بَنِي آدَم كانُوا فِي أَوَّلِ أمْرِهمْ فِي مكَانٍ واحِدٍ، ثمَّ انْتَشرُوا في جَميعِ القارَّاتِ عَلَى تبَاعُدِ مَا بيْنَها، وانْظُر الآن البَشر منتَشِرٌ في جَميع أقْطَارِ الدّنيا، وسُبْحانَ الله العظيمِ، فمَنِ الَّذي أوْصَل أهلَ أمَرِيكا إِلَى أمِرِيكا، ومَنِ ٱلذي أوْصَلَهُم إِلَى البِلادِ الأخرى مَع هَذِهِ المحِيطاتِ العَظِيمَةِ؛ لأَنَّ آدَم لا شَكَّ كانَ فِي إحْدَى القارَّاتِ، لكنْ مَنِ الَّذي أوْصَل بَنيه إِلَى القارَّاتِ الأخرى؟ الله أعلَمُ، وقدْ يَكُونُ الله يسَّر لهم فِي ذَلِك الوَقْتِ مِنَ الأسْبَابِ مَا قدْ زَالَ الآنَ ولَا نعْرِفُه حتَّى وصَلُوا إِلَى هَذهِ البِلَادِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما صِحَّةُ مَا ساقَهُ القُرطُبِيُّ في تفسِيرِ آيةِ الحَجِّ مَن أنَّ المَنِيَّ فِيه تُرابٌ؟

قُلْنَا: لا نسْتَطِيعُ أنْ نَجْزِمَ بنفي هذَا أوْ إثْبَاتِه؛ لأنَّهُ يجُوزُ أنَّ نَفْسَ الإنْسَانِ فِيه مادَّةٌ ترابِيَّةٌ، والآنَ هُمْ يقُولونَ: إنَّ الإنْسانَ فِيه مِنْ جَمِيعِ مَعادِنِ الأرْضِ، فِيه رَصاصٌ ونُحَاسٌ وحِيرٌ وحَدِيدٌ وتراب وكُلُّ شَيْءٍ، فنَفْسُ الجِسْم مُكَوَّنٌ مِن هَذِهِ الأشْيَاءِ، فلَا يبْعُدُ أن تكونَ هَذِهِ السّلالة التي تخْرُج منِهُ فِيهَا هَذِهِ المَوادُّ، والحقِيقَةُ ليْسَ عنْدَنا عِلْمٌ عمِيقٌ فِي هَذِهِ السّلالةِ، لكِنَّ الله عَلَى كُلِّ شيْءٍ قَديرٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعْضُ النّاسِ يقُولونَ إنَّ آدَم أوَّلَ مَا خَرَجَ مِنَ الجنَّةِ ونَزل إِلَى الأرْضِ نَزل بسِيلَانٍ؟

قُلْنَا: الله أعْلَمُ، لَا يُوجَدُ حَديثٌ صَحِيحٌ عنِ النّبيّ عليه الصلاة والسلام، إِنَّما كُلُّها آثَارٌ إسْرَائِيلِيَّةٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى::

الفائِدَةُ الأولَى: إثْبَات الآياتِ للهِ عز وجل، أي العَلامَاتِ الدّالَّةِ عَلَى مَا تدُلّ علَيْهِ مِن صِفاتِهِ لأَنَّ كُلَّ فعْلٍ يدُلُّ عَلَى نوْع مِنَ الآيَاتِ لكِنْ هِي عَلَى سَبيلِ العُمُومِ تدُلّ عَلَى القُدْرَة فجَمِيعُ الآيَاتِ تدُلّ عَلَى القدْرَة والحكْمَة، لكِنْ لكُلِّ نوْعٍ منْهَا آية خاصَّةٌ: الحكْمَةُ، القُدْرَة، العِزَّةُ، ومَا أشْبَه ذَلِكَ.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أنَّ أصْلَ بَني آدَمَ مِنْ تُرابٍ، لقوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ ابْتِداءَ خلْقِ الإنْسَانِ مِن تُراب، لقوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ﴾.

الفائِدَةُ الرابعةُ: إبْطَالُ النّظرِيَّة الملْحِدَة الخاطِئَةِ، وهِي نظريَّةُ النّشوءِ والتّطَوُّر التي ذَهب إليْها أوْ كَان قائِدَها (دَارُون)، فهِي نظريَّةٌ خاطِئةٌ وباطِلَةٌ بِلا شَكٍّ، وجْهُ ذَلِك مِنَ الآيَة أنَّ الله يقُولُ: ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ﴾ فيُخاطِبُ البَشرَ باعْتِبَارِه بَشَرًا.

إِذَنْ: فهُو بشَرٌ منْذُ أنْشِئ مِنَ التُّرابِ إِلَى اليَوْم، أمَّا أُولئكَ فَيَقُولُونَ: إِنَّ أصْلَ الإنْسَانِ ليْسَ بشَرًا، بَلْ أصْلُ الإنْسَانِ قِرْدٌ ثمَّ تطَوَّر فصَار بَشَرًا، ويُمكِنُ أنْ يتطَوَّر بعْدَ ذَلِك وَيصِير مَلَكًا، ولَا أَدْرِي مَاذا يقُولُ فِي أصْلِ الحمِيرِ وَالبِغَالِ والخيْلِ والدَّجاجِ مَا

أصلُها وتطَوَّرَتْ إِلَى مَاذا؟ ثمَّ لا نَدْري مَا هو التّطوَّرُ الآخَرُ، هَل نحْنُ نكوُن ملائِكَةً؟

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: إنَّ هَذِهِ النظرِيَّةَ - الحمْدُ لله - حتَّى فَلاسِفَةُ الغرْبِ وعُلَماءُ الطّبِيعَةِ مِنَ الكفَّار الآن أبْطَلُوها، وتبَيَّن لهمْ أنَّها نظَرِيَّةٌ باطِلَةٌ خاطِئَةٌ، ثمَّ نَحْنُ نَعْلَمُ عِلْمَ اليَقِين بِدُونِ أيِّ نَظَرٍ أنَّها باطِلَةٌ، وَأنَّ اعتِقَادَها كُفْرٌ لأنَّهَا تكْذِيبٌ للْقُرآنِ والسُّنَّةِ وَإِجْماعِ المُسلِمِينَ، فكُلُّ هَذا لا شَكَّ أنَّه كَذِبٌ ولَا أصْلَ لَهُ، فالإِنْسانُ خُلِقَ مِنْ تُرابٍ كَما قَالَ الله عز وجل، تُرابٌ جعَلَهُ الله طِينًا، ثمَّ فَخَّارًا حتَّى كانَ صَلْصالًا لَهُ صَلْصَلَةٌ إِذا ضرَبْتَ علَيْهِ فَهُو كالفَخَّارِ، كَما قَالَ الله عز وجل ثمَّ تَكَوَّنَ الإنسَانُ، واللهُ عَلَى كُلِّ شيْءٍ قَدِيرٌ، فَهَذا وغَيْرُه تكْذِيبٌ لصَرِيحِ القُرآنِ.

الفائِدَةُ الخامسةُ: حكْمَةُ الله عز وجل في كَوْن الآدَمِيّ بَشَرًا، أَيْ بَادِي البَشْرَةِ؛ لأنَّكَ إِذا علِمْتَ أنَّك مُفتَقِرٌ إِلَى اللِّبَاس الحسِّيِّ علِمْتَ أنَّك مُفتَقِرٌ إِلَى اللِّبَاس المعْنَوِيِّ: لِبَاسِ التّقْوَى كَما قَال الله تَعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

الفائِدَةُ السادسةُ: أنَّ هَذا البَشَر الَّذي خُلِق مِن أصْلٍ واحدِ انْتَشر ومَلأ الأرْضَ، فَهَذا البَشَرُ مِن طَبيعَتِه الانْتِشَارُ والذّهَابُ والمَجِيءُ وطلَبُ الرِّزقِ وطلَبُ الصَّنائِع وطلَبُ الأعْمَالِ، وَهَذا هُو الوَاقِع؛ وَلهذا قَالَ: ﴿ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾، وَهَذا مِن آياتِ الله: كيْفَ مِن أصْلٍ واحِدٍ مِنْ رَجُلٍ وَاحِدٍ انْتَشَرَتْ هَذِهِ الخلِيقَةُ فِي جَميعِ أنْحَاءِ الأرْضِ؟

الفائِدَةُ السابعةُ: أنَّ الإنْسَانَ متَحَرِّكٌ بالطَّبعِ لابُدَّ أنْ يتَحَرَّكَ وينْتَشِر وَيذْهَب ويَجِيءَ؛ وَلهذا قَال النّبيّ عليه الصلاة والسلام: "أَصْدَقُ الأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ"، لأَنَّ الإنسان دَائمًا يهتَمُّ ويحرث ويطْلُب رزقه.

الفائِدَةُ الثّامِنةُ: مِنْ فَوائِد الآيَةِ ومَا بعْدَها مِنَ الآيَات مِنّةُ الله عز وجل عَلَى عِبَادِهِ بتَنْبِيهِهِمْ إِلَى آيَاتِه، يعْنِي أنَّ الله عز وجل مَنَّ عَلَى العِبَادِ بتَنْبِيهِهِمْ إِلَى الآياتِ، ولَمْ يَكِلْهُمْ إِلَى مَا في فِطَرِهم مِن الاعتِرافِ بالخالِق، بَل أعَانَهُم عَلَى ذَلِك وأمَدَّهُم بالتَّنبيهِ عَلَى مَا فِي هَذا الكَوْنِ مِنْ آياتِه فَفِيها مِنّةٌ عظِيمَةٌ لأَنَّ الإنْسَانَ كَما قَالَ الله عز وجل بَشَرٌ يَغْفُل وَينْسَى فيُنبهُه الله عز وجل.

الآية (٢١)

* قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ فَخُلِقَتْ حَوَّاءُ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ، وَسَائِرُ النَّاسِ مِنْ نُطَفِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ وَتَأْلَفُوهَا ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ جَمِيعًا ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المَذْكُورِ ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي صُنع الله تَعَالَى] اهـ.

بَدأ أوّلًا بخلْقِ النّفْسِ، ثمَّ بخَلْق الزَّوْجِ؛ لأنَّهُ لَا يَتمُّ التّناسُلُ إلا بالأَزْوَاجِ، ونَقُولُ في قوْلِه تَعالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ كَما قُلْنَا فِي قوْلِه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم﴾ أنَّ معْنَى قوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أيْ مِنْ ذَوَاتِكُم، فعَلَى رأْيِ المُفَسِّر المُرادُ بالنّفْسِ هُنَا الذّاتُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾: (اللامُ) للاخْتِصاصِ وليْسَت لِلمُلْكِ؛ لأَنَّ الإنْسَانَ لَا يمْلِكُ زوْجَتَه، ويُحْتَملُ أنْ تَكونَ للتَّعْلِيل كَما فِي

قوْلِه تَعالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، أيْ خَلَق لأجْلِكُم، لكِنَّ المَعْنى أبْلَغُ فِي الإنْعَامِ، حيْثُ إنَّ كُلَّ إنْسَانٍ زوْجَتُه تخْتَصُّ بِه؛ وَلهذا لَا يجوزُ للْمَرْأَةِ أنْ تتَزَوَّجَ أكْثَر مِنْ رَجُلٍ فِي آنٍ واحِدٍ.

قوْله تَعالَى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: مشَى المُفَسِّر عَلَى أنَّ المُرادَ بالنّفْسِ الذّاتُ، وأنَّ (مِن) للتَّبْعِيضِ، يعْنِي أنَّ نَفْسَ هَذِهِ الزّوجَةِ مِن نَفْسِ الإنْسَانِ، جُزْءٌ منْهُ؛ وَلهذا فسَّرهُ المُفَسِّر رحمه الله بخَلْق حوَّاءَ مِنْ ضِلْع آدَمَ وسَائِرَ النّساءِ مِن نُطَفِ الرّجال والنّساءِ.

ويُحْتَملُ أنَّ المُرادَ بالنّفْس الجِنسُ، كَما قالَ الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، يعْنِي مِن جنْسِكُم ولَيْس المُرادُ مِن أنْفُسكُم، أيْ مِن نَفْسِ الإنْسَانِ إلّا باعْتِبارِ حوَّاءَ؛ فإنَّها خُلِقَتْ مِن ضِلْع آدَم عليه السلام، فالمُرادُ بالنّفْسِ الجِنْس، ويُؤَيِّدُ هَذا المَعْنى قوْلُه تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾؛ فإنَّ الإنسانَ يسْكُن إِلَى بَني جنْسِه دُونَ غيْرِهم، فلَو كانَتِ المرأةُ تخالِفُ الرّجلَ وليْسَت مِن جنِسِه لَكانَ في ذَلِك مشْكِلَة ولَا يُمْكِنُه أنْ يسْكُنَ إِلَيْها، ومَا حصَل بَيْنَهُما ائْتِلافٌ

ومودَّةٌ لبُعْدِ الفَرْقِ بَيْنَهُما؛ لهذا جعَلَها الله سبحانه وتعالى مِنْ جنْسِه؛ لأجْلِ أنْ يسْكُن إِلَيْها، لكِنَّ المُفَسِّر رحمه الله يُريدُ أنَّ المرادَ بالنّفْس في ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الذَّات، أيْ مِن ذَواتِكُم، بِدَلِيل أنَّه فسَّرها بآدَم، خُلِقَت منْهُ حوَّاءُ، وبَقِيَّةُ النّاسِ خُلِقوا مِنَ النُّطَفِ التي مِن الإنْسَانِ الذّكر والأُنْثى، ولكِنَّ الَّذي ذكَرْناهُ أوْجَهُ؛ بدَلِيلِ قوْلِه تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، إذ إنَّ هَذا التّعْلِيلَ يُناسبُ أنْ يكُونَ المُراد بالنَّفس أيْ الجِنْس، عَلَى أنَّه لا يَمْنَعُ أنْ تَكُونَ النّساءُ مخلوقَةٌ مِن ذَواتِ الرِّجالِ؛ لأنَّ مَا ذَكَرَهُ المُفَسِّر رحمه الله صحِيحٌ، لكِنَّ التّعْلِيلَ يُؤَيِّدُ القَوْلَ الأوَّلَ.

قوْله تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾: اللَّامُ للتَّعْليلِ، أي لأَجْلِ أنْ تسْكُنوا، وهِي مُعلِّلَة لقوْلِه تَعالَى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، والسّكُونُ معْناهُ الاستِقْرارُ، ومنْه السُّكْنى في البَلدِ اسْتِقْرارُه فِيها، فقوْلُه تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ مِن السُّكونِ، وهُوَ عدَمُ النُّفورِ مَنَ الشّيْءِ، لأَنَّ السّاكِنَ هُو المسْتَقِرُّ؛ وَلهذا نقُول لمن في البيْتِ أنَّه ساكِنٌ مِن السُّكْنى، فالمَعْنى: لتستَقِرُوا وتطْمَئِنُّوا لها وتألَفُوها كَما قَال المُفَسِّر رحمه الله.

قوْله تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾: ضَمَّن السّكونَ معْنَى المَيْل؛ فعَدَّاه بـ (إلى)، إِذْ لم يقُلْ لتسْكُنوا منْهَا ولَا عنْدَها، ولكِنْ ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، وَلهَذا كَان الرّجُل ميَّالًا بطبْعِه إِلَى المَرْأَةِ وسَاكِنًا إِلَيْها، وَلا سيَّما إِذا وُفِّق لامْرَأةٍ تكُونُ مُلائِمَةً لَهُ، فَإِنَّ هَذا يبْدُو ظاهِرًا جِدًّا مِنَ التَّعلِيل.

قوْلهُ رحمه الله: [﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ جميعًا]: هل المُراد بيْن الزّوج وزوجَتِه، أوْ بيْنَ النّاس جميعًا؟ كلامُ المُفَسِّر يقْتَضي العُمُومَ، لكِنَّ ظاهِرَ السِّياقِ يخْتَصُّ بالمَرْأَةِ وزَوْجِها، فإِنَّ هَذِهِ المرأةَ الأجْنبِيَّةَ التي لا تعْرِفُها ولَا تعْرِفُك مِنْ قَبْلُ إِذا تَمَّ العَقْدُ بيْنكُما ألقَى الله تَعالَى في قُلوبِكُما المودَّةَ والرّحمةَ.

قوْله تَعالَى: ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾: المَودَّةُ: خالصُ الحبِّ. والرّحمةُ: الرّأفَةُ والحُنُوُّ والعَطْفُ، وهَل هَذا عَلَى سَبيلِ التّوزِيعِ أوْ عَلَى سَبيلِ الجمْع، بِمَعْنى: هَلِ المودَّةُ مِنَ المَرْأَةِ للرَّجُل والرّحمةُ منْهُ لهَا، أوْ أنَّه عَلَى سَبيلِ الجمْعِ أيْ كُلّ واحِدٍ منْهُم يَوَدُّ الآخَرَ وَيرْحَمُه؟ والظّاهِرُ أنَّهُ عَلَى سبيلِ الجمْعِ، فالمودَّةُ في قلْبِ المَرْأَةِ، والرّحْمَةُ في قلْبِ الرّجُل؛ لأنَّهُ هُو الَّذي لَهُ السُّلْطانُ علَيْها،

وهِي التي تَميلُ إِلَيْهِ، فتكُونُ المودَّةُ منْهَا والرّحْمَةُ منْهُ، فيَكُون الوَصْفانِ مُوزَّعَيْنِ عَلَى الزّوْجِ والزّوجَةِ.

والأقْرَبُ أنَّ الوَصْفَيْنِ لكُلٍّ مِن الزّوْجَيْنِ يعْنِي أنَّ المودَّةَ تكُونُ بَيْنَ الزّوجِ وزوْجَتِه، وَكَذلِكَ الرّحمَةُ تكُونُ بيْنَ الزّوْجِ وزوْجَتِه، هَذا هُو الأقْرَبُ وهُوَ الَّذي يُؤَيِّدُه الوَاقِعُ أيْضًا، فإِنَّ المَرْأَةَ إِذا ودَّتْ زوْجَها يكُونُ فِيها رحْمَةٌ لوْلَا أنَّ الأمَّ أرْحَمُ النِّساءِ، لقُلْنا أنَّها مثْلُ رحْمَةِ الأمِّ؛ ولِهَذا تَجِدُها تتْبَعُ زوْجَها وتدَعُ أُمَّها وأبَاها وأهْلَها ووَطَنَها؛ ولِهَذا تجِدُها تُلاحِظُه إِذا مَرِضَ، وتجِدُ أنَّه يجِدُ مِن عِنايَتِها أكْثَر مِمَّا يَجِدُ مِن عِنَايَة أَبِيهِ وأُمِّهِ بِه، وتَحْزَنُ إِذا حَزِن وتُسَرُّ إِذا سُرَّ، وإِذا كانَتِ الحالُ بَيْنَهُما جيِّدَةً يُمْكِنُ أنْ تَبِيعَ كُلَّ مَا تمْلِكُ مْن أجْلِ راحَتِه وإِسْعَادِهِ، حتَّى إِنَّ بعْضَ النّساءِ تَبِيعُ حُلِيَّها ومَا زَاد عَنْ ضَرورَتِها مِن الثّيابِ مِنْ أجْلِ الرَّحمَةِ بزَوْجِها، هَذا لا شَكَّ أنَّه رحْمَةٌ.

وبالنِّسبة للرَّجُل كَذَلِكَ ظاهِرٌ، فإِنَّ مودَّةَ الرَّجلِ لزَوْجَتِه أمْرٌ لا يُنْكَرُ، وَكَذلِكَ رحْمَتُه إيَّاها أمْرٌ لا يُنْكَرُ، وأمَّا المودَّةُ فظَاهِرَةٌ ولَوْلا قُوَّةُ المودَّةِ بيْنَ الزَّوْجَيْنِ مَا حصَل الاتِّصالُ بَيْنَهُما الَّذي أرادَهُ

الله عز وجل لأجْلِ أنْ تكْمُل هَذِهِ الخليقَةُ وتنْمُو، فمِنْ أجْلِ هَذا جعَلَ الله تَعالَى المودَّةَ والرّحْمَةَ.

وَقالَ ابْنُ الجوْزِيِّ فِي (صَيْد الخاطِرِ) قَالَ: لوْلَا أنَّ الله سبحانه وتعالى بحكْمَتِه قَضَى أنْ تَبْقَى هَذِهِ الخلِيقَةُ لكَانَ الاتِّصَالُ بَيْن الزَّوْجِ وزَوْجَتِه مِنْ أقْبَح الأُمورِ، فكُلٌّ واحِدٍ منْهُما يكْشِفُ عوْرَتَهُ للآخَرِ، ثمَّ يحْصُل هَذا الشّيءُ الَّذي قدْ يكُونُ مسْتكْرهًا في أذْوَاقِ بعْضِ النّاسِ، لكنْ جَعل الله سبحانه وتعالى هَذِهِ المودَّةَ بَيْنَهُما لأَجْلِ أنْ تَسْتقِيمَ الأُمورُ وتَنْمُوَ الخليقَةُ، وَهَذا صحِيحٌ، وَهَذا حقٌّ فلوْلَا أنَّ الله جعَل هَذا الأمْرَ مودَّةً مَا حصَل الاتِّصالُ بيْنَ الزَّوْجَيْنِ، ولِهَذا كلَّما كانَ الزَّوْجُ أوِ الزّوْجَة بعضُهم لبعْضٍ كارِهًا قَلَّ الاتِّصالُ بَيْنَهُما.

والجمْعُ بيْنَ المودَّةِ والرّحْمَةِ مِنْ أبْلَغ مَا يكُونُ لأنَّهُ إذا كانَ أحدُهما محُتاجًا إِلَى الرَّحمَةِ حلَّتِ الرّحمَةُ وزادَتْ عَلَى المودَّةِ، والعَكْسُ بالعَكْسِ، وإذا اجْتَمع مودَّةٌ ورحْمَةٌ فإِنَّهُ يَنْشَأُ مِن هاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ صفَة أقْوَى مَمَّا لوِ انْفَردَتْ إحدَاهُما، ولِهَذا تجِدُ الإنْسانَ ينْظُر إِلَى الفقِيرِ نظرَةَ رحْمَةٍ لَا مودَّةٍ، لكِنْ إذا اجْتمَعَتِ الرَّحمةُ مَع المودَّةِ تولَّدَ مِن هَذا صفَةٌ أعْلَى مِنَ انْفِرَادِ كُلِّ واحِدَةٍ بنَفْسِها.

قوله رحمه الله: [«إِنَّ فِي ذَلِكَ» المَذْكُورِ ﴿لَآيَاتٍ﴾]: (اللام) للتَّوْكيدِ، والآيَاتُ جمع أيةٍ، وتأمَّل قوْلَه تَعالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، ثمَّ قالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا هَذا التّنَافُر، حيْثُ قالَ فِي أوَّلِ الآيَة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾؟

قُلْنَا: لا تنَافُرَ في الواقِعِ، أوّلًا لأنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ للتَّبْعيضِ، وبَعْضُ الآياتِ قدْ يَكونُ آيةً واحِدَةً، وقدْ يَكُونُ أكْثَر مِنْ آيَةٍ، ثمَّ إنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ هَذهِ أرْبَعُ آيَاتٍ، فيَكُونُ في أصْلِ الخلْقِ آيَةٌ واحِدَةٌ، لكِن فِي أوْصَافِ هَذا الخلْقِ المتطَوِّر آياتٌ، والمُفَسِّر رحمه الله بيَّن أنَّ اسْم الإِشارةِ وإِنْ كَان مُفْردًا لكِنَّهُ عائِدٌ إِلَى متَعَدِّدٍ. فقولُه: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ هَذهِ آيَةٌ، وكوْنُها مِن النَّفْسِ آيَةٌ أخْرَى، و﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ هَاتَان آيتَانِ، فالجمِيعُ أرْبَعُ آياتٍ كَما تقدَّمَ، والتّعبيرُ بكَلِمَةِ (ذلك) بيَّن المُفَسِّر أن السَّببَ فِيه أنَّ اسْمَ الإِشَارةِ يعُودُ إِلَى المذْكُورِ وإِنْ كَان أكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ أي: متعدِّدًا، وَهَذا كَثِيرٌ في اللُّغَةِ العرَبِيَّةِ وَفِي القْرآنِ أيْضًا.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾: نصبت (آيات) لأنَّهَا اسْمُ (إنَّ) مؤخَّرًا.

واعْلَمْ أنَّ هَذِهِ الآيَاتِ تكُونُ مِن كُلِّ صفَةٍ مِن هَذِهِ المذكورَاتِ الأَرْبَعِ، وتَكُونُ فِي اجتمَاعِها، ولكنَّها تحْتَاجُ إِلَى تأَمُّلٍ وإِلى تفَكُّرٍ، ولِهَذا قال المُفَسِّر رحمه الله [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي صُنع الله تَعالَى]؛ أيْ فِي خَلْقِه، ولكِنَّ المَعْنى أعَمُّ مِن ذَلِك، أيْ: يتَفَكَّرونَ فِي صُنْعِه وهُوَ الخَلقُ وفي حِكْمَتِه وفي رَحْمَتِه وفي غَيْرِ ذَلِك مِمَّا يتعَلَّق بِهَذا المَعْنى.

وهَلِ المودَّةُ في أوَّلِ الحياةِ الزَّوجِيَّةِ والرَّحمَةُ بعْدَ الأوْلادِ؟

هَذَا خِلافُ الظَّاهِر؛ لأَنَّ الظّاهِرَ أنَّ المودَةَّ والرّحمَةَ مُقتَرِنَانِ.

وهَلْ يُتبادَلانِ بَعْد العَقْدِ أوْ بعْدَ الاتِّصالِ أوْ بعْدَ المعامَلَةِ؟

الجوابُ: هَذا يَرْجعُ إِلَى ما يَجْرِي بيْنَ الزَّوْجَيْنِ، أمَّا المودَّةُ فالظَّاهِرُ أنَّها تكُونُ مِنْ قبْلُ، مِنْ حِين أنْ يَخْطُبَ المَرْأَةَ وتُوافِقَ، لا تنْشَأُ هَذِهِ الخطْبَةُ والموافَقَةُ إِلَّا عنْ مودَّةٍ، لكنَّها تنْمُو وتَزِيدُ بحسَبِ الاتِّصالِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى:: الفائِدَةُ الأولَى: رحْمَةُ الله تبارك وتعالى بِنا حيْثُ جعَل أزْوَاجَنا مِنْ أنْفُسِنا، أيْ مِنْ جِنْسِنا، فَفِيها نعْمَةُ الله عز وجل لكَوْنِ الأزْوَاجِ مِنَ الأنفُسِ، أيْ مِنَ الجِنْس ليتَحَقَّق بِذَلِك أغراضُ النكّاحِ ومقاصِدُه.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أنَّ مِن أهَمِّ أغْرَاضِ النِّكاح ومقاصِدِه السُّكُونَ إِلَى الزّوجَةِ، والاطْمِئْنانَ إلَيْها والحياةَ مَعها حيَاةً سَعِيدَة، فالحِكْمَةُ مِن الزَّوجيَّةِ هِي السُّكونُ، أيْ سُكُونُ أحدِ الزَّوْجَيْنِ إِلَى الآخَرِ، ويتفرَّعُ عَلَى ذَلِك أنَّه لَوْ حَصَلَ التَّنافُرُ فإِنَّ مِن الحِكْمَةِ التَّفريقَ بَيْنَهُما؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، فإذا فاتَتْ هَذهِ الحكْمَةُ فإِنَّهُ لا زَواجَ؛ ولِهَذا لما فاتَتِ الحكْمَةُ بيْنَ ثابِتِ بْن قيْسٍ وزوجَتِه قالَ الرّسولُ - ﷺ -: "خُذِ الحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا"، وكيْفَ يُمْكِنُ أنْ تسْتَمِرَّ الزَّوجِيَّةُ بينَ زوجَيْنِ يتباغَضَان ويتنَافرانِ وكُلٌّ واحدٍ منْهُما يُحبُّ أنْ يَرى المَوْتَ ولَا يَرَى صاحِبَه؟ ! فالإِنْسَانُ إذا رأَى عدَم السُّكونِ ولَمْ تلْتَئِمِ الحالُ يَنْبَغِي لهُ أنْ يُفارِقَ، ولِهَذا قالَ أهْلُ العِلْمِ إِنَّ الطَّلاقَ يُستَحَبُّ لتَضَرُّر المرأةِ بالبَقاءِ مَع الزَّوجِ، فلَو كانَتْ تتضَرَّرُ ولا تسْتَأْنِسُ معَ الزَّوج لَا ينْبَغِي أنْ يُكْرِهَها عَلَى أنْ تَبْقى مَعَهُ، فإِنَّ بعْضَ النّاسِ - والعياذُ باللهِ -

يُكْرِهُونَهنَّ عَلَى البقَاءِ أو يَعْضِلُونَهُنَّ لأجْلِ أنْ يفْتَدِينَ ويُسَلِّمْنَ مبالِغَ مِن المالِ مِنْ أجْلِ أنْ يُطلِّقَها، كُلُّ هَذا حرامٌ، والَّذي ينْبَغي إذا رَأَيْتَ مِن الزّوْجَةِ أنَّها لا تسْتَطِيعُ أنْ تعِيشَ معَك عِيشَة سَعِيدَةً فيَنْبَغي لكَ أنْ تُطلِّقَها، والنّبيُّ - ﷺ - يقولُ: "مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُؤْمنٍ كرْبَةً مِنْ كربِ الدُّنْيَا فَرَّجَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كرب يَوْمِ القِيَامَةِ"، ويقولُ - ﷺ -: "وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ"، وَفي القُرْآنِ ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠]، فأَنْتَ إذا نَوَيْتَ الخيْرَ بالتّوْسِعَةِ عَلَى هَذِهِ المَرْأَةِ وفارَقْتها فلعَلَّ الله تَعالَى أنْ يُيسّرَ لكَ الأمْرَ بِحُصولِ زوْجة تألفُها وتألفُك.

المُهِمُّ: أنَّ مِن أهَمِّ أغْراضِ النِّكاحِ السّكونَ والطُّمأنِينَةَ إلَى الزَّوجَةِ والحياةَ حياةً سعِيدةً.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: ما ألقَى الله تَعالَى في قُلوبِ الزَّوجَيْنِ مِن المودَّةِ والرَّحْمةِ، هَذَا مِنَ الآياتِ العظِيمَةِ، امْرأةٌ لَا تعْرِفُها إلَّا بالذِّكر عنْدَ خِطْبَتِها وليْسَ بيْنَك وبيْنَها قرَابَةٌ ثمَّ يَجْعَلُ الله بيْنَ قُلوبِكُما مِنَ المودَّةِ والرَّحْمةِ مَا يرْبُو أحْيَانًا عَلَى مودَّةِ الأُمِّ والأَبِ، وَهَذا لا شَكَّ أنَّه مِنْ آيَاتِ الله؛ ولِهَذا قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ

مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، جَعَلَ الله في هَذِهِ الآية الصَّهر قَسِيمًا لِلنَّسبِ، يَعْني كأنَّ البشَرِيَّةَ إمَّا مُصاهَرَةٌ وإمَّا قرابَةُ نَسَبٍ.

الفائِدَةُ الرّابعةُ: أنَّ المودَّةَ لا تُنالُ بالكَسْبِ، يعْنِي أنَّ الله قَدْ يجْعَلُها فِي قلْبِ الإنسانِ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، يعْني أنْتَ لوْ أرَدْتَ أن تُجْبِر نفسَكَ عَلَى محبَّةِ شَيْءٍ واللهُ عز وجل لم يجْعَلْ في قلبِكَ مودتَه فلَنْ تحبَّه، ولِهَذا مَنَّ الله عَلَى المؤْمِنينَ بقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، وأنْتَ تقُولُ فِي الدُّعاءِ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أسْألُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ العَمَلِ الَّذِي يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ".

إِذَنْ: فالمودَّةُ يُلقِيها الله عز وجل فِي القَلْب، فأنْتَ ينْبَغِي لَك أن تَسْأَل الله دَائِمًا أنْ تَكُونَ محبّتك للهِ وِفي الله لِتكُونَ المحبَّةُ بِاللهِ.

الفائِدَةُ الخامسةُ: أنَّ مَا ذُكِر ليْسَ آيَةً واحِدَةً؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾، ثمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾: أولًا: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ

أَنفُسِكُمْ}، ثانِيًا: ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فتكونُ آياتٍ متعدِّدَةً.

الفائِدَةُ السادسةُ: وُجوبُ التّراحُمِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَرَحْمَةً﴾.

وهَلْ يُؤخَذُ منْهَا وُجوبُ معالجَةِ الزَّوجَةِ إذا مَرِضَتْ لأنَّهَا مِنَ الرَّحمَةِ؟

الفقهاءُ يقُولونَ: لَا يَجِبُ أنْ تُعالِجَها، ولَا يَجِبُ أنْ تُعطِيها قِيمَةَ الدَّواءِ؛ لأَنَّ هَذا ليْسَ مِن النّفَقَةِ، وكَوْنُ الله يجْعَلُ بيْنكم رحمَةً ليْسَ معْنَاهُ أنْ يُلْزِمَك بِشَيْءٍ لَا يلْزَمُكَ، إنَّما هَذا بَيَانٌ للوَاقِع وَهَذا صَحِيحٌ، فالرَّحمَةُ تُوجَدُ لكِنْ هَل تلْزَمُه؟ هَذا محَلُّ نظَرٍ؛ ولِهَذا قالَ الفُقهاءُ أنَّه لا يَلْزَمُ الدَّواءُ وأُجْرَةُ الطَّبيبِ، وبعْضُ العُلَماءِ يقُولُ: يَلْزَمُ إلَّا إذا كانَ الشّيْءُ كثِيرًا يجْحَفُ بِمَالِه فإنَّهُ لَا يلْزَمُه.

الفائِدَةُ السابعةُ: إثْبَاتُ حِكْمَةِ الله وقدُرَته ورحْمَتِه أيْضًا، حيْثُ جعَل بَيْنَ الزَّوجَيْن مودَّةً ورحْمَةً.

الفائِدَةُ الثَّامنة: الرَّدُّ عَلَى الجهْمِيَّةِ وَكَذلِكَ الأشَاعِرَةِ الَّذِين ينْفُونَ حكْمَةَ الله عز وجل، وأمَّا المُعتَزِلَةُ فإنَّهم يغْلُونَ فِي إثْبَاتِ الحكْمَةِ؛ ولِهَذا يرَوْن أنَّه يجِبُ عَلَى الله فِعْلُ الأصْلَحِ أوِ الصَّلاحِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: المُبتَدِعَةُ في ردِّهم للصِّفاتِ هَلْ هُمْ يبْنُونَ عَلَى مقدِّماتٍ عقْلِيَّةٍ متَّفَقٍ عليْهَا بيْنَهُم، أمْ أنَّ كُلَّ واحِدٍ منْهُم يُعَلِّلُ بعَقْلِه؟

قُلْنَا: بِعَقْلِه، كُلُّ واحدٍ منْهُم يُعَلِّلُ فيخْتَلِفُونَ في تعْلِيلِ هَذا الرَّدِّ، أحْيَانًا يقُولُونَ أنَّه يستَلْزِمُ الجسْمِيَّةَ، ولكنَّ غالِبَ ما يدُورُونَ أنَّها مستَلْزِمَةٌ للتَّمْثِيلِ، فيَخْتَلِفُونَ فِي الطُّرُقِ الموَصِّلة إلَيْه.

الفائِدَةُ التاسعةُ: الثَّناءُ عَلَى التَّفْكِير؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فإنَّ هَذا واضِحٌ أنَّه محَلُّ ثنَاءٍ لَهُم.

الفائِدَةُ العاشرة: الحثُّ عَلَى التّفكُّر، تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأَنَّ التّفَكُّرَ مِفْتَاحُ العِلْمِ، ولَا يُمْكِنُ عِلْمٌ بلا تفَكُّرٍ أبدًا، تفَكَّرْ أولًا، لتَعْلَمَ، فالتّفْكِيرُ ينْفتِحُ بِه أبوابٌ كثِيرةٌ يعْرِفُ الإنسانُ بِها مْن أحكَامِ الله وحِكَمَهِ ما لا يَحْصُل لَهُ لَوْ لم يُفَكِّرْ؛ لأنَّهُ خصَّ الآياتِ بالقَوْم الَّذِين يتفكَّرُون،

فدَلَّ هَذا عَلَى أنَّه يحْصُل بالتّفكُّرِ مِن الاطِّلاع عَلَى أحكَامِ الله وحِكَمِه ما لا يحْصُل بالغفْلَةِ.

التّفكُّر يكُونُ في آيَاتِ الله، أيْ مخلُوقاتِه ومشْرُوعاتِه؛ لأَنَّ الآيَاتِ كَما سبَق إمَّا كَونيَّةٌ، وإمَّا شرعِيَّةٌ، يحْصُل التّفكُّر فِي صفاتِ الله مِن وَجْه المَعْنى، أمَّا مِن حيْثُ الكيفيَّةُ فَلا يَجُوزُ التّفكُّرُ في الصِّفاتِ؛ لأَنَّ ذَلِك محاوَلَةٌ لما لَا يُمْكِنُ الحصولُ علَيْهِ؛ ولِهَذا قَال الإِمَامُ مالِكٌ رحمه الله: "السُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ"، فَلا يجُوزُ أنْ نتفَكَّر في كيْفِيَّةِ صفَةٍ مِن صفاتِ الله، بلْ نتفَكَّرُ في المَعْنى دُونَ الصِّفَة.

ومثْلُه التّفَكُّر في ذَاتِ الله عز وجل، فلا يَجُوزُ؛ لأَنَّهُ محُاوَلةٌ لما لَا يُمْكِنُ الوُصولُ إِلَيْهِ، ثمَّ التّفْكيرُ في هَذهِ الأمُورِ يجُرُّ إِلَى بَلايَا ومهَالِكَ، والَّذي ضَرَّ مَنْ ضُرَّ مِن أهْلِ التّعْطِيل وأهْلِ التَّشبيهِ هُو محاوَلَتُهم الوصولَ إِلَى الكَيفيَّة؛ فلِهَذا آلَ بِهِمُ الأمْرُ إِلَى التَّعْطِيلِ أو التَّمْثيلِ.

والمُهِمُّ: أنَّ التّفَكُّرَ يكُونُ في مخلُوقاتِ الله وفِي مشْرُوعاتِهِ وفِي معَانِي أسمَائِه وصِفَاتِهِ، أمَّا في ذَاتِه وكيفيَّةِ صفَاتِه فإِنَّهُ لا تفَكُّر، وَذَلِكَ لأنَّه مهْما بلَغ الإنسانُ فإنَّ الفِكْر سيَرْجعُ خاسِئًا وهُو

حَسيرٌ، والإعْراضُ عنْ هَذا هُو الوَاجِبُ، كَما قَال الإِمَامُ مالِكٌ رحمه الله.

الآية (٢٢)

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

قال المُفَسِّر رحمه الله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أَيْ لُغَاتكُمْ مِنْ عَرَبِيَّة وَعَجَمِيَّة وَغَيْرهَا ﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ مِنْ بَيَاض وَسَوَاد وَغَيْرهمَا وَأنتُمْ أَوْلَاد رَجُل وَاحِد وَامْرَأَة وَاحِدَة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ دَلَالَات عَلَى قُدْرَته تَعَالَى ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ بِفَتْحِ اللَّام وَكَسْرهَا أَيْ ذَوِي العُقُول وأولي العلم] اهـ.

اعلَمْ أنني راجَعْتُ الكثير من التَّفاسِير فَمَا وجَدْتُ الحِكمَة في أنَّه سبحانه وتعالى يقُولُ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ﴾، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم﴾، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾، يعْنِي ما رأَيْت أحدًا بَيَّن الحِكْمَة فِي كوْنِه يأْتِي مرَّةً بالمَصْدَرِ، ومرَّةً بِـ (أَنْ) الدّاخلَةِ عَلَى الفِعْل، هِي تُؤَوَّلُ

بمصْدَرٍ، لكَنْ هَل نقُول إِنَّ هَذا مِنْ بَابِ الاخْتِلاف في التّعْبير المُراعَى بِه جانِبُ اللَّفْظ، أوْ أنَّه مِن بابِ التَّعبيرِ المُراعَى بِه جانِبُ المَعْنى؟ فَإِنْ قُلنا أنَّه مِن بَابِ التَّعبير المُراعَى به جَانِبُ اللَّفْظُ فالأَمْر بَسِيطٌ، ونَقُول إِنَّ الله تَعالَى غايَرَ بَيْن العِباراتِ لأَجْلِ أنْ لَا يَمَلَّ السَّامِعُ إِذا كَان الكَلامُ عَلَى وَتِيرَةٍ واحِدَةٍ؛ لأَنَّ الاخْتِلافَ في التَّعبِيرِ ممَّا يَزِيدُ الإنسانَ نَشاطًا وتجَدُّدًا، أمَّا إِذا قُلْنا إِنَّ هناكَ أمْرًا معنَوِيًّا فأنَا إِلَى الآنَ مَا عرَفْتُه، ولا ذَكرَه الزّمخشَرِيُّ ولَا أَبُو السُّعودِ، ولَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ يتكلَّمُونَ عَلَى مثْلِ هَذِهِ الأُمُورِ.

قوْله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ خبَرٌ مقَدَّمٌ، و﴿خَلَقَ﴾ مبْتَدأٌ مؤَخَّرٌ، وخلْقُ السَّمواتِ: أيْ إيجادُهَا بتَقْدِيرٍ ونظامٍ بدِيعٍ، وَهَذا يشْمَلُ خلْق هَذهِ السّموات باعْتِبارِ كَوْنِها أجْرَامًا عَظِيمَةً وباعْتِبارِها مصْلَحةً للعْبَادِ، فهَذا مِن آياتِ الله، فمِنْ آيَاتِه العَظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِه ورَحْمَتِه وحِكْمَتِه خَلْقُ السّموَاتِ وَالأرْضِ، والسَّمواتُ جمْعٌ وجَمْعُها ظَاهِرٌ لأنَّهَا سبْعُ سمَواتٍ، والأرْضُ مُفْرَدٌ، ولكِنَّ المُرادَ بِه الجِنْس؛ لأَنَّهُ لا شَكَّ أنَّ الأرَضِينَ سبْعٌ، والدَّلِيلُ قوْله تَعالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ

سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، والمِثْلِيَّةُ هُنا لَا يُمْكِنُ أنْ تكُونَ فِي الصِّفَةِ أبَدًا، إذْ لا يُمْكِنُ أنْ تكونَ الأرَضونَ مثْلَ السّموَاتِ فِي الصّفةِ لِظُهورِ الفَرْقِ التَّامِّ بَيْنَهُما، فإذا تعذَّرَتِ الصِّفَةُ رجَعْنا إِلَى العَدَدِ، أيْ ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فِي العَدَدِ، ثمَّ جَاءَتِ السُّنَّةُ مُبَيِّنَةً ذَلِك صَرِيحًا، مثْلَ قولِه - ﷺ - في الحديث الصَّحِيح المُتَّفَق علَيْهِ: "طَوَّقَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ".

وقوله رحمه الله: ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾: أيْ لُغَاتِكُمْ مِنْ عَرَبِيَّةٍ وَعَجَمِيَّةٍ وَغَيْرِهَا]: اختلاف معطُوفَةٌ عَلَى (خلْق) يعْنِي ومنْ آيَاتِه أيْضًا اختِلافُ ألسِنَتِكُم، وصَحِيحٌ أنَّ اختِلافَ الألسِنَةِ مِن آيَاتِ الله بحسَبِ اللُّغاتِ عرَبِيَّةً وعجَمِيَّةً وغيْرَها، إنْ أرَدْنا بَالعَجَم اسْم القَوْمِ الخاصِّ، فكَلِمَةُ (غيْرَها) صحِيحَةٌ، وإذا أرَدْنا بِالعَجَمِ مَنْ سِوى العَرَبِ فإنَّ قوْلَه: (وَغَيْرَهَا) ليْسَ بِصَحِيحٍ، وَهَذا هُو الأَفْضَلُ أنَّه يُقَال: (عَرَبٌ وَعَجَمٌ) ويُراد بالعَجَم مَا سِوى العَربِ، فيَشْمَلُ جَمِيعَ لُغاتِ العالَم، ثمَّ إنَّ اختِلافَ الألسِنَة أيْضًا قَدْ نُنْزِلُه عَلَى اختِلَافِ اللُّغَة نفسِها، واخْتِلافِ النُّطقِ نفْسِه، فأَنْتَ تَرى الإنْسَانَ ينْطِقُ بخُروجِ الهَواءِ مِنَ الرِّئَتَيْنِ، ثمَّ مُرورِهِ عَلَى مخَارِجِ الحُروفِ، كُلَّما مَرَّ عَلَى مخْرَجٍ تغَيَّر والهَواءُ واحِدٌ، فإذَا

مَرَّ عَلَى مخْرَجِ الصَّادِ صَار صَادًا، وإِذَا مرَّ عَلَى مخْرَجِ الجِيمِ صَار جِيمًا، وَإِذا مَرَّ عَلَى مخْرَجِ الدَّالِ صارَ دالًا، مَع أنَّ الهواءَ واحِدٌ، ثمَّ إنَّه أيْضًا لَا يحْتَاجُ إِلَى عمَلِيَّةٍ؟ فهَل نَجِدُ تَعبًا بنَقْلِ البَاء إِلَى النُّونِ إِلَى القَافِ إِلَى اللَّام، فَهُو شَيْءٌ واحِدٌ ومَع ذَلِك تجِدُ الحُروفَ تتَنَوَّعُ بمُرورِها عَلَى هَذهِ المخَارِج، فَهذا أيْضًا مِنْ آيَاتِ الله العظيمَةِ، وهُوَ دَاخِلٌ في قوْلِه تَعالَى: ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾.

فاخْتِلافُ الألسِنَة أيْضًا مِن آيَاتِ الله ووجْهُ ذَلِك أنَّ هَذِهِ الألسُنَ مِن نوعٍ واحِدٍ، أوْ مِن جنْسٍ واحِدٍ، كلُّنا بشَرٌ، وكلُّنا مِن أَبٍ واحِدٍ، ومَع ذَلِك تخْتَلِفُ الألسُن اختِلَافًا عظِيمًا، كَذَلِكَ أيْضًا هُوَ مِنْ آيَاتِ الله لأَنَّ كلَّ إِنْسَانٍ يعرِفُ جنسَه بلُغَتِه، أنا أعْرِفُ مثَلًا أنَّ هَذا هنْدِيٌّ، وَهَذا تُرْكِيٌّ، وَهَذا إنجْلِيزِيٌّ، وَهَذا ألمانِيٌّ، وَهَذا رُوسِيٌّ، بسَبَب لُغَتِه، وَهَذا أيْضًا مِن آيَاتِ الله أنْ جعَلَها دَلِيلًا عَلَى جِنْسِ الإِنْسَانِ.

وقوْله سبحانه وتعالى: ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يشْمَلُ أصْلَ اللُّغَة، وَيشْمَلُ اللَّهَجاتِ، ويشْمَلُ السَّلامةَ مِن العُيوبِ، ويشْمَلُ العُيوبَ أيْضًا، ويشْمَلُ الفصاحَةَ، ويشْمَلُ العِيَّ؛ لأَنَّ بعضَ النَّاس يُعَبِّر عنِ المَعْنى تعْبِيرًا يسْتَطِيعُ الإِقْنَاع إِذا أرَاد أنْ يُقْنِع، ويسْتَطِيعُ

التّنْفِيرَ إِذا أَرَادَ أنْ يُنَفِّرَ، وبعْضُ النَّاس عنْدَه عِيٌّ بحيْثُ أنَّه لا يسْتَطِيعُ أنْ يُعَبِّرَ حتَّى عنِ المَعْنى الصَّحيحِ حتَّى أنَّه إذَا عبَّر عن المعَانِي الَّتي يُريدُها، رُبما لا تُقبَلُ منْهُ لضعف تعْبيرِه، يعْنِي لا تَظُنَّ أنَّ اخْتِلافَ الألسِنَة فقَط في جِنْس اللُّغَةِ، لا بَلْ بِكُلِّ هذَا، فأجْنَاسُ اللُّغاتِ مِن آيَاتِ الله عز وجل، وكوْنُ هَذا الإنسانِ ينْطِقُ بالحُروفِ نُطْقًا تَامًّا، هَذا مِنْ آيَاتِ الله، والثَّاني بالعَكْس ينْطِقُ بِها عَلَى وجْهِ اللَّثْغَةِ أوْ يتثَاقَلُ أوْ مَا أشْبَه ذَلِك، كَذَلِكَ أيْضًا قدْ نَقُولُ: إنَّ مِن اخْتِلافِ اللِّسانِ اختلافَ الأصْوَاتِ، فهَذا صوْتُه جَيِّدٌ، وَهَذا حسَنٌ، والآخَرُ بالعَكْسِ، كَذَلِكَ مِن اخْتِلافِ الألسُن الفصاحَةَ وعدَمَها، فإنَّ مِن النَّاسِ مَن يُعطِيهُ الله تَعالَى بلَاغَةً فِي الكَلامِ وحُسْنَ أدَاءٍ حتَّى أنَّه يؤدِّي إلَيْك المَعْنَى بعِبارةٍ واضحَةٍ تفْهَمُها مِن أوَّلِ مرَّةٍ ومنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ بالعَكْسِ فجَمِيعُ مَا يمْكِنُ أنْ يَرد عَلَى اخْتِلَافِ اللِّسانِ فإنَّهُ داخِلٌ في كوْنِه مِنْ آيَاتِ الله عز وجل.

وقوْلُه رحمه الله: [﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ مِنْ بَيَاضٍ وَسوَادٍ وغَيْرِهِمَا]: هَذا صحِيحٌ، اخْتِلافُ الألوانِ مِن بَياضٍ وسَوَادٍ وغَيْرهما، أيْ مَا بيْنَ السَّوادِ والبَياضِ يعْنِي أسْودُ خالصٌ، وأَبْيضُ خالصٌ، ومَا بَيْنَهُما

هُو غيْرُهما، وَهَذا أيْضًا مِن آيَاتِ الله؛ وَلِهَذا لا تَكَادُ تَجِدُ اثْنَيْنِ متَّفِقَيْنِ فِي اللَّوْنِ أبَدًا حتَّى لَوْ كَانا توْأَمَيْنِ لا بُدَّ أنْ يكُونَ هناكَ اختْلافٌ، لكِنْ منْهُ ما يكُونُ ظاهِرًا، ومنْهُ مَا يكُونُ غَيْرَ ظاهِرٍ، إمَّا بمَيْلِه إِلَى الحُمْرَةِ أو إِلَى السَّوادِ أوْ إِلَى البَياضِ، أوْ يكُونُ الجلْدُ ليْسَ عَلَى وتِيرَةٍ واحَدَةٍ، وَهَذا شيْءٌ مُشاهَدٌ، فالرَّجُل الأبْيَضُ الأُوربِّي بيْنَه وبَيْن الرَّجُل الأسْوَد الَّذي عَلَى خطِّ الاسْتِواءِ فرْقٌ شاسِعٌ، ومَا بَيْن ذَلِك درَجَاتٌ متفاوِتَةٌ، لكِنْ لَا تكَادُ تَجِدُ اثْنَيْن عَلَى لوْنٍ واحِدٍ، هَذا مِنَ الحكْمَةِ؛ لأنَّهُ لوْلَا هَذا لَكَانَ النَّاسُ يختَلِفُ بعْضُهم عَلَى بعْضٍ، وربَّما طَالبُوا بحقُوقِهم مَنْ ليْسَ لهُمْ عنْدَه حقٌّ لمجرَّدِ الشَّبَهِ.

ويُقالُ أنَّ الله جعَل لكُلِّ إِنْسَانٍ أرْبَعِينَ شَبِيهًا، ولَكِنْ لَا أظُنُّ أنَّ هَذا يَصِحُّ، بَلْ إِنَّهُم يقُولونَ إنَّ البَصماتِ الَّتي في الأنَامِلِ تخْتَلِفُ، كُلُّ واحِدٍ لَهُ بصَمَاتٌ عَلَى شكْلٍ لَا يُوافِقُ الآخَرَ وَهَذا هُوَ الظَّاهِرُ، ولِهَذا تُعْتبَرُ البَصماتُ فِي التَّحْقِيقاتِ الجنَائِيَّةِ، ممَّا يدُلُّ عَلَى أنَّها تخْتَلِفُ قطْعًا، وَهَذا ممَّا يدُلُّ عَلَى قدْرةِ الله سبحانه وتعالى هَذا الاخْتِلافَ العظيمَ، ملَايِينُ المَلَايينِ مِنَ البَشَرِ، ومَع

ذَلِك كُلُّ إِنْسَانٍ لَا يُمْكِنُ أنْ يُطابِقَ الآخَر مِنْ كُلِّ وجْهٍ، لَا بُدَّ أنْ تَكُونَ هُناكَ علامَةٌ فارِقَةٌ.

قولُه رحمه الله: [وَأنْتُمْ أَوْلَادُ رَجُلٍ وَاحِدٍ وامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ]: صحِيحٌ، نحْنُ أوَّل مَا نشَأْنا مِن آدَم وحواء، ومَع ذَلِك نخْتَلِفُ هَذا الاخْتِلافَ العظِيمَ في الألوانِ، ولَمْ يذْكُرِ الله عز وجل الاخْتِلافَ في الأَجْسامِ مَا بَيْنَ صَغيرٍ وكَبيرٍ ومتَوسِّطٍ؛ لأَنَّ القُدْرَة عَلَى خَلْقِهم باخْتِلافِ ألوَانِهم أبْلَغَ مِنَ القُدْرَة باخْتلَافِ خلْقِهم عَلَى كِبَرِ أجْسَامِهِم وصِغَرِها؛ ولِهَذا ذَكر الألسِنَةَ والألوانَ.

قولُه رحمه الله: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِه تَعالَى ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ بِفَتْحِ اللَّامِ وكَسْرِها، أَيْ ذَوِي العُقُولِ وأُولِي العِلْمِ]: بفَتْح اللَّام وكسْرِها، يعْنِي يجوزُ أنْ تَكونَ (لِلْعَالِمِينَ) و(لِلْعَالمينَ)، والقِراءتَانِ سبْعِيَّتانِ، لأَنَّ قاعِدةَ المُفَسِّر رحمه الله إِذا ذَكَر الوَجْهَيْن فهُما قِراءَتانِ سبْعِيَّتَانِ، أمَّا إِذا قَال: (وقُرِئ) فالقِراءَةُ شاذَّةٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ أو "للعالَمين"، العالِمون ذووُ العِلْم، والعالَمون جمعُ عَالَمٍ، يعْنِي الخلْقَ، وهَلْ نأْخُذُ مِنَ اخْتِلافِ القرَاءَتَيْن أنَّ المرادَ بالعالمَين ذوي العلْم؛ لأَنَّ

العالمَين أعمُّ مِن العالمِين؛ لأَنَّ العالمِين تختَصُّ بذَوي العِلْم، والعالَمِين عامَّةٌ لَهُم ولغَيْرِهم، فهَل نقُولُ: إنَّ الآيَة تدُلُّ عَلَى أنَّ هَذا فِيه آيَاتٌ للعالمِين، أوْ نقُولُ إنَّ الآيَاتِ للعالَمِين كلِّهم العالِم وغَيْرِ العالِم، ولكنَّ العالم لَهُ مزيَّةٌ، فتكُونُ دالَّةً عَلَى أنَّ اخْتِلافَ الألسُنِ والألوانِ أمْرٌ معْلُومٌ لكُلِّ أحَدٍ، لكنَّ مَا ورَاء ذَلِك الظَّاهرِ أمرٌ لا يعْلَمُه إلَّا أهْلُ العِلْمِ، ويكُونُ فِي الآيةِ إشَارَةٌ إلَى أنَّه ينْبَغي لنَا أن نتَعَمَّقَ فِي هَذا الأمرِ حتَّى يتبَيَّنَ لنا بعلْمِنا ما ليْسَ بائِنًا لغيْرِنا، وَهَذا هُو الأحْسَنُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ خلْقَ السَّموَاتِ وَالأرْضِ مِن آيَاتِ الله، ووَجْهُ كَوْنِه مِن آيَاتِ الله عِظَمُهما واتِّساعُهما ومَا فِيهما مِنَ الكَواكِبِ والنُّجومِ والأَشْجارِ والبِحارِ والأَنْهارِ وغَيْرِ ذَلِكَ، كُلُّه مِنْ آيَاتِ الله سبحانه وتعالى الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِه وقُدْرَته.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أنَّ السَّمواتِ جمْعٌ والأرْضَ كَذَلِكَ، لكِنْ ليْسَ فِي الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى هَذَا، إنَّما يُسْتَفادُ كَوْنُ الأرْضِ جَمْعًا مِن أدِلَّةٍ أُخْرَى.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ اختِلافَ الألسُنِ والأَلوانِ مِن آيَاتِ الله أيْضًا، وهلِ اختِلافُ الألسُنِ والألوانِ هُو بِطُولِ اللِّسَانِ وقِصَرِه، أوِ المُرادُ اختلافُ اللُّغَة؟ المُرادُ اختِلافُ اللُّغاتِ واخْتِلافُ الفَصاحَةِ والبَيانِ؛ فإِنَّ النَّاسَ يخْتَلِفُون فِي هَذا اختِلافًا عظِيمًا، تَجِدُ المَعْنى الوَاحِدَ يتكَلَّمُ بِه إِنْسَانٌ فتَقْتَنِعُ الحاضِرونَ لقُوَّةِ بَيانِهِ وفَصاحَتِهِ، ويتَكلَّمُ فِيه آخَرُ لَا يلْتَفِتُونَ إِلَيْهِ ولا يُقْنِعُهم، وتَجِدُ رَجُلَيْنِ يتكَلَّمَانِ، أحَدُهُما يشُدُّ النَّاسَ إِلَى نفْسِه، والآخَرُ يتكَلَّمُ ولَا يُسْتَمَعُ إِلَيْهِ، مَع أنَّ الكَلامَ واحِدٌ والمَوْضوعَ واحِدٌ، لكِنَّ اخْتِلافَ الإلقاءِ والفصَاحَةِ هُو الَّذي جعَل النَّاسَ يتأثَّرُونَ.

الفائِدَةُ الرَّابعةُ: أنَّ الألوانَ لا تتَّفِقُ، نأْخُذه مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: {وَأَلْوَانِكُمْ}، ولِهَذا يقُولُ العُلَماءُ أنَّه لَا يُمْكِنُ أن يُوجد شخصَانِ متَّفِقانِ مِنْ كُلِّ وجْهٍ أبَدًا عَلَى كثْرَة النَّاسِ، حتَّى التَّوْأمانِ لا يتَّفقانِ مِنْ كُلِّ وجْهٍ، صحيحٌ أنَّ بعْضَ النَّاسِ يتقَارَبُونَ وَلا تعْرِفُ بعْضَهُم مِن بعْضٍ، لا سِيَّما إذَا كُنْتَ لَا ترَاهُما إِلَّا نادِرًا، لكِنْ عنْدَ التَّأمُّل لَا بُدَّ أنْ يكُونَ هُناكَ علَامَةٌ فارِقَةٌ، ولا تأْخُذْ بالمَلامِحِ الظَّاهِرَةِ، وَهَذا مِنْ آيَاتِ الله سبحانه وتعالى حتَّى الأَعْضاء الآنَ لَا تظُنَّ أنَّ أعضَاءكَ متَّفِقَةٌ، فأعْضَاؤُك تخْتَلِفُ، فَكِّرْ في العُروقِ:

عُروقُ اليَدَيْنِ تجِدُها مختَلِفَةً، عروقُ الرِّجْليْنِ تجِدُها مخْتَلِفَةً، البَنانُ الَّتي يُسمُّونَها بصَماتٍ تجِدُها مختَلِفَةً عَلَى كثْرَة النَّاسِ، لا يُمْكِنُ أنْ يتَّفِقُوا أبدا وَهَذا دليل واضح عَلَى عظِيمِ قُدْرَةِ الله سبحانه وتعالى وبَالِغْ حِكْمتَه.

الفائِدَةُ الخامسةُ: مدْحُ أُولِي العِلْم؛ تُؤخَذُ مِن قَوْلِه: (العالِمين) بِكَسْر اللَامِ، فإِنَّهُ يدُلُّ عَلَى فضِيلَةِ أهْلِ العِلْمِ، ولَا شَكَّ أنَّ أهْلَ العِلْمِ لَهُمْ فَضْلٌ. فالعالِمُون باللهِ وآيَاتِه سبحانه وتعالى لَهُم مِن الفَضائِلِ بِحَسَبِ عِلْمِهِمْ.

الآية (٢٣)

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣].

قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بِإِرَادَتِهِ رَاحَةً لَكُمْ]؛ مِن آيَاته أيْضًا منَامُكُم بِاللَّيْلِ والنَّهارِ - وَ(البَاءُ) هُنا بمَعْنى (فِي) - فَهِي للظَّرْفِيَّةِ - و(البَاءُ) تأتي للظَّرفِيَّةِ كَثِيرًا - ومنْهُ قوله تَعالَى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧)

وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، أيْ وفِي اللَّيْلِ، فالبَاءُ فِي قَوله ﴿وَبِاللَّيْلِ﴾ ظَرْفِيَّةٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ لَمْ يذْكُرِ الله وقتًا مُعَيّنًا مِن اللَّيْلِ، ولا وَقْتًا مُعيَّنًا مِن النَّهارِ؛ لأنَّ النَّومَ فِي أيِّ سَاعَةٍ مِن اللَّيْل أوِ النَّهارِ هُوَ مِن آيَاتِ الله، أمَّا كوْنُك يُكْرَهُ لَك أنْ تَنامَ فِي هَذا الوَقْتِ أوْ لا تَنامُ فهَذا موْكُولٌ إِلَى الشَّرعِ، وهُو مِنَ الآيَاتِ الشَّرْعيَّةِ ولَيْس مِنَ الآيَاتِ الكَوْنِيَّةِ.

وقوْلهُ رحمه الله: [رَاحَةً] هَلْ هِي مفْعُولٌ مِن أجْلِه أوْ مفْعُولٌ لـ (إِرَادَة)، أيْ أنَّه يُرِيدُ الرّاحةَ لكُمْ؟ يحْتَملُ كلامُ المُفَسِّر رحمه الله وجْهَيْن: إمَّا المَعْنى بإرَادتِه أنْ تَسْتَريحُوا، أو المَعْنى أنَّ نوْمَكُم بإرَادَتِه راحَةٌ لكُمْ، فيُفِيدُ أنَّ النَّوْمَ ليْسَ باخْتِيارِ الإِنْسانِ، الإِنسَانُ غايَةُ مَا يفْعَلُ أنَّه يفْعَلُ الأسْبابَ الَّتي يكُونُ بِها النَّوْمُ، أمَّا أنْ يُخْرِجَ رُوحَهُ مِنْ جَسَدِه حتَّى ينَامَ أوْ يرُدَّ رُوحَهُ إِلَى جسَدِه حتَّى يسْتيقِظَ فهَذا ليْس إِلَيْهِ، بَلْ هُو إِلَى الله، ولِهَذا أحْيَانًا الإِنسَانُ يُريدُ النّومَ وَيكُون عَلَى الفِراشِ ويُحَاوِلُ بقَدْرِ ما يَسْتطِيعُ أنْ ينَامَ، ثمَّ لَا ينَامُ، وأحْيَانًا يغْلِبه النَّومُ ولَوْ لَمْ يتَهَيّأْ لَه.

إِذَنْ: النّومُ بِإِرَادَةِ الله، وهُوَ وفَاةٌ صُغْرَى، فكَما أنَّ الوفَاةَ الكُبْرى إِنَّما تَكُونُ بأَمْرِ الله وبِإِرَادَتِه فكَذَلِكَ الوَفاةُ الصُّغْرَى.

قالَ المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَابْتِغَاؤُكُم﴾ بِالنَّهَارِ ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ أيْ: تَصَرُّفُكُمْ فِي طَلَبِ المَعِيشَةِ بِإِرَادَتِهِ]: (ابتغاؤُكم) معْطُوفَةٌ عَلَى (منامِكم)، ومعْنَى (ابتغاؤُكم) أيْ طلبُكم ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾، (مِن) لِبَيان الجِنْس، أيْ مِن عطَائِه ورِزْقِه، والمُفَسِّر رحمه الله خصَّ الابْتِغاءَ بالنَّهارِ، ﴿مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾، والأَحْسَنُ أنْ نجْعَلَها مُطْلَقَةً كَما أطلَقَها الله؛ لأَنَّ مِن النَّاس مَنْ يبْتَغِي مِنْ فَضْل الله بالنَّهارِ، ومِنْهُم مَن يبْتَغِي مِنْ فضْلِ الله بِاللَّيْل، فكَوْنُها تبْقَى عَلَى مَا هِي علَيْهِ بدُونِ تقْيِيدٍ هَذا هُوَ الأَوْلى؛ لأَنَّ التَّقْييدَ يُضَيِّقُ المَعْنى فيَجعلُ الابْتِغاءَ بالنَّهارِ مَع أنَّه يُوجَدُ أنَاسٌ لا يطْلُبونَ الرِّزْق إِلا فِي اللَّيْل، مثْلُ الحرَّاس وأصْحَابِ الأَمْن، ومَا أشْبَه ذَلِك.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: تقْيِيدُ المُفَسِّر رحمه الله النَّوْمَ باللَّيْلِ وابْتِغاءَ الفَضلِ بالنَّهارِ مع أن النَّومَ يَكُونُ بالنَّهار وابْتِغاءِ الفَضْل باللَّيْل، هلْ هَذا باعْتِبار الأَغْلَبِ؟

قُلْنَا: لَو قُيِّدَتْ لقُلْنا هَذا باعْتِبارِ الأَغْلب، يعْني لَوْ قَال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾، أمَّا أنْ تأْتِي عامَّةً ثمَّ نُقَيِّدُها فَلا وجْهَ لَهُ، وأيْضًا لا تُفَسَّرُ بِالآيَاتِ المقَيِّدَةِ؛ لأَنَّ الآيَاتِ المقَيِّدة لا تُنافِي هَذِه.

قوْله تَعالَى: ﴿وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾: الفَضْل بمَعْنى العَطاءِ، وقوْلُ المُفَسِّر رَحَمَهُ أللَّهُ: [أيْ تصَرُّفُكُمْ فِي طَلَبِ المَعِيشَةِ بِإِرَادَتِهِ]، والإرادَةُ هُنا إرَادَةُ الله عز وجل، والمُفَسِّر رحمه الله لَا يُرِيدُ أنْ يُثْبِتَ مذْهَب الجبرَّية، ولكِنْ يُرِيدُ أنْ يُبَيِّنَ أنَّ تصرُّفَنا وإنْ كُنَّا مستَقِلِّينَ بِه مِن وَجْهٍ، فإنَّنا لسْنَا مستَقِلِّينَ بِه مِن وجْهٍ، وابْتِغاءُ الفضْلِ بإرَادَةِ الله والمَنامُ بِإرادَةِ الله، وبَيْنَهُما فرْقٌ لأَنَّ المنَام ليْسَ لنَا فِيه حُرِّيَّةٌ إطْلاقًا، ولَا إرادَةَ بِخلَافِ الابْتِغَاءِ مِن فضْلِه، فإنَّ لنَا فِيه إرادَةً، ولكِنَّها تابِعَةٌ لإرادَةِ الله، ثمَّ قَال تَعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

قوْلُه تَعالَى: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: إنَّ في ذَلِك المَذْكُورِ، كَما قَال المُفَسِّر رحمه الله أولًا: [﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سَمَاعَ تَدَبُّرٍ واعْتِبَارٍ]: وأتَى بقوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾؛ لأَنَّهُ

بدَأ بالنَّوْمِ وبدَأ باللَّيْلِ، واللَّيْلُ وَظِيفَةُ الإنْسَانِ فِيه السَّمْعُ؛ لأنَّهُ لَا يَرى باللَّيْل، فالَّذِي يُناسِبُه السَّمعُ.

ولكِن مَا المُرادُ بالسّمْعِ هُنا، هَل المُرادُ مطْلَقُه؟

لَا، بَل المُرادُ سَماعُ التَّدبُّر والاعْتِبَارُ؛ لأَنَّ السَّمْع كَما سبَق يُطْلَقُ عَلَى سمْعِ الإدْرَاكِ المُجَرَّدِ، وعلَى سمْعِ الإدْرَاك المُنْتَفَعِ بِه، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، يعْنِي لا يسْمَعُون سَماعَ تدَبُّرٍ واتِّعاظٍ وانْقِيادٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى:: أنَّ النَّومَ مِن آيَاتِ الله؛ وجْهُ ذَلِك أَنَّ هَذا الإنْسانَ ذَا الشُّعورِ إِذا نَام فقَدَ شُعُورَه، والرُّوحُ متَّصِلةٌ بالبَدن تمَامَ الاتِّصالِ، فإِذا نامَ حصَل منْهَا نوْعُ انفِصَالٍ؛ ولِهَذا سَمَّى الله تَعالَى النَّوْمَ وفَاةً لكِنْ ليْسَتِ الوفاةَ الكامِلَةَ التي تُقْبَضُ فِيها الرُّوحُ مِن البَدنِ وتنْفَصِل عنْه انفصالًا كامِلًا، لكنَّها تنْفَصِلُ عنْه انفِصالًا جُزْئِيًّا، هَذا الانْفصَالُ الجزْئِيُّ الَّذِي تبْقَى معَهُ الحَياةُ دُونَ الوَعْي مِن آيَاتِ الله، فلا أَحَدَ يسْتَطِيعُ أنْ يفْعَل هَذا إِلا الله، وَكَذلِكَ أيْضًا لَا أحَد يسْتَطِيعُ أنْ يرُدَّها إِلا بِإِذْنِ الله عز وجل.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَاذا تقُولونَ فِي النَّوم بالتّنويم، الَّذي يسُمُّونَه التّنويمَ المغناطِيسيَّ، حيث يُنوِّم شخْصٌ آخَرَ؟

قُلْنَا: هُو لا يُنَوِّمُه، وإذا ادَّعى مُدَّعٍ أنَّ النَّوْمَ المغَناطِيسِيَّ تنْوِيم بِغَيْر الله، فهُو كادِّعَاءِ الَّذي يقولُ: (أَنا أُحْيِ وَأُميتُ)، وهُو يُحْيي ويُمْيتُ حيْثُ يَقْتُل ويُبْقِي، لكِنْ ليْسَ صحِيحًا أنَّه أحْيَا، بَلْ فَعلَ سبَبَ الحيَاةِ أوْ سبَبَ المَوْتِ فقَطْ، كَذَلِكَ المُنوِّم مَا جلَب النَّوْمَ، لكِنْ فعَل سبَبَه، والتّنْويمُ المغناطِيسيُّ معْنَاه اسْتِسْلامُ النَّفْس البَاطِنة لهذَا المنوِّمِ ثمَّ ينَامُ، يسْتَرْخِي وَيفْقِدُ الوَعْيَ إِلَّا الذّاكِرةَ؛ ولِهَذا تجِدُ المنوِّمَ المَغناطِيسيَّ عَلَى مَا يقُولُونَ إِذا استَجابَ لَه المنَوَّم بدَأَ يُخاطِبُه فِي العَقْل البَاطِن، وذَاك يتكَلَّمُ بِدُون شُعورٍ ويُخْبِرُه بِكُلِّ الَّذِي في دِماغِه، أيُّ شيْءٍ يسألُه عنْه يُعَلِّمُه بِه حتَّى الأُمورُ الَّتي لم يَطِّلعْ علَيْها أحَدٌ مِن النَّاسِ يُعلِّمُه بِها، لكِنْ بِشَرْط أنَّ المنَوَّم يسْتَسْلِمُ استِسْلامًا كامِلًا وعِنْدَهُم حرَكَات معيّنةٌ، يقُولُ لَك: لا تتعَدَّاها وَيبْدَأُ يتحَرَّكُ ويتحَرَّكُ وَيرْفَعُ ويَخْفِضُ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: عنْدَهُم طُرُقٌ فِي هَذا، وعنْدَهُم وسَائِلُ إِلَى أنْ يسْتَرْخِي الإنْسانُ وأعْظَمُ مِن هَذا القَتْلُ الَّذي يُسمِّيهُ الفُقهاءُ

(القَتْل بالحال) أنَّه يسلط نفسه عَلَى نفس هَذا الرّجل ويخنق نفسه ويموت ولِهَذا ذَكَرُوا فِي بَابِ القصاصِ هَل القتْلُ بالحالِ عَمْدٌ يُقتَلُ بِه القاتِلُ أَو خطأً أو شبْهَ عمْدٍ.

وإِذا قُلنَا أنَّه يُقْتَل فهَلْ يُقْتَلُ بالحالِ أو يُقْتَلُ بالسَّيف؟

والصّوابُ: أنَّ القاتِل بالحالِ يُقتَلُ، سَواءٌ قلْنَا أنَّه قصاصٌ أوْ قُلنا أنَّه مِنْ بَابِ دفْعِ الفَسادِ فِي الأرْض، لكِنَّ بعْضَ الفُقهاءِ يقُولُ: إِذا أرَدْنا المُقاصَّةَ تمَامًا نأْتِي بِوَاحِدٍ آخَر يَقْتُل بالحالِ ونَجْعَلُه يقْتَلُ هَذا الرّجُلَ، فيقْتَلُ بما قتل بِه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، إِنَّما لا شَكَّ أنَّ القَتْل بالحالِ يَجِبُ فيه قتْلُ القاتِل بكُلِّ حالٍ، سواءً قُلنا أنَّه قصاصٌ، أو قُلْنا أنَّه مِن بَاب دفْعِ الفَسادِ؛ لأَنَّ هَذا أشَدُّ مِن السَّيفِ - والعياذُ باللهِ -، فالَّذِي يقْتُل بالسَّيف يسْتَطِيعُ الإنسانُ أن يَهْربَ منْه، لكن هَذا مُشْكِلةٌ.

وقَد ذكروا هَذا وتكلَّمُوا علَيْه في باب القصاصِ، وَهَذَا غيْرُ العَيْن.

والعيَّانُ أيْضًا - الَّذِي يقْتُل بعَيْنِه - اختَلَفُوا فِيه: هَلْ هُو عمْدٌ أوْ شبْهُ عمْدٍ، وإِذا قُلْنا أنَّه عمْدٌ فهَل نقْتُله بالسَّيْف، أوْ نقْتُلُه بعَائِنٍ

نأتِي بوَاحِدٍ يُعِينُه إِلَى أنْ يقْتُلَه؟

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: ذِكْر المتقَابِلَاتِ ﴿مَنَامُكُمْ﴾، ﴿وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾، وابْتِغَاءُ الفَضْل يكُون فِي اليَقَظةِ، فهَذا جمْعٌ بيْن الشّيْءِ ومقابِلِه، فالمَنام آيَةٌ، وابْتِغَاءُ الإِنْسانِ مِن فضْلِ الله أيْضًا آيَةٌ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: جوَازُ النَّوْمِ ليْلًا ونهارًا؛ لأَنَّ الله تَعالَى جعَلَهُ مِنْ آياتِه الَّتي امتَنَّ بِها عَلَى العِبَادِ، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، لكِنْ أصَحُّهما نوْمُ اللَّيل بالاتِّفَاقِ.

الفائِدَةُ الرابعةُ: أنَّه ينْبَغِي لِلإِنْسَانِ أنْ يطْلُب رِزْقَ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: الرِّزْقُ مكْتُوب كالأَجلِ، فهُو محتُومُ الوُجودِ.

قُلْنَا: ولكِنَّه مكْتُوبٌ بسبَبٍ، ولَا يُمْكِنُ لأيِّ إِنْسَانٍ أنْ يَقُول: المَكْتُوبُ لي سيَأْتِي ولَنْ أتحَرَّكَ أبَدًا، إِلا رجُلًا جاهِلًا أحْمَق، ولِهَذا لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِذا كانَ الله كتَبَ لِي ذُرِّيَّةً ستأْتِي بدُونِ زوَاجٍ، فهَذا لَا يُعْقَل أبَدًا، فنَقُول: قوْلَه تَعالَى: ﴿وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾ يدُلُّ عَلَى أنَّه ينْبَغي لِلإِنْسَانِ أنْ يطْلُب الرِّزْقَ.

الفائِدَةُ الخامسةُ: كرَاهَةُ سُؤالِ النَّاسِ، أوْ أَنَّه مِن الأُمُورِ الَّتي لا تنْبَغِي، لقوْلِه تَعالَى: ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾، وأنت إِذا طلَبْت الرِّزْقَ مِن الله عز وجل فقَدْ طلبْتَه مِن أهْلِه، مِمَّنْ لَه المِنَّة عليْكَ.

الآية (٢٤)

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ﴾ أيْ إِرَاءَتُكُمْ ﴿الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾].

قوْله تَعالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ جَارٌّ ومجْرُورٌ، ﴿يُرِيكُمُ﴾ فعْلٌ مضارعٌ.

وهَل ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ متعلِّقَةٌ بـ ﴿يُرِيكُمُ﴾، أوْ متعلِّقَةٌ بمحذُوفٍ ويكُونُ تأْوِيلُ قوْلِه تَعالَى: ﴿يُرِيكُمُ﴾ مبْتَدَأٌ مؤخَّرٌ؟

ظاهِرُ كلامِ المُفَسِّر رحمه الله: [أيْ: إِرَاءَتُكُم] يقْتَضي أنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ خبَرٌ مقَدَّمٌ، و﴿يُرِيكُمُ﴾ مبتدَأٌ مؤخَّرٌ؛ لأَنَّهُ أَوَّلَها إِلَى مصْدَرٍ، يعْنِي ولَيْس المَعْنى ويُرِيكُم مِن آيَاتِه كَذا

وكَذا، ويُرِيكُم مِن آيَاتِه البَرْقَ خوْفًا وطَمَعًا، ففي إعْرَاب هَذِهِ الآيَة وجْهَانِ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: مَا مشَى علَيْه المُفَسِّر رحمه الله: بَأن نجعَل ﴿يُرِيكُمُ﴾ فعلًا مضارِعًا مُؤوَّلًا بمَصْدَرٍ تقْدِيرُه (إِراءَتُكم)، مع أنَّه ليْسَ فيه حرْفٌ مصْدَرِيٌّ، وَهَذا موْجودٌ فِي اللُّغَةِ العرَبِيَّةِ، ومنْهُ قولهُم: (تَسْمَع بالمُعِيدِيِّ خيْرٌ مِنْ أنْ تَراهُ)، فـ (تَسْمَعُ)

هَذِهِ مبتَدَأٌ بدَلِيل قولِه: (خَيْرٌ مِنْ أنْ تَراهُ)، معَ أنَّه ليْس فِيها حرْفٌ مصْدَرِيٌّ تنْسَبِكُ بِه.

والوَجْهُ الثَّاني: أنْ نقُولَ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ متعلِّقة بـ ﴿يُرِيكُمُ﴾، يعْنِي يُريكُم مِن آيَاتِه البَرْقَ خوْفًا وطمَعًا.

ويُرجِّحُ الوجْهَ الأوَّلَ سِياقُ الآيَاتِ، سِياقُ الآيَاتِ كُلِّها يدُلُّ عَلَى أنَّ هَذا الفعْلَ مُنْسَبِكٌ بمَصْدَرٍ، والتَّقدِيرِ: (ومنْ آيَاتِه إِراءَتُكم)، كالآيَات الَّتي قبْلَها، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ﴾، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ﴾ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ويُرجِّحُ الوجْهَ الثّانِيَ أنّنا نتَحاشَى انْسِبَاكَ المَصْدَرِ بدُونِ حرْفٍ مصْدَرِيٍّ.

قال المُفَسِّر رحمه الله: ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ لِلْمُسَافِرِ مَنَ الصَّواعِقِ، ﴿وَطَمَعًا﴾ لِلْمُقِيمِ فِي المَطَرِ].

قوْلُه تَعالَى: ﴿خَوْفًا﴾ مفعولٌ لأَجْلِه، وهذا مُشْكِلٌ لأَنَّ ابنَ مالكٍ رحمه الله يقول:

وَهْو بِمَا يَعْمَلُ فِيهِ مُتَّحدْ ... وَقْتًا وَفَاعِلًا .....

وهُنا ﴿يُرِيكُمُ﴾ الفاعِل الله، والخائِف الطَّامِعُ: بَنُو آدَمَ، فاختَلَف الفَاعِلُ، فالوَقْت متَّحِدٌ ولكنَّ الفاعِلَ لم يتَّحِدْ، وعلَيْه فيَكُون ﴿خَوْفًا﴾ مصدَرًا في موْضِع الحَالِ، أي: يُرِيكُم البَرْق خائِفِينَ وطَامِعينَ، أمَّا إِذا أسْقَطْنا اشْتِراطَ ابْنِ مالكٍ رحمه الله اتِّحادَ الفاعِلِ فتكُون ﴿خَوْفًا﴾ مفعولًا لأجْلِه.

ولكِنْ عنْدِي أنَّ هُناكَ وجْهًا آخَر، أنْ نجْعَل ﴿خَوْفًا﴾ بمَعْنى تَخْوِيفًا، فإِذا جعَلْنا خوْفًا بمعْنَى تخْوِيفًا زَال الإِشْكالُ؛ لأَنَّ التّخْوِيفَ يكُونُ مِن الله وهُو المُرِي، والإِطْماعُ أيْضًا مِن الله، وهُو المُرِي، وحِينَئِذٍ نسْلَمُ مِن مخالَفَةِ شرْطِ ابْنِ مالِكٍ رحمه الله، لكِنْ لا بُدَّ مِنْ تأْوِيلٍ، حيْثُ حوَّلْنا ﴿خَوْفًا﴾ إِلَى إِخَافَةٍ، ﴿وَطَمَعًا﴾ إِلَى إطمَاعٍ.

فالوُجُوهُ إِذَنْ ثلاثَةٌ:

- إمَّا أنْ نجْعَل ﴿خَوْفًا﴾ ﴿وَطَمَعًا﴾ مصْدَرينِ في موْضِع الحالِ.

- أوْ نجْعَلَهُما مصْدَرين عَلَى أنَّهُما مفْعُولٌ مِن أجْلِه، ولا نَعْتَبِر اشْتِراطَ اتِّحادِ الفاعِل.

- أوْ نجْعَلَهُما مصْدَرين، لكِنْ بمَعْنى التّخويفِ والإطْماعِ، وحِينَئِذٍ نكُونُ قد اعتَبْرنا اتِّحادَ الفاعِل ولم نُؤَوِّلهُما إِلَى الحالِ.

وقولُ المُفَسِّر رحمه الله: [﴿خَوْفًا﴾ لِلْمُسَافِر مِنَ الصَّوَاعِقِ، ﴿وَطَمَعًا﴾ لِلْمُقِيمِ فِي المَطَرِ]: ظَاهِرُ كَلامِ المُفَسِّر أنَّ هَذا عَلَى سَبيلِ التَّوثِيقِ خوْفًا لأُناسٍ، وطمَعا لأُناسٍ، والصَّوابُ خِلافُ كلامِه رحمه الله، فإِنَّ البرْقَ خوْفٌ وطمَعٌ للجَميعِ، فالمُسافِرُ يخَافُ ويطْمَعُ، والمُقِيمُ أيْضًا يخَافُ ويطْمَعُ، ومَنْ ذَا الَّذي سَلِم مِن الصَّواعِق بسبَبِ كوْنِه فِي البِنَاءِ؟ فالصَّاعِقَة إذَا نزَلَتْ نزَلَتْ حتَّى عَلَى البِنَاءِ وهدَمَتْه، وقتَلَتْ مَنْ فِيه، وَكَذلِكَ المُسَافِرُ أيْضًا مَا أكْثَر المُسافِرِينَ الَّذِين نَجَوْا مِن الصَّواعِقِ وهِي تصْعَقُ حوْلَهم.

فالصّوابُ أنَّه عائِدٌ عَلَى الجمِيعِ، لكِنَّ تقْدِيمَ الخَوْف عَلَى الطَّمَعِ يدُلُّ عَلَى أنَّ خوْفَ النَّاسِ بالبِرِّ أكْثَرُ مِن طَمَعِهِم، وَهَذا - واللهُ أعْلَمُ - بنَاءٌ عَلَى الغالِب؛ لأَنَّ أكْثَر النَّاسِ لَا سِيَّما فِي الرُّعودِ الثَّقِيلَةِ والبَرْقِ العَظِيم يخَافُونَ أكْثَر مِمَّا يطْمَعُون، وُيوجَدُ أُناسٌ لا يهْتَمُّونَ بِهَذا الأَمْر، مهما قَوِي البَرْقُ ومهْمَا قَوِي الرَّعْدُ، لا يهْتَمُّون فَهُم دَائِمًا في طَمَعٍ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أيْ شَيْئًا فَشَيْئًا، مَا ظنُّك لَوْ كَان هَذا المَطَرُ ينْزِلُ دُفعَةً واحِدةً مِن السَّماءِ فلَن يُبْقِي مبَانِيَ، بَل لا يُبْقِي الآدَمِيّينَ ولا ينْفَعُ شيْئًا، يُتْلِفُ ولَا ينْفَعُ، ومِنْه أيْضًا - أيْ كونِه مِن آيَاتِ الله - أنَّ هَذا الماءَ ينْزِلُ مِن السَّماءِ، فلَو كانَ ينْزِلُ مِن شيْءٍ طامن لكَان يُغْرِقُ الأسْفَل قبْلَ أنْ يَصِلَ إِلَى الأَعْلَى، ولكِنَّ الله عز وجل جعلَه مِن فَوْقَ؛ حتَّى يَسْقِي بِه الأعْلى والأسْفَل.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: ﴿فَيُحْيِي﴾ أيْ الله عز وجل، ﴿بِهِ﴾: البَاءُ للسَّببيَّةِ، وهِي تُفِيد - كَمَا سيَأْتي إِنْ شَاء الله تَعالَى - إثْبَاتَ العِلَل في أفْعَالِ الله، فأفْعَالُ الله وشرْعُه كلُّه مقْرُونٌ بالحكْمَةِ والتَّعْليلِ، ومنْهُ مَا

سبَق في قوْلِه تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، مِن أنَّ اللامَ للتَّعْلِيل، فتُفِيدُ ثُبوتَ الحكْمَةِ فِي أفْعَالِ الله، ومن أهْل البِدَعِ مَن يُنكرُ الحكْمَةَ، فَالجهمِيَّةُ يُنْكِرُونَ الحكْمَة، أمَّا المُعتَزِلة فعَلَى العَكْس يُوجبونها؛ ولِهَذا قالُوا: أنَّه يَجِبُ عَلَى الله فعْلُ الأصْلَحِ.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ هَل المرادُ بـ ﴿الْأَرْضَ﴾ ذاتُ الأرْضِ تَحيا، أوِ المُرادُ النَّباتُ الَّذِي في الأرْضِ يَحْيا؟ المُرادُ النَّباتُ الَّذِي في الأرْضِ، وحِينَئِذٍ قدْ يعْتَرِضُ علَيْنا معتَرِضٌ ويقُولُ: إنَّكُم تقُولونَ أنَّه لَا مجَازَ فِي القُرْآنِ، وهنَا إذا حمَلْتُم الأرْضَ عَلَى نباتِها فقَدْ قُلْتُم بالمَجازِ؟

والجوابُ عَلَى هَذا: أنَّ الكلِمَةَ فِي حدِّ ذاتِها لا يُفْهَمُ معْنَاها إلَّا بسِيَاقِها فقوْلُه تَعالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا شكَّ أنَّ المُرادَ ذاتُ الأرْضِ، لكِنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُخاطِبُ أُناسًا يعْرِفُون الَّذي يَحْيا، والَّذِي يَمُوتُ، يعْرِفُونَ الَّذِي يَحْيا بالمَطر والَّذِي يمُوتُ بفَقْدِ المَطرِ، فهَلْ أحَدٌ ممَّن يُخاطَبُ بهذِه الآيةِ يقُولُ: إنَّ هَذا الطِّينَ وَهَذا الرَّمْلَ وَهَذا الحجَر يمُوتُ بفَقْدِ المَطَرِ، ويَحْيا بوُجودِه؟ ! الكلِمَةُ يُعيِّن معنَاها السّياقُ، وَبِهذَا نسْلَمُ مِنَ القَوْلِ بالمَجازِ؛ لأَنَّ مِنْ أبْرَزِ عَلامَاتِ

المجَازِ أنَّه يصِحُّ نفْيُه، والقُرْآنُ لَا يُوجَدُ فِيه شيْءٌ يصِحُّ نفْيُه؛ لأنَّهُ لَوْ صَحَّ نفْيُ شيْءٍ في القُرآنِ لكَان معْنَاه التّكْذِيبَ، مِثَالُ ذَلِك قوله تَعالَى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الجِدارُ لَا يُرِيدُ فَما معْنَى هَذا؟

قُلْنَا: معْنَى هَذا نفْيُ مَا أثْبَتَ الله عز وجل، وَهَذا هُو الَّذي جعَل بعْضَ أهْل العِلمِ يُنْكِرُ المَجازَ فِي القُرآنِ، وُيثْبِتُه في غيْرِه مِنَ اللُّغَةِ العرَبِيَّة، يقُولُ: لأنَّهُ ليْسَ في القُرآنِ شيْءٌ يصِحُّ نفْيُه، وأبْرزُ علاماتِ المَجازِ أنَّه يصِحُّ نفْيُه، ولكنَّ الصّوابَ مَا اختَارهُ شيْخُ الإسْلام ابْنُ تيْمِيةَ رحمه الله أنَّه لا مجَازَ لَا في القُرآنِ ولَا فِي اللُّغَة العرَبِيَّة؛ لأنَّنا نقُول: إنَّ الَّذي يُعَيِّنُ المَعْنى هُو السِّياقُ، وعلَيْه فَإذا تعيَّن معْنَى الكلِمَةِ فهُو حقِيقَتُها فِي كُلِّ سِيَاقٍ.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المَذْكُورِ]، المُشارُ إلَيْهم كُلُّ مَا سبَق ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، ﴿فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ هَذِهِ ثلاثَةٌ، هَذا المذْكُور فِيه آياتٌ لقَوْمٍ يعْقِلُون.

يقُول المُفَسِّر رحمه الله: [﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتَدَبَّرُون]، وهُنَا قَال: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أيْ لِذَوي عقْلٍ، والعَقْلُ ينْقَسِم إِلَى

قِسْمَيْنِ: عقلِ إدْراكٍ، وعقْلِ رَشَدٍ.

عقْلُ الإدْراكِ الَّذي هُو منَاطُ التكْلِيفِ، الَّذِي يقُولُ فِيه العلَماءُ: يُشْتَرطُ لوُجوبِ الصَّلاةِ أنْ يَكُونَ عاقلًا، فهَذا نُسمِّيه عقْلَ إدْرَاكٍ؛ لأَنَّ الإنْسانَ بِه يُدْرِكُ الأُمورَ، فيُمَيِّز بَيْن النّافِعِ والضَّارِ وغَيْرِه.

العَقْل الثّاني: عقْلُ الرّشَدِ الَّذي هو منَاطُ الثّناءِ والمَدْحِ، وعقْلُ الرّشَد هُو الَّذي يُوجَدُ فِي القرْآنِ كَثيرًا، مثَلًا نفَى الله سبحانه وتعالى العَقْل عَن الكُفَّار معَ أنَّهم أذْكِياءُ عنْدَهُم عقْلُ إدْرَاكٍ، لكِنَّهم ليْسَ عنْدَهم عقْلُ رَشَدٍ يتصَرَّفُونَ فِيه تصرُّف العَاقِل.

وسُمِّي العقْلُ عقْلًا لأنَّهُ يعْقِلُ صاحِبَهُ عمَّا يضُرُّه، وَهَذا هُو الَّذي جعَله يُسمَّى عقْلًا، أو يُسمَّى حِجْرًا ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥]؛ لأنَّهُ يَحْجر صاحِبَه ويحْجِزُه عمَّا لا ينْبَغِي.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أَتَى بالعَقْل هُنا إشَارَةً لما سيُذْكَرُ فِيما بعْدُ؛ لأَنَّ الآيَاتِ - كَما نُشاهِدُ - كلُّها في تقْريرِ إعَادَةِ المَوْتَى، وانتِقالِ العقْل مِن هَذِهِ الأشْيَاءِ المحسُوسَةِ إلَى أشياءَ منْظُورةٍ موعُودَةٍ، إنَّما يكُونُ عَنْ طَريقِ العَقْل؛ ولِهَذا قَال هُنَا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى:: أنَّ البَرْق مِن آيَاتِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أنَّ البَرْق يشْتَمِلُ عَلَى الخَوْفِ وَالرَّجاءِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، والصَّحِيحُ أنَّها ليْسَتْ موزَّعَةً كَما ذَهب إِلَيْهِ المُفَسِّر رحمه الله بَلْ هِي صِفَةٌ مجتمِعَةٌ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: عظِيمُ قُدْرةِ الله سبحانه وتعالى بِإنْزالِ المَاءِ مِنَ السَّماءِ.

الفائِدَةُ الرابعةُ: رحْمَتُه بالخَلْق حيْثُ كانَ إنْزالُ هَذا المَطَر مِنَ السَّماءِ، هَذا واحِدٌ، وحيْثُ كانَ ينْزِلُ شيْئًا فشَيْئًا؛ لأنَّهُ لَو كَان يَنْزِل دُفعةً واحِدةً لأهْلَك النَّاسَ.

الفائِدَةُ الخامسةُ: بَيانُ قُدْرَةِ الله تَعالَى؛ حيْثُ يُحْيِي الأرْضَ بعْدَ موتِها، تَجِدُ الأرْضَ يابِسَةً ليْسَ فِيها عُودٌ أخْضَرُ، ثمَّ بعْدَ نُزولِ المَطَرِ تصْبحُ مخْضَرَّةً تهتَزُّ.

الفائِدَةُ السادسةُ: رحمَتُه بالخلْقِ أيْضًا، فإنَّ إِحْياءَ الأرْضِ نافِعٌ لِلإِنْسَانِ والحيَوانِ.

الفائِدَةُ السابعةُ: أنَّه لَا ينتفِعُ بالآيَاتِ إلَّا ذَوُو العُقولِ؛ تُؤخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: استِعْمالُ العَقْل فِي القِيَاسِ: في قِيَاسِ الأشْيَاءِ المتشَابِهَةِ، والنّظيرِ عَلَى نَظِيرِهِ.

الفائِدَةُ التاسعةُ: أنَّ القِياسَ مِن الأدِلَّةِ العقْلِيَّةِ، وإنْ كَان ثابِتًا بالشَّرْعِ لكِنَّ طرِيقَهُ هُو العَقْل؛ لأَنَّ العَقْل يهْتَدِي بِهَذا عَلَى هَذا، وينتقِلُ مِن هَذا إِلَى هَذَا.

الآية (٢٥)

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

قَالَ تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ﴾ نقولُ فِيها كُما قُلْنا فِيما سبَق: أيْ مِن آيَاتِه قِيامُ السَّمواتِ والأرْضِ بأَمْرِه.

وقوْلهُ رحمه الله: [﴿بِأَمْرِهِ﴾ بِإرَادَتِه مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ]: أفادَنا المُفَسّر رحمه الله أنَّ المُرادَ بالأمْرِ هُنا هو الأَمْر الكَوْنِيُّ؛ لأنَّهُ قَالَ:

[بإرَادَتِه]، وإنْ كانَ في تفْسِير الأمْرِ بالإرادَةِ شيْءٌ مِنَ الشّكِّ إذْ إنَّني أخْشَى أنَّه فسَّر الأَمْر بالإرَادةِ فِرارًا مِنْ إثْبَات الكلامِ للهِ عز وجل؛ لأَنَّ الأَمْرَ ولَوْ كانَ كوْنِيًّا يَكُونُ بالكلامِ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فأخْشَى أنَّ المُفَسّر - غفَر الله له - أرادَ بتَفْسِير الأَمْرِ بالإرادَةِ الفرارَ مِن إثْبَاتِ الكَلامِ، ومعرُوفٌ أنَّ الأشاعِرةَ لا يُثبِتونَ الكلامَ بالحرْفِ والصَّوتِ، وإنما يُثبِتونَ الكلَامَ عَلَى أنَّه المَعْنى القائِمَ بالنَّفْسِ، أمَّا الحرفُ المكتوبُ والصَّوتُ المسْموعُ يقُولونَ أنَّه عِبارَةٌ عَنْ كَلامِ الله، وَليْس هُو كلامَ الله.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَنْ تَقُومَ﴾: فسَّره رحمه الله بقَوْلِه: [مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ]، وَهَذا يدُلُّ عَلَى أنَّه ذَهب إِلَى أنَّ المُرادَ بالقِيَامِ هُنا القِيامُ الحسّيُّ، يعْنِي أنْ تَبْقَى غيْرَ واقِعَةٍ عَلَى الأرْضِ، بَل هِي مُمْسَكَةٌ بأمْرِ الله عز وجل بِغَيْر عَمَدٍ، وهَذا تفْسِيرٌ قاصِرٌ، والصّوابُ أنَّ قِيام السّموَاتِ وَالأرْضِ أعمُّ مِن كوْنِه قِيامًا حِسيًّا أو قِيامًا معنَوِيًّا، بمَعْنى أنَّه يشْمَل القِيامَ الحِسِّي والقيامَ المَعنويَّ، فالسَّمواتُ قائِمةٌ بأمْر الله قِيامًا حِسِّيًّا بِما فِيها من الانْتِظام فِيما خَلق الله عز وجل مِن الأَجرامِ، وبِما فِيها مِن الأفْلاك المتضَمِّنة

الشّمسَ والقَمرَ والنُّجومَ وغيْرَ ذَلِك، وكَذَلِكَ الأرْضُ قَائِمةٌ قِيامًا حِسِّيًّا بما أوْدعَ الله تَعالَى فِيها مِنْ مصالِحِ الخَلْقِ مِنْ أشجارٍ وَنباتٍ وأنْهَارٍ وبحارٍ وغَيْر ذَلِك، هَذا قيامٌ حِسِّيٌّ، ويُوجَد أيْضًا قِيامٌ معنَوِيٌّ وهُوَ قِيامُ هَذه بطَاعَةِ الله، فإنَّ المعَاصِيَ إفْسَادٌ في الأرْضِ، كَما قَال الله تَعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، فالسَّمواتُ أيْضًا والأرْضُ تَقُومُ بأَمْرِ الله الشَّرعِي كَما تقُومُ بأَمْرِه الكَوْنيِّ، ولَا قِيامَ للأَرْض ولَا لِلسَّمواتِ إلَّا بالتِزامِ أمْرِ الله الشّرعيِّ، فتَصلُحُ وتبْقَى بطَاعَةِ الله، فحِينَئِذٍ نُفسِّرُ القيامَ بأنَّه القيامُ الحسِّيُّ والقيامُ المعنوِيُّ، فالآيَة شامِلَة للمَعْنَيينْ، وعَلى هَذا يكُونُ المُرادُ بالأَمْرِ الأمرَ الكوْنِيَّ والأَمْر الشّرعِيَّ.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾: أَتى بِـ (ثُمَّ) بعْدَ ذِكر قِيامِ السَّمواتِ والأَرْضِ؛ لأَنَّ البعْثَ متأَخِّرٌ لا يَكُونُ إلا بعْدَ قِيامِ السّاعَةِ، يقُولُ: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾، الفاعِلُ هُو الله عز وجل ﴿دَعْوَةً﴾ أيْ واحِدَةً ﴿مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

قوْله تَعالَى: ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾، يقولُ المُفَسِّر رحمه الله: [بِأَنْ ينْفُخَ إسْرَافِيلُ فِي الصُّورِ، فَيُبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ، ﴿إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ مِنْهَا أحْيَاء، فَخُرُوجُكُمْ مِنْهَا بِدَعْوَةٍ مِنْ آيَاتِهِ تَعالَى].

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾، قوْله تَعالَى: ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾، هَل تتعَلَّقُ بِـ ﴿تَخْرُجُونَ﴾، يعْنِي إذَا دعاكُم دعْوَةً تخْرُجونَ مِن الأرْضِ، أو متعَلِّقٌ بِـ (دعا)؟ نقُول هُو متعلِّقٌ بـ (دَعا) إذا دعَاكُم دعْوةً مِن الأَرْضِ، ولَيْس متعلِّقًا بـ ﴿تَخْرُجُونَ﴾ لأنَّهُ لا يتعَلَّقُ مَا قبْلَ (إذا) الفُجائِيَّةِ بما بعْدَها.

قوْله تَعالَى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾: ﴿إِذَا﴾ شرْطِيَّةٌ، وقوْلُه تَعالَى: ﴿إِذَا أَنْتُمْ﴾: ﴿إِذَا﴾ فُجائِيَّةٌ، فهِي نائِبَةٌ منَابَ الفاءِ الوَاقِعَةِ فِي جَوابِ الشَّرْط.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾: يعْني دعَاكُم منْهَا.

وهَلْ دَعوَةُ الله تكُونُ مِن الأرْضِ أمِ المرادُ أنَّكُم أنْتُم فِي الأرْضِ؟

الجوابُ: المُرادَ (إذا دَعاكُم مِن الأرْضِ)، مثْلَما تقُولُ دعَوْتُه مِن بيْتِه، فليْسَ المُراد: (أَنِّي في البَيْتِ)، لكنَّه هُو في البَيْت فدَعَوْتُه منْه ليحْضُر، وهذِه الآيَةُ كقوْله تَعالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ

(١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، يعْنِي عَلَى وجْهِ الأرْضِ.

قوْله تَعالَى: ﴿إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾: هَذا مِنْ آيَاتِ الله أيْضًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى:: أنَّ قيامَ السَّمواتِ والأرْضِ بأمْرِ الله ليْسَ للمَخْلُوقِين فِيه تعلُّقٌ إطْلاقًا، فاللهُ تَعالَى هُو الَّذي يُقِيم السَّمواتِ والأرْضَ، سواءٌ القيامُ الحسِّيُّ أو المعنَوِيّ.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: إثْبَاتُ الكلامِ لله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِأَمْرِهِ﴾، والمُفَسِّر رحمه الله قال: [بإرادتِه]، وتقدَّم التَّنبيهُ عَلَى هَذَا، وأَنَّ المُرادَ بقوْلِه تَعالَى: ﴿بِأَمْرِهِ﴾ الكلامُ، فالأمْرُ الكلَامُ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: تمامُ قدْرَة الله تَعالَى ببَعْث المَوْتى بكَلِمَةٍ واحِدَةٍ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، ولاحِظْ أنَّ المسألَةَ ليْسَتْ هِي بخلْقٍ واحِدٍ أوِ اثْنَيْن أوْ ثلاثَةٍ أوْ عشَرَةٍ، بَلْ هِي مَا لا يُحصِيه إلّا الله عز وجل، دعْوَةٌ واحِدَةٌ يكُون بِها جميعُ الخلْق خَارجِينَ، وهَذا لا شَكَّ أنَّ فِيه ما هُو مِنْ أبْلَغِ القدَرِ، وأنَّ الله سبحانه وتعالى عَلَى كُلِّ شيْءٍ قدِيرٌ.

الفائِدَةُ الرابعةُ: أنَّ مقَرَّ بَني آدَم الأرْضُ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، ويُؤيِّدُ ذَلِك قوله تَعالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، فالمَعْمُولُ فِي هَذِهِ الآيَةِ مُقَدَّمٌ (فِيها) و(مِنْها) وتقْدِيمُ المعمولِ يدُلُّ عَلَى الحصْرِ مِن هَذا الشّيْءِ لَا مِن غَيْرِه إِذَنْ، فالحيَاةُ عَلَى الكَوَاكِب متعذِّرَةٌ بالنِّسبة لبَني آدَم، فظَاهِرُ الآيَاتِ أنَّ بَني آدَم خُلِقوا مِن الأرْضِ وَيرْجِعونَ إِلَى الأرْضِ ويُدْعَوْن يَوْم القيامَةِ مِنَ الأرْضِ.

الفائِدَةُ الخامسةُ: إثْبَاتُ الكلامِ للهِ في قوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾.

الآية (٢٦)

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦].

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: الضَّمِيرُ في قولِه: (لَه) يَعودُ عَلَى الله، وهُو خبَرٌ مقدَّمٌ، وتقْدِيمُ الخبَر - كَما

هُو معْروفٌ في عِلْمِ البَلاغةِ - يُفيدُ الحَصْرَ، يعْنِي: فاللهُ وحْدَه لَه مَنْ في السَّموَاتِ وَالأرْضِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: جارٌّ ومجرور متعلّق بمحْذُوفٍ تقْدِيرُه: (استَقرَّ)، لأَنَّ الجارَّ والمجْرورَ الواقِعَ صِلةً للمَوْصولِ يُقَدَّرُ بفِعْلٍ، بخِلَافِ الواقِع خبرًا لمبتَدَأٍ، فإِنَّهُ يُقدَّر باسْمٍ، ولْيُنتبهْ للْفَرْق بَيْنَهُما، الجارُّ والمجْرورُ أوِ الظّرفُ إِذا وقَع صِلَةَ لموْصُولٍ فَقَدّرْ متعلِّقَه فعلًا؛ لأَنَّ الأصْلَ في صِلَةِ المَوْصولِ أنْ يكُونَ جُمْلَةً، لكِنْ إِذا وقَع الجارُّ والمجْرُورُ أوِ الظَّرْفُ خبرًا لمبْتَدَأٍ فقَدِّرْه باسْمٍ؛ لأَنَّ الأصْلَ فِي الخَبَرِ أنْ يكُونَ مفْرَدًا لا جُمْلَةً، تقولُ: (زَيدٌ في البَيْتِ) فقدّرْه (كَائِنٌ في البَيْتِ)، لأجْل أنْ يكُونَ (زَيدٌ) مبتدَأً، و(كَائِنٌ) خَبَرٌ، لكِنْ لوْ قُلْتَ: (زيدٌ فِي البَيْتِ) أيْ زْيدٌ استقَرَّ في البَيْتِ، صَار الخبَرُ جملْةً والأصْلُ فِي الخبَرِ أنْ يكُونَ مُفرَدًا، أمَّا إِذا قُلْت: (يُعْجِبُني الَّذِي فِي المَسْجِد)، لا تقُلِ: (الَّذي كائِنٌ في المسْجِد)؛ لأنَّك إذَا قدَّرْت (الَّذِي كائِنٌ في المسْجِد) لَزِم أن تُقَدّر مبتدَأً أيْضًا، أيْ: (الَّذي هُو كَائِن فِي المسْجِد)، لأَنَّ صلَةَ المُوْصولِ لَا بُدَّ أنْ تكُونَ جمْلَةً، بخِلافِ خَبَرِ المُبتَدأ، فإِنَّهُ يكُونُ مُفْردًا.

إذَنْ: عنْدَما نُقدِّر المتعلِّقَ للجَارِّ والمَجْرورِ الوَاقِعِ صلَةً نُقدِّرُه فِعْلًا؛ ليَكُون ذَلِك جمْلَة، وعنْدَما نُقدّر متعلِّقَ الجارِّ والمجْرورِ أو الظّرفِ بالمُبتدَأِ نُقدِّرُه اسمًا.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾: أيْ مَنِ استَقرَّ في السّموَاتِ وَالأرْضِ، مَن فِي السّمواتِ مِنَ الملائِكةِ، ومَن في الأرْض مِنَ البَشرِ والحيَوانِ، وهُنا قَال: ﴿مَنْ﴾ تغْلِيبًا للعاقِلِ، وَإِلَّا فإنَّ الأرْضَ فِيها العاقِلُ وغيرُ العاقِل.

قوْله تَعالَى: ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: قالَ المُفَسِّر رحمه الله: [مُلْكًا وخَلْقًا وعَبِيدًا].

كَان الأَوْلى أنْ يُقَدِّم الخَلْق ثمَّ المُلْك ثمَّ العَبِيدَ، فلَهُ مَن فِي السَّمواتِ هُو الَّذي يمْلِكُهم سبحانه وتعالى، وهُوَ الَّذي خلَقَهم، وهُوَ رَبُّهم وهُم عَبِيدُه، فلَهُ مَن فِي السَّمواتِ وَالأرْضِ وَلا أحدَ يُعارِضُ في ذَلِك، كُلُّ مَن فِي السَّموَاتِ وَالأرْضِ كَما قالَ الله تَعالَى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

قالَ المُفَسِّر رحمه الله: [﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ مُطِيعُونَ]، ﴿كُلٌّ﴾ مبتَدَأٌ، و﴿قَانِتُونَ﴾ خَبَرُه، والجارُّ والمجْرورُ ﴿لَهُ﴾ متعلِّقٌ بِـ

﴿قَانِتُونَ﴾، لكِنَّهُ قُدِّم علَيْه للاخْتِصاصِ والحصْر.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿كُلٌّ﴾ التَّنْوِينُ عِوَضٌ عن مفَردٍ، وكلَّما جاءَتْ ﴿كُلّ﴾ أوْ (بعْضُ) منوَّنَةً فإِنَّها عوَض عْن مُفْرَدٍ، والتّقْدِيرُ: كُلُّ مَنْ فِي السَّموَاتِ وَالأرْضِ.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿لَّهُ قَانِتُونَ﴾، يقُولُ المُفَسِّر رحمه الله: [مُطِيعُون]، والطَّاعة هُنا طاعَةٌ وخُضوعٌ للأَمْرِ الكَوْنيِّ، وهَذا شامِلٌ للمُؤْمِن وغَيْرِ المُؤْمِن، والثّاني طاعَةٌ وقُنوتٌ للأَمْر الشّرْعِيِّ، وهَذا خاصٌّ بالمُؤْمِن وعَلى هَذا يكونُ المرادُ بالقُنوتِ هُنا الكونيَّ؛ لأنَّهُ قالَ: ﴿كُلٌّ لَهُ﴾، ولَا يُتصوَّرُ هَذا إِلا فِي الكوْنيِّ، فالكُلُّ خاضِعٌ لأمْرِ الله، قانِتٌ باعْتِبَارِ أمْرِه الكوْنيِّ، إِذا أرَاد شيْئًا عَلَى مَن فِي السَّمواتِ وَالأرْضِ قَال لَهُ: (كُنْ) فيَكُونُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى:: عُمُومُ مُلْكِ الله؛ يُؤْخَذُ العُمُوم مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾؛ لأَنَّ (مَنْ) اسْم موصُول، والمَوصولاتُ كلُّها تُفِيدُ العُمُومَ.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: انْفِرادُ الله عز وجل بالمُلْك، واخْتِصاصُهُ بِه؛ يُؤخَذُ مِن تقْدِيم الخبَرِ، ﴿وَلَهُ مَنْ فِي﴾، يَعْني لَا لِغَيرِه، وَهُنا يَرِد عليْنا إشْكَالٌ في قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾، هَذا العُمُوم نجِدُ أنَّ بَني آدَم يمْلِكُونَ أشْيَاءَ مِن هَذا، فمَا الجوَابُ عَنْ ذَلِك؟

الجوابُ عَن هَذا: أنَّ مُلْك بَني آدَم مُلْكٌ مقيَّدٌ بتمْلِيكِ مَنْ لَه المُلْكُ؛ ولذَلك أنْتَ لا تسْتَطِيعُ أن تتصَرَّفَ بمالِكَ كَما تشَاءُ، فأنْتَ لا تَمْلِكُ أن تُحْرِقَ مَالَك، ولا أنْ تُتْلِفَه، صحيحٌ أنَّك تمْلِكُه بالنِّسبةِ لغَيْرِك مِن الآدَمِيّينَ، فَلا يقْدِرونَ أنْ يَمْنَعُوك، لكِن بالنِّسبَةِ للخالِق الَّذي لَهُ المُلك يمْنَعُك مِن هَذا، فصَار مُلْكُنا لما نَمْلِكُ لَيْس مُلكًا تَامًّا، دَلِيلُه أوْ وَجْهُه أنَّنا لَا نسْتَطِيعُ ولَا نمْلِكُ أنْ نتصَرَّف فِيما بَيْن أيْدِينا كَما نَشاءُ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: خُضوعُ الكائِنَاتِ لرَبِّها سبحانه وتعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾، وأنَّ جَمِيعَ الكَائناتِ خاضِعَةٌ لله.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ القُنُوتَ لَا يخْتَصُّ بالقُنوتِ الشَّرعيِّ، وَأكْثر النَّاس يظُنُّون أنَّ القُنوتَ يخْتَصُّ بالقُنوتِ الشَّرعِيِّ، ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة:

٢٣٨]، هَذا قُنوتٌ شرْعِيٌّ لا شَكَّ، ولكِنَّ هذَه الآيَةَ ومَا أشْبَهها تدُلُّ عَلَى أنَّ القُنوتَ هُو الخُضوعُ للهِ عز وجل، سواءٌ كَان ذَلِك خُضوعًا شَرعيًّا أمْ كونيًّا.

الآية (٢٧)

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ للنَّاسِ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ مِنَ البَدْءِ].

قوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾: أيْ يبْتَدِئُه، وأَتى بكَلِمَةِ ﴿يَبْدَأُ﴾ لأَنَّ الخلْقَ مستَمِرٌّ، كلُّ يوْمٍ يكُونُ فِيه ابْتِداءُ خلْقٍ، الأجِنَّةُ فِي بُطونِ الأمَّهاتِ تنْشَأُ كلَّ يوْمٍ، وكَم في الدُّنيا فِي اليَوْم الواحِدِ مِن جَنينٍ يُكَوَّنُ؟ كَثيرًا جِدًّا ولِهَذا أَتى بالفِعْلِ المُضارِعِ الدَّالِّ عَلَى الاسْتِمرارِ ولَمْ يقُلْ (بَدَأَ).

وقوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: يَعْني ثمَّ هُو - أيْ الله عز وجل - يُعِيدُه، ومَعْنى الإِعادَةِ ردُّه عَلَى مَا كانَ أوَّلًا، كَما فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وأخْبَر النّبيُّ عليه الصلاة والسلام أنَّ النّاس يُحشَرُون يَوْم القِيامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا كَما بُدِئُوا.

قوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ﴾: الضَّميرُ يعودُ عَلَى الإِعادَةِ المفْهومَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يُعِيدُهُ﴾، فمَرْجِعُ الضَّميرِ إِذَنْ المَصدَرُ المَفْهومُ مِن الفِعْل، وَمرْجعُ الضَّميرِ قَدْ لا يُذْكَرُ بلفْظِه، ولكِنْ يُذْكَرُ مَا يدُلُّ علَيْه، انظُرْ إِلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، ومرْجِعُ الضَّمير في قوْلِه تَعالَى: ﴿هُوَ﴾ العدْلُ المفْهومُ مِن كلِمَةِ ﴿اعْدِلُوا﴾.

إِذَنْ: قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، أي الإِعادَةُ، والإِعادَةُ مصْدَرٌ، فَصَحَّ أن يعُودَ الضَّمِيرُ علَيْها مُذَكَّرًا.

قوْله تَعالَى: ﴿أَهْوَنُ﴾: اسْمُ تفْضيلٍ مِنْ (هَانَ يَهُونُ)، واسْمُ التَّفضيلِ يدُلُّ عَلَى أنَّ الهَوْنَ دَرجاتٌ، هَيِّنٌ وأَهْوَنُ، ودَرجاتُ الهَوْنِ قَد تُوحِي بأنَّ هُناك مشقَّةً لأنَّهُ لَوْلا أنَّ فِي بعْضِها مشَقَّةً مَا صارَ بعضُها أهْوَنَ مِن بعْضٍ؛ ولذَلِكَ اخْتلَف المُفسِّرُون فِي اسْمِ التّفضِيل هُنا، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ﴾، فَقِيل أنَّه بِمَعْنى هَيِّن، ﴿وَهُوَ

أَهْوَنُ عَلَيْهِ}: أيْ وهُو هَيِّنٌ علَيْه، وقالَ بعْضُ المُفسِّرينَ مَا ذَهَب إِلَيْهِ المُفَسِّر رحمه الله، وهُو أنَّه أهْوَنُ علَيْه مِن البَدْء بالنّظر إِلَى ما عِنْدَ المُخاطَبِينَ مِن أنَّ إعادَةَ الشّيْءِ أسْهَلُ مِن ابتدَائِه وإلَّا فهُمَا عنْدَ الله تَعالَى سوَاءٌ فِي السُّهولَةِ.

وهلْ قولُه: {أَهْوَنُ} عَلَى بابها؟

المُفَسِّر رحمه الله مشَى عَلَى أنَّها عَلَى بابِها، لكِنَّها باعْتِبَارِ المُخاطَبِين؛ لأَنَّ المُخاطَب يعْرِف أنَّ إعادَةَ الشّيْءِ أهْوَنُ مِنَ ابْتِدَائِه، وسبَبُ ذَلِك أن إِعادَتَهُ لا تَحْتَاجُ إِلَى تفْكِيرٍ جَديدٍ؛ لأَنَّهُ قَد سبَق فِيها التّفْكِيرُ، ثانيًا: لأَنَّ موادَّ التّكْوينِ موْجُودةٌ، افرِضْ مثَلًا أنَّني صنَعْتُ سيارةً، فعنْدما أُرْيدُ صُنْعها أوَّلًا تحتاجُ إِلَى تفْكِيرٍ وموادَّ، فإذَا أرَدْتُ أنْ أُعِيدَها مرَّةً ثانِيَةً مثْلَ أنْ تكُونَ قدْ تفَكَّكتْ هَذهِ السّيارةُ، وَأرَدْتُ أنْ أُعيدَها فستكونُ الإعادَةُ أهْونَ؛ لأَنَّ التَّفكِيرَ قَدْ فرَغْتُ منِه، والموادُّ موجُودةٌ محُضَّرةٌ فتكُونُ الإِعادَةُ أهوَنَ باعْتِبارِ المُخاطَبِ، أمَّا بالنِّسبَةِ للهِ عز وجل فَلا نَقُولُ: إِنَّ فِي حقِّه مَا هُو أهْوَنُ، ومَا هُو هيِّنٌ، بَلِ الكلُّ عنْدَ الله تَعالَى هيِّنٌ سهْلٌ.

وقالَ بعْضُ المُفسِّرينَ: إنَّ (أهْون) بمَعْنى هَيِّن، فَعلى هَذا يكُونُ الهَوْن بالنِّسبَةِ إلَى الله عز وجل، لَا بالنِّسبَةِ لما عنْدَنا نَحْن، وَفِي الحدِيثِ عَنِ الرَّسولِ عليه الصلاة والسلام أنَّ الله تَعالَى قالَ: "كَذَّبَني ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إيَّايَ فَقَوْلُه: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إعَادتِهِ"، فهُو مفُسِّرٌ للآيَة، فهُو يُفَسِّر أنَّ كُلَّ ذَلِك هيَّنٌ علَيْه، ولكِنْ لا شَكَّ أنَّ الإعادَةَ أهْوَنُ باعْتِبارِ المَفْهومِ عنْدَ المُخاطَبِينَ، فمَا مشَى علَيْه المُفَسِّر رحمه الله هُنا جيِّدٌ.

قالَ المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أيْ الصّفَةُ العُلْيَا، وَهِي أنَّه لَا إلَه إلَّا الله]: (له) خَبَرٌ مقَدَّمٌ، و(المَثَلُ) مُبتَدأ مؤخَّرٌ، والمَثَل والمِثْل معناهُما واحِدٌ، ويُطْلَق عَلَى عدَّةِ معانٍ: فيُطْلَقُ عَلَى الشَّبه؛ كقوْلِه تَعالَى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، يعْنِي شَبَهُهم كشَبَه الَّذي اسْتوْقَد نَارًا.

ويُطْلق المَثَل عَلَى الصّفة؟ كقوْلِه تَعالَى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: ١٥].

ويُطلَقُ المَثَل عَلَى الذّاتِ؛ قالُوا كقوْلِه تَعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، يعْنِي ليْسَ كذَاتِه، وقالُوا مِنْه قولُ الشَّاعِرِ:

لَيْسَ كَمِثْلِ الفَتَى زُهَيْرٍ .....

والمُرادُ هُنا بالمَثَل فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ الصِّفةُ، أيْ لَهُ الصِّفةُ العُلْيا فِي السَّموَاتِ وَالأرْضِ، كُلُّ صِفَةٍ كَاملَةٍ فلِله سبحانه وتعالى أكمَلُها، وكُلُّ صفَةِ نقْصٍ فإنَّهُ مُنَزَّهٌ عنْهَا؛ لأنَّهُ مَا دَام قَد ثَبَت لَهُ الصِّفَةُ الكَامِلَةُ العُلْيا، فإنَّهُ بالضَّرُورةِ العَقْلِيَّةِ ينتفِي عنْهُ النَّقْص؛ لأنَّهُ لَو اتَّصَف بنَقْصٍ ما اسْتَحقَّ أنْ يَكُونَ لَهُ المَثَلُ الأَعْلى.

إذَنْ: هَذهِ الآيَةُ الكَريمَةُ تدُلُّ عَلَى صِفَاتِ الكَمال للهِ عز وجل، الكَمالُ المُطْلَقُ؛ لأنَّهُ قَال: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾، وعَلى انْتِفاء النَّقْص مِن جَمِيع الوُجوهِ إذْ أنَّه لوِ اتَّصفَ بنَقْصٍ مَا اسْتحَقَّ أنْ يكُونَ لَه المَثلُ الأَعْلى، ونَأْخُذُ مِن هَذا أنَّ كُلَّ مَا وَصَفَ الله بِه نفسَهُ فهُو صفَةُ كَمالٍ، وَلَيْس فِيه نقْصٌ، وكُلُّ كَمالٍ فإنَّ الله تَعالَى مستَحِقٌّ لَه، فهَذان شيْئَانِ:

الأولُ: أنْ نَعْلم عِلْمَ اليَقِينِ أنَّ كُلَّ مَا وَصَفَ الله بِه نفسَهُ فهُوَ صِفةُ كَمالٍ.

الثَّاني: أنْ نَعْلم أنَّ كُلَّ صِفَةِ كَمالٍ فاللهُ تَعالَى مستَحِقٌّ لَها، فَهُو أهْلٌ لَها، كَما قَالَ الرَّسولُ عليه الصلاة والسلام: "أهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ"، وسيَأْتي - إنْ شاءَ الله - فِي الفوائِد مَا يُسْتَدلُّ بِه عَلَى الرّدِّ عَلَى الَّذِين يُنكِرونَ صِفاتِ الله بحُجَّةِ أنَّها تسْتَلْزِمُ النَّقصَ وهُو التَّشبِيهُ.

وقوْله سبحانه وتعالى: ﴿الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: معْنى المَثل الأَعْلى فِي السَّموَاتِ وَالأرْضِ يعْنِي عنْدَ أهْلِ السَّمواتِ مَن المَلائِكَةِ، وعِنْدَ أهْلِ الأرْضِ، فكُلُّ الفِطَر السَّليمة تعْتَرِفُ بأنَّ المَثل الأعْلَى والصِّفةَ العُليا للهِ وحْدَه.

وأمَّا قولُ المُفَسِّر رحمه الله: [وَهِيَ أنَّه لَا إلَهَ إلَّا الله]، فهَذا فرْدٌ مِن أفْرَادِ المَثَل الأعْلَى، وليْسَ هُو المَثل الأَعْلى كُلَّه، فإنَّ لَا إلَه إلَّا الله تدُلُّ عَلَى تفرُّدِه سبحانه وتعالى بالأُلوهِيَّةِ، وَهَذا مِن المَثَلِ الأَعْلى، لكِنَّ المَثلَ الأَعْلى أعَمُّ مِن ذَلِك، فلَهُ مثلًا القُدْرَةُ الكامِلَةُ والعِلْم الكامِلُ والحيَاةُ الكاملَةُ والسَّمْعُ الكامِلُ والبَصر الكامِلُ والحكْمَةُ البالِغةُ، وَهكَذا فَهِي أعَمُّ مِن تفرُّدِه بالأُلوهِيَّةِ.

قالَ المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي خَلْقِه]: تفْسِيرُه هَذَا فِيه قُصورٌ، ف ﴿الْعَزِيزُ﴾ يعْنِي: ذُو العِزَّة،

وَهِي الغَلبَةُ والقَهْر والقَدْرُ، فلَه عزَّةُ القهْرِ والقَدْرِ سبحانه وتعالى والامتناعِ، فالعزة إِذَنْ ثلاثَةُ معَانٍ:

المَعْنى الأوَّلُ: عزَّةُ القَهْرِ، بمَعْنى أنَّه القاهِرُ لكُلِّ شيْءٍ، فلَا يغْلِبُه أحَدٌ، قالَ الله تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

المَعْنى الثَّاني: عِزَّةُ القَدْرِ، ومعْنى عِزَّة القَدْر أنَّ الله سبحانه وتعالى لا نظِير لَه، ولَا شبَه له؛ لكمَال قدْرِه سبحانه وتعالى وعظَمَتِه، ومنْهُ قوْلُهم: (هَذا الشّيْءُ عزِيزٌ)، أيْ نادِرُ الوُجودِ لَا نظِيرَ لَهُ.

المَعْنى الثَّالث: عِزَّةُ الامتِناعِ، بمَعْنى أنَّه يمتَنِع علَيْه النّقْص لِكمَالِ قُوَّتِه، ومنْهُ قوْلُهم: هَذِهِ الأرْضَ عزَازٌ، يعْنِى شَديدَةٌ قويَّةٌ لا يُمْكِنُ أنْ ينْفذَ إليها شيْءٌ، والأرْضُ الرَّخوَةُ بالعَكْس، كُلُّ شيْءٍ يؤَثِّرُ فِيها حتَّى الرَّجُل إِذا مشَى علَيْها يُؤثِّرُ، بخلَافِ الأَرْض الصّلْبة التي تُسمَّى العزَاز.

فصارَتِ العزَّةُ الآن عزَّة القدْرِ وعِزَّةَ القهْرِ وعِزَّةَ الامتَناع.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوْلُه سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠]، مِن أَيِّ المَعاني؟

قُلْنَا: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ أيْ بمُمْتنِعٍ، فهُو مِن عِزَّةِ الامْتِنَاعِ.

وأمَّا قولُه ﴿الْحَكِيمُ﴾ فالمُفَسِّر رحمه الله يقولُ: هو [الحكِيمُ فِي خَلْقِهِ] وأحيانًا يقُول: (في صُنْعِه)، ومعْنَاهُما واحِدٌ، لكِنَّ هَذا قاصِرٌ أيْضًا؛ لأَنَّ الحكِيمَ مشْتَقٌّ مِن الحُكْم والحِكْمة، فعَلى قولِنا أنَّه مُشتَقٌّ مِن الحُكم يَكُون (حَكِيمٌ) بمَعْنى حَاكِم، مثْلُ رَحِيمٍ بمَعْنى رَاحِم، وَعَلَى قوْلِنا أنَّه مِن الحكْمَة يكُونُ (حَكِيمٌ) بمَعْنى مُتْقِن، فَهُو مِن أَحْكَمَ يُحْكِمُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: وهل يَأْتي (فَعيل) بمعنى (مُفْعِل) في اللُّغَة العربية؟

فالجوابُ: نَعم، وَمنْه قوْلُه تَعالَى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، بمعْنى (مُؤْلِم)، ومنْه قولُ الشّاعر:

أَمِنْ رَيْحَانَة الدَّاعِي السَّمِيعُ ... يُؤَرِّقُني وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

السَّميعُ أي: المُسْمِع؛ لأَنَّ الدّاعِي يُسْمِعُ غيرَه، ولَيْس هُو نفسُه سَمِيعًا.

إِذَنْ: نقُولُ: (حِكيم) مأخُوذَةٌ مِن الحُكم والحِكْمة، فعَلى أنَّه مأخُوذٌ مِن الحُكْم يكُونُ بمَعْنى (حَاكِم) مثْلُ (رَحيم) بمَعْنى (رَاحم)، و(سَمِيع) بمَعْنى (سَامِع)، وإذا قُلنا أنَّها مِن الحكْمَة فَهُو مِن أحْكَمَ فَهُو حَكِيمٌ، بمَعنى محُكم، أيْ اسمُ فاعِلٍ مِنَ الرُّباعِيِّ.

وحُكْمُ الله عز وجل ينْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: كَوْنيٍّ وشرْعِيٍّ، فالكوْنيُّ نافِذٌ في جَمِيعِ الخلْق شاؤُوا أمْ أَبوْا، والشَّرعِيُّ نافِذٌ فِيمَن أطَاعَ الله عز وجل، أمَّا مَنْ لَم يُطِعْه فإِنَّهُ لا يُنْفِذُ حُكْمُه.

وهَل هُناك أمْثِلَةٌ مِن القُرآنِ تدُلُّ عَلَى هَذا التّقسيمِ مِن أنَّ الحُكْم كوْنِيٌّ وشَرْعِيٌّ؟

الجوابُ: نعم، قالَ أحَدُ إخْوَةِ يُوسُفَ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]، المُراد بالحُكم هُنا الحكمُ الكَوْنيُّ القَدَرِيُّ، يَعْني: أوْ يُقَدِّرُ الله ذَلِك، أمَّا الحُكْم الشّرعِيُّ فإنَّ الله لما ذَكر مَا يَجِبُ فِي النِّساءِ المُهاجِراتِ فِي سُورةِ المُمْتَحِنة قَال: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، والمُراد بالحُكْم هُنا الحُكْمُ الشّرْعِيُّ، لأَنَّ مَا ذُكِرَ مِن الأُمُورِ كُلُّه أمُورٌ شرْعِيَّةٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما تقُولونَ فِي قوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، أيُّ الحُكْمَين؟

قُلْنَا: هذَا شَامِلٌ، وَكَذلِكَ قوْلُه تَعالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، الظَّاهِر أنَّه شامِلٌ، وإِنْ كَان فِي الشَّرع فِي هَذهِ الآيَةِ أظْهَرَ؛ لأَنَّ الله قال: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

إِذَن: الحكِيمُ مِن الحُكْم تنْقِسمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: حُكْمٌ شرْعِيٌّ، وحُكْمٌ كوْنِيٌّ، والحُكمُ الكونِيُّ هُو قَضاؤُه وقدَرُه، وكُلُّ أحَدٍ خاضِعٌ لَهُ، والحُكْمُ الشَّرْعِيُّ مَا حَكَمَ بِه شرْعًا، ولا يَخْضَعُ لَهُ كلُّ أحدٍ.

أمَّا إذا قُلنا أنَّه مِن (أحْكَمَ) فحَكِيمٌ مِن الحكْمَة بمَعْنى مُحْكم، فإِنَّ الحِكْمة تنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْن: حكْمَةٌ غائِيَّةٌ، وحِكْمةٌ صُورِّيةٌّ، يعْنِي صورَةُ الشّيْء كَذا وكَذا، فكَوْن الشَّيْء عَلَى صُورَةٍ معيَّنَةٍ نَجِد أنَّ جَمِيعَ مَا خلَقَه الله فِي صِفَاتِه كُلُّه عَلَى صِفَةٍ مُوافِقَةٍ للحْكِمة، تدَبَّرِ المخْلوقاتِ تجِدْ أنَّ المخْلوقاتِ في ذَواتِها وحَركاتِها وهَيْئاتِها وصِفاتِها كُلُّها مُوافِقَة للحِكْمة، الحكْمَةُ الغائِيَّةُ هِي الغايَاتُ المحمُودَةُ فِي أفْعَالِه وأحْكامِه الشّرْعِيَّةِ كُل مَا خَلق الله تَعالَى، فإِنَّهُ لغايَةٍ محمُودَةٍ ليْسَ عبَثًا ولا سُدىً ﴿وَمَا

خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨ - ٣٩]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، حتَّى مَا يُقدِّرُه الله مِن الأُمورِ المُؤلمَةِ فإِنَّهُ حكْمَةٌ، فهَزِيمَةُ المُؤْمِنينَ يومَ أُحُدٍ حكْمَةٌ لَا شكَّ، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧]، وقَال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

إِذَنْ: كُلُّ أفعالِه سبحانه وتعالى حكْمَةٌ، ولَها غايَةٌ محمُودَةٌ، كَذَلِكَ أيضًا أحْكَامُه الشّرْعِيَّةُ مثْلُ الأحْكَام الكوْنِيَّةِ، هِي عَلَى وضْعِها عَلَى صِفَةٍ معيَّنَةٍ موافِقَةٍ للحِكْمَةِ، ثمَّ غايَاتُها الحمِيدَةُ التي بِها صَلاحُ القُلوبِ والبِلادِ والعِبَادِ أيْضًا حِكْمَةٌ.

فصَارتِ الحكمَةُ نوْعَين: حكْمَةٌ فِي الشّيْءِ عَلَى صِفَته المعيّنةِ، وحكْمَة فِي غَايَتِه الحمِيدَةِ، ثمَّ إنَّ هَذِهِ الحكْمَةَ تَكونُ فِي الشَّرع، وتَكُونُ في القَدَر أي: فِي الكَوْن، إنَّنا إذا عَلِمْنا أنَّ الله تَعالَى حكِيم فإنَّنا نطْمَئِن غايَةَ الاطْمِئْنان لما قَضاه وقدَّرَهُ ولما شَرَعَه وحَكَم بِه، نطْمَئِنُّ أَنَّه موافِق للحِكْمَةِ، وحِينَئِذٍ لا يُمْكِنُ أنْ

نوُرِد ولَا أنْ يَرِد عَلَى قُلوبِنا: لماذَا جَاء كَذا؟ ومن أَيْن شَرَع كَذا؟ إلا عَلَى سبيل الاسْتِرشَادِ، فالإنسانُ الَّذِي يسْأل عَن الحِكْمَةِ مُسترْشِدًا فَلا بَأْس، أمَّا الَّذِي يسْأل عَن الحِكْمَةِ مُعترِضًا فإِنَّهُ قَاصرٌ، ولَم يُقدّرِ الله حقَّ قدْرِه.

ولنَنتبه إِلَى كلِمة ﴿الْحَكِيمُ﴾، وَبِهذَا التَّفسر الَّذي فسَّرناهَا بِه يتبيَّنُ أنَّ المُفَسِّر رحمه الله قدْ قصَّر في تفسِيرِه.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَتانِ الأُولَى والثّانيةُ: أنَّ الخَلْق حادِثٌ بعْدَ أنْ لم يَكُن يُؤْخَذُ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾، فيَكُون في الآيَةِ ردٌّ لقولِ الفَلاسِفَةِ القَائِلينَ بقِدَمِ العالَم، والصَّوابُ أنَّ العالَم حادِثٌ بعْدَ أنْ لَم يكُنْ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: إثْبَاتُ إعادَةِ الخلْقِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

الفائِدَةُ الرابعةُ: استِعْمالُ قياسِ الأَوْلى، وقِياسَ الأَوْلى معرُوفٌ في أُصولِ الفِقْه، فالاسْتِدلال بالنَّظر عَلَى نظيرِه يُسمَّى قِياس مساوَاةٍ، والاسْتِدلال عَلَى الشّيْءِ بِما هُو أَوْلى - يَعْني نسْتَدِلُّ عَلَى الشّيء الّذِي يكُونُ أوْلى مِن المَقِيس علَيْه - هَذا يُسمّونَه

قِياس الأَوْلى، فهُنَا في الآيَةِ استِعْمالُ قياسِ الأَوْلى؛ يُؤْخذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، أيْ إعادَتُه، فإِنَّهُ إِذا كَان قادِرًا عَلَى الابْتِداءِ فَهُو عَلَى الإعادَةِ مِن بَابِ أَوْلى عَلَى ما مَشَى علَيْه المُفَسِّر.

الفائِدَةُ الخامسةُ: إثْبَاتُ كمالِ الصّفات لله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

الفائِدَةُ السادسةُ: الرّدُّ عَلَى أهْلِ التّعطيلِ الَّذِين يُنكِرُون صِفاتِ الله عز وجل؛ فإِنَّ الَّذِين يُنْكِرونَ صِفاتِ الله مَا جعَلُوا لَهُ المَثَل الأَعْلى، بَلْ جَعلُوه موْصُوفًا بالنّقائِص - والعياذُ بالله -، سواء كَان هَذا التّعْطِيلُ كُليًّا أو جُزئيًّا؛ لأَنَّهُ إِنْ كانَ كُليًّا كَما فَعل الجهْمِيَّةُ وسلَبُوه جَمِيعَ الصِّفاتِ، وَكَذلِكَ المعتزِلةُ قَالُوا: لَه أسْمَاءٌ بِدونِ صِفاتٍ، فظَاهِرٌ أنَّهم سلَبُوا الكَمال عَنِ الله، أمَّا إِذا كانَ جُزئيًّا كَما فعَل الأَشَاعِرةُ والماتُرِيديَّةُ ونحْوُهم فَإِنَّ هَذا فِيه سلْبُ الكَمالِ عَنِ الله فِيما وَصفَ بِه نفْسَهُ، فقوْلُه تَعالَى: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، الاسْتِواءُ صِفةُ كَمال وهُمْ يقُولونَ: (اسْتوى بمَعْنى اسْتَوْلَى)، فلَم يجْعَلُوا للْعَرش خَصِيصةً بالاسْتِواءِ علَيْه؛ لأَنَّ الله تَعالَى مستولٍ عَلَى كُلِّ شيْءٍ، وَكَذلِكَ

أيْضًا إذا قالُوا إنَّ المُرادَ بالآيَاتِ خِلافُ الظَّاهِر، فإنَّهم وصَفُوا الله تَعالَى بالنّقْص؛ لأَنَّ إرادَة المتَكَلِّم بكَلامِه خِلافَ الظَّاهِر بدُونِ بَيانٍ يُعتبر تدْلِيسًا وتَمْويهًا، واللهُ عز وجل مَا أَنزْل القرآن إِلَّا لِلْبَيانِ، قَال تَعالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النّساء: ٢٦]، وقَال تَعالَى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]، وقَال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ [النّحل: ٤٤]، والآيَاتُ في هَذا كثِيرَةٌ.

فإذَا قُلْنَا: إنَّ الله أرادَ بِهَذا خِلافَ الظَّاهِر، فهَذا وصْفٌ لَه بالتَّعْميَةِ سبحانه وتعالى، وأنَّه لا يُرِيدُ البيانَ، وهَذا لا شَكَّ أنَّه نقْصٌ، وَلهَذا نقُولُ: إنَّ جَمِيعَ مَنْ أنْكَرُوا صِفَاتِ الله عز وجل كُلِّيَّةً أوْ جُزْئيَّةً فإنَّهم قدْ وَصَفُوا الله سبحانه وتعالى بالنَّقْص.

الفائِدَةُ السابعةُ: أنَّ كُلَّ صِفَةٍ وُصَف الله بِها نفْسَهُ فَهِي صِفَةُ كَمالٍ؛ تُؤخَذ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ﴾، فإذا أثْبَتَ لنفْسِه صِفةً علِمْنا أنَّها صِفة كَمالٍ، الرّحمَةُ أثْبَتها الله لنَفْسِه صفَةَ كَمالٍ لا نقْصٍ، لكنَّها عنْد أهْل التَّعطِيل المُحَرِّفِينَ هِي صِفةُ نقْصٍ، يقُولونَ: إنَّ الرّحمةَ تدُلُّ عَلَى الخَورِ والضَّعْفِ؛ فلِهَذا قالوا أنَّ

رَحمةَ الله لَا يُرادُ بِها الرَّحمةُ، وإِنَّما يُرادُ بِها الإحسَان، أَوْ إرادَةُ الإحسَان، يُفسِّرونها إمَّا بالجزاءِ المفْعُولِ المخْلُوقِ وإِمَّا بِإرَادَتِه.

وهَلْ يُستَفادُ مِن هَذهِ الآيةِ الكَريمَةِ اسْتِعْمالُ قِياسِ الأَوْلى في حَقِّ الله، فنَقولُ: كُلُّ صَفَةِ كَمالٍ في المخْلُوقِ فالخالِقُ أَوْلى بِهَا؟

نَعم، شيْخُ الإسْلام رحمه الله يُقرِّرُ هَذا، بأنَّ استِعْمالَ قِيَاسِ الأَوْلى في حَقِّ الله جَائِزٌ، أمَّا قِياسُ التَّمْثيلِ وقياسُ الشُّمولِ فهذَا مُمتنِعٌ؛ لأَنَّهُ هُو التَّشْبيهُ، فإِذا قُلْنا: كُلُّ صفَةِ كَمالٍ في المخْلُوق فالخالِقُ أَوْلى بِها صَحَّ، لكِنْ يَجِبُ أنْ نعلَمَ أنَّ صِفَاتِ المخْلُوقِ الكامِلَةَ التي تُكَمِّلُ نقْصَهُ فَهِي كامِلَةٌ في حقِّه، لكِنْ لتكْمِيلِ نقْصِه، فَهَذهِ لا يُوصَفُ الله بِها، يَعْني هِي كامِلَةٌ في حقِّ المَخْلوقِ، لكِنْ لتكْمِيلِ نقْصِه؛ فإِنَّ الخالِق لا يُوصَفُ بِها؛ لأنَّهَا وإِنْ كَانت كامِلَةً فَهِي في الوَاقِع نقْصٌ، مِثْلُ الأَكْل والنَّوم والنكَّاحِ، ومَا أشْبَه ذَلِك، فهَذِهِ الصِّفاتُ في حقِّ المخلُوقِ صفَةُ كَمالٍ؛ لأَنَّ الَّذِي لا يأْكُل معْنَاه أنَّه مرِيضٌ، والَّذِي لا ينَامُ معْنَاه أنَّه مرِيضٌ، والَّذي لا يتزَوَّجُ معْنَاه أنَّه مرِيضٌ، ففَواتُ هَذِهِ الصِّفاتِ نقْصٌ في المخْلُوقِ، لكِنَّها لما كانَتْ تَكْمِيلًا لنقْصِه صارَتْ لا يُوصَفُ بِها الخالِقُ لحاجَةِ الإِنْسانِ إِلَى الأكل صَار يأْكُل، والَّذِي لَا يشْتَهِي ولَا

يأْكُل آخِرُه المَوْت، وَكَذلِكَ لمَّا كانَ الإنْسانُ يتْعَبُ ويحْتَاجُ إِلَى صِفَةٍ تقْطَعُ هَذا التّعبَ ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النّبأ: ٩]، صَار النَّوْم في حقِّه كَمالًا، وَكَذلِكَ لمَّا كانَ الإِنْسانُ محْتَاجًا إِلَى بقَاءِ النَّسْل والنَّوْع صارَ النِّكَاحُ في حقِّه كَمالًا، فَهُو في الحقِيقَةِ تكْمِيلٌ لنَقْصٍ، لكِنْ لَا يُوصَفُ الله بِه عز وجل؛ لأَنَّ الله كامِلٌ مِن جَمِيع الصِّفاتِ.

لَوْ قالَ قَائِلٌ: إنَّ الصِّفاتِ توْقِيفيَّةٌ، ولوْ فتَحْنا هَذا البابَ - كَما قَالَ شيخُ الإسْلام رحمه الله - باسْتِعمال قِيَاسِ الأَوْلى في حَقِّ الله لكَانَ كُلُّ إِنْسَانٍ يَقِيسُ بعَقْلِه ويُخْطِئُ؛ لأَنَّهُ قدْ يظُنُّ أنَّ هَذا كَمالٌ، وهُو ليْسَ بِكَمَالٍ؟

قُلْنَا: يَرِد عليْنا هَذَا، لكِنْ نقُولُ: كُلُّ صفَةِ كَمالٍ مِن حيْثُ العُمُومُ والجِنْس إِمَّا أنْ نقُولَ: كلُّ صفَةٍ تَثْبُت للمَخْلوقِ نُثْبِتُها للخالِق، وهَذا لا يُمْكِنُ ولَا يسْتَقِيمُ، إنَّما مِن حيْثُ الجِنْس كُلُّ صفَةِ كمَالٍ في المَخْلُوقِ فاللهُ أَوْلى بِها، والسَّمع مُؤَيّدٌ، قَالَ تعالَى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ فِيما ورَد مِنَ الصِّفاتِ؟

قُلْنَا: لَا، بَلْ مُطْلَقًا، حتَّى الأشْيَاءُ الَّتي قَدْ لَا تكون موْجُودةً في النّصِّ وهِيَ مِن صِفَاتِ الله، قصْدِي أنَّها مِنَ الكَمالِ، فاللهُ تَعالَى مُتَّصِفٌ بِها، لكِنْ في الصِّفاتِ الخبَرِّيةِ قدْ نَقُولُ أنَّه يَمْتَنِعُ أنْ يُقاسَ الله بِالخلْقِ حتَّى قِياسَ الأَوْلى كَالعَيْن وَاليَدِ ومَا أشْبَهَها، فهَذِه قَدْ نقُولُ: لَا يُمْكِنُ أنْ نَقِيسَ فِيها قِيَاسَ الأَوْلى، فالأُذُن في المَخْلُوقِ كَمالٌ لكِنَّها في الخالِق لا تثْبُتُ لَهُ؛ لأنَّهَا لمْ يَرِدْ بِها الشّرعُ.

الفوَائِدُ الثّامِنةُ والتّاسِعةُ والعَاشِرَةُ: إثْبَاتُ العِزَّةِ؛ لقوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿الْعَزِيزُ﴾ وإثْبَاتُ الحِكْمةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿الْحَكِيمُ﴾، وإثْبَاتُ الحُكْمِ أيْضًا مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿الْحَكِيمُ﴾.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: يتفرَّع عَلَى إثْبَاتِ الحِكْمَةِ قطْعُ الاعْتِراضِ عَلَى الخَلْق والشّرع، بمَعْنى أنَّك لا تعْتَرِضُ عَلَى خَلْقِ الله أوْ عَلَى شرْعِه، وإنَّما تُسَلّم؛ لأَنَّك إذا آمَنْت بالحِكْمَةِ وأنَّ الله تَعالَى حَكِيمٌ فحِينَئِذٍ ينْقَطِعُ الاعْتِراضُ نِهائِيًّا، فلا تَقُلْ لمَ؟ ولَا مِن أيْنَ؟ إلا عَلَى سَبِيل الاسْتِرْشادِ.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ عشرة: اطْمِئنانُ الإنْسانِ التَّامِّ بما قَدَّرَ الله تَعالَى وشَرَعَهُ، حيْثُ أنَّه صادِرٌ عَنِ الحِكْمَةِ.

الآية (٢٨)

* قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرّوم: ٢٨].

قوْله تَعالَى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾: المَثل بمَعْنى الشَّبَه والنَّظير، يعْنِي: ضَرب لكُمْ أمْرًا نَظِيرًا لما فعَلْتُم أنْتُم في جَانِب الله عز وجل، وهَذا المثل: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

يقُولُ المُفَسِّر رحمه الله: [وَهُوَ ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ﴾]، (مِمَّا) أيْ مِنَ الَّذي ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، يقُولُ المُفَسِّر رحمه الله: [أَيْ مِن مَمَالِيكِكُم ﴿مِنْ شُرَكَاءَ﴾ لَكُمْ].

قوْله سبحانه وتعالى: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ﴾: أيْ مِن الَّذِي ملكَتْ أيمانُكُم ﴿مَلَكَتْ﴾، هَذِهِ هِي صِلَةُ المَوْصولِ، والعَائِدُ محْذُوفٌ، والتَّقْديرُ ملَكَتْه أيْمانُكُم.

وقوْله تَعالَى: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: الإِيمَان جَمْعُ يَمِينٍ، وهِي اليَدُ، وأُضِيفَ المُلْكُ إِلَى اليَدِ؛ لأَنَّ غالِب تصرُّفاتِ الإِنسانِ بِيَدِه، وأُضِيف إِلَى اليَمِينِ لأَنَّهُ أشرَفُ مِن اليَسَارِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾: المُرادُ مَا ملَكَتِ الإِيمَان مِن الإِنسانِ؛ وَهذا قالَ المُفَسّر رحمه الله: [أَيْ مِنْ مَمَالِيكِكُمْ].

وقولُه ﴿مِنْ شُرَكَاءَ﴾: مبْتَدَأ، و﴿لَكُمْ﴾ خَبَرُها مُقدَّمٌ، ولكِنَّ المُبتدَأ دخَلتْ علَيْهِ ﴿مِّنْ﴾ لأَجْل العُمُومِ أوْ للتَّنْصِيص عَلَى العُمُومِ، لأَنَّ ﴿مِّنْ﴾ الزَّائدة تُفيدُ التَّنصيصَ عَلَى العُمُوم، ولكنَّه قدْ يشْكل علَيْنا أنَّ ﴿مِّنْ﴾ لا تُزاد إِلا بعدَ النَّفي، وابْنُ مالك رحمه الله يقُولُ في هَذِهِ المسأَلةِ:

وَزِيدَ في نَفْيٍ وَشِبْهِهِ فَجَرّ ... نَكِرَةً ك (مَا لِبَاغٍ مِنْ مَفَرّ)

ف ﴿مِنْ﴾ زائِدةٌ إِعْرابًا، ولكِنَّها في المَعْنى لهَا معْنَى، وهُوَ التَّنصِيصُ عَلَى العُمُومِ، وذَكر ابْنُ مالِكِ رحمه الله أنَّها لا تُزادُ إِلَّا بعْدَ نفْيٍ وشِبْهِه، وهُنا سُبِقت بشِبْهِ نفْيٍ؛ لأَنَّهُ اسْتِفْهامٌ بمَعْنى النَّفْي، يعْنِي: مَا لكُمْ مِمَّا ملَكَتْ أَيْمانُكُم مِن شُرَكاءَ فِيما رَزَقْنَاكُم.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِنْ شُرَكَاءَ﴾: أيْ مُشارِكِينَ لكُمْ.

قالَ المُفَسر رحمه الله: [﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ مِنَ الأَمْوالِ وغيْرِها فأَنْتم وهُمْ ﴿فِيهِ سَوَاءٌ﴾]، قوْله تَعالَى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ ليْسَتْ عائِدَةً عَلَى النَّفْي، لكِنَّها عائِدَةٌ عَلَى المنْفِيّ، يعْنِي: فهَلْ أنْتُم سَواءٌ فِيما رَزقْنَاكُمْ.

قوْلُه رحمه الله: [﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: أيْ أمثالِكُمْ مِنَ الأَحْرَارِ]، فجَعل الأنْفُس هُنا بمَعْنى الجِنْس؛ لأَنَّ النَّفْس تأْتِي بمَعْنى الجِنْس، يعْنِي: هَل هَؤُلاءِ المَمالِيكُ شرُكاءُ لكُمْ في رزْقِكُم مِن الأمْوالِ والأَولادِ ومُساوُونَ لَكُم وتَخافُونَهُمْ كَما تخافُونَ مِن أنْفُسِكُمْ؟

والجوابُ: لَا، ليْسَ لَنا مِمَّا مَلكَتْ أَيمانُنا شُركاءُ فِيما رُزِقْنا، فالمَمْلوكُ لَا يُشارِكُك في مالِكَ، ولَا يُشارِكُك أيْضًا في وَلدِكَ، ولَا يُشارِكُكَ في أيِّ شيْءٍ تملِكُه، فإِذا كَان كَذَلِكَ فلِماذَا تجْعَلُون هَذِهِ الأصْنامَ شُركاءَ مَع الله وهِي مخْلُوقةٌ لَهُ ممْلُوكةٌ مرْبُوبةٌ لَه؟ !

إِذَن: المثَلُ واضِحٌ جدًّا في أنَّ هَؤُلاءِ المُشْركِينَ يُفرِّقونَ بيْنَ المُتماثِلَيْن، فكَما أنَّكُم الآنَ وبإِقْرَارِكُم أنَّ عَبِيدَكُم لا يُساوُونَكُم في المنزلةِ ولَا يُشارِكُونَكُم في الرِّزقِ، فكَذَلِك أيْضًا مَا يمْلِكُه الله

عز وجل مِن هَذِهِ الأصنامِ وغيْرِها لَا يُساوُونَ الله تَعالَى في المَنْزلَةِ، ولَا يُشارِكُونَه في الحُقوقِ، وَهَذا مَثَلٌ ظاهِرٌ جدًّا.

ومثالُه مِن أنْفُسِنا نَحْنُ: هَذا رجُلٌ يُؤدِّبُ ولدَه إذا أخْطَأ، فقَال لَهُ بعْضُ النَّاسِ: لماذَا تضرِبُه؟ لماذَا تنْهَرُه؟ فإنَّه سيَقُولُ: أَلَسْت تفْعَلُ بِولَدِك مثْلَ هَذَا؟ !

والجوابُ: بَلى، إذَنْ كيْفَ تلُومُني عَلَى شيْءٍ تفْعلُه أنْتَ؟ !

فيُقالُ لهَم: كيْف تَجْعلُون مَع الله شَرِيكًا فِيما يسْتَحِقُّه وحدَه، وأنتم لَا تجْعَلُون لأنْفُسِكُم شرِيكًا مِن عَبيدِكُم فِيما تخْتَصُّونَ بِه مِنَ الرِّزْقِ؟ ! هَذا الَّذِي ذَكر الله عنْهُم.

والعجِيبُ أن هَذِهِ الآيَةَ استدَلَّ بِها مَن يَرَوْن الاشْتِراكِيَّة، فأوَّل مَا ظهرَتْ الاشْتراكِيَّةُ في العالَم العربيِّ بدَؤُوا يأْتُون بالنُّصوصِ المُتشابِهَةِ، وقالُوا: هَذِهِ الآيَةُ صرِيحَةٌ في الاشْتراكِيَّةِ؛ لأَنَّهُ يقولُ: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾، فانْظُرْ: كيف التّلبيسُ؟ وهذِه ليْسَتْ عَلَى ما أرَادُوا، إذْ هِي داخلَةٌ في النَّفْي، يعْني لسْتُم فِيه سَواءً، لكِن دَائِمًا أهْلُ الباطِلِ يُلَبِّسونَ لبَاطِلِهم بمُتَشابَهِ النُّصوصِ، وهَذهِ مِنْ حكْمَةِ الله عز وجل، أنَّه جعَل في النُّصوصِ أشْياءَ متُشابِهةً ليضِلَّ بِها مَن يضِلُّ.

وقولُ المُفَسِّر رحمه الله: [﴿فَأَنْتُمْ﴾ وَهُمْ ﴿فِيهِ سَوَاءٌ﴾]، المُفَسِّر رحمه الله أَتَى بكَلِمة (وَهُم) لأَنَّ المُساواةَ لَا تكُونُ إِلا بيْنَ شيْئَيْنِ؛ فلِهَذا أتَى بقَوْله: (وَهُم)، ولَا حاجَة إِلَيْها في الحقِيقَةِ، فالكلامُ تامٌّ بدُونِها إِذْ مِن المُمْكِنِ أنْ نقُولَ: ﴿فَأَنْتُمْ﴾، الضَّميرُ يعُودُ عَلَى المالِك والمَمْلوكِ فأنْتُم أيُّها المالِكُون والمَمْلوُكونَ فِيه سواءٌ، وحِينَئِذٍ لا نحْتاجُ إِلَى تقْدِير (وَهُمْ).

وقوْله تَعالَى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾: هَذَا الَّذي تسلَّطَ علَيْه النَّفْيُ، يعْنِي لسْتُم فِيه سواءً.

قوْله تَعالَى: ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾: الضَّمِيُر يعُودُ عَلَى (مَا)، بِاعْتِبارِ المَعْنى؛ لأَنَّ (مَا) لَو عادَ إِلَيْها الضَّمِيرُ باعْتِبارِ اللَّفْظ لعَادَ إِلَيْها مُفْردًا، فلمَّا عادَ إِلَيْها جَمْعًا صَار باعْتِبَارِ المَعْنى.

وقوْله تَعالَى: ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: المُفَسِّر رحمه الله جعَل الأنْفُس بمَعْنى الجِنْس، يعْنِي كَما تخافُونَ مِن جِنْسِكُم، ولِهذَا قالَ: [أيْ أمثالُكم مِنَ الأَحْرَارِ]، ويُمْكِن أنْ يُقال أنَّه يَعُودُ عَلَى ذَاتِ الإنْسَانِ، ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، يعْنِي كَما أنَّ لكُم التّسلُّطَ عَلَى أموالِكُم، فأَنْتُم تخافُونَ أنْ يتسلَّطُوا عَلَى هَذِهِ الأموالِ كَما تتسلَّطُ أنْفُسُكُمْ.

وقوْله تَعالَى: ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: مصدْرٌ مضافٌ إِلَى الفاعِل، و(أنفُسَ) هِي المفْعولُ.

قالَ المُفَسِّر رحمه الله: [والاسْتِفْهامُ بمَعْنى النَّفْي، أيْ لَيْس مماليككم شُركاءَ لكُمْ إِلَى آخِرِه عنْدَكُم، فكَيْف تَجْعلُون بعْضَ مَماليكِ الله شُركاءَ لَهُ]، وَهَذا مثَلٌ واضِحٌ، إِذا كنْتَ أنْتَ الَّذي تمْلِكُ لَا يُشارِكُك في مالِك، وفِيما هُو مِنْ خَصائِصِكَ، فكَيْف تجْعَلُ للهِ تَعالَى شَرِيكًا فِيما هُو مِن خَصائِصِه، الكلامُ واضِحٌ جِدًّا في إلزْامِ هَؤُلاءِ بعَدمِ الشّرْكِ، وَلهذَا قالَ الله تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، قالَ المُفَسِّر: [نُبيِّنها مثْلَ ذَلِك التَّفْصِيلِ ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتَدبَّرونَ].

قوْله تَعالَى: ﴿كَذَلِكَ﴾ الكَافُ اسْمٌ بمَعْنى مثْلِ، فهُو إِذَنْ مفْعُولٌ مطْلَقٌ عامِلُه ﴿نُفَصِّلُ﴾، أيْ مثْلَ ذَلِك التَّفْصيلِ والتَّبْيينِ، نُفصِّلُ الآيَاتِ، ولكِن مَن الَّذي ينتفِعُ بِها ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إنَّ الله تَعالَى فصَّل الآيَات للعَاقِلِينَ وغَيْرِ العاقِلِينَ، فلمَاذا خصَّ ذَلِك بالعاقِلِينَ؟

فالجوابُ؛ لأنَّهم المنتفعونَ بِهَذا التَّفْصيلِ، مثْلَ مَا وصَفَ الله القُرآنَ بأنَّه هُدًى للمُتَّقِينَ، وَفِي آيَاتٍ أُخْرى هُدًى للنَّاسِ عامَّة،

فبِاعْتبارِ الهِدايَةِ المُطْلَقةِ هُو عامٌّ، وبِاعْتبارِ الانْتِفاعِ هُو خاصٌّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى:: رحْمَةُ الله تَعالَى بخلْقِه بضَرْب الأمْثَالِ لهم؛ ليَصِلوا إِلَى الكمَال بِالهِدَايَةِ.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: بَلاغَةُ القُرآنِ بضَرْب الأَمْثالِ، وهُو أسْلوبٌ مِن أسَاليبِ اللُّغَة العرَبِيَّة في مُنْتهى البَلاغَةِ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: المُناداةُ بجَهْل هَؤُلاءِ المُشْرِكينَ وعِنادِهم؛ لأنَّهم جَعلُوا للهِ شُرَكاءَ مِن ممْلُوكِيهم، وأمَّا عِنادُهم؛ لأَنَّ الأمْرَ واضِحٌ؛ وَلِهَذا قال: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ومَع هَذا عانَدُوا وأصَرُّوا عَلَى الشِّرْك، حتَّى إنَّهُم في تلْبِيَتِهم يقُولونَ: لبَّيْك لَا شَرِيكَ لكَ، إِلا شَرِيكٌ هُو لَكَ، تَمْلِكُه وَما مَلَك فانْظُرِ الجهْلَ.

الفائِدَةُ الرابعةُ: أنَّ العَبِيدَ لا يَمْلِكُونَ؛ وجْهُ ذَلِك أنَّه إِذا انْتَفَتْ مُشارَكَتُهم لأَسْيادِهِم في أموالِهم فغَيْرُهم مْن بَاب أَوْلى، وانْفِرادُهم أيْضًا مِن باب أَوْلى إِذا كَانُوا لَا يمْلِكُون المُشارَكَةَ مِع أسْيَادِهم، فَالغَير مِن بَاب أَوْلى، والَّذِي لَا يمْلِكُ المُشارَكةَ لَا يمْلِكُ الانْفِرادَ، فالَّذِي لا يَمْلكُ المُشارَكَة مَع سيِّدِه وَهُو أقْرَبُ مِن غيْرِه

فَلا يمْلِكُ مَع غيْرِه، هَذا مَع أنَّه جاءَ في الحدِيث الصَّحيحِ عَنْ رَسُول الله عليه الصلاة والسلام أنَّه قَال: "مَنْ بَاعَ عَبْدًا وَلَهُ مَالٌ فَمَالُه لِلَّذِي بَاعَهُ إِلّا أَنْ يَشْتَرِطَ المُبْتَاعُ"، قَالَ: "فَمَالُه لِلَّذِي بَاعَهُ".

ولَا تظُنَّ أنَّ هَذا مِن بَاب التَّنافُرِ حيْثُ أضَافَ المَالَ إِلَيْهِ ثمَّ قَال: "مالُه لِلَّذِي بَاعَهُ"؛ لأَنَّ الإِضافَةَ ليْسَتْ لِلتَّمْليكِ ولكِنَّها للاخْتِصَاصِ كَما تَقُول: سَرْجُ الدَّابَّةِ، وزِمَامُ الدَّابَّةِ، وحُجرة الدَّابَّةِ، ومَا أشْبَه ذَلِك.

الفائِدَةُ الخامسةُ: الرَّدُّ عَلَى أهْلِ الاشْتراكِيَّةِ الَّذِين قالُوا: إِنَّ الآيَةَ تدُلُّ عَلَى ثُبوتِ الاشْتراكِيَّةِ؛ لقوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾، يعْني ليْسَ فِيها دَليلٌ عَلَى ثُبوت الاشْتَراكِيَّة خِلافًا لمَنْ قَال ذَلِك، بَلْ فِيها دَليل عَلَى نَفْي الاشْتِراكِيَّةِ؛ لأَنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ مِن مَدْخُولِ النَّفْي، ﴿هَلْ لَكُمْ﴾ يعْنِي: لا يُمْكِنُ أنْ يكُونَ هكَذا، فالمَمْلوكُ لَا يكُونُ شَرِيكًا.

الفائِدَةُ السادسةُ: أنَّ هَذا القُرآنَ مُفَصِّلٌ للآيَاتِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

الفائِدَةُ السابعةُ: أنَّه لَا يُدْرِكُ هَذا التَّفْصيلَ إِلا أهْلُ العَقْل؛ والدَّليلُ قوله تَعالَى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنةُ: مدْحُ العَقْل؛ لأَنَّ بِه يُدْرِكُ الإنْسانُ هَذا التَّفْصِيلَ الَّذي يُفصّلُه الله عز وجل.

الفائِدَةُ التاسعةُ: إثْبَاتُ عظَمَةِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿نُفَصِّلُ﴾؛ لأَنَّ ﴿نُفَصِّلُ﴾ أيْ نحْنُ، وهَذِه لا تَكُون إلا للْمُعَظّم نفسَه، أوِ الَّذِي معَه غيْرُه، وكوْنُه معَه غيْرُه ممْتَنِعٌ، فيَكُونُ دالًّا عَلَى التَّعْظِيم.

الفائِدَةُ العاشرة: أنَّ المعْبُودَ مِن دُونِ الله مِلْكٌ لله؛ لأَنَّ الله قال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، وَلَا شكَّ أنَّ كُلَّ مَا في السَّموَاتِ وَالأرْضِ فهُو مِلْكٌ للهِ.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: أنَّ الرَّزقَ لَا يُنالُ بالكَسْب، وَإِنَّما هُو فَضْلٌ مِن الله، لكِنْ لَه أسبْابٌ لا شَكَّ، مثْل غيْرِه مِن الأُمورِ، لقوْلِه سبحانه وتعالى: ﴿مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لكِنَّ هَذا الرِّزْقَ لَه أسبَابٌ شرعيَّةٌ، وأسبَابٌ كونِيَّةٌ، فمَثلًا مِن الأَسْبابِ الشَّرعيَّةِ انْتِقَالُ المَالِ بالإرْثِ، واسْتِحقاقُ الفَقيرِ مِن الزّكاةِ، وَما أشْبَه ذَلِك، والأسْبَابُ الكونِيَّةُ أنَّ الإنْسانَ يسْعَى لحِرَاثَةِ الأرْضِ وَالبَيْع والشِّراءِ وَما أشْبَه ذَلِك.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ عشرة: إثْبَاتُ القِيَاسِ؛ وجْهُ ذَلِك ضرْبُ المَثَل، ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ عشرة: أنَّ كوْنَ القِيَاسِ دَليلًا هُو مِن طَرِيق العَقْل؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ ولأَنَّ إلحاقَ الفرعِ بالأَصْلَ وهُو القِياسُ يَحْتاجُ إِلَى علَّةٍ جَامِعَةٍ تُدْرَكُ بالعَقْل.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: إِذا قُلْتم إنَّ طَرِيقَ القِيَاسِ هُو العَقْل، فكَيْف يصِحُّ أنْ يكُونَ دَليلًا شرعيًّا؟

فالجوابُ: أنَّ الشّارعَ اعتْبَره وجعَلَه دَليلًا شرْعِيًّا، بِدَليلِ ضَرْب الأَمْثالِ، وقوْله تَعالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

الآية (٢٩)

---

* قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الرّوم: ٢٩].

قوْله تَعالَى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ﴾: للإضْرابِ، والإِضراب هُنا انْتِقالِيٌّ وليْسَ إِبْطالِيًّا؛ ووَجْه ذَلِك أنَّ الله سبحانه وتعالى لما بَيَّنَ هَذِهِ الآيَاتِ الدّالَّةَ عَلَى قُدْرَته عَلَى أنَّه واحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ بضَرْب المَثل الأَخِيرِ، المثَلُ الّذِي لا يُنَازِع فِيه إِلَّا مكابِرٌ، المَثَل الأَخِيرُ هُو أنَّه

كيْفَ تجْعَلُون للهِ شرِيكًا هو يمْلِكُه، أيْ الله يمْلِكُه فهَل لكُمْ أنْتُم شركاءُ في أموالِكُم وممَالِيكِكُم؟

والجوابُ: لَا، إِذَنْ فإنَّهُ يدُلُّ عَلَى أنَّ الله لا شَرِيكَ لَهُ.

بعْدَ هَذا بَيَّنَ سبحانه وتعالى أنَّ الَّذِين خرَجُوا عَن ذَلِك وَأنْكَرُوا البَعْث وأنْكَروا الوَحْدانِيَّةَ أنَّهُم ليْسُوا عَلَى حَقٍّ، وَإنَّما هُم ظَالِمُونَ؛ وَلهِذَا قَال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم﴾.

قوْله تَعالَى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: قالَ المُفَسِّر رحمه الله: [بالإِشْرَاكِ]، وَهَذا تخْصِيصٌ في غيْرِ محَلِّه، وَالظّاهِرُ لي أنَّ المُفَسّر رحمه الله خصَّصه مُراعَاةً للمَثَل الَّذي قبْلَه؛ لأَنَّ المَثَل الَّذي قبْلَه واضِحٌ في أنَّ الغَرضَ مِنْهُ إبْطَالُ الشّركِ، ولكِنْ لَو قِيلَ: إنَّه يشْمَلُ هَذا وغيْرَه مِن الظُّلمِ كإنْكَارِ البَعْث مثَلًا، فَإنْكَارُ البَعْثِ لا شَكَّ أنَّه ظُلْمٌ؛ لأَنهُ يسْتَلْزِمُ تكْذِيبَ الله عز وجل، كَما ثَبَتَ في الحدِيثِ القُدسيِّ أنَّ تَكْذِيبَ الله: أنَّ الله تَعالَى لَنْ يُعِيدَه كَما بَدَأَه، وقَدْ سَبق ذِكْرُه فيَكُون المُرادُ بالظُّلمِ هُنا الإشْراكُ وغيْرُه ممَّا ظلَمُوا فِيه أنْفُسَهُم.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾: جَمْعُ هوًى، والهَوَى في الأصْلِ المَيْلُ، ثمَّ أنَّه لا يُطْلَقُ في الغالِب إِلَّا عَلَى الهَوى المَذْمُومِ، فيُقالُ: اتَّبع

هَواهُ دُون هُدَاه، وقَدْ يأْتِي لِلْهَوى المحْمُودِ كَما في الحدِيث، وَإِن كَان فِيه ضعْفٌ: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لمَا جِئْتُ بِهِ"، فهُنا الهَوى التَّابع لما جَاءَ بِه الرَّسولُ عليه الصلاة والسلام لا شكَّ أنَّه هوًى محْمُودٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: يعْنِي أنَّ هَذا الاتِّباعَ ليْس مبْنِيًّا عَلَى علْمٍ، بَل هُو مبْنِيٌّ عَلَى الجهْل والضَّلالِ فيمَنْ كَانُوا جاهِلِينَ، وعلى الاسْتِهتارِ والعِنَادِ فيمَنْ كَانُوا مُعانِدِينَ، فالَّذِين اتَّبعُوا أهْواءَهم اتَّبَعُوها بِغَيْر علْمٍ إِذا كانُوا جَاهِلِينَ، فالأَمْر ظَاهِرٌ أنَّه لا علْمِ لهُمْ باتِّباعِ أهْوَائِهم.

وإِذا كانُوا مُعانِدِينَ، فهَلْ نقُولُ: إِنَّهم اتَّبَعُوا أهواءَهُم بِغَيْر علْمٍ؟

الجوابُ: نعَمْ، نقُولُ إِنَّهُم اتَّبعُوا أهواءَهُم بِغَيْر علْمٍ، لأَنَّ مَن اسْتكبر وعَانَد الحقَّ فإِنَّهُ كالجاهِل بِما يسْتَحِقُّ الرّبُّ عز وجل، فهُو في الحَقِيقَةِ غيْرُ عَالمٍ، بَل الجاهِلُ خيْرٌ منْهُ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيْفَ يصِحُّ نفْيُ العِلْم مَع وُجودِه؟

قُلْنَا: كَما يصِحُّ نفْيُ السَّمْع مَع وُجودِه، ونَفْيُ البَصر مَع وُجودِهِ لمَنْ لَمْ ينتفِعْ بِه، أَلَيْس الله يقُولُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا

سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، وقَالَ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، أَوْ ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

المُهِمُّ: أنَّ نفْيَ العِلْم لمَنْ لم ينتفِعْ بِه صَحِيحٌ كنَفْي السَّمْع عمَّنْ لم ينتفِعْ بِه، والحاصِلُ أنَّ المُتَّبِعِينَ لأهْوَائِهم ينْقَسِمونَ إِلَى قِسْمَيْنِ:

* قسْمٌ جاهِلٌ حقًّا، بَنى هَواهُ عَلَى الضَّلالِ، وَيُمْكن أنْ نُمَثّل لهَؤُلاءِ بالنَّصارَى؛ فإِنَّ النَّصارَى ضالُّون.

* وقِسْمٌ آخَر مُسْتكْبِرٌ مُعانِدٌ، فهَذا في الحقِيقَةِ لا عِلْم عنْدَهُ، وإن كَان لَهُ علْمٌ فإِنَّهُ لَا ينْفَعُه، بلْ ضرَّه كاليَهُودِ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَمَنْ يَهْدِي﴾: (مَن) اسمُ اسْتِفْهامٍ، والمُرادُ بالاسْتِفْهامِ هُنا النّفْيُ، والقَاعِدَةُ أنَّ الاسْتِفْهامَ إِذا جَاء بمَعْنى النَّفْي صارَ مُشَرَّبًا بالتَّحدّي؛ لأنَّك إِذا قُلْت: مَنْ يفْعَلُ كذَا، أعظْمُ مَما إِذا قُلْت: لَا أحَدَ يفْعَلُه، كأَنَّك تقُولُ: هَذَا أمْرٌ لا يُمْكِنُ، فإِنْ كُنْت صادِقًا فَأَرِني مَنْ يفْعَلُه، فإِذا جَاء الاسْتِفْهامُ بمَعْنى النَّفي صَار أبْلَغ مِن النَّفْي المُجَرَّدِ؛ لأَنَّ الاسْتِفْهامَ بمَعْنى النَّفْي مُشرَّبٌ مَعْنى التَّحدِّي.

وقوْله تَعالَى: ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾: ﴿اللَّهُ﴾ فاعِلٌ، والمَفْعُول محذُوفٌ، والتَّقدِيرُ: مَنْ أضَلَّهُ الله، وَهَذا المفْعُول هو عائِدُ المَوصُولِ الَّذِي يعُودُ إِلَيْهِ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾: قال المُفَسِّر: [أَيْ لَا هَادِيَ لَهُ]، فسَّر الاسْتِفْهامَ بالنَّفْي، وهُو حَقٌّ لكِنَّهُ أبْلَغُ مِن النَّفي المُجرَّدِ.

قالَ المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ مَانِعِينَ مِنْ عَذَابِ الله]: الظَّاهِرُ أنَّ (الوَاو) هُنا للاسْتِئْنافِ؛ لأَنَّ الجمْلَةَ خبرِيَّةٌ، والتي قبْلَها إنْشائِيَّةٌ، لأَنَّ الاسْتِفْهامَ مِن قِسْم الإنْشاءِ في البَلاغَةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾: يعْنِي أنَّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ اتَّبعُوا أهْواءَهُم بِغَيْر علْمٍ مُستَحِقُّونَ للعْذَابِ، ولَنْ يَجِدُوا أحَدًا ينْصُرهُمْ مِنْه، أيْ يمنَعُه مِنَ العَذابِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾: النَّفْي هُنا مؤكَّدٌ بِـ (مِن) الزّائدَةِ الدَّاخلَةِ عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿نَاصِرِينَ﴾، وأصلُ الكَلامِ: ومَا لهُمْ نَاصِرُونَ.

وهَل (مَا) هُنا حِجازِّيةٌ أوْ عرَبِيَّةٌ؟

الجوابُ: عرَبِيَّةٌ لاخْتِلافِ التَّرتيبِ؛ لأَنَّ خبَرها قُدِّمَ، ولَا تكُونُ حجازِيَّةً إلا إذا كانَتْ مُرتَّبةً، الاسمُ قبْلَ الخَبَرِ، والحجَازِيُّ معْنَاه الَّذي يخْتَصُّ بِه الحجَازِيُّونَ، والعَرَبِيُّ الَّذي يكُون للحِجَازِيِّين والتَّمِيميِّينَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى:: أنَّ المشْرِكينَ وغيْرَهُم مِن الَّذِين ظلَمُوا أنْفُسَهُم إنَّما اتَّبعُوا أهواءَهُم، أمَّا العَقْلُ مَا استَعْمَلُوه، ولكِن مجرَّدُ هَوًى، ولَوِ اتَّبعُوا العُقُولَ مَا خالَفُوا المنْقُول.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: جَوازُ نفْيِ الصِّفَةِ عمَّن لا ينتفِعُ بِها؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ الأُمُورَ كلَّها - الهدايَةَ والضَّلالَ والصَّلاحَ والفَسادَ - بيَدِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾.

الفائِدَةُ الرابعةُ: لفْتُ انْتِبَاهِ الإِنْسانِ إِلَى سُؤالِ الهدَايَةِ مِن رَبِّه دَائِمًا؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾، إذا عَلِمْت أنَّه لَا أحَدَ يهْدِي مَنْ أضَلَّ الله فَإِلى مَنْ تلْجَأُ في طلَبِ الهِدَايَةِ؟ إِلَى

الله عز وجل، حتَّى نفسُك لا تعْتَمِدْ علَيْها، اعْتَمِدْ عَلَى الله عز وجل في الهدَايَةِ واسأَلْه دَائِمًا الثّباتَ، وَلِهَذا يقُولُ الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [النّساء: ١٣٦]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، هُم آمَنُوا بِاللهِ ورَسُولِه، لكِنَّ المُرادَ اثْبُتُوا عَلَى هَذَا الشّيْءِ، اثْبُتوا عَلَيْه وحقِّقُوه، وَهَذا كُلُّه لا يُنَال إِلَّا باللهِ.

الفائِدَةُ الخامسةُ: أنَّ هَؤُلاءِ الظّالمِينَ لَا يَجِدُون مَن يَنْصُرهم مِن عذَابِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

الفائِدَةُ السادسةُ: أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُضلُّ أحدًا إلَاّ لظُلْمِه إِذْ هُو الَّذِي بَدَأ وانْحَرفَ في إرادَةٍ سيِّئَةٍ، فظَلم فأضَلَّهُ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾، هَذا مُفرَّعٌ عَلَى الَّذِي قبْلَهُ؛ وَلِهَذا أُتِي بِـ (الفَاءِ)، ﴿فَمَنْ يَهْدِي﴾ إشارَةً إِلَى أنَّ إِضْلالهُم إِنَّما كانَ بِسَبَبِ ظُلْمِهم، هُمُ الَّذِين ظَلَمُوا فأُضِلُّوا والعِيَاذُ بِاللهِ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ هَل يُشْكِل علَيْه مَا وقَع مِن نصْرِ المُشْرِكين في أُحُدٍ، حيثُ حصَلَتْ هَزِيمةٌ عَلَى المُسْلِمينَ، ومعْلُومٌ أنَّه انْتِصارٌ للكَافِرِينَ؛ لأَنَّ الهزيمةَ لخَصْمٍ

انْتِصارٌ للخَصْم الآخَرِ، وَلِهَذا قالَ أَبُو سُفيانَ: "أُعْلُ هُبَل" في ذَلِكَ اليَوْم، فهَلْ يُنافي الآيَةَ الكَرِيمةَ؟

قُلْنَا: كأنَّ نصْرَهم ليْسَ لأَجْلِ أنْ ينتصِروا، ولكِنْ لأَجْل ابْتِلاءِ الآخَرِينَ؛ وَلِهَذا كانَتِ العاقِبَةُ لِلْمُؤمنينَ، بلْ قَال الله عز وجل مُشيرًا إِلَى الحِكْمَةِ مِنَ انْتِصارِهم:

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ١٢٧]، قَالَ أَهْلُ العِلْم: إنَّ انْتِصارَهُم هَذَا يُؤدّي إِلَى أنْ يتشَجَّعُوا عَلَى مُحَارَبَةِ الرَّسُولِ - ﷺ -، حتَّى تكُونَ نهايَتُهم أنْ يُقْطَع طرَفٌ منْهُم.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: حقيقَةُ هَذا الظُّهورِ عَلَى المُسْلِمينَ ليْسَ نصْرًا لهَؤُلاءِ، ولكِنْ مِن أجْلِ الاسْتِدْراجِ بالنِّسبَةِ لهم، والابْتِلاءُ والامْتِحانُ بالنِّسبَةِ للمُؤْمِنينِ لمخَالفَتِهم؛ لقَوْلِه تَعالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، يعْنِي: بعْدَ مَا أَراكُم مَا تُحِبّون حصَل مَا تكْرَهُونَ.

الفائِدَةُ السابعةُ: الحثّ عَلَى طلَبِ العِلْم والعَمَلِ بِه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وهَلْ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى ما ذَهَبت إِلَيْهِ الجبرَّيةُ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾؟

قُلْنَا: ليْس فِيه دَلِيلٌ؛ لأَنَّ إضْلَالَ الله لَهُم كانَ بِسَبَبِهم، فيكُونونَ هُم السَّبب بِدَليل أنَّه قَال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم﴾، فكَانُوا هُم الظَّالمِينَ أوَّلًا، فأُضِلّوا والعِيَاذُ بِاللهِ.

الفائِدَةُ الثّامِنةُ: الرّدُّ عَلَى القدَرِّيةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾، فنَسَب الله تَعالَى الإِضْلالَ إِلَيْهِ، والَّذي يضِلّ هُم هَؤُلاءِ الَّذِين حقَّتْ علَيْهِم الضّلالةُ، فدَلَّ هَذَا عَلَى أنَّ فِعْل العَبْد بتقْدِير الله وخَلْقِه.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذا مُشْكِلٌ أنْ تَقُولوا أنَّه هُو بِخَلْق الله وهُو فعْلُ الإِنْسَانِ، وهَل يُمْكِنُ أنْ يكُونَ الشّيءُ الواحِدُ مفْعُولًا لفاعِلَيْن؟

قُلْنَا: الشّيْءُ الواحِدُ لا يُمْكِنُ أنْ يكُونَ مفعولًا لِفاعِلَيْن إلا إذا اخْتلَفَتِ الجِهَةُ، وإلّا فأَنا إذا قُمْتُ لا يُمكِنُ أنْ يكُونَ قِيامِي قِيامًا لشَخْصٍ آخَر، ولَا يُمكِنُ أنْ يكُونَ فِعْلي فِعْلًا لفَاعِلٍ آخَر، هَذا مُستَحِيلٌ، لكِن إذا اختلَفَتِ الجِهَةُ صحَّ ذَلك، فأقُولُ: إِنَّ فعْلَ العَبْدِ بالنِّسبَةِ للعَبْدِ فِعْلٌ مباشِرٌ لَه.

فإذا جلسْتُ وأنَا لا أُريدُ القِيامَ فأَنا جالِسٌ لأَنِّي ما أرَدْتُ، لكِنِّي مرَّةً أردْتُ القِيام ولكِنِّي عاجِزٌ لَا أسْتَطِيعُ أنْ أقُومَ، أيْضًا لا يَحْصُل القِيامُ الأوَّلُ لانْتِفَاءِ الإرادَةِ، والثَّاني لانْتِفاءِ القُدْرَة.

فمَن الَّذِي خَلق هَذِهِ الإرادةَ والقُدْرَةَ؟

الله عز وجل هُو الَّذي خلَق هَذِهِ الإرادَةَ والقُدْرَةَ، فصَارَت نسبَةُ الفِعْلِ إِلَى الله واضِحةً، نسبَةُ السَّببِ إِلَى مُسبِّبِه، أمَّا المُباشِرُ فهُو الإِنْسانُ نفْسُه، وَبِهذَا نرُدُّ عَلَى القدَرِيَّةِ الَّذِين قالُوا: لا يُمْكِنُ أنْ يكُونَ الفِعلُ الواحِدُ مفعولًا لفاعِلَيْن، فنَقُول: هَذا حق، ولكنَّهُ يصِحُّ أنْ يكُونَ مفعولًا لفاعِلَيْن باعْتِبَارِ اختِلافِ الجِهَةِ، وَهَذا هُو الَّذي علَيْه أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ، أَنَّ فِعْل الإنْسَانِ يُنسَب إِلَيْهِ حقيقَةً.

أما الأَشاعِرَةُ فَقَالوا قولًا غيْرَ معْقُولٍ في هَذا البابِ، قالُوا أنَّه لا يُنسَبُ لِلإِنْسَانِ حقيقةً، بل هُو كَسْبٌ له، ولكنَّه ليْسَ له حقِيقَةً، حتى إنَّهُم يقُولونَ: إذَا قُمْت فإِنَّ القيامَ لم يحْصُل بِك، لكِن حصَل عنْدَك، ويقُولونَ: الإنْسانُ إِذا أخَذ السِّكِّينَ وذَبح الشَّاةَ فإنَّها لا تموتُ بذَبْحِه، ولكِنْ عنْدَ ذَبْحِه، ويقُولونَ أيْضًا: إِذا أخذْتَ الحَجر ورَمَيْت الزُّجاجَةَ وانْكَسَرَتْ، مَا انكَسَرتْ بالحَجَر،

بلِ انكَسَرتْ عنْدَه؛ لأنَّهم يقُولونَ: لو أنَّك أثبَتَّ أنَّ هَذِهِ الأشْيَاء تحْصُل بهَذِه الأشْيَاءِ أثبَتَّ خالِقَيْن، يعْنِي: هَذا الكَسْرُ إذا قُلْت أنَّه مِن الحجر الَّذِي ضَرب الزُّجاجَةَ معْنَاه أنَّك أثبَتَّ خالِقًا، وهُو هَذا الحجَرُ الَّذِي خلَق الكَسْر، وهَذا ليْس معْقُولًا، ولذلِك يقُولونَ: إنَّ مسألَةَ الكَسْر عنْدَ الأشَاعِرَةِ هي مَن الأُمُور الَّتي لا تُعقَلُ، ولا حقِيقةَ لَها، وكُلُّ إنْسَانٍ يعْرِفُ أن المسَبَّب يحْصُل بالسَّببِ مبَاشرَةً.

ومَن الَّذِي جَعل هَذا السَّبب مُؤثِّرًا في المسَبَّب؟

الله عز وجل هُو الَّذِي جَعل النَّار مُحْرِقَةً، فيقولونَ: إذا أدخَلْتَ وَرَقةً في النَّار واحْتَرقَتْ مَا احتَرَقَتْ بِالنَّارِ، لكِنْ عنْدَ النَّارِ، أمَّا المُحْرِقُ فهُو الله.

وهَذا لو تحدَّثُ بِه الصّبيانَ قالُوا هَذا كَلامٌ غيْرُ معْقُولٍ.

الآية (٣٠)

* قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرّوم: ٣٠].

قوْله تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾: بعْدَ أنْ توعَّد هَؤُلاءِ المُشرِكينَ بما توعَّدهم بِهِ، وبَيَّنَ أن لا أحدَ يهْدِيهم، قَال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾.

قال المُفَسّر رحمه الله: [مَائِلًا إِلَيْه: أَيْ أَخْلِصْ دِينَكَ للهِ أنْتَ وَمَنْ تَبِعَكَ].

قالَ المُفَسّر رحمه الله: [مائلًا إليه]، ونقُولُ: مَائلًا إِلَيْهِ وعمَّا سِواه أيْضًا؛ وَلِهَذا حُذِف المتَعَلِّق ليَكُونَ شَامِلًا للْمَيْل إِلَى الدِّين، والمَيْل عَن الدّين، وأصْلُ الحنَف ميْلُ الرجُل، فالرِّجل المَائِلَةُ تُسمَّى حَنْفَاء، فَالحنِيفُ معْنَاه المَائِل (عَنْ) و(إلى)، عَن الشّركِ إِلَى التَّوحِيد، وعَنِ المَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ.

وقوْلهُ رحمه الله: [أيْ أَخْلِص دِينَك للهِ أنْتَ وَمَنْ تَبِعَك]: هَذا تفسِيرٌ معنَوِيٌّ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ ولَو جُعِل أعمَّ مِن ذَلِك لكَان أَوْلى؛ لأَنَّ إقامَةَ الوَجْه تشْمَلُ الإِخْلاص وتمَام الاتِّباعِ؛ لأَنَّ إقامَة الوَجْه نحْوَ الشّيْءِ يسْتَلْزِمُ متابَعَتَه، وعدَمَ المخالَفَةِ، فيكُونُ شامِلًا لإِخْلاصِ النِّيَّةِ وللاتّبَاعِ اللَّذَيْن هُما أسَاسُ العَمَل، كُلُّ عمَلٍ لا ينْبَني عَلَى الإِخْلاص والمُتابَعَةِ فَهُو بَاطِلٌ لأنَّهُ إِذا

فُقِد الإِخْلاص صارَ شِرْكًا، وإِنْ فُقِد الاتِّباعُ صَار بدْعَةً، وقَدْ قَال النّبيُّ عليه الصلاة والسلام: "إِنَّما الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ"، وَهَذا لِلْإِخلاصِ، وقَال: "مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُو رَدٌّ"، وَهَذا لِلاتّبَاعِ.

وقوْلهُ رحمه الله: [أنتَ وَمَنْ تَبِعَكَ]: أتَى المُفَسّر رحمه الله بقَولِه: [وَمَنْ تَبِعَكَ]؛ لأَنَّهُ سيَأْتِينا وصْفٌ مجْمُوعٌ، وهو قوله تَعالَى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾ آخِرَه، ولَا يُمْكِنُ أنْ تكُونَ الحالُ المجْمُوعةُ لمُفْرَدٍ؛ لأَنَّ الحالَ وصْفٌ، فكَما لا يُخْبَر عَن الواحِد بالجمْع لا تُجعَلُ الحالُ الجمْعُ لواحِدٍ، ومَا ذَهب إِلَيْهِ المُفَسّر صحِيحٌ مِنْ وجْهَيْن:

أولًا: مُراعاة اللَّفْظ الآتِي.

ثانيًا: أنَّ الخطابَ للرَّسُولِ - ﷺ - خطابٌ لَهُ وللأُمَّةِ؛ لأَنَّ زَعِيمَ القَوْم يُوَجَّه إِلَيْهِ الخطابُ الموجَّهُ للجَمِيعِ، مثَلًا الرّكن في الجيْشِ يقُولُ للقَائِد: اذْهَبْ إِلَى الجبْهَةِ الفُلانِيَّة، فإنَّه يُريدُ القَائِدَ ومَنْ مَعَه لَا يُريدُه وحْدَه، فالخِطابُ لزَعيمِ القَوْمِ خِطابٌ للجَمِيع، فاللهُ عز وجل يُوجِّهُ الخِطابَ للرَّسُولِ - ﷺ -، والمُرادُ هُو والأُمَّةُ، والدّليلُ عَلَى هَذا قوْله تَعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ

النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطّلاق: ١]، فالخِطابُ مُفرَدٌ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، وبَعْدَه ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ ليْسَ النّبيَّ - ﷺ - وحدَه، بلْ كُلّ الأمَّةِ، ويدُلُّ لِذَلِكَ أيْضًا قوله تَعالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فنَحْنُ لَنا فِيه أُسوةٌ، ونحْنُ لَهُ تَبعٌ.

إِذَنْ: وجْهُ كوْنِ الخِطابِ الخاصِّ بالرَّسُولِ عليه الصلاة والسلام للأُمَّةِ لَه وجْهَانِ كَما تقَدَّم:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّ خِطابَ الزَّعيمِ خِطابٌ لَهُ ولمَنْ تَبِعه؛ بِدلِيلِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطّلاق: ١].

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّنا مأمُورُونَ باتِّباعِ الرَّسولِ عليه الصلاة والسلام فكُلُّ خِطابٍ لَه يُؤْمَرُ بِه أوْ يُنْهى عنْهُ فإنَّنا تبعٌ لَه في ذَلِك، والفَرْق بيْنَ الوَجْهَيْن ظاهِرٌ؛ لأَنَّهُ عَلَى الوَجْه الأوَّلِ يكُونُ تناولَ الخِطابَ لنا أصْلًا معَ الرَّسولِ - ﷺ -، وعَلى الوَجْه الثَّاني يكُونُ تَوْجِيهُ الخِطابِ لَنا عَنْ طَرِيق التَّبعيَّةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿فِطْرَتَ﴾: البحثُ فِيها مِن وَجْهَيْن:

الوَجْهُ الأوَّلُ: مِن حيْثُ الرّسمُ، فالرَّسم غيْرُ جارٍ عَلَى القواعِدِ المعْرُوفَةِ، لَا في الرَّسْم العُثْمانِيِّ، ولَا في الرَّسم الحاضِر، وجْهُ ذَلِك أنَّ التّاء مُطلَقَةٌ ﴿فِطْرَتَ﴾، وهِي مربوطَةٌ؛ لأنَّهَا مُفرَدٌ، والمُفْرَدُ تكونُ التّاءُ فِيه مربُوطَةً وليْسَ في القُرآنِ ﴿فِطْرَتَ﴾ مطلقَةٌ إِلَّا هَذه، ولا نقُولُ مفتوحَةٌ؛ لأَنَّ الفَتْح ضِدَّ الكَسْرِ، نحنُ نُسمِّيها مربُوطَةً ومُطلقَةً؛ لأَنَّ ضِد الرّبْط الإِطْلاقِ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: فخَطُّ القُرآنِ يتْبَعُ فِيه الرَّسم العثمانيَّ.

استِطْرادًا في البحْثِ اختَلف العُلَماءُ رحمهم الله: هَل يجُوزُ لِلإِنْسَانِ أنْ يكْتُب المصْحَفَ عَلَى غيْرِ الرَّسم العُثمَانِيّ أوْ لَا يجُوزُ؟

فمِنْهُم مَن قَال أنَّه جائِزٌ؛ لأَنَّ الرَّسْم العُثمانِيَّ عبارَةٌ عنْ شكلٍ وَصُورةٍ، ولَوْ كَان الرَّسم العُثمانِيُّ في ذَلِك العهْدِ عَلَى غيْرِ هَذا الوَضْع لكُتِب القُرآنَ بِه.

إِذَنْ: فخضُوعه للرَّسم العُثمانِيِّ في ذَلِك الوَقْت ليْس عَلَى سَبِيل أنَّه نزَل عَلَى هَذا الوَجْه، لكِن عَلَى سَبيلِ أنَّ الرَّسْم في ذَلِك الوَقْت كانَ عَلَى هَذِهِ الصّورَةِ، ولا شَكَّ أنَّه لوْ كَان عَلَى الصُّورةِ المُوجودَةِ حاليًا لا شَكَّ أنَّه سيُكْتَب علَيْها، مثلًا (الصَّلاةَ) الصّورةُ

الحاليةُ - يعْنِي القاعِدَةُ الحاضِرة - أن تكتب بعْدَ الصّادِ (لامَ ألف)، لكِن عَلَى الرَّسم العثمَانِي مكتوبٌ (لَام واوٌ)، الزّكاة مثلُها، والرِّبا أيضًا بالواوِ معَ أنَّها عَلَى الرّسمِ الموجُودِ بالألِف.

فالحاصِلُ: أنَّ بعضَ العُلَماءِ يقُول أنَّه يجُوزُ أنْ يُكتَب القُرآنُ عَلَى القَواعِد المعْرُوفةِ حَاليًا، وتعْلِيلُهم أَنَّ هَذا الرَّسْم شكلٌ صادَف أنَّه في ذَلِك الوَقْتِ عَلَى هَذا النّحوِ فكَتبوه، وليْسَ القُرآنُ نَازلًا مكْتُوبًا بِهَذا، ولَو كَان نَازِلًا مكْتُوبًا بِهَذا لقُلْنا: رُبَّما لَا يجُوزُ لكِنَ هَذا اصْطِلاحٌ، وَإِذا كَان اصْطِلاحًا فكُلُّ مَا يتأَدَّى بِه الغَرضُ فإِنَّهُ يجُوزُ.

ومنْهُم مَن يقول أنَّه لا يَجُوزُ مُطلَقًا أنْ يخالَف الرَّسْمُ العثْمانِيُّ، وأنَّهُ يَجِبُ أنْ يَبْقى الرَّسْمُ حتَّى لو رُسِمَتْ لِلصِّبْيانِ عَلَى السّبورةِ يَجِبُ أنْ يكُونَ بالرَّسْم العُثْمانِيِّ احتِرامًا للقُرْآنِ.

ومنْهُم مَن فَصَّل وقَال إِن المُبتدِئَ يجُوزُ أن نرْسُمَه لَهُ بحسَبِ القَواعِد المعْرُوفةِ عنْدَه، وغيْرُه لا يجوزُ، قالُوا: لأَنَّ المبتَدِئَ يحتَاجُ إِلَى تعْلِيمٍ، ولَو أنَّك كتبْتَه بالرَّسْم العُثمَانِيِّ للمُبتَدِئِ، وقلْت ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٦]، فإنَّه سيقْرَؤُها: (يمحق الله الرِّبَوْ)، وفي (الزّكاة) سيَقُول: (الزّكَوَة)، وفِي الصّلاة سيقولُ:

(الصَّلَوَة)، وما أشْبه ذَلِك، بِخِلَافِ الإنْسان العالِم فإنَّهُ يكتُبه بالرَّسْم العُثْمانِيِّ.

وأيًّا كَان مِن هَذِهِ الأَقْوال صَحِيحًا فإنَّ مَا يفْعَلُه بعْضَ النَّاس اليومَ مِن حيْثُ إنَّهم يكْتُبونَ القُرآنَ عَلَى صورةِ النُّقوشِ ويجْعَلُونها في بَراوِيزَ أيُّهم أحْسَنُ نقْشًا؟ ! فإنَّ هَذا محُرَّمٌ عَلَى كلِّ الأقوالِ؛ لأنَّنا إذا عمِلْنا هَذا العمَل كأنَّنا جعلْنَا القُرآنَ وشْيًا وتطْرِيزًا، فتَضِيع قيمَتُه، وأقْبَحُ مِن ذَلِك أنْ يُجْعَل عَلَى صُورَةِ إنْسَانٍ، فقَدْ شاهدْتُ في منشورٍ صورةَ إنْسَانٍ في آيَةٍ مِن القُرآنِ جُعِل الرّأسُ والرِّجْلانُ كأنَّه جالسٌ مفترِشٌ، أعوذُ باللهِ، مُضادَّةٌ ظاهِرَةٌ ومُحَادَّةٌ للهِ ورسُولِهِ، الصّورةُ محرَّمَةٌ فكيْفَ تَكتُب بِها القُرآنَ، تجْعَلُها كِتابَةً لِلْقُرآنِ.

والحاصِلُ: أنَّ النّاسَ - نسْأَلُ الله لنَا ولهم الهِدايَةَ - صَارُوا يُبالِغُونَ في أشْياءَ تضرُّهُم، ولَا تنْفَعُهم بِالنِّسبَةِ للْقُرآنِ الكَرِيم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لَوْ كُتِب القُرآنُ الكَرِيمُ بالرَّسْم الحدِيثِ لضَاعتِ القِرَاءاتُ؟

قُلْنَا: صحيحٌ، لكِنَّ الَّذِين يقُولونَ بالجَوازِ يقُولونَ: نحْنُ نكْتُبهُ عَلَى قِرَاءَةٍ واحِدَةٍ، والقِراءَاتُ الآنَ ضُبِطَتْ ليْسَ بِالرَّسْم، بَل

ضُبِطَتْ الحرَكاتُ، وما سمعتُ بإجْمَاعٍ في هَذِهِ المسأَلةِ، فالخلافُ في هَذا مشهُورٌ، ولَا يُوجَدُ إجْمَاعٌ.

والبحثُ الثّاني: في قوْلِه تَعالَى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾، مَا الَّذي نصبَها؟

الَّذِي نصَبها فِعْلٌ محذُوفٌ قدَّره المُفَسِّر بقولِه: (الزَموا)، أي: الزَموا فطْرَة الله، ومثْل هَذا يقُولونَ أنَّه منصُوبٌ عَلَى الإغْراءِ، فهُو إِذَنْ أبْلَغُ مِن ذِكْر العامِل الَّذِي هُو (الزَموا)، فحذْفُه أبْلَغُ لأنَّهُ إِذا وُجِد العامِل تقيَّدَتِ الجُملَةُ بِه، لكِن إِذا حُذِف العامِلُ صارَتِ الجمْلَةُ صالِحةً لَهُ ولِسواهُ مِمَّا يُمْكِنُ أن يتسلَّط عَلَى المعْمُولِ: (الزَمُوها)، (اعْتَنُوا بِها)، (تمسَّكُوا بِها)، ومَا أشْبَه ذَلِك؛ فلِهَذا يقُولونَ أنَّه منْصُوبٌ عَلَى الإِغراءِ، وهُو المُبالَغَةُ في الحثِّ.

المبحث الثالث: كلمة ﴿فِطْرَتَ﴾ مشتقَّة مِن (فَطَرَ الشّيء) أي ابْتَدعَهُ عَلَى غيْرِ مِثالٍ سابِقٍ كَما في قوْلِه تَعالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، أيْ: مبْدِعهُما عَلَى غيْر مِثالٍ سابِقٍ، هَذِهِ الفِطْرةُ أبْدَعها الله عز وجل في الإِنسانِ أوْ في النَّاس كَما في لفْظِ الآيَةِ عَلَى غيْرِ مثَالٍ سابِقٍ؛ وَهذا قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ خِلْقَتَه ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وَهِي دِينُه، أيْ: الزَمُوهَا]. المُراد بالفِطْرة هُنا توْحِيدُ الله ودِينُ

الله، وهذِه الآيَةُ شاهِدٌ للحدِيثِ الصَّحيحِ: "كلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ". لو أنَّ المخلُوقَ تُرِكَ وفِطْرَتَه مَا عبَدَ إِلَّا الله؛ ولِهَذا البهائِمُ العجمُ الَّتي ليْسَ لها مَا يُغرِيها أو يُصَرِّفُها: هلْ يُمكِن أنْ تعبُدَ اللاتَ والعُزَّى والشَّمْس والقَمر؟

الجوابُ: لَا؛ لأَنَّ الله تَعالَى يقُولُ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإِسْراء: ٤٤]، فأصْلُ الخلْقِ مفْطُورٌ عَلَى توْحِيدِ الرَّبِّ عز وجل: الخالِق، لكِنْ مَن أُعْطُوا العقولَ هُم الَّذِين رُبَّما ينْحَرِفُونَ لأَنَّ لهم إِرادَاتٍ واتِّجاهاتٍ بخلافِ مَنْ ليْسَ لَهُ إِلا العقْلُ المعِيشيُّ، فإِنَّهُ لا ينْصَرِفُ عَن هَذِهِ الفِطرَةِ، وَلِهَذا البهائِمُ العُجْم - كَما قُلتُ - تعرِفُ خالِقَها وفاطِرَها ولَا تُسبِّحُ إِلا الله.

قالَ المُفَسِّر رحمه الله: [﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ لدِينِهِ، أيْ لَا تُبَدِّلُوهُ بِأَنْ تُشْرِكُوا].

وقوْله تَعالَى: ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾ نفْيٌ؛ لأَنَّ ﴿لَا﴾ نافِيةٌ للجِنْس، فهَلْ هُو باقٍ عَلَى كونِه نفْيًا، يعْنِي لفْظًا ومعْنًى، أوْ أنَّه نفْيٌ لفظًا، خبَرٌ معْنًى؟ المُفَسِّر رَحَمَهُ اَللهُ مشَى عَلَى الأَخِير، وأَنَّه نفْيٌ بمَعْنى

النَّهيِ، أيْ: لَا تُبدِّلُوا هَذِهِ الفطْرَةَ بالإشْراكِ، والنَّفْيُ يأْتِي بمعْنَى النَّهيِ كثِيرًا، مثْلُ قوْلِه تَعالَى: ﴿الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ﴾ [البقرة: ١ - ٢]، فِيها تفْسِيرانِ كَما تقدَّم أحدُهُما أنَّها بمَعْنى النَّفيِ، أيْ: ليْسَ فِيه ريبٌ ولا شَكٌّ، والثّانِي بمعْنَى النَّهي لا ترتابوا فيه، ومثل قوْله تَعالَى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: ٧]، فقوْله تَعالَى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أيْ لا تُبدِّلُوا خلْقَ الله بالإشْراكِ، بَلْ أَقِيمُوا وُجوهَكُم حُنَفاءَ، ويَجُوز أنْ يكُونَ نفْيًا عَلَى ظاهِرِه، وأنَّه لا أحَد يُبَدِّلُ خلْقَ الله كَما في قوْلِه تَعالَى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، ويكُونُ المَعْنى أنَّ الأَمْر بيَدِ الله عز وجل، فمَن شَاء هُدَاه بَقِي عَلَى فطْرَتِه، ومَنْ شَاء أنْ يُضلَّه أضلَّه، فلا أحَدَ يسْتَطِيعُ أن يبَدِّل خلْقَ الله، وإنَّما الَّذي بيَدِه الأَمْرُ هُو الله، وعَلى هَذا يكُونُ في الآيَةِ وجْهَانِ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّها خبرٌ بمَعْنى النَّهْي.

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّها خبرٌ عَلَى بابِها.

وعَلى الأوَّلِ الأَمرُ ظاهِرٌ، يعْني: المَعْنى ظاهِرٌ أنَّكُم لا تُبدِّلُوا، فيكُونُ الله نَهانَا عَن الإشْراكِ، وعَلى الثَّاني يكُونُ وجْهُه أنَّ هَذِهِ الفِطْرَةَ الَّتِي فطَر الله علَيْها الخلْقَ، لا أحَد يسْتَطيعُ أنْ يُبدِّلَها، بَلِ

الَّذي يُبدِّلُها هُو الله، فمَنْ أَراد الله هِدايَتَه لَنْ يُضِلَّه أحَدٌ، وَمن أرَادَ الله إضْلالَه لَنْ يهْدِيَه أحَدٌ، لا سِيَّما أنَّه قالَ قبْلَ هَذا، ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾، فما قالَه المُفَسِّر رحمه الله لَه وجْهٌ؛ لوُرُودِ ذَلِك في اللّغَةِ العرَبِيَّة، والوَجْهُ الثّاني هُو الأَصْل؛ لأَنَّ الَّذي عنْدَنا نفْيٌ، فمَنْ صرَفَه عَنْ ظَاهِره يحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَذا التَّفْسيرُ أَلا يُوافِق قولَ الجبرَّيةِ؟

فالجوابُ: لَا، الرّسولُ - ﷺ - يقولُ في خُطْبَتِه: "مَنْ يَهْدِهِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ"، لا أحَدَ يسْتَطِيعُ هِدايةَ إِنْسَانٍ أبدًا، أو انحرافَ إِنْسَانٍ إلَاّ بإِذْنِ الله، هَذا النّبيُّ - ﷺ - حرِصَ غايَةَ الحِرْصِ وَبذَل ما يستَطِيعُ مِن جهْدٍ في هِدايَةِ عمِّه أَبِي طالِبٍ، ولكِن لم يتمَكَّنْ، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وليْسَ معْنَى ذَلِك أنَّنا إِذا قُلْنا: إِنَّ الأَمْر بيَدِ الله عز وجل وَأَنَّه هُو الَّذي يُضِلُّ ويَهْدِي، ليْسَ معْنَى ذَلِك أَلَّا نفْعلَ الأَسْبابَ كَما أنَّ الأَمْر بيَدِ الله في إِيجادِ الأَشْيَاء، إِيجادِ الرِّزْقِ وإِيجادِ الوَلَدِ، وَدَفْع الضَّرر، بل نفْعَلُ الأَسْبابَ، ونَقولُ: الهدايَةُ بِيَدِ الله، والإِضلالُ بِيَدِ الله، لكِن لكُلٍّ منْهُما سبَبٌ مِن جُمْلَة أسْبَابِ التَّبْديلِ.

ومِن جُملَةِ أسْبَابِ التَّبدِيل مَا ذَكرَهُ الرَّسولُ عليه الصلاة والسلام في قولِه: "فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ"، وذِكْرُ الأبوَيْن ليْس عَلَى سبيلِ الحصْر، وإِنَّما هُو عَلَى سبيلِ التَّنْظيرِ والتَّمْثيلِ، يعْني أنَّ مَن يتَّصِلُ بِهَذا الإِنْسانِ يجْعَلُه يهودِيًّا أو نصْرَانِيًّا، وكَمْ مِن إِنْسَانٍ تنَصَّر لَا عَنْ طَرِيق الأَبوين، ولكِن عَن طَريقِ الجُلَساءِ والرُّفقاءِ ومن ثمَّ حذر النّبيّ عليه الصلاة والسلام مِن جَلِيسِ السُّوءِ ورَغَّب في الجلِيس الصَّالِح، وقَال: "مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِير، فَحَامِلُ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبةً، وَنَافِخُ الكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً".

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما معْنَى النَّفْيِ في قوْلِه تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾؟ [النساء: ٩٢]، (مَا كَان لمُؤْمِنٍ)، هَذِهِ بمَعْنى أنَّه ممتَنِعٌ غايَةَ الامْتِناع؛ لأَنَّ (مَا كَانَ) (ومَا ينْبَغِي) ومَا أشْبَهَ ذَلِك في القُرآنِ، تأْتِي بمَعْنى امتَنَع غايَةَ الامْتِناعِ، وأيْضًا مثْل قوْلِه تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ [التوبة: ١١٥].

قالَ المُفَسِّر رحمه الله: [﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ المُسْتَقِيمُ تَوْحِيدُ الله]، ﴿ذَلِكَ﴾ المُشارُ إِلَيْهِ قوْلُه تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أيْ: إِقامَةُ وجْهِك لِلدِّين حنِيفًا هُو الدِّينُ القَيِّمُ، قالَ المُفَسِّر رحمه الله: [﴿الْقَيِّمُ﴾ المُسْتَقِيمُ]، لكِنَّ (القَيِّم) أبْلَغُ لأَنَّ القَيِّمَ عَلَى وزْنِ (فَيْعِل)، فهِي صفَةٌ مشبِّهَةٌ يَعْني هُو قَيِّمٌ، أبلَغُ مِن قوْلِنا أنَّه مستَقيمٌ؛ لأَنَّ المستَقِيمَ ضِدَّ المعوَجِّ، لكِنَّ القيِّم الكامِلَ في قِيَامِه فهُوَ أبْلَغُ، يعْنِي أنَّ هَذا الدِّينَ هُو الدِّينُ القَيِّمُ، أي الكامِلُ الَّذِي ليْسَ فِيه اعْوِجاجٌ، وَلَيْس فِيه نقْصٌ ولا شَكَّ أنَّه هُو القَيِّمُ، كَما قَال الله تَعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فلَا أقُومُ لِلْعبادِ وَلا أنْفَعُ لِلْعِبادِ مِنَ اتِّبَاعِ شَريعَةِ الله تَعالَى.

قالَ المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أيْ كُفَّارُ مَكَّةَ، ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾ تَوْحِيدُ الله]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ قَال المُفَسِّر رحمه الله: [كُفَّار مكَّةَ]، وَهَذا لا شكَّ أنَّه تخْصِيصٌ بدُونِ دَليلٍ، بَل الدَّليلُ يُخالِفُه؛ لأَنَّ كُفَّار مكَّةَ ليْسُوا أكْثَر النَاسِ، ثمَّ إِنَّ الله يقُولُ: ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ﴾، مَا قَال: أهْلُ مكَةَ، ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾ وصدَق الله عز وجل؛ لأَنَّ أهْلَ النّارِ مِنْ بَنِي آدَم تسْعُمِئَةٍ وتسعَةٌ

وتِسعُونَ مِن الألفِ، فهُم الأَكْثَرُ، أكثَرُ النّاسِ لا يعْلَمُونَ، لَو علِمُوا ما كَانُوا مِنْ أصْحابِ الجحِيم، فهُمْ لا يعْلَمُون.

ومَا معْنَى قوْلِه تَعالَى: ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾، أيْ: لَا يعْلَمُونَ أنَّ هَذا هُو الدِّينُ القَيِّمُ، أوْ لا يعْلَمُون مَا ينْبَغِي لهُم أنْ يكُونُوا علَيْه، أمْ مَاذا؟

نقولُ: الآيَةُ مُطلَقَةٌ، فتشْمَل كُلَّ شيْءٍ يُنافِي هَذا الدّينَ، فمَن خَرَج عَنْ هَذا الدِّين فإنَّهُ لا يعْلَمُ أنَّ هَذا الدِّينَ قَيِّمٌ، وإنْ عَلِم بِه ولم يتْبَعه صَار علْمُه كالمعدُومِ، كَذَلِكَ لا يعْلَم حَقِيقةَ أمْرِه وحالِه، وأنَّه يجِبُ أنْ يكُونَ دائِنًا لله عز وجل بِما دَان بِه خلْقَه، كَذَلِكَ لا يعْلَمُ مَا يترتَّبُ عَلَى هَذا مِنْ جَزاءٍ بالثَّوابِ الجزِيل لمنْ قَام بِهِ، وبِالعُقوبَةِ والعَذابِ الأَلِيم لمَنْ خالَفه.

المُهِمُّ: أنَّ حذْف المفعُولِ يقْتَضي العُمُومَ، وهذِه قاعِدَةٌ معروفَةٌ عنْد أهْل العِلْم، أنَّ حذْف المعْمُول يفيدُ العُمُومَ، ولَهُ أمْثِلةٌ كثِيرَةٌ في القُرآنِ، وفِي كَلامِ العَربِ، ومنْه - بَلْ مِن أوْضَحِه - قوْلُه تَعالَى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، قولُه تعالى: ﴿فَآوَىٰ﴾ الإيواءُ للرَّسولِ - ﷺ - ولِمنْ تَبِعَه، وقولُه: ﴿ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ الهدايَةُ

له ولِمِنِ اهْتَدى بسُنَّتِه، وقولُه: ﴿فَأَغْنَى﴾ الغِنَى لهُ ولأُمَّتِه، قَال - ﷺ -: "وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلي".

المُهِمُّ: أنَّ تخصِيصَ المُفَسِّر رحمه الله بقولِه: [كُفَّار مكَّةَ] لَا وجْهَ لَهُ، والصَّوابُ أنَّ أكْثَر النَّاس مِن بَني آدَم - مِن كُفَّارِ مكَّةَ وغيرِهم - لَا يعْلَمُون.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كونُ السّورة مكيَّةً ألا يدُلُّ عَلَى أنَّ الخِطابَ خاصٌّ بأهْلِ مكَّةَ، كَما قَال المُفَسِّر رحمه الله؟

إذَا قُلنا بالعُمُومِ شَمِل كُفَّارَ مكَّةَ، فكَان فِيه التَّسلِيَةُ للرَّسولِ عليه الصلاة والسلام، وأمَّا كوْنُ السُّور مكيَّةً فَلا يدُلُّ عَلَى أنَّ جَمِيعَ الخِطاباتِ الَّتي فيها تُشِيرُ إِلَى أهْل مكَّةَ، بلْ هِي عامَّةٌ.

مسْألةٌ: هلْ يأْجُوجُ ومأْجُوجُ مِن بَني آدَم؟

نعَم، هُم مِن بَني آدَم؛ وَلِهَذا الصّحابَةُ - رضي الله عنهم - لما حدَّثَهم بأنَّ بعْثَ النَّارِ تِسعُمئَةٍ وتِسعةٌ وتِسعُونَ مِن الألف فَزِعوا، قَالُوا: يا رَسُولَ الله أيُّا ذَلِك الواحِدُ؟

فقَال لَهم عليه الصلاة والسلام: "أَبْشِرُوا فإنَّكُم لمَع خَلِيقَتين مَا كَانَتَا في شَيْءٍ إِلَّا كثَّرَتَاهُ، يَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ".

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى:: وُجوبُ الإِخْلاص للهِ سبحانه وتعالى؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أن الإِخْلاص لا يتِمُّ إلا بسلْبٍ وإيجابٍ، وهُو مضْمونُ قولِ الإِنسانِ: (لَا إلَه إِلَّا الله)، فإِنَّ هَذِهِ الجملَة العَظِيمةَ مشْتَمِلةٌ عَلَى النَّفْي والإِثْبَات، ولا إِخْلاصَ إلا بنَفْيٍ وإِثْبَاتٍ، فهَذِه الآيَةُ فِيها نفْيٌ وإِثْبَاتٌ، فقوْلُه تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ إِثْبَاتٌ، وقوْلُه تَعالَى: ﴿حَنِيفًا﴾ نفْيٌ يعْنِي مَائِلًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوْلُه تَعالَى: ﴿حَنِيفًا﴾ هَل يُؤخَذُ منْه سلبٌ وإِيجابٌ؟

فالجوابُ: يُمْكِنُ أنْ يُؤخَذ بطَرِيق اللُّزومِ، ولكِن ليْس لَهُ داعٍ، وعنْدَنا قوْلُه تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ الإِخْلاص هُو الفِطْرة، نأْخُذه مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، فتكونُ الآيَةُ هَذِهِ شاهِدةً لقَوْلِ الرّسولِ - ﷺ -: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ".

الفائِدَةُ الرابعةُ: إثْبَاتُ الخَلقِ للهِ، وأنَّه الخالِقُ وحْدَه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾.

الفائِدَتانِ الخَامسَةُ والسَّادِسَةُ: أن ما يقدره الله عز وجل لا يمكن أن يُغير لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ عَلَى أحَدِ المَعْنيَيْن، أمَّا عَلَى مَا ذَهَب إِلَيْهِ المُفَسِّر رحمه الله فيُسْتفَادُ منْه النَّهْيُ عَن الشِّرْكِ.

هل يمْكِنُ أن نقولَ: إنَّ الآيَة تدُلّ عَلَى المعْنيَيْن جمِيعًا، وأنَّها صالِحَةٌ للمَعْنيَيْن جَمِيعًا، يعْنِي صالِحةٌ كَي تكونَ للنَّفْي، وأنْ تكُونَ خبِرَّيةً أوْ أنْ تكُونَ للطَّلبِ فتكونَ إنشَائِيَّةً؟

في الحقيقةِ: أن الإنشاءَ والخَبر مُتعارِضَانِ، لكِن إذا جعَلْنا كُلَّ واحِدٍ عَلَى انْفِرادٍ بمعْنَى أنَّنا لَا ندْرِي هَلْ أرادَ الله هَذا أوْ هَذا، ومَا دامَتِ الآيَةُ صالِحَةً لهَذَا وَلِهَذا، فإنَّنا نقولُ: هِي لِلْمعْنيَيْنِ جمِيعًا، يعني أنَّه لا أحَدَ يسْتَطِيعُ أن يُغيِّر مَا خلَق الله، ولَا يجُوزُ لَنا نحْنُ أنْ نغيِّرَ هَذِهِ الفِطْرَةَ الَّتي خُلِقْنا علَيْها مِن الإِخْلاص إِلَى الشَّرك.

الفائِدَةُ السابعةُ: أنَّ أقوَم الأَدْيانِ مَا بُنِي عَلَى الإِخْلاص؛ لقَوْلِه: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، المشارُ إِلَيْهِ هُو ما سَبق مِن الفِطْرة الّتي

فُطِر النّاسُ عليْها، والتّي أمَر الله بِها في قوْلِه تَعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ فالدِّينُ القيِّمُ هُو الَّذي أقَامَ الإنسانُ فِيه وجْهَه للهِ حَنِيفًا، وهِي الفِطْرةُ الَّتي فُطِر النّاسُ علَيْها.

الفائِدَةُ الثّامِنةُ: أنَّ هَذا الدِّين المَبْنِيَّ عَلَى الإِخْلاص اجْتَمع فِيه الشَّرْعُ والفِطْرَةُ، أمَّا الشَّرعُ فلأنَّهُ أُمِر بِه، وأمَّا الفِطرة فلأَنَّ النَّاس خُلِقوا علَيْها وجُبِلوا علَيْها، ولوْلا ما يحْصُل مِن المَوانِع والعوارِضِ لِبَنِي آدَم لكَانَ النَّاسُ كلُّهم مُؤْمِنِينَ عَلَى الفِطْرَةِ كَما جَاء في الحدِيثِ: "أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ".

الفائِدَةُ التاسعةُ: أنَّ أكْثَر النَّاسِ في هَذا البَابِ عَلَى جهْلٍ وضَلالٍ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فهُمْ بَيْن أمْرَيْن، إمَّا عالِمٌ استكْبَر فعِلْمُه لَمْ ينْفَعْه، وإِمَّا جَاهِلٌ، فالعامَّةُ المتَّبِعونَ لرُؤَساءِ الكُفْر والضَّلالِ نَصِفُهم بالجهل وعدَم العِلم، والزُّعماءُ منْهُم العارِفُون نَصِفُهم بالجهْل لِعدَمِ انْتِفاعِهم بِما عَلِمُوا، لكنَّهم في الحقيقَةِ يستَحقُّونَ وصْفًا أعظَمَ، فهُم جَاهِلُونَ مُستكْبِرونَ، والمُخالَفَةُ عَن عِلْمٍ تُسمَّى (الجَهْل المُركَّب)، فهؤُلاءِ الزُّعماءُ - والعِياذُ باللهِ - يعْلَمُون أنَّهم عَلَى ضَلالٍ، قَال الله تَعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النّمل: ١٤]، وقَال

مُوسَى لِفِرْعَوْنَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسْراء: ١٠٢]، ولم يقُل فرْعَوْنُ: إِنَّني مَا علِمْتُ، فسكُوتُه إقْرَارٌ، لكِنْ عنْدَهُم - والعياذُ باللهِ - العِنَادُ.

الآيتان (٣١، ٣٢)

* قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الرّوم: ٣١ - ٣٢].

قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [﴿مُنِيبِينَ﴾ رَاجِعِينَ]، مِن (أنابَ يُنِيب)، إذا رَجع، وقوْلُه تَعالَى: ﴿إِلَيْهِ﴾، يعْنِي إِلَى الله تَعالَى فِيما أَمَر بِه، ونَهى عنْه يعْنِي الرُّجوعَ مِن معْصِيَةِ الله إِلَى طاعتِهِ، وقبْلَ ذَلِك مِن الشّرْكِ إِلَى التَّوْحيدِ، هَذَا معْنَى الإِنابَةِ.

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى عَلَى المُنِيبِينَ علَيْه، كَما في قوْلِه تَعالَى: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]، فالإِنابَةُ مِن أفْضَل الأَحْوَالِ لِلْعابِدِينَ؛ لأَنَّ المُنِيبَ إِلَى الله سبحانه وتعالى دَائِمًا يذْكُر الله بقلْبِه، لأَنَّهُ يعْلَمُ أنَّه قدِ انْتَقل مِن معصِيَتِه إِلَى

طاعَتِه، ومِنَ الإِشْراكِ بِه إِلَى توْحِيدِه؛ حتَّى يعْبُدَ الله كأَنَّهُ يَراهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَراهُ فإِنَّ الله يَراهُ.

يقُولُ المُفَسِّر رحمه الله: [حَالٌ مِنْ فَاعِلِ (أَقِمْ)، وَمَا أُرِيدَ بِه: أَيْ أَقِيمُوا]، حالٌ مِن فاعلِ (أَقم) في قولِه تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾، [وَمَا أُرِيدَ بِه] لأَنَّ المُفَسِّر رحمه الله قالَ: [﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أَنْتَ ومَنْ تَبِعَك]، فتكُون ﴿مُنِيبِينَ﴾ حالًا مِنَ الفَاعِل ومَا تَبعه، وَهَذا مبْنِيٌّ عَلَى أنَّ الخطابَ في قوْلِه: (أَقِم) لِلرَّسولِ - ﷺ - شخصِيًّا، أما إِذا قُلْنا: إِنَّ المُرادَ بِه الأُمَّة خُوطِب بِها زَعِيمُها فَلا حاجَةَ إِلَى هَذا التقْدِير، فنقُول: ﴿مُنِيبِينَ﴾ حالٌ مِن فَاعِل (أَقِم)، ولَا مَانِعَ أنْ يكُونَ جمْعًا؛ لأَنَّ المُرادَ بالمُفْرَدِ في أوَّل الآيَةِ الجمْعُ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾؛ قالَ المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَاتَّقُوهُ﴾ خَافُوهُ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾].

التَّقْوَى مأخوذَةٌ مِن الوِقايَةِ، وأَصْلُها (وَقْوَى)، والمُراد بالتَّقْوى اتِّخاذُ وِقايةٍ مِن عذَابِ الله بفِعْل أوَامِره واجْتِنابِ نَواهِيه، وجَميعُ التَّفاسِير الَّتي فُسِّرت بِها التَّقوى ترْجعُ إِلَى هَذا المَعْنى الجامِع العَامِّ، وهِي اتِّخَاذُ وِقايَةٍ مِن عَذابِ الله سبحانه وتعالى

بِفِعْل أوامِرِه واجْتِنابِ نَواهِيه، فمَنْ كَان يعْبُدُ الله بفِعْل الأَوامِر لكِنَّهُ يفْعَلُ النَّواهِيَ فليْسَ بمُتَّقٍ، عنْدَه تقْوَى مِن وجْهٍ دُونَ وجْهٍ.

واعْلَم أنَّ التَّقوى عنْد الإطْلاقِ تشْمَلُ الدِّينَ كُلَّه كَما يقْتَضِيه هَذا التَّفْسيرُ، فإنْ قُرِنَتْ بالبِرِّ كقوْلِه تَعالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، صَار المُرادُ بِها ترْكُ المحْظُوراتِ، وصارَ المُرادُ بالبِرِّ فِعْلُ المأْمُوراتِ، وَهَذا اللَّفْظ لهُ نَظِيرٌ كثِيرٌ في اللُّغَة العرَبِيَّةِ، يكُونُ اللَّفْظ لَهُ معْنَى عنْد الانْفِرادِ ومعْنًى آخَر عنْد الاجْتِماعِ، والَّذي يُعَيِّن ذَلِك هُو سِياقُ الكَلامِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: أي: ائْتُوا بها قويمةً، وليْسَ المُراد بإِقامَتِها لفْظُ (قَدْ قامَتِ الصَّلاةُ)، بَل أنْ تأْتِي بِها قَويمَةً، وإِقامَتُها عَلَى نوْعَيْن:

- إقامَة واجِبةٌ لا بُدَّ لصحَّةِ الصَّلاةِ منْهَا، وذَلك: الإِتيانُ بِالشُّروطِ والأَرْكانِ والوَاجِبَاتِ.

- وإقامَةٌ مُكمِّلةٌ، وهِي إضافَة المُستحبَّاتِ إِلَى ما ذُكِر، فإنَّ هَذِهِ إقامَةٌ مُكمِّلةٌ، ومِن إقامَتِها المُكمِّلةِ أنْ يَأْتِي الإِنْسانُ بالنَّوافِل؛ لأَنَّ النَّوافِل - صلاةُ تطوُّعٍ - تُكَمِّلُ بِها الفَرائِضُ يوْمَ القِيامَةِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: عَطْفُها عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ مِن بَاب عطْفِ الخَاصِّ عَلَى العامِّ، وعطْفُ الخاصِّ عَلَى العامِّ يقْتَضِي زيادةَ الاعتناءِ به فهو دليلٌ عَلَى أهمِّيةِ الصلاةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: الخِطابُ هنا يعودُ عَلَى الفاعلِ في ﴿مُنِيبِينَ﴾، يعني حالَ كَوْنِكُم مُنِيبينَ غيرَ مُشركينَ أيضًا في إنابَتِكُم.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يُشرِكونَ بالله وهو شاملٌ للشركِ الأصغرِ، والشّركِ الأكبرِ، وَهذا يُنهى الإنسانُ أنْ يفعلَ الشّركَ أيًّا كان نوعُهُ، قَالَ شَيْخُ الإسْلَامِ رحمه الله: "إِنَّ الشِّرْكَ لَا يَغْفِرُهُ الله وَلَوْ كَانَ أَصْغَرَ، وَالكَبَائِرَ تَحْتَ المَشِيئَةِ"، وَاستدلَّ لِذَلِكَ بقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، ووجهُ الدَّلالةِ من الآيَة أنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ مُؤَوَّلٌ بمصدرٍ، فيكونُ المَعنى (إِنَّ الله لَا يَغْفِرُ إِشْرَاكًا بِهِ)، فهو إِذَنْ نكرةٌ في سياقِ النّفي، فيشملُ جميعَ أنواعِ الشّركِ، وَلِهَذا قال ابنُ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه -: "لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا"، لأَنَّ سيئةَ الشِّركِ أعظمُ من سيئةِ الكَذِبِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل ما ذهبَ إِلَيْهِ شيخُ الإسْلامِ صحيحٌ؟

قُلْنَا: ظاهرُ الآية أنه صحيحٌ.

وعَلَى كلِّ حَالٍ: فالشِّركُ الأصغرُ لا يُخَلَّدُ صاحبُه في النَّارِ، بل يُعَذَّبُ به ولا بُدَّ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: إذا قِيلَ: إن هَذا خطابٌ للرسولِ - ﷺ - والشِّركُ في حقّه ممتنِعٌ.

قُلْنَا: لا يمتنعُ أنْ نُخَاطِبَ شخصًا بإثْبَاتِ ما هو علَيْه، أو بنفي ما هو مُنتفٍ عنه، ويكون المعنى الثُّبوت عَلَى ما ذُكِرَ، يقول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النّساء: ١٣٦]، هم مؤمنونَ، لكن المعنى: اثبتوا كَذَلِكَ، فأنتَ إذا قُلتَ لشخصٍ: (لَا تُشْرِكْ)، وهو لا يشركُ، صار المعنى: اثبت عَلَى نفي الشِّركِ.

قال المُفَسّر رحمه الله: [﴿مِنَ الَّذِينَ﴾ بَدَلٌ بِإِعَادَةِ الجارِّ]، بدلٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وأفادَنا المُفَسّر رحمه الله أنَّ البدلَ عَلَى نوعَيْنِ، تَارَة بإعادةِ العاملِ، وتَارَة يكونُ بعدمِ

الإعادةِ، فإذا قلتَ: (مَرَرْتُ بِزَيْدٍ أَخِيكَ) فَهَذَا بعدمِ إعادةِ العاملِ، وإذَا قُلْتَ: (مَرَرْتُ بِزَيْدٍ بِأَخِيكَ) فهَذا بإعادةِ العاملِ، وهنا قَالَ: ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ﴾، بدلٌ بإعادةِ العاملِ الَّذي هو حرفُ الجرِّ.

قال المُفَسّر رحمه الله: [﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ بِاخْتِلافِهِمْ فِيمَا يَعْبُدُونَهُ، ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ فِرَقًا في ذَلِكَ ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ مِنْهُمْ ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ عِنْدَهُمْ ﴿فَرِحُونَ﴾ مَسْرُورُونَ].

قوْله تَعالَى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾: هَذَا وَصْفٌ لهَؤُلاءِ المُشْرِكِينَ، وصفٌ مذمومٌ ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ حيْثُ كان لكلّ واحدِ منهم مِلَّةٌ ونِحْلَةٌ، فهَؤُلاءِ يعبدونَ حَجَرًا، وأولئكَ يعبدونَ شمسًا، والآخرونَ يعبدونَ قمرًا، والرّابعُ يعبدُ شجرًا ... وهكَذا، ثمَّ إنَّ لهم نِحَلًا مختلفةً فيما يَسْلُكونَهُ في مِنْهَاجِ عِبادتِهم، فَهُمْ فرَّقوا دِينَهُم، وفي قوْله تَعالَى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ أي: شَتَّتُوهُ ووزَّعُوه، دليلٌ عَلَى أنَّه لا ينبَغِي للأمَّةِ الإسْلامِيَّة أنْ تُفَرِّقَ دِينَها؛ فاليهودُ والنّصارى فرَّقوا دِينَهُم، اليَهُودُ افْتَرَقُوا عَلَى إحْدى وسبعينَ، والنَّصارى افْتَرَقُوا عَلَى اثنتَيْنِ وسبعينَ، والمشركونَ الجاهليُّونَ حَدِّثْ ولا حَرَجَ في افتراقِهِم، فهَؤُلاءِ فرَّقوا دِينَهم،

ودِينُهم ما يَدِينُونَ به، سواء كانوا يَدِينُونَ لمِخْلُوقٍ أو لخَالقٍ عَلَى زَعْمِهِمْ؛ لأَنَّ المُشْرِكِينَ يقُولونَ في آلهتِهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، أولئكَ أُناسٌ آخرونَ يَعْبُدُونَ ما يَعْبُدُونَ مِن الآلهةِ لا لِتُقَرِّبَهُمْ إِلَى الله، لكنْ لاعتقادِ أنَّها هي الآلهةُ وأنه لا إِلَهَ إلا هَذا المعبودُ عِنْدَهُمْ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾: شِيَعًا يعني فِرَقًا، وأَصْلُ التَّشَيُّعِ أو الشِّيعة أصلُها الانتصارُ للشيء، فيمالُ: (شِيعَةُ فُلانٍ) أي أنصارُه فَهُم شِيَعٌ، كلُّ طائفةٍ منهم تَنْصُرُ ما هي علَيْه وتؤيّدهُ، يعني أنهم لم يقتصِرُوا عَلَى أن تَفَرَّقُوا فقط، بلْ كل واحدةٍ تدعو إِلَى ما هي علَيْه، ومعلومٌ أن من يدعو إِلَى ما هو علَيْه لا بُدَّ أن يحذرَ ممَّا يخالِفُه إذْ لا يتِمُّ الانتصارُ إلا بهذا.

قال المُفَسّر رَحَمَهُ اَلملَّهُ: [﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ مِنْهُمْ].

حِزْبٌ بمعنى طَائِفَة، وسُمّيَتِ الطَّائِفَة المتَّفِقة عَلَى رَأْيٍ أو هَدَفٍ أو دِينٍ سُمّيَتْ حِزْبًا؛ لأَنَّ كلَّ واحدٍ منْهَا يَحْزِبُ الآخَرَ أي يُقَوِّيهِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾: أي بالَّذي ﴿لَدَيْهِمْ﴾، بمعنى عندَهُم.

وهل ﴿لَدَيْهِمْ﴾ صِلةُ الموصولِ أو متعلقُها صلةُ الموصولِ؟

مُتَعَلقُها هو صِلة الموصولِ؛ لأَنَّ (لَدَى) ظرفٌ، بُنِيَ عَلَى السُّكونِ هنا لإضافَتِه إِلَى الهاء، وإلَّا فأصلُها مبنيٌ عَلَى فَتْحٍ مُقَدَّرٍ عَلَى آخِرِه، تقولُ: (جَلَسْتُ لَدَى زيدٍ) أي عِنْدَهُ، لكنْ هنا أُضِيفَ إِلَى الهاء، مثل: (إلى) أُضِيفَتْ إِلَى الهاء، يُقال فيها: (إليه)، و(على) يُقال فيها: (عليه)، وتقدَّم أنَّ الصلةَ هي متعلقُ الظَّرف، والجارُّ والمجرورُ يُقَدَّرُ فِعْلًا، بخلافِ خبر المُبتدأ فإِنَّهُ يُقَدَّرُ اسمًا، فإذَا قُلْت: (زَيْدٌ عِنْدَكَ) فالتّقديرُ: (زيدٌ عِنْدَكَ كَائِنٌ، أَوْ مُسْتَقِرٌّ)، وإذَا قُلْت: (أَكْرَمْتُ الَّذِي عِنْدَكَ)، أقولُ: (الَّذِي اسْتَقَرَّ عِنْدَكَ)، والفرقُ بَيْنَهُما أنَّ الأصلَ في خبرِ المبتدأ أنْ يكُونَ مفردًا يعني لا جُمْلة، وأمَّا صلةُ الموصولِ فالأصلُ أنْ تكونَ جملةً، عَلَى أنَّه يجوزُ أنْ تُقَدِّرَ (مُسْتَقِر) في صلةِ الموصولِ، لكنْ إذا قَدَّرْتَ المُسْتَقِرَّ في صلةِ الموصولِ فإِنَّهُ يجبُ أنْ تُقَدِّرَ مبتدأً لتكونَ جملةً، ومنْ أجلِ هَذا قلنَا: إنَّ الأَوْلى أنْ يقدِّرَ مِنَ الأصلِ فِعْلًا حتى لا يحتاجَ إِلَى تقديرِ مُبْتَدأ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَرِحُونَ﴾: خَبَرُ ﴿كُلُّ﴾. وقالَ رحمه الله: [مَسْرُورُونَ]، لكن هَذا الفَرَحُ إنما وصفهم الله عز وجل به لأَنَّ مَنْ فَرِحَ بشيء لازَمَهُ، ولكنَّهُ فَرَحٌ مذمومٌ لأَنَّهُ فرحٌ بِباطلٍ، والفَرَحُ

بالباطلِ لا شَكَّ أنَّه باطلٌ، لكنْ لو فَرِحُوا بما عندهُم من الحقِّ لَكَان فرحًا مسرورًا؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، فالفرحُ لا يُذَمّ من حيْثُ هو فرح، ولكنه يُذَمُّ من حيْثُ مُتَعَلِّقه فإن كان فرحًا بباطلٍ فهو مذمومٌ، وإن كان فرحًا بحقٍّ فهو محمودٌ، أمَّا الأَشَرُ والبَطر الَّذي يَنتجُ عن الفرح فَهَذَا مذمومٌ بكلِّ حَالٍ، حتى لو كان فرحُ الإنسانِ بحقٍّ وأدَّاهُ ذَلِك الفرحُ إِلَى الأَشَرِ والبَطَرِ، مثل أنْ يفرحَ بما أعطاهُ الله من المالِ والبنينَ لكِنَّهُ - وَالعياذُ بِاللهِ - يتخذُ من هَذا وسيلةً إِلَى العُلُوِّ والاسْتِكْبَارِ، فإنَّ ذَلِك فَرَحٌ مذمومٌ لِنَتيجَتِه لا لِذَاتِه.

وقوْله تَعالَى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ إذا طَبَّقْناهُ الآن عَلَى الأحزابِ الموجودةَ وأنَّ كلَّ حزبٍ فَرِحٌ بما هو علَيْه مُسْتَمْسِكٌ به مُدَافِعٌ عنه مُوهِنٌ لِغَيرهِ وَجَدْنَا أنَّ الآيَةَ تَنْطَبِقُ تمامًا عَلَى ما يوجدُ الآن مِنَ الأحزابِ وَلا سِيَّما في الأمةِ العربيةِ، الأمةُ العرَبِيَّةُ الآنَ مُتَحَزِّبَةٌ، كلّ حزبٍ فَرِحٌ بما عندهُ، لكنَّ الأمةَ الإسْلامِيَّةَ لا تَتَحَزَّبُ لأنَّهَا حزبٌ واحدٌ هو الإسْلامُ حتى لو اختلفَتْ آراؤهُم، هَذا شافعيٌّ وَهَذا مالكيٌّ وَهَذا حنفيٌّ

وَهَذا حنبليٌّ وَهَذا ظاهريٌّ وما أَشْبَهَ ذَلِكَ، فإنها في الحقيقةِ مُتَّفِقَة؛ لأَنَّ كل واحدٍ من هَذِهِ الأحزابِ لا يُضَلِّلُ الآخرَ، بل إنَّه يمدحُه إذا خالَفه بمقتضَى الدَّليلِ عنده، الإنسانُ العاقلُ المؤمنُ حَقًّا هو الَّذي إذا خالَفه غيرُه بمقتضى الدّليلِ عنده لا يَكْرَهُه بل يَحْمَدُه عَلَى هَذِهِ المخالفةِ؛ لأنَّهُ ما خالَفني لأني فُلان، خالَفني لأَنَّهُ يعتقدُ أنَّ الحقَّ معه، وَهَذا هو الواجبُ عليه، وواجبٌ عَلَى كلِّ مؤمنٍ أنْ يتبعَ الحقَّ إذا تَبَيَّنَ له ولو خَالَفَ غيره.

إِذَنْ: فالطَّريقُ واحدٌ ولو اختلفَ المِنْهَاجُ؛ لأننا كلنا نُحَكِّمُ الكتابَ والسُّنةَ، وكلنا نعتقدُ أنَّ هَذا هو الحَق، فلماذا أَكْرَهُه لأنَّهُ خالَفني؟ والله تَعالَى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، نَعَمْ مَنْ تبَيَّن لهُ الحَقُّ وأصَرَّ وعاندَ وعَلِمْنَا أنَّه مجُادِلٌ بالباطلِ فَهَذَا يَنزِلُ مَنزِلتَه، وَهَذا هو الميزانُ في قولهم: (لا إِنْكَارَ في مَسَائِلِ الاجْتِهَادِ)، فإن هَذِهِ العبارةَ اشتهرَتْ عَلَى الألسُنِ لكنها ليستْ عَلَى إطلاقِها؛ لأَنَّ مسائلَ الاجتهادِ نوعانِ:

أحدهُما: ما يَحْتَمِلُه الاجتهادُ، فَهَذَا لا إنكارَ فيه لأَنَّ كلَّ إِنْسَانٍ إذا اجتهدَ؛ إِنْ أصابَ فلهُ أجْرانِ، وإِنْ أخطأَ فلهُ أَجْرٌ، ولا يمكِنُ أنْ نَزِنَ النَّاسَ بميزانٍ واحدٍ؛ لأَنَّ العِلْمَ بالأحكامِ الشّرعيةِ يَتَفَاوَتُ

بحسبِ الإِيمَان وحسب العلمِ وحسب الفَهْمِ، فالعلمُ بالأحكامِ الشَّرعيةِ يَتَفَاوَتُ بهذه الثَّلاثةِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يكونُ معه إيمانٌ صافٍ حتى يرى الحقَّ عَلَى ما هو علَيْه ويُفتح له بابُ الهِدايةِ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ يكونُ في إيمانِه ضَعْفٌ فيُحْجَبُ عنه مِنَ الهِدايةِ بقَدْرِ ما نقص من إيمانه، فالإِيمَان له أثرٌ كبيرٌ حتى في العِلم، كما قال الشَّافعي رحمه الله:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المَعَاصِي

وَقَالَ اعْلَمْ بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ الله لَا يُؤْتَاهُ عَاصِ

واللهُ عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، ولا فُرقانَ إلا بعلمٍ، فالنّاسُ يختلفونَ في هَذا اختلافًا عظيمًا بحسبِ ما معهم من الإِيمَان والتَّقوى.

كذلك أيضًا يختلفُ النَّاس في العلمِ، مثلًا رجلانِ أحدُهما يعرفُ كُتُبَ السُّنة - البُخاري ومُسلم وغيرها من كُتب السُّنة - والثاني لا يعرفُ شيئًا، فلا شك أن الأولَّ أَعْلَمُ.

والثَّالثُ الفَهْم، فإنَّ النَّاسَ يختلفونَ فيه اختلافًا عظيمًا؛ وَهذا قِيلَ لِعَليِّ بنِ أبي طَالِب - رضي الله عنه -: هَلْ عَهِدَ إِلَيْكُمُ النَّبِيُّ -

ﷺ - بِشَيْءٍ؟ فَقَالَ: "مَا عَهِدَ إِلَيْنَا بِشَيْءٍ إِلَّا مَا في هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، أَوْ فَهْمًا يُؤْتِيهِ الله تَعالَى في القُرْآنِ"، ولا شك أن النّاسَ يختلفونَ في الفهمِ، حتى إنَّ النَّصَّ الواحدَ تجدُ بعضَ النَّاسِ يَسْتَنْبِطُ منهُ عَشْرَ مَسَائِلَ، وآخَر لا يستنبطُ إلا مسألتينِ أو ثلاثة، وثالث يقول: أنَا أقرأُ لكم الحديثَ وعليكم الاسْتِنباط.

فالحاصِلُ: أنَّ النّاسَ يَخْتَلِفُونَ لِذَلِكَ، أهل السُّنةِ والجماعةِ، والمسلمونَ عُمُومًا يقُولونَ: إنَّ اختلافَنا في الآراءِ ليس اختلافًا في الدِّينِ؛ لأننا كلنا عَلَى هَدَفٍ واحد ولا يُضَلِّلُ بعضُنا بعضًا إلا مَنْ عَلِمَ الحَقَّ وتَبَيَّنَ لهُ وعَلِمْنَا أنَّه مُعَانِدٌ.

قوْله تَعالَى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ قال المُفَسِّر رحمه الله: [وَفي قِرَاءَةٍ: "فَارَقُوا" أي: تركوا دينَهُم الَّذي أُمِروا به].

قوْلهُ رحمه الله: [في قراءة]، أي: قراءة سَبْعِيَّة؛ لأَنَّ اصطلاحَ المُفَسِّر إذا قَالَ: (في قراءة) فهي سبعيَّة، وإذا قَالَ: (قُرِئَ) فهي شاذَّةٌ، هذا اصطلاحُ صاحبُ الجلالينِ، أمَّا غيرُه إذا قَالَ: (قُرِئَ) فقد تكونُ سبعيَّة أحيانًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى:: أنَّ الخِطابَ للرسولِ - ﷺ - خطابٌ له ولأمتهِ؛ تُؤخَذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿مُنِيبِينَ﴾.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: وُجوبُ التَّقوى؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: وُجوبُ إقامةِ الصَّلاةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

الفائِدَةُ الرابعةُ: شَرَفُ الصَّلاة وفضلُها؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ خَصَّهَا.

الفائِدَةُ الخامسةُ: النَّهْيُ عن الشِّرك صَغِره وكبيرِه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

الفائِدَةُ السادسةُ: شدةُ التَّنفيرِ من الشِّركِ؛ نأخُذها مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، بعدَ قوْلهِ تَعالَى: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ فإِنَّهُ لا شك أنَّ تَرْكَ الشِّرْكِ من التَّقوى، لكن هَذا يكون عطفَ خَاصٍّ عَلَى عامٍّ.

الفائِدَةُ السابعةُ: أنَّ أهلَ الشَّركِ من شأنِهم ودَأْبِهم وعادتِهم التَّفَرُّقُ في الدِّين؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾.

الفائِدَةُ الثَّامِنةُ: التَّنبيهُ عَلَى أنَّه لا ينبغِي للمؤمنينَ أنْ يَتَفَرَّقوا في دينِهم؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾، والرَّسولُ عليه الصلاة والسلام أخبرَ أنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَتَّبعُ سَنَنَ مَنْ كان قبْلها، ومع ذَلِكَ فاتباعُ سَنَنِ مَنْ قبلها مُحرَّمٌ فَهَذَا أيضًا مثلُه، هَذا التَّفرق وإن كان موجودًا قَدَرًا لكِنَّهُ غيرُ محبوبٍ إِلَى الله شرعًا، وكانت هَذِهِ الأمةُ أكثرَ تفرقًا وإن كانت ليست أكثرَ تفرقًا في الواقعِ، لكن لما كانت ستتبعُ سَنَنَ مَنْ كان قبلها صارَ لا بُدَّ أنْ يكُونَ لها اثنتانِ وسبعونَ فِرقةً، يبقى من لم يتَّبع الفِرَقَ السَّابقةَ وهي واحدةٌ وهي الثَّالثة والسَّبعونَ، هَذا السَّبب في أن هَذِهِ الأمة ستفترقُ عَلَى ثلاثةٍ وسبعينَ فرقةً لأَنَّ اليَهُودَ واحدٌ وسَبْعُونَ، والنّصارى اثنتانِ وسبعونَ فرقةً، والرَّسول - ﷺ - لما قالوا: اليَهُود والنّصارى؟ قَالَ: "فَمَنْ"، فَهَذَا يدلُّ عَلَى أنهم هَؤُلاءِ.

ويحتملُ أنْ يكُونَ معنى (فَمَنْ) باعتبارِ الجِنْس، يعني: هَؤُلاءِ وغيرهم، لكن حديث: "افْتَرَقَتِ اليَهُودُ ... وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى"، يدلُّ عَلَى أنهم يُشْبِهُونَ هَؤُلاءِ.

والحاصلُ: أنَّ هَذِهِ الأمةَ ثلاثةٌ وسبعونَ فرقةً، منْهَا اثنتان وسبعون مُتَّبِعَةٌ لليهودِ والنَّصَارَى، ومنها واحدةٌ سالمةٌ ناجيةٌ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: فقد حاولَ بعضُ العُلَماء أن يَعُدَّ الفِرَقَ، حاولوا أن يَعُدُّوها فقسموا بحسبِ أصولِ البِدَعِ إِلَى خمسةِ أقسامٍ، ثمَّ فرَّقوا هَذِهِ الأقسامَ حتى أوصلوها إِلَى اثنتينِ وسبعينَ فرقةً، ولكن المسألةَ فيها نظرٌ؛ لأننا لا ندري هَذِهِ الفِرَقَ. فإِلَى الآن لم تَقُم القيامةُ، وقد توجد فِرَقٌ لم توجد الآن تنتسبُ إِلَى الإسْلام وهي بعيدةٌ منه.

الفائِدَةُ التاسعةُ: أنَّ التَّفرق في الدِّين مُشابَهةٌ للمُشْرِكِينَ، فأولئك الَّذِينَ يتفرقونَ في دِينِهم من أجْل مسائلَ بسيطةٍ من فروعِ الدِّين القليلة أيضًا، هَؤُلاءِ فيهم شَبَهٌ من المُشْرِكِينَ تجد بعض النّاس يعادي صاحبَه أو أخاهُ من أجل أنَّه لا يطبِّق سُنّةً يراها، وَهَذا التّارك لها لا يراها، هَذا خطأ؛ لأنَّهُ تقدَّمَ أنَّه يجب عَلَى الإنسانِ أَلا يجعلَ الخلافَ المبنيَّ عَلَى الاجتهادِ سببًا للنزاعِ والبغضاءِ والتَّفَرُّقِ، بل العاقلُ يرى أن مَنْ خالَفه من أجلِ قيام الدَّليل عنده فهو في الحقيقةِ موافقٌ له؛ لأَنَّ السَّبيل والمِنْهاجَ واحدٌ، كلنا نمشي عَلَى الدَّليل.

إِذَنْ: فأنْتَ مُوافِقٌ لي والمنتهى واحدٌ، وإنِ اختلفَت الطُّرُقُ.

الفائِدَةُ العاشرة: أنَّ أحزابَ المُشْرِكِينَ مستمسِكونَ بما هم علَيْه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ أولئك الَّذِين أُوتوا شيئًا من العلومِ العصرية وفَرِحوا ورَفَعوا رؤوسَهم فِيهِم شَبَهٌ من المُشْرِكِينَ؛ لأَنَّ هنا أناسًا - والعياذُ باللهِ - أُوتوا شيئًا من العلوم العصريةِ فاحتقروا الدِّين واحتقروا العلوم الشَّرعية، وصاروا فرحين بما أوتوا فضلُّوا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٨٣]، تجدُ الواحدَ منهم إذا أدركَ مسألةً من مسائلِ الكونِ البسيطةِ رأى كأنه أدركَ تفاسيرَ القرآنِ وأمهاتِ السُّنة، وأنه هو العالم الحبْرُ الَّذي لا يوجد له نَظِيرٌ واحتقرَ مَنْ سِوَاهُ، وهذه مشكلةٌ وقَع فيها بعضُ النَاس اليوم.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ عشرة: أنَّه لا يجوز التَّحَزُّبُ في الدِّين والتَّشيع فَيَكون في هَذا ذَمٌّ لأولئك المتعصبينَ لمذاهبهم لأنهم يُشَيِّعُون النّاسَ في الواقعِ، حتى إنَّ بعض المُفْتينَ إذا استُفتي قال عَلَى أي مذهب تُريدُ أنْ أفتيَكَ، المذهب الشَّافعي، أم المالِكي، أم

الحنبلي إِلَى آخره؟ وَهَذا لا شك تفريقٌ للأمةِ؛ وَهذا ذكروا فيما سبق في التّاريخ أنَّه يحصلُ إِلَى حَدِّ القتالِ بين أصحابِ المذاهبِ المتبوعةِ، وأئمَّةُ هَذِهِ المذاهبِ لا يَرْضون هَذا أبدًا، ولا يرضون لأحدٍ أن يُقَدِّمَ أقوالَهم عَلَى قولِ الرَّسولِ عليه الصلاة والسلام، أو أنْ يجعلَ أقوالَهم مَسارًا للنزاعِ والجدَلِ والعداوةِ والبَغْضَاءِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذِينَ يُقَلّدُونَ الكُفَّارَ أَلا يَدْخُلُونُ في هَذِهِ الفِرَقِ؟

الجوابُ: لا، لا يَدخُلونَ؛ لأَنَّ هَذا خلافٌ في فرع من الفروعِ لا بُدَّ أنْ يكُونَ هناك أصلٌ يشتركونَ فيه.

الآية (٣٣)

* قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الرّوم: ٣٣].

قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ﴾ أي كُفَّارَ مكَّةَ ﴿ضُرٌّ﴾ شدةٌ ﴿دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ﴾ راجعينَ ﴿إِلَيْهِ﴾ دون غيرِه ﴿ثُمَّ إِذَا

أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ بالمَطر ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾].

المُفَسِّر رحمه الله خصَّ هَذِهِ الآيَة من وجهيْنِ:

- من جهة المراد بها.

- ومن جهة الضُّر.

فقَالَ: [﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ﴾: أي كُفَّارَ مكةَ] وَهَذا ليس بصحيحٍ، بل النَّاس عُمُومًا.

وهل المرادُ بالنَّاس عُمُومهم؟

ننظر الحالة الَّتي تحدث الله عنها هل تنطبق عَلَى المؤْمِنينَ أو خاصة بالكفار؟ فإنها خاصةٌ بالكفار.

إِذَن: النَّاس من حيْثُ هم ناس، أو نقول: المراد بالعُمُوم هنا الخصوص، وهم الكفَّار؟ فعندنا الآن وجهان:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنْ نقولَ المراد بالنَّاس النَّاس من حيْثُ هم ناس بقطعِ النَّظر عما يتصفونَ به من الإِيمَان أو الكفرِ.

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالنَّاس الكفَّارُ فيكون عامًّا أُريدَ به الخاصُّ، مثل قوْله تَعالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ

جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ﴿النَّاسَ﴾ الأولى يراد بها واحد وهو نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ أو غيرُه. وقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا﴾ المرادُ بـ ﴿النَّاسَ﴾ الثَّانية واحد وهو أَبُو سُفْيَانَ أو جنسُ أتباعِه.

المُهِمُّ: أن كلمة ﴿النَّاسَ﴾ في قوْله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ﴾ المرادُ بها أحدُ أمرين:

* إِمَّا أن يراد بها الكافرون عينًا.

* أو المُؤْمِنُونَ والكَافِرُونَ، وهذا لا يصح؛ لأَنَّ الحال الَّتِي ذكر الله لا تنطبق عَلَى المُؤْمِنِينَ.

ثانيًا: يقولُ المُفَسِّر رحمه الله: [﴿ضُرٌّ﴾ شدة] ثمَّ قَالَ: "إِذَا أَصَابَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ؛ بِالمَطَرِ].

إذا قُلْنَا: الرَّحمة مطرٌ صارت الشِّدةُ القحطَ، وهو عدمُ المطرِ، والأمر ليس كما قال المُفَسِّر رحمه الله بل هو أعم؛ لأَنَّ كلمةَ ﴿ضُرٌّ﴾ نكرةٌ في سياق الشَّرط، فتكونُ للعُمُومِ، أَيُّ ضر يكون سواء قَحْط أو مرض أو فَقْدُ مالٍ أو غيرُ ذَلِك، فإنهم عندما يُصابونَ بضرٍّ ﴿دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ﴾ راجعين إليه، كقوْله تَعالَى:

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فإذا أُصيبوا بالشِّدة عرفوا الله، خلاف ما أمر به النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام في قوله: "تَعَرَّفْ إِلَى الله في الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ في الشِّدَّةِ"، فالَّذي لا يعرفُ ربَّه إلا في الشَّدة لم يعبدْ ربَّه رغبةً، وَهَذا الَّذي تحدَّثَ الله عنه أخفُّ حالًا ممن إذا أصيبوا بالشِّدة دَعَوُا المخلوقَ، هَؤُلاءِ أقبحُ ممن تحدثَ الله عنهم.

وقوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ حالٌ من فاعل ﴿دَعَوُا﴾.

وعندنا إشكالٌ في ﴿دَّعَوَا اللَّهَ﴾، لماذا ضمَّ الواوَ مع أن الواو ساكنةٌ؟

والجوابُ: حُرِّكت لالتقاءِ السَّاكنين.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: التّحريك لالتقاءِ السَّاكنين يكونُ بالكسرِ مثل ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البينة: ١].

قُلْنَا: لكن الكسر لا يناسب الواوَ، ويناسبها الضَّم، فعلى هَذا نقول: حُركت بالضَّم لالتقاءِ السَّاكنين، فالواو والياء إذا تحرَّكَا بالفتحة فإنها تظهر عليهما، لكن إن تحرَّكَا بالضَّم والكسرة فإنهما تقدران حيث يمنع من ظهورها الثِّقل.

لكن لا ثقل في قوله تعالى: ﴿دَّعَوَا اللَّهَ﴾، بل تُنطق بسهولة، والسَّبب أن هَذِهِ الضَّمة عارضة للتخلص من التقاءِ السَّاكنين، أما قوله تعالى: ﴿دَعَوْا رَبَّهُم﴾ فليس فيها إشكالٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿دَعَوْا رَبَّهُم﴾: كلمةُ (رَب) بمعنى الخالِق المالِك المدبِّر، والرُّبُوبِيَّة تقتضي خَلْقًا، فالَّذي أوجد النَّاس هو الله، والمالكُ هو الله ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المائدة: ١٢٠]، وهو مدبِّرٌ ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]، هَذا هو الرَّب قَالَ: ﴿دَعَوْا رَبَّهُم﴾ لما وقعوا في الشِّدة عَرَفوا أنَّ الأمورَ بيدِه فَدَعَوْهُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿مُخْلِصِينَ﴾: حالٌ من الواو.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿مُنِيبِينَ﴾ راجعين ﴿إِلَيْهِ﴾ دونَ غيره ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ بالمَطَرِ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾].

﴿أَذَاقَهُمْ﴾ يعني أصابتهم الرَّحمة حتى يتحقَّقوها كما يتحققُ الإنسانُ الطَّعامَ في فمِه، وَهذا عبَّر بالإِذَاقَةِ، وإن كان هَذا لا يُذاق لأَنَّهُ لا يدخل في الفم لكن لِتَحَقُّقِ إصابتِه صار كالشَّيء الَّذي يُؤكلُ فَيُذاقُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِنْهُ رَحْمَةً﴾: المراد بالرَّحمة ما يقابل الضُّر، ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ فمثلًا إذا كان الجدبُ فالمرادُ بالرَّحمة المطرُ والخِصْبُ، وإذا كان مرضًا فالمرادُ بها الشِّفاءُ، وإذا كان فقرًا فالمرادُ بها الغِنى، فالمُهِمُّ: أنَّه يُقابل بالضُّرَّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ﴿أَذَاقَهُمْ﴾ أَلا يدل اللفظ عَلَى عدمِ الاستمرار، يعني مجرد وقت قليل، أذاقهم الرَّحمة فنكَصُوا؟ وهذا مفهومٌ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾، لأَنَّ ﴿إِذَا﴾ فُجَائية.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا﴾: فُجَائية، وهي حرف مع أنَّ ﴿إِذَا﴾ الشَّرطية اسم؛ لأَنَّ ﴿إِذَا﴾ الشّرطية نابَت مَنابَ اسمِ الشَّرط، وأما ﴿إِذَا﴾ الفجائية فنابت مَناب الفاء، والفاءُ حرفٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَرِيقٌ﴾ مبتدأ، وقوْله تَعالَى: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ خبر جملة.

وهنا نسأل: لماذا جاء المبتدأ نكرةً وابن مالِكٍ يقول:

وَلَا يَجُوزُ الِابْتِدَا بِالنَكِرَة ... مَا لَمْ تُفِدْ ... .

الجوابُ؛ لأنَّهَا أفادتْ، وبالخصوص نقولُ؛ لأنَّهَا وقعتْ بعد ﴿إِذَا﴾ الفجائية، فإذا جاءَ المبتدأُ بعد ﴿إِذَا﴾ الفجائية فلا بأسَ أنْ يكُونَ نكرةً.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، وقال هنا: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ﴾ يعني وفريقٌ آخَرُ لا يشركُ، مع أنه في آيةٍ أخرى يقول: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وفي آية ثالثة ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)﴾ [لقمان: ٣٢]، فهل نقول: إن الآيات الَّتِي يقول الله فيها: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ تُحمل عَلَى المُشْرِكِينَ، والآيات الَّتِي فيها ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أو ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ تنزل عَلَى العُمُوم؟

والجواب: هَذا الإِشكالُ ما وَرَدَ عِنْدي إلَّا الآن لمَّا وصلنا آخرَ الآية وإلَّا ففي الأول قرَّرنا أنَّها للمُشْرِكِينَ أو النَّاس من حيْثُ هم ناسٌ ولكن لما قَالَ: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ صَارَ عندي تَرَدُّدٌ، هل الآيةُ عامة فنقول: إن المؤْمِنينَ إذا أُصيبوا بالضَّراء لا شك أنهم يلجؤونَ إِلَى الله أكثرَ كما هو مُشاهد؛ وَلهذا قال الرَّسول - ﷺ -: "تَعَرَّفْ إِلَى الله فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ"،

فَهَذَا دليلٌ عَلَى أنَّ الإنسانَ في حال الرَّجاء قد يحصُل منه غفلةٌ عن الله عَز جلَّ وعَدَمُ تَعَرُّفٍ، لكن في حال الشِّدة يلجؤونَ إِلَى الله عَز جلَّ، قال النَّبيُّ - ﷺ - في الخسوف: "إنَّ الله يُخَوِّفُ بِهِما عِبادَهُ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِ الله"، فالآية تحتاج إِلَى تأمُّلٍ.

والَّذي يبدو لي الآن أن الآيَاتِ الَّتِي يقولُ الله فيها: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ تكون خاصَّة بالمُشْرِكِينَ، أمَّا الآياتُ الَّتِي يقولُ الله فيها: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾

و﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ فإنها تصلحُ للعُمُوم؛ لأَنَّ الناس - حتى المؤْمنينَ - إذا أصابهم الضُّرُّ صار عندهم من الرُّجوع إِلَى الله عز وجل واللجوء إِلَيْهِ أكثر. فصلاةُ الاستسقاءُ رجوع إِلَى الله وإنابةٌ أكثر، ومثلها صلاة الكُسوف، وحتى أنْتَ بنفسك إذا وقعتَ في شدةٍ تجد عندك من اللجوء إِلَى الله عز وجل والافتقار أكثرَ مما إذا كنت في رخاء.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدتانِ الأولى والثَّانية: أنَّ طبيعةَ الإنسان عند الضَّراء اللجوءُ إِلَى ربِّه لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ

إِلَيْهِ}، ويتفرعُ عَلَى هَذا أنَّ أولئك الَّذِين إذا مسَّهم الضُّر لجؤوا إِلَى غير الله أنهم خالَفوا جميع فِطَرِ البشر لأنهُ يوجد ناس الآن إذا وقع في ضر ما دعا الله، بل يدعو الولي الَّذي يتبعه، أو الَّذي يراه وليًّا، وإذا وقع في الأمر الهين دعا الله فيجعلون الشَّدائد لمن لا يستطيع أن يدفع عنهم شيئًا أبدًا، بل ولا يستجيب له، {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [الأحقاف: ٥]، بخلافِ النَّاس - حتى غير المسلمين - إذا وقعوا في شِدَّة لا يلجَؤُون إلا إِلَى الله عز وجل.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ أولئك الَّذِين يلجؤون إِلَى ربهم في الشَّدائد إذا زالت عنهم الشَّدائد وأصيبوا بالرَّحمة انقسموا إِلَى قِسْمَيْنِ:

* منهم مَنْ يشركُ ويبقى عَلَى شركه.

* ومنهم مَنْ يبقى عَلَى إيمانه إذا كان من المُؤْمِنِينَ.

الفائِدَةُ الرابعةُ: أنَّ أولئك المُشْرِكِينَ لا يتأنَّون في شركهم بعد أنْ ينجوا من الشِّدة، بل يستمرون علَيْه فورًا؛ لقوْلِه تَعالَى: {إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ}؛ لأَنَّ {إِذَا} فجائية.

الفائِدَةُ الخَامِسَةُ: الرَّد عَلَى أولئك الَّذِين يقدمون أولياءهم أو أولئك الَّذِين لا يلجؤون إِلَى أحد.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: إثْبَات الرّحمة لله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: التَّنديد بإشراكِ هَؤُلاءِ؛ لأَنهُ قَالَ: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ﴾ فكيف يليقُ بهم أن يشركوا بربهم الَّذي خلقهم؟ لأَنَّ الخالِق سبحانه وتعالى يجب أن تكون العبادةُ له وحده.

الفائِدَةُ الثَّامِنةُ: أن الشَّرَّ لا يُضاف إِلَى الله، ولكن يرد عَلَى هَذا بالنِّسبة للضرر والنَّفع؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾، إنما الشَّرُّ مطلقًا لا يضاف إِلَى الله، وإنما يضاف إِلَى المخلوقات المفعولات.

الآيتان (٣٤، ٣٥)

* قال اللهُ عز وجل: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٤، ٣٥].

* قولُه تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾: (اللام) هنا للعاقبةِ، يعني أنهم بإشراكِهم صارَ عاقبتُهم الكفرَ بما آتاهم الله عز وجل وقوله: (آتاهُم) أي أعطاهُم.

وهل الباء في ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ للسببيَّة، أو للتخصيص بمعنى أنهم يَكْفُرُونَ بِهَذا الشَّيء؟

الجواب: يحتملُ أنْ تكونَ للسببيةِ، أي بسببِ ما آتاهم الله تَعالَى من الرَّحمة والإنقاذ من الشّدة، صار ذَلِك سببًا لأشرهم وبطرهم وكفرهم، كما هي عادة الإنسان إلا من عصمه الله عز وجل أو يُقَال: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾، أي: يكفروا بِهَذا الشَّيء الَّذي آتيناهم حيْثُ لا يؤدونَ شُكرَه، وكان الواجبُ عليهم أن يؤدوا الشُّكر للهِ سبحانه وتعالى.

وقوْله سبحانه وتعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾: هَذا يسمونَه في البلاغة التِفاتًا، يعني لم يقل: وليتمتعوا، كما قال في آية أخرى، ولكنه أمرهم أنْ يتمتعوا، والأمرُ هنا للتهديدِ كما قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أريدَ به التَّهديد ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾]؛ فالأمر هنا للتهديد وليس للإباحة، والدَّليل عَلَى ذَلِك قوْله تَعالَى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ثمَّ قال المُفَسِّر رحمه الله: [عَاقِبَةُ تَمتُّعِكُمْ، فِيهِ التِفَاتٌ عَنِ الغَيْبَةِ].

الغَيْبَة ﴿لِيَكْفُرُوا﴾، والالتفاتُ له فائدتان:

الفائِدَةُ الأولَى: فائدةٌ لازمة في كل التفاتٍ، وهي التَّنبيهُ؛ لأَنَّ الكلام إذا كان عَلَى نسق واحد استمر الإنسان فيه مُنساقًا معه، فإذا اختلفَ انتبَه: لماذا اختلف السِّياق؟ لماذا كانت الجملةُ للغائب ثمَّ صارتْ للمُخاطبِ أو بالعكس؟ فيقفُ ويحصل بذلك تَأَمُّلٌ.

أما الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: فإنها تختلف بحسب السِّياقِ، وهي في هَذه الآية: أنهم إذا قُوبِلوا بالأمر ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ صار أشدَّ وأبلغَ تهديدًا مما إذا قال: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ [العنكبوت: ٦٦].

وقوْله تَعالَى: ﴿فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: قد قيل إنَّ (سوف) تفيدُ التَّحقيق، لكنها تفيد أيضًا التَّراخي بخلاف السِّين، فإنها تفيد التَّحقيق والفورية، وكل شيء بحسبه، وإنما كان كَذَلِكَ هنا لأَنَّ أشد العقابِ الَّذي يأتيهم سيكون يوم القيامة وهو متأخر.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿أَمْ﴾ بمعنى همزة الإنكار ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ حُجَّةً وَكِتَابًا ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تَكَلُّمَ دَلالَةٍ ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ أيْ يَأْمُرُهُمْ بِالإِشْرَاكِ! لَا].

﴿أَم﴾ هنا يقول المُفَسِّر رحمه الله: [بمعنى همزة الإنكار]؛ وَهَذا أحدُ القولين فيها، والقول الثَّاني: أنَّها بمعنى (بلْ) و(الهمزة)، فتكون مفيدة للإضراب، وهنا الإضراب الانتقالي يعني: بل أنزلنا عليهم سلطانًا، والاسْتِفْهام إذا كان للإنكار فمعناه النَّفي، يعني: هل نحن أنزلنا عليهم سلطانًا يؤيد شركهم ويثبته ويقول إِنَّه حق؟ والجواب: لا، ما أنزلنا ذلك.

يقول المُفَسِّر رحمه الله: ﴿سُلْطَانًا﴾ حُجَّةً وَكِتَابًا]، والحجة تسمى سلطانًا لأَنَّ المحتَجَّ بها له سلطة عَلَى المحجوج؛ فلِهَذا تُسمى سلطانًا، كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا﴾ [يونس: ٦٨]، أي حجة، واعلم أن السُّلطان يُطلق عَلَى عدة معانٍ، فيجمعها كلها السُّلطة عَلَى الشّيء، فتارةً تأتي بمعنى الحاكم كما جاء في الحديث: "فَإِن تَشَاجَرُوا فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لَا وَلِيَّ له"، وَكَذلِكَ: "إِنَّ الله يَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالقُرْآنِ"، وتأتي (السُّلطان) بمعنى الحُجة وهو كثير، وتأتي بمعنى القُدْرَة

مثل قوْله تَعالَى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن: ٣٣]، أي بقدرة وليس لكم قدرة، وكلها يجمعها هَذا المعنى السُّلطة الَّتِي بها السَّيطرة والغَلَبَةُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾؛ قال المُفَسِّر رحمه الله: [تَكَلُّمَ دلَالَةٍ]؛ فهو يتكلم بلسان الحال وليس بلسان المقال، هَذا ما قاله المُفَسِّر رحمه الله ولكنه يحتمل أن تبقى عَلَى ظاهرها لأَنَّ الَّذي يَنزل من عند الله كلامُ الله، وكلامُ الله تَعالَى يصح أن ينسب الكلام إِلَيْهِ كما في قوْله تَعالَى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩]، وكما في قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦)﴾ [النمل: ٧٦].

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾: (الباء) هنا للاختصاصِ أيضًا، أي يتكلم بِهَذا الشَّيء ويقول إنَّه حق.

والجوابُ: لا، إِذَنْ فليس عندهم حُجَّةٌ لا عقلية ولا فطرية، أمَّا العقلية فقد سبق أنَّ فطرة الله سبحانه وتعالى كلها الإِخْلاص لله، وأما الشَّرعية فإِنَّهُ لم يأتِ في كتابٍ من الكتب المنزلة أن

الشِّرك حق، فجميعُ الكتب المنزلة وجميع الرّسل المرسلين كلهم يقُولونَ: اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾ [الأنبياء: ٢٥].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أن الله تَعالَى قد يجعلُ النِّعم سببًا للكُفر ويكونُ كفرهم عَلَى هَذا النَّحو؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾؛ لأننا ذكرنا أن اللام هنا للعاقبة.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: إثْبَات الأسبابُ إذا جعلنا (الباء) في قوْله تَعالَى: ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ سببية، أمَّا إن جعلناها للاختصاص فليس فيها دليل.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أن ما أصابنا من نِعَمٍ فإِنَّهُ من الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾.

الفائِدَةُ الرابعةُ: تهديدُ الكَافِرِينَ، وأنَّ انبساطَهم بنِعَمِ الله سبحانه وتعالى ضررٌ عليهم لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

الفائِدَةُ الخَامِسَةُ: بلاغةُ القرآن، وَذَلِكَ بالانتقال من الغَيْبَةِ إِلَى الخِطاب الَّذي يسمى في اصطلاح البلاغيين التِفاتًا.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: إثْبَات الجزاء؛ نأخذه مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّ أولئك المُشْرِكِينَ لَيْسَ لهم حجةٌ عَلَى شِركهم؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾.

الفائِدَةُ الثَّامِنةُ: أنَّ مَنْ صنع شيئًا بدليلٍ فلا لوم علَيْه؛ يُؤخذ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾، يعني لو كان لهم سلطانٌ لا نلومهم ولا نعذبهم.

الفائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن المجتهدَ المتأوِّلَ لا إِثْمَ علَيْه لاعتماده في اجتهادِه عَلَى دليلٍ، يعني أنه استند إِلَى دليل، وَلهذا لم يُضَمِّن النَّبيُّ - ﷺ - أُسَامَةَ بْنَ زيدٍ الرَّجلَ الَّذي قتلَه بعد أن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله؛ لأنهُ مُتَأوِّلٌ، ولم يُلزِم عَمَّارَ بْنَ يَاسِر بقضاءِ الصَّلاة حين تيممَ عن الجنابة بالتَّقلب عَلَى الأرْض والتَّمرُّغ فيها، لأَنَّهُ مُتَأوِّلٌ، ولم يُلزمِ المرأةَ المُستحاضةَ بقضاءِ الصَّلاة وهي تتركها وقت الاستحاضة؛ لأنَّهَا مُتَأوِّلَةٌ.

وعلى هَذا فكل مُتَأَوِّلٍ يظن أنه عَلَى صواب فإنَّهُ لا إثمَ علَيْه، لكن هل هَذا يشمل الأصولَ والفروعَ أو هو خاصٌّ بفروعِ الدِّين؟

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ: إنَّه يشملُ الأصولَ والفروعَ، وأنكرَ شيخُ الإسْلام وتلميذُه ابنُ القَيِّمِ أنْ يكُونَ الدِّين منقسِمًا إِلَى أصول وفروع، وقال: إن هَذا التَّقسيمَ لا أصلَ له لا في الكتابِ ولا في السُّنة، فهذه الصَّلاة عند المقسمين من قسمِ الفروعِ وهي من آصلِ الأصولِ، هي الرُّكن الثَّاني من أركان الإسْلام، ومع ذَلِك هي عندهم من قسم الفروعِ، وأشياء يَخْتَلِفُونَ فيها وهي عِنْدَهُم من قسمِ الأصولِ، ويرونَ أنَّ للاختلافَ فيها مُساغًا كاختلافِهم في رؤية النَّبيِّ - ﷺ - ربَّه، واختلافهم في نَعِيمِ القبرِ وعذاب القبر في بعض الصُّور، وما أشبهَ ذَلِك مما هو من العقائد، ومع ذَلِك يرون أنَّ الاخْتِلافَ فيه سائغٌ.

فالشَّاهدُ أنَّ المدارَ كلَّه عَلَى قاعدةٍ من قواعدِ الشّرعِ، وَهِيَ قوْله تَعالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فمَنِ اجتهدَ في طلبِ الحقِّ وتحرَّاه ولكنه لم يوفقْ له مع حُسْنِ النِّيةِ وصحةِ المَسْلَكِ فلا يمكن أنْ نقولَ: هَذا آثم، مثلًا يوجد عُلَمَاءُ أجِلَّاء نشهدُ لهم بالدِّينِ والصَّلاحِ وحُبّ الإسْلامِ والانتصار

للإسلام، ومع ذَلِك هم مخالِفونَ للسلفِ في العقيدةِ، ونحبهم ولا نؤثمهم كابنِ حَجَرٍ، وابن الجوْزِيِّ، وَكَذلِكَ النَّوَوِيُّ، وطوائف من العلَماء معروفينَ بالصَّلاحِ والإصلاحِ وحب الخيرِ، ونعلم أنهم مجتهدونَ، نَعَم الإنسانُ الَّذي تبيَّن له الحق ولكنه عانَد وأصرَّ فيُعامَل بما يقتضيهِ عنادُه وإصرارُه.

وهنا قوْله تَعالَى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ هِيَ فِي مَسْأَلة أُصُولِية فِي الشِّرك، لو كَانَ لهم حُجَّةٌ يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهَا مَا استحقوا العذابَ ولا اللومَ ولكنْ لَيْسَ لهم حُجَّةٌ.

الفائِدَةُ العَاشِرَةُ: أنه لا بُدَّ أنْ يكُونَ السُّلطانُ أو الحُجة الَّتِي يحتجونَ بِهَا واضحة؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾، والتّعبيرُ بالكلامِ هُوَ أوضحُ مَا يَكُونُ مِنَ الإظهارِ.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عَشرَةُ: ظهورُ عدلِ الله سبحانه وتعالى وإلَّا لكانَ عز وجل يعذبُهم بدون أنْ يقيمَ عَلَيْهِمُ الحُجةَ، ولكنْ لإظهارِ عَدْلِه سبحانه وتعالى صارَ يطالبُ بحُجةِ هَؤُلاءِ مَعَ العِلْم بأنهُ لا حُجَّةَ لهم، ومن هَذَا النَّوع المَوَازينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، والكُتُبُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فكل هَذَا لإظهارِ عدلِ الله، وإلَّا فإن الله تَعالَى له الحُكْمُ وَإِلَيْهِ المُنتهى، قادرٌ عَلَى أن يعذب بدونِ ميزانٍ وبدون

كتابٍ، ولَكِنَّهُ سبحانه وتعالى لكمالِ عدلهِ يُعطَى الإنسانُ كتابَه ويُقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾ [الإسراء: ١٤]، قَالَ بعضُ السَّلفِ: "لَقَدْ أنصَفَكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبًا عَلَى نَفْسِكَ"، لو كَانَ بينكَ وبينَ أحدٍ معاملةٌ من حسابٍ وصادرٍ وواردٍ، فقلتَ له: خُذِ الدَّفتر أنْتَ وحاسبْ، فلا شك أن هذا عدلٌ، بخلاف مَا لو أجملتَ الحساب وقلتَ: عليكَ كذا ولكَ كذا، وقد يَكُون فِي هَذَا شبهةٌ، لكن كونه يعطيكَ الدَّفتر ويقول: (أنتَ حَاسبْ نَفْسَكَ)، فَهَذا غايةُ الإنصافِ.

الآية (٣٦)

---

* قال اللهُ عز وجل: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦)﴾ [الروم: ٣٦].

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ﴾ كُفَّار مكَّة وغيرَهم].

هَذَا أحسنُ حيثُ جعلها عامةً، وأفادنا المُفَسِّر بقوله: [كُفَّار مَكَّة وغيرهم] أنَّ المرادَ بالنَّاسِ هُنَا الكفَّار، فيكونُ من بابِ العالم المستعملِ فِي الخاصِّ، والعامُّ المرادُ به الخصوصُ غيرُ العامِّ

المخصوصِ، وفي أصولِ الفقهِ أنَّ العامَّ المخصوصَ غير العامِّ الَّذي أُريدَ بِهِ الخصوصُ، فالعامُّ الَّذي أُريدَ بِهِ الخصوصُ لم يُرِدْ معنى العُمُومِ فِيهِ من أوّلِ الأمرِ، وإنَّمَا أُريدَ بِهِ المَعْنَى الخاص فَقَطْ، كقوْله تَعالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، لم يُرِدْ بِهِ عُمُوم الناسِ من الأولِ، وأما العام الَّذي دخله التّخصيصُ يعني العامَّ المخصوصَ فَهُوَ أُريدَ بِهِ العُمُومُ، وَهُوَ تناولُه لجميعِ الأفرادِ ثمَّ أُخرج بعضُ أفرادِه من هَذَا الحُكم، فيكونُ عامًّا مخصوصًا.

وَعَلَى هَذَا فلا يمكنُ أنْ يستدلَّ مستدِلٌ بالعامّ المرادِ بِهِ الخصوصُ عَلَى عُمُومِ الحكمِ؛ لأَنهُ لم يُرَدْ بِهِ العُمُومُ، بخلافِ الثَّاني: العام المخصوص، فإِنَّهُ يمكنُ أنْ يُستدلَّ بِهِ عَلَى عُمُومِ الحكمِ، ويقولُ لمَنْ أخرجَ شيئًا مِنْ أفرادِه: هاتِ الدَّليلَ عَلَى التّخصيصِ؟

إِذَن: المُرادُ بالنَّاس فِي قولهِ: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ عامٌّ أُريدَ بِهِ الخصوصُ، يعني الكفَّارَ؛ لأَنَّ هَذَا الوصفَ لا ينطبقُ إلا عَلَيْهِم، أمَّا المُؤْمِن فإِنَّهُ إِذِا قَضَى الله له قضاءً لم يكنْ بِهَذا الوصفِ.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [وغيرَهم] بالنَّصب؛ لأَنَّ [كفارَ] بالنّصب.

قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [﴿رَحْمَة﴾ نِعْمَةً ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ فَرَحَ بَطَرٍ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ شِدَّةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ يَيْأَسُونَ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَمنْ شَأْنِ المُؤْمِنِ أَنْ يَشْكُرَ عِنْدَ النِّعْمَةِ ويرْجُو رَبَّهُ عِنْدَ الشِّدَّةِ].

قوْله تَعالَى: ﴿رَحْمَةً﴾ تشملُ جميعَ النِّعم من مالٍ وأولادٍ وأمنٍ ورخاءٍ فِي العيشِ وغيرِ ذَلِك، فكل مَا يَنْعَمُ بِهِ الإنسانُ فإنَّهُ داخِلٌ فِي ذَلِك؛ وَلهذا قَالَ [نِعْمَةً].

وقوْله تَعالَى: ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ قيَّدها المُفَسِّر رحمه الله بقوله: [فَرَحَ بَطَرٍ]، احترازًا من الفرحِ بنعمةِ الله فَرَحَ شُكْرٍ، فإن هَذَا لا يُذم كما قَالَ الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، فأمرَ الله تَعالَى أنْ نفرحَ بفضلِ الله ورحمتِه، وَعَلَى هَذَا فالفرحُ نوعان، فرحُ بطرٍ يؤدي إِلَى الأشَرِ والاستكبارِ عنِ الحقِّ والتّعالي عَلَى الخلْقِ، فَهَذَا هُوَ المذمومُ.

والثاني فرحُ شُكْرٍ يَكُونُ الإنسانُ فَرِحًا بنعمةِ الله، لكن هَذَا الفرحَ يحملهُ عَلَى شكرِ النِّعمةِ، فَهَذَا لَيْسَ بمذمومٍ، وَهُوَ من طبيعةِ الإنسانِ، فإنَّ الإنسانَ إِذَا رُزِقَ ولدًا فَرِحَ، وإِذَا رُزِقَ مالًا فَرِحَ، وإِذَا

كَانَ طالِبَ علمٍ فتوصَّلَ إِلَى مَسْأَلةٍ من مسائلِ العِلْمِ فَرِحَ، فَهُوَ من الأمورِ الطّبيعيةِ، لكنْ إنْ أبدلَ فرحَه إِلَى الأَشَرِ فإِنَّهُ محرمٌ ومذمومٌ وإلا فلا.

وقوْله تَعالَى: ﴿سَيِّئَةٌ﴾ المرادُ بالسّيئةِ هُنَا مَا يَسُوؤُهُمْ، وَهُوَ ضدُّ الرَّحمةِ مثل فقرٍ وجَدْبٍ وخوفٍ وفقدانِ مالٍ وما أشبَه ذَلِك، وسُميت سيئةً لأنَّهَا تَسوؤهم.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: (البَاءُ) للسببيةِ أي بِسَبب، و(مَا) موصولةٌ، أي بالَّذي، وَعَلَى هَذَا فالعائدُ محذوفٌ والتّقديرُ بما قدمَتْه أيديهِم إِذَا هم يَقْنَطُونَ، ولاحظْ أنَّ الله عز وجل أطلقَ الرّحمةَ، ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾، أمَّا السّيئةُ فقيَّدها بقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وَذَلِكَ لأَنَّ السّيئاتِ سببُها أعمالُ العبادِ، كما قَالَ تَعالَى فِي الآية التّالية إنْ شاء الله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠)﴾ [الشورى: ٣٠]، وَلهذا قَالَ هنا: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ المرادُ بما قدَّموا، فعبَّرَ بالأيدي عن النَّفْسِ؛ لأَنَّ غالِبَ الأعمالِ بها، وَهَذا كثير فِي القرآن أنَّ الله تَعالَى يُضيفُ الشّيءَ إِلَى الأيدي، والمرادُ بِهَا نفسُ العاملِ بل إِنَّ الله أضافَ الأيدي إِلَى نفسِه، والمرادُ بِهَا نفسُه مثل قوْله تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١)﴾ [يس: ٧١]، فإنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ لَيْسَ كقوْلِه تَعالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، والفرقُ أنَّ المرادَ بقوْله تَعالَى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾، أي: مما عَمِلناه، وأما قوْله تَعالَى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، فأضافَ الخلْقَ إِلَى نفسِه مُعدى إِلَى اليدِ بـ (الباءِ) فصارتِ اليدُ حصلَ بِهَا الفعلُ، وأما الخلقُ فأضافَهُ إِلَى نفسِه المقدسةِ سبحانه وتعالى وعدَّاه إِلَى اليدِ بـ (الباء) وَلهذا يغلطُ مَنْ جَعَلَ قوْله تَعالَى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ مثل قوْله تَعالَى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

إِذَنْ: قوْله تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بما كَسَبَتْ، وعبَّرَ بالأيدي عن النَّفسِ لأنَّهَا آلةُ الفِعْلِ غالبًا.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ إِذَا فُجائيةٌ واقعةٌ فِي جواب الشّرط وَهُوَ قوْله تَعالَى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أتى بالجملةِ الاسميةِ للدَّلالةِ عَلَى أنهم اتصفُوا بِذَلِكَ عَلَى سبيلِ الدَّوامِ فهمْ دَائِمًا فِي قنوط مَا دامتِ السّيئةُ فيهم، والقنوطُ، يقولُ المُفَسِّر رحمه الله: [ييأسون] ولكنَّهُ تفسير فِيهِ شيءٌ من القصورِ؛ لأَنَّ القنوطَ لَيْسَ اليأسَ بل هُوَ أشدُّ اليأسِ لأَنَّ اليأسَ إِذَا كَانَ فِيهِ شيءٌ من الرَّجاء لا يُسمى قنوطًا وإن سميَّ يأسًا لكن إِذَا بلغَ اليأسُ غايتَه سُمِيَّ قنوطًا، وقد قَالَ الله سبحانه وتعالى عن إبراهيمَ: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾ [الحجر: ٥٦]، الجاهلونَ بما لله عز وجل من الحكمةِ فيما يَجري عَلَى عبادهِ من الضَّراءِ والسّراءِ، يقول المُفَسّر رحمه الله: [وَمنْ شَأْنِ المُؤْمِنِ أَنْ يَشْكُرَ عِنْدَ النِّعْمَةِ ويرْجُو رَبَّهُ عِنْدَ الشِّدَّةِ]، وَعَلَى هَذَا فتكونُ الآيةُ فِي الكفارِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ الرّحمةَ من الله تَفَضُّلٌ منهُ وامتنانٌ، أمَّا كَوْنُها مِنْهُ فلقوْلِه تَعالَى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا﴾، وأما كَوْنُها تَفَضُّلًا فلأنه لم

يذكرْ لها سببًا، فكانتْ تَفَضُّلًا وامتنانًا.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: ذَمُّ الفَرَحِ إِذَا كَانَ عَلَى سبيلِ الأَشَرِ والبَطَرِ، قد نقولُ من أين يُؤْخَذُ من الآيةِ تقييدُ الفرحِ بالأَشَرِ والبَطَرِ؟

والجواب: مِنْ قَوْلِهِ سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾، يمكنُ أنْ يُؤخذَ الفرحُ المذمومُ من الصِّفةِ الَّتِي بعده.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ السَّيئةَ لا تُضافُ إِلَى الله لأنهُ قَالَ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ وَلَم يَقُلْ وإنْ أَصَبْنَاهُمْ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ تَعالَى فِي سورر النِّساءِ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، فما هُوَ الجمْعُ وقد قلنا إنَّ السَّيئةَ لا تُضافُ إِلَى الله؟

قُلْنَا: إيقاعُها لَيْسَ بسيئةٍ، هِيَ سيئةٌ لكنْ إيجادُها لَيْسَ سيئةً، بل هُوَ لحكمةٍ فالشّيءُ بنفسِه قد يَكُونُ سوءًا لكنْ بالنّسبةِ لفعلِ الفاعلِ لا يَكُونُ فعلُ الفاعلِ سوءًا، هَذَا رجل مَرِضَ ابنُه واحتاجَ الابنُ إِلَى كَيٍّ فأَحْمى الحديدةَ فِي النّارِ وكَوَاهُ فَصرخَ الابنُ ألمًا.

إِذَنْ: هَذِهِ سيئةٌ لكنْ كَيْ وَالدهِ إياهُ حَسَنَة، فحينئذٍ يجبُ أنْ نعرِفَ الفرقَ بين الفعلِ والمفعولِ، فالسّوءُ والشّرُّ إنما هُوَ بالنِّسبةِ لمفعولِ الله له ذات منفصلةُ عن الله، وأما بالنّسبةِ للفعلِ الّذي هُوَ فِعْلُ نفسِه، فإنَّهُ لا يمكنُ أنْ يكُونَ شرًّا أبدًا، بل هُوَ خيرٌ ويمكنُ أنْ نقولَ إنَّ الخيرَ نوعانِ: خيرٌ لذاتِه، وخيرٌ لغيرِه، فما كَانَ شرًّا فِي نفسِه وقَدَّره الله فَهُوَ خيرٌ لغيره، وما كَانَ خيرًا فِي نفسِه فَهُوَ خيرٌ.

إِذَنْ: لنا عن هَذَا جوابانِ:

الجوابُ الأولُ: أنْ يُقالَ إنَّ الشَّرَّ لَيْسَ فِي فعلِ الله بل هُوَ فِي مفعولِه، أمَّا إيجادُ الله له فَهُوَ خير لما يتضمنُه من الحكمةِ البالغةِ، هَذَا واحدٌ، ونَظِيرُهُ كَيْ الإنسانِ ابْنَهُ ليَشْفَى مِنَ المَرَضِ؛ فالكَيُّ فِي ذاتِهِ شَرٌّ، لَكِنْ بالنِّسبةِ لِفِعْلِ الأَبِ لَهُ خَيْرٌ، هَذَا وَجْهٌ.

الجوابُ الثاني: أنْ يُقالَ إنَّ الخيرَ نوعانِ: خَيرٌ لذاتِه وخيرٌ لغيره، فما كَانَ خيرًا مَحْضًا فَهُوَ خير لذاتِه كالمطرِ والنّباتِ والرّزقِ والأمنِ وما أشبهَ ذَلِكَ وما كَانَ شرًّا بذاتِه فَهُوَ خيرٌ لغيرِه إِذَا كَانَ الشَّرُّ خيرًا لغيره صارَ بِهَذا خيرًا، فالجدْبُ والقَحْطُ والجوْفُ وما أشبَه ذَلِكَ خيرٌ لانهُ يؤدي إِلَى خيرٍ كما قالَ الله

تَعالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ لماذا؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا وَرَدَ من إضافةِ الإضلالِ إِلَى الله فِي مثلِ قوْله تَعالَى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ [الأنعام: ٣٩]، كيف نُجيبُ عليه؟

قُلْنَا: إضافةُ الإضلالِ إِلَيْهِ يعني لِكَمالِ تَصَرُّفِهِ وَلهذا قُرِنَ بالهدايةِ لبيانِ كمالِ التَّصَرُّفِ، فالمقصودُ بَيانُ كمالِ التَّصرُّفِ وليسَ معناهُ إرادةَ الشَّرّ المَحْضِ، ثمَّ إنَّ إضلالَ الله له فِي الغالبِ كما قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فيكونُ هَذَا من بابِ العدْلِ فِي حقّ هَذَا الرَّجلِ.

الفائِدَةُ الرابعةُ: أنَّ السُّوءَ لا يَنَالُ النَّاسَ إِلَّا بأعمالِهم؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

سؤالٌ: هل هَذَا يشملُ السُّوءَ فِي الأمورِ الدِّينيةِ والأمورِ الدُّنيوية أو فِي الأمورِ الدُّنيويةِ فقط؟

والجواب: فيهما جميعًا فالجَدْبُ والقَحْطُ بسببِ الأعمالِ السَّيئة والمعاصي كَذَلِكَ: فزيْغُ القلبِ بسببِ المعاصي ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

إِذَن: المصائبُ الدّينيةُ والدُّنيويةُ كلُّها بسببِ أعمالنَا نحنُ فلو اسْتَقَمْنَا استقامَتْ لنا الأمورُ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩]، انظر ﴿فُرْقَانًا﴾.

إِذَن: التَّقوى سببٌ للعلمِ لأَنَّ الفُرْقانَ لا يَكُونُ إِلَّا بعلمٍ يُفَرِّقُ بِهِ الإنسانُ بَيْنَ النَّافعِ والضَّارِّ والحقِّ والباطلِ.

إِذَنْ: نقولُ هَذَا يشملُ أمورَ الدِّينِ وأمورَ الدُّنيا.

الفائِدَةُ الخَامِسَةُ: تحريمُ القُنُوطِ من رحمةِ الله؛ لأَنَّ الله ساقَهُ عَلَى سبيلِ الذَّمِّ ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ هَذَا دليلٌ عَلَى تحريمِهِ، ودليلٌ عَلَى تحريمِهِ من النَّظرِ أنَّ القُنُوطَ يستلزمُ عدمَ الرُّجوعِ إِلَى الله تَعالَى لأَنهُ إِذَا قَنَطَ من رحمةِ الله كَيْفَ يرجو رحمةَ الله؟ فيستحسِرُ وييأسُ - والعياذُ باللهِ - ولا يتعرضُ لما بِهِ الرّجاءِ والأملِ.

لَوْ قَالَ قَائِل: كَيْفَ نُفَرِّقُ بَيْنَ البلاءِ والابتلاءِ؟

قُلْنَا: البلاءُ بما يُؤْلم هَذَا سوءٌ، والبلاءُ بما يَسُرُّ هَذَا ابتلاءٌ، والمُؤْمِنُ يُبتلى عَلَى قَدْرِ إيمانِه؛ لأَن الابتلاءَ أحيانًا يَكُون

بالمصائبِ لَيْسَ من أجلِ العقوبةِ لكن من أجل التَّمْحِيصِ والبيانِ، وَهَذا مَرَّ أنَّه قد يقعُ، قَالَ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقلنا: إنَّ الابتلاءَ مَعَ استقامةِ الحالِ لَيْسَ المرادُ بِهِ تكفيرَ سيئةٍ حصلتْ بل المرادُ بِهِ رفعُ الدّرجاتِ لأَنَّ الصَّبْرَ لا يَكُونُ إِلَّا عَلَى بلوى، والصَّبْرُ مرتبةٌ عالية لا يُنالُ إِلَّا بمشقةٍ.

الفائدتان السّادسة والسّابعة: إثْبَاتُ الاخْتِيارِ للبشرِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، فيكونُ فِي ذَلِكَ رَدٌّ لقول الجبرَّيةِ الَّذِين يقُولونَ إنَّ الإنسانَ لَيْسَ له اختيارٌ فِي العملِ.

الفائِدَةُ الثَّامِنةُ: أنَّ الإنسانَ قد يُعاقبُ عَلَى أعمالِ القلوبِ أو قد يُذم عَلَى أعمال القلوب لأَنَّ القنوطَ من أعمالِ القلوبِ إذْ إِنَّه أشدُّ اليأسِ ومحلُّه القلبُ.

الآية (٣٧)

* قال اللهُ عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٣٧].

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعلموا]؛ وَعَلَى هَذَا فالرُّؤية علمية ويؤيد تفسيرَ المُفَسِّر أنَّها جاءت فِي آياتٍ أخرى ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾، وَهِيَ فِي سورة الزُّمَر: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر: ٥٢].

إِذَنْ: فأحسنُ مَا يُفَسَّرُ بِهِ القرآن هُوَ القرآن، وَهُوَ أعلى أنواع التّفسير، ويمكن أن يقال إنَّ لكل آية معنى فنفسر الرُّؤْيةَ هُنَا برؤية البصرِ لا برؤية البصيرة التِي هِيَ العِلْم، ونفسرها هناك بالعِلْم كما هُوَ لفظُ الآية ويكونُ البسطُ والتّضييق معلومًا بالقلب مرئيًّا بالعين، فإنَّ الإنسانَ أيضًا يرى توسيع الرِّزقِ بعينه كما يعلمه أيضًا بقلبه.

وأيهما أعم، يعلمون أو يرون إِذَا لم يفسر ﴿يَرَوْا﴾ بـ ﴿يَعْلَمُوا﴾؟

الجواب: العِلْم أعمُّ؛ لأَنَّ العِلْم قد يَكُون بالرُّؤية وقد يَكُون بالسَّماع، قد لا أرى أن الله بسَط الرِّزقَ لعباده وقدَّرَه لكنني أسمعُ

أَنه فِي البلاد الفلانية فَقرٌ وفي البلاد الغنية غنى، وما أشبه ذَلِك، فالعِلْمُ أعم وَذَلِكَ لأَنَّ وسائلَ العِلْم متعددة بخلاف الرُّؤية فإن طريقها البصر، العِلْمُ كل الحواسِّ الخمسةِ المعروفة كلها توصل إِلَيْهِ، فاللمسُ والشَّمُّ والذوقُ والرُّؤية والسَّماع كلها تفيد العِلْم، فَهُوَ أعم لأنهُ إِذَا رأى عَلِمَ، لكن العِلْمَ أعم لأَنَّ وسائلَه أكثرُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ البسطُ بمعنى التوسيعُ، كما قَالَ الله تعالى: ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨]، يعني يوسعه، وقوْله تَعالَى: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ سَبَقَ أنَّ كُل شيء قيده الله بالمشيئة فإنَّهُ مقرون بالحكمة وليست مشيئة الله تَعالَى مشيئةً مجردةُ لأننا نعلم أن الله عز وجل حكيمٌ لا يفعلُ شيئًا ولا يُشَرّعُ شَيْئًا إِلَّا لحكمةٍ، فكلما مَرَّ عليك شيءٌ مُقَيدٌ بالمشيئةِ فاعلمْ أنه مُقَيَّدٌ بالحكمةِ.

قوْله تَعالى: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [امتحانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيّقُ لِمنْ يَشَاءُ ابْتِلَاءً]، ففرَّق المُفَسِّر رحمه الله بَيْنَ تضييقِ الرّزق وبين بَسْطِه وجعل البسطَ امتحانًا والتضييق ابتلاءً، والصّواب أنهما سواءٌ كما قَالَ تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فكلها ابتلاءٌ، وقال سُليمانُ عليه

الصلاة والسلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، فالصَّوابُ أنَّ كلَّها ابتلاءٌ، والامتحانُ قريبٌ من معنى الابتلاءِ، لكنَّ الإصَابَةَ ببسطِ الرّزقِ لبسطِ الرّزقِ تقتضي شكرًا، وبتضييقِه تقتضي صبرًا، هَذَا الفرق بَيْنَهُما، والمُؤْمِن يقوم بالوظيفتيْنِ إن أصابَتْهُ سراءَ شكرَ فكانَ خيرًا له، وإن أصابته ضراءَ صَبَرَ فكان خيرًا له، وَهَذا لَيْسَ إِلَّا للمؤمنِ فقط.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الاسْتِفْهامُ هُنَا المُرَادُ بِهِ التَّقرير، يعني أنهم يَرَوْنَ أنَّ الأمورَ بيدِ الله عز وجل وأنه يبسط الرّزق لمن يشاءُ وَيقْدِرُ، فكيف يقنَطُونَ إِذَا أصابتهم السَّيئّةَ وكيف يفرحونَ ويبطرونَ إِذَا أصابتهم الرَّحمةُ؟ بل الواجبُ عَلَيْهِم أن يعلموا أن ذَلِك بحكمةٍ من الله سبحانه وتعالى.

وقوْله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الواو هُنَا حرفُ عطفٍ وَليَتْ أداةَ الاسْتِفْهام، وأداةُ الاسْتِفْهامِ لها الصّدارة، فإذا لم تسبق الواو بشيء يعطف علَيه فما هُوَ الجواب؟

نَقُول: إنَّ لعُلَمَاء النّحو فِي مثل هَذَا التّركيب قوليْن:

القولُ الأول: أن الواو عاطفة عَلَى مُقَدَّرٍ بعد الهمزةِ.

القولُ الثاني: أنَّ الواو عاطفة عَلَى مَا سبق، وَعَلَى هَذَا فتكون الهمزةُ مقدمة قبل العاطف وذكرنا أن هَذَا الرّأي أولى لأَنَ الأول وإن كَانَ جيدًا من حيْثُ الأسلوبُ لكِنَّهُ فِي بعض الأحيان يصعُبُ عَلَى الإنسان أن يقدِّرَ شَيْئًا يرى أنه مناسبٌ للسياقِ.

وعليه فيكونُ القولُ بأن الهمزةَ للاسْتِفْهام وأن الواو مُقَدَّرَةٌ قبلها يعني وَألم يَرَوْا أَسْهَل.

قوْله تَعالَى: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ لا شك أن بَسْطَ الرِّزقِ وتضييقهِ ابتلاءٌ من الله سبحانه وتعالى وَذَلِكَ لأَنَّ العبدَ أحيانًا يناسبُه أنْ يُبْسَطَ له الرِّزقُ وأحيانًا بالعكس حسب مَا تقتضيه الحكمةُ.

قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي فِي بسطِ الرّزقِ وتضييقِه ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿لَآيَاتٍ﴾ الَّذي نصَبَها ﴿إِنَّ﴾ فهي اسمُها مُؤَخَّرًا و﴿فِي ذَلِكَ﴾ خبرُها مُقَدَّمًا.

وقوْله تَعالَى: ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي لَعَلَامَاتٍ دالةٍ عَلَى أن الله سبحانه وتعالى له التّصرفُ المطلقُ فِي عباده، وأظنُّنا نرى أحيانًا مِن بعض النَّاس أنَّه يسعى بقدر مَا يستطيع فِي أسبابِ الرّزق ومع ذَلِك لا ينتجُ، تجدُه يبيع ويشتري ويسافر يضرب فِي الأرْض

يبتغي من فضلِ الله ومع هَذَا لَيْسَ كثيرَ المالِ، مُضَيَّقٌ علَيْه، وتجد بعض النَّاس يسعى سعيًا بسيطًا ولكن الله تَعالَى يبارك له فِي سعيه حتى يَكُون عنده رزق كثير مما يدل عَلَى أن الأمور لا تُنال بالكسب، فالكَسْبُ سَبَبٌ لكن فوق ذَلِك إرادةُ الله عز وجل.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم الَّذِين ينتفعون بهذه الرّؤية وَهَذا التّفكر، أمَّا غير المُؤْمِن فإِنَّهُ لا ينتفع بِهَذا؛ ولذلك تجد هَؤُلاءِ الّذِين لا يؤمنون إِذَا حصلت مثل هَذِهِ الأمور يَنْسُبُونَهَا إِلَى الطّبيعةِ، إِذَا كثر المطر قالوا: هَذَا بسببِ كذا، وَإِذَا قَلَّ قالوا هَذَا بسبب كذا، ونحن لا ننكر أن الأمورَ لها أسبابٌ، ولكننا ننكر أن تكون الأسباب هِيَ الفاعلة، فإن الفاعلَ هُوَ الله عز وجل وما الأسبابُ إِلَّا وسائلُ يُستدلُّ بِهَا عَلَى حكمةِ الله سبحانه وتعالى وأنه حكيمٌ حيْثُ ربط المسببات بأسبابها.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: تقريرُ مَا يحدث فِي الكون من بَسْطِ الرّزقِ وتضييقِه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ لأَنَّ الاسْتِفْهامَ للتقريرِ كما سبق.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أنَّ سَعَةَ الرّزقِ وتضييق الرّزقِ كله بيد الله عز وجل.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: إثْبَات المشيئةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

الفائِدَةُ الرابعةُ: أنَّه لا ينتفعُ بالآيات إِلَّا المُؤْمِنُونَ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية (٣٨)

---

* قال اللهُ عز وجل: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

قوْله تَعالَى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ إِلَى آخره (آتِ) بمعنى أَعْطِ لأنَّهَا من الرُّباعي، لو كانت من الثُّلاثي لكانت بمعنى جِئْ، لكنها من الرّباعي الَّذي بمعنى أَعْطَى.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَآتِ﴾ الخطابُ مفردٌ، فهل هُوَ للرسول - ﷺ - شخصيًا أو لكل مَنْ يتوجَّهُ إِلَيْهِ الخطابُ؟ للعُلَمَاء فِي هَذَا رأيانِ، إِلَّا مَا دل الدّليلُ عَلَى أنَّه خاصٌّ بالرَّسول - ﷺ - فَهَذَا يختص بِهِ

مثل قوْله تَعالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١)﴾ [الشرح: ١]، هَذَا خاصٌّ بالرَّسول - ﷺ -، وقوْله تَعالَى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨)﴾ [الضحى: ٨]، (وجدك) أي الرَّسول لكِنَّهُ أغنى بك جميعَ من انتفع بهذا، ومثل قوْله تَعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقوْله تَعالَى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ﴾ صاحِبَ القرابةِ، وَلهذا قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [القرابة]، فالقُرْبى بمعنى القرابةِ ﴿حَقَّهُ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [مِنَ البِر وَالصلَةِ]، وأَحَقُّ النَّاسِ بِذَلِكَ الأُمُّ والأَبُ وإنْ عَلَوَا، وصلتُهما تُسمى بِرًّا؛ لأَنَّهُ يجب أن تكونَ أعلى من صلة غيرهما، و(البِرُّ) كثرةُ الخير، وصلة غيرهما تسمى صلة؛ لأَنَّ المقصود الوصل فقط بخلاف الأب والأم، فـ ﴿حَقَّهُ﴾ هُنَا مُجْمَلٌ ولَكِنَّهُ مُبيَّنٌ بنصوصٍ أُخْرَى من القرآنِ، والسُّنةِ وَهُوَ أن حقَّ الأبوين البرُّ، وحقَّ غيرهِما الصِّلةُ فيمكنُ أنْ يكُونَ قولُ المُفَسِّر رحمه الله من البر والصّلةِ عَلَى سبيلِ التّوزيعِ من البر بالأبوين والصّلة بغيرهما من ذوي الأرحامِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ﴾ يَعُمُّ كلَّ قريبٍ ولو كَانَ كافرًا لأَنَّ العِلَّةَ القرابةُ ليست الإسْلامَ، لو قَالَ آتِ المُؤْمِنَ حقَّه قلنا العلةُ

الإيمانُ فيختصُّ الحكمُ به.

قوْله تَعالَى: ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ المِسْكِينُ هُوَ الفقيرُ وهنا أُطْلِقَ المِسْكِينُ والمُرَادُ بِهِ الفَقِيرُ والمِسْكِينُ فِي آيه الصَّدقةِ، وقد مر أنَّ المِسْكِينَ إِذَا أُطْلِقَ يشملُ الفَقِيرَ، والفَقِيرَ إِذَا أُطْلِقَ يشملُ المِسْكِينَ، وَإِذَا قُرِنَا جَمِيعًا افترقَا، المِسْكِينُ له حقٌّ، مَا حقُّه؟ حقُّه دَفْعُ حاجتِه لأنَّهُ فقيرٌ، قَالَ أهل العِلْم: وإطعامُ الجائعِ وكِسْوَةُ العَاري فَرْضُ كفايةٍ إِذَا قَامَ بِهَا مَنْ يكفي سقطَ عَنِ الباقِينَ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [المُسَافِرُ مِنَ الصَّدَقَةِ وَأُمَّةُ النَبِيِّ - ﷺ - تبَع لَهُ فِي ذَلِكَ]، وسُمِّيَ ابن سَبِيل لِمُلازمتِه لَهُ، والسّبيلُ الطّريقُ، وكل مَنْ لازمَ شَيْئًا يُسمى ابنًا لَهُ، قَالُوا كما يُقَال ابن الماءِ لطيره، طَيْرُ الماء يُسَمَّى ابنَ الماءِ، ويُقَال للرجل الَّذي يُكْثِرُ السَّفر فِي الليل ابن الليالي وما أشبهَ ذلك، فالابنُ لكل مَنْ لازمَ الشّيء، وقول المُفَسِّر رحمه الله: [من الصّدقة]، هَذَا تفسير لحق المِسْكِين وابن السّبيل، وقيل المُرَادُ بابن السّبيل الضّيفُ لأَنَّهُ عابرُ سبيلٍ، ولكن الصّحيح أنه المسافر ويشمل الضّيف لأَنَّ الضّيف مسافر.

وقول المُفَسِّر رحمه الله: [وأمة النَّبيّ - ﷺ - تبع لَهُ فِي ذلك] أفادنا المُفَسِّر رحمه الله بهذه الجملة أنَّ الخطابَ فِي قوْله تَعالَى: ﴿فَآتِ﴾ موجَّه للرسول - ﷺ - شخصيًا والأمة تبعٌ لَهُ، وقد سبق أن وجه ذَلِك أن الرَّسول - ﷺ - هُوَ زعيمُ أمته فَوُجِّه الخطاب إِلَيْهِ وإن كَانَ شاملًا أو أنَّه خاصٌّ بِهِ وتكون أمته تبع لَهُ عَلَى سبيل التّأسِّي به.

قوْله تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾: ﴿ذَلِكَ﴾ المُشارُ إِلَيْهِ إيتاء ذي القربى حقه والمِسْكِين وابن السّبيل.

قوْله تَعالَى: ﴿خَيْرٌ﴾ كلمة خير هُنَا هل يراد بِهَا التّفضيلُ أو أنَّها اسم وليست بتفضيل؟ قلنا فيما سبق أن خيرًا وشرًّا تستعملان اسمَيْ تفضيل وتستعملان اسمًا مجردًا عن التّفضيل كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، هُنَا لَيْسَ المُرَادُ بِهَا التّفضيلَ كَذَلِكَ هُنَا قَالَ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ الظّاهر أنَّه لا يراد بِهَا التّفضيل وأن المُرَاد أن هَذَا خير ضد الشّر، لكِنَّهُ قُيِّدَ بقوْله تَعالَى: ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وَهَذا دليل عَلَى الإِخْلاص يعني خيرًا للمخلصين الَّذِين يريدون وجه الله، أمَّا

غيرُ المخلص فإِنَّهُ لَيْسَ خيرًا لَهُ لكن هل هُوَ خير للمخلص؟ قَالَ الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، فجعل الله تَعالَى ذَلِك خيرًا مطلقًا ثمَّ قَالَ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، فجعل هَذَا الشّيء خيرًا مطلقًا لما فِيهِ من النّفع المتعدي ولَكِنَّهُ لا يَكُون خيرًا للفاعل إِلَّا بالنّية؛ بنيةِ الإِخْلاصِ وأظنُّ أن هَذَا ظاهرٌ، لو أنَّك تصدقْتَ عَلَى شخصٍ بدراهمَ أو بثوب يلبَسُه انتفعَ، أما أنت فقد تنتفعُ وقد تنضرُّ وقد لا تنتفع ولا تنضر، فإن فعلتَ ذَلِك رياءً انضرَرْتَ، وإن فعلته إخلاصًا انتفعتَ وإن فعلته مجرد سجية وطبيعة فإنك لا تنتفع وَلهذا قَالَ هُنَا ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ فنقول: لا يَكُون خيرًا إِلَّا للذين يريدون وجه الله هَذَا بالنّسبة للمعطي، أمَّا بالنّسبة للمُعطى فَهُوَ خير لَهُ حتى لو يعطي كافرٌ شخصًا مالًا انتفع بِهِ وصار خيرًا لَهُ فلا يَكُون خيرًا للمعطي إِلَّا بالنّية، أمَّا بالنّسبة للمعطى فَهُوَ خيرٌ لَهُ عَلَى كل حَالٍ.

ولم يذكر الله فِي الآية هُنَا الخير للمعطي إِلَّا بهذه النّية أمَّا المعطى فلا شك أنَّه خير لَهُ عَلَى كل حَالٍ كما تفسره آياتٌ

أُخْرَى، قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [أي ثَوَابُهُ بِمَا يَعْمَلُونَ]، قول المُفَسِّر رحمه الله: [أي ثوابه] هَذَا تفسير لَيْسَ بصحيح وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى طريق أهل التّأويل الَّذِين لا يؤمنون بالصّفات الخبرية الَّتِي أخبر بِهَا الله عن نفسهِ كالوجهِ واليدين والقدم وما أشبهها، فتفسير الوجه بالثّواب خطأ وليس عَلَى طريق أهل السّنة والجماعة، بل هُوَ عَلَى طريق أهل البدع المؤوِّلينَ الَّذِين يُسمونَ أنفسهم مُؤَوِّلينَ وهم فِي الحقيقةِ محُرِّفُونَ.

والصّوابُ: أن المُرَادَ بِهِ وجهُ الله: وجهُه الَّذي هُوَ صفتُه، وأنَّ فِي الآية إشارةً إِلَى أن من فعل مثل هَذِهِ الأمورِ لله فإِنَّهُ سَوْفَ يرى الله عز وجل ويلقاهُ كما ثَبَتَ ذَلِك فِي الكتابِ والسّنةِ وإجماعِ السّلفِ أَنَّ المُؤْمِنينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ كَما يَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، قَالَ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، الأولى ﴿نَاضِرَةٌ﴾ بالضَّادِ بمعنى حَسَنَةٍ وَبَهِيَّةٍ، والثّانية بالظّاء لأنَّهَا من النَّظَرِ بالعَيْنِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: (أولاءِ) مبتدأٌ و(هم) ضميرُ فصل والمفلحونَ خبرُه، المُفْلِحُ هُوَ الَّذي فازَ بالمطلوب

وَنَجا مِنْ المرهوب مَنْ أَفْلَحَ إِذَا فَازَ، والفلاحُ أصلُه البقاءُ، كما قَالَ الشّاعر:

..... وَالمُسْيُ وَالصُّبْحُ لَا فَلَاحَ مَعَه يعني لا بقاءَ، ولَكِنَّهُ صار شاملًا لكل مَا حصلَ بِهِ المطلوبُ ونجا بِهِ من المرهوبِ، وقوْله تَعالَى: ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الجملة اسمية تدُلّ عَلَى أنَّ الفلاحَ لازمٌ له.

وضمير الفصل هل هُوَ اسمٌ أو حرفٌ؟

الصّحيح أنَّه حرفٌ لا محل لَهُ من الإعرابِ ولا يُعرب.

إِذَنْ: مَا الفائدة من ضمير الفصل؟

له ثلاثُ فوائدَ: الأولى الحصر، والثّانية التّوكيد، والثَّالثة الفرق بَيْنَ الصّفة والخبر، مثال ذَلِك إذَا قُلْتَ: (زيدٌ العَاقِلُ)، فـ (زيد) مبتدأ و(العاقل) خبره، لكن يحتمل أن تكون (العاقل) صفة لـ (زيد)، وأن الخبر لم يأتِ بعد، مثل: (زَيْدٌ العَاقِلُ مَحْمُودٌ) مثلًا، لكن إذَا قُلْتَ: (زيد هُوَ العاقل) تعيّن أن تكون (العاقل) خبرًا، وَلهذا قيل له: ضمير فصل؛ لأنَّهُ يفصل ويميز بَيْنَ التّابع الَّذي هُوَ النّعت وبين الخبر، أمَّا إفادتُه للتوكيد فواضحةٌ، فإن قولك: (زيد

هُوَ العاقل) أقوى فِي الدّلالة عَلَى الحصر من قولك: (زيد العاقل)، أمَّا كَونُه لا محل لَهُ من الإعراب فظاهر، فِي القرآن ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠)﴾ [الشعراء: ٤٠]، لو كَانَ لَهُ محلٌّ من الإعراب لقَالَ: إن كانوا هم الغالبونَ، ونقول (هم) مبتدأ والغالِبونَ خبرٌ، والجملة خبر (كان)، فدل هَذَا عَلَى أنه لا محل لَهُ من الإعراب، وَهُوَ - عَلَى المشهور عند النّحويين - حرف جِيء بِهِ للفَصلِ، فصورته صورة الضَّمير، لكن معناهُ لَيْسَ معنى الضّمير الَّذي يَكُون اسمًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أن لهؤُلاءِ الأصناف الثّلاثة حقَّ القريبِ والمِسْكِينِ وابنِ السّبيلِ.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: وجوب إيتاء هَؤُلاءِ حقهم؛ تؤخذ من الأمرِ فِي قوْله تَعالَى: ﴿فَآتِ﴾ والأصلُ فِي الأمرِ الوجوبُ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ الأقربَ فالأقربَ أحقُّ؛ تؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ﴾.

لكن كَيْفَ الأخذ؟

الأخذ: هُوَ أن لدينا قاعدة سبق أنْ قَرَّرناها وَهِيَ أن الحكمَ إِذَا عُلِّقَ عَلَى وَصْفٍ فكلما كَانَ أكثر فِي هَذَا الوصف فَهُوَ أحقُّ إِذَا عُلِّقَ الحكمُ عَلَى وصف فكلما كَانَ هَذَا الوصفُ أشدَّ تمَكُّنًا فِي شيءٍ فَهُوَ أَحَقُّ به، فمثلًا إذَا قُلْتَ: (أَدِّبِ العَاصِي)، عُلِّقَ التّأديبُ بالعصيانِ، فيقتضي هذا أن كل من كَانَ أشَدَّ معصيةً كَانَ أَشَدَّ تأديبًا، وَإِذَا قلنا: (أَكْرِمِ المُؤْمِنَ) صَارَ معنى ذَلِكَ: أنَّ كلَّ من كَانَ أقوى إيمانًا صَارَ أحقَّ بالإكرامِ، قوْله تَعالَى: ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ﴾ عُلِّقَ الحقُّ بالقرابةِ، فكلما كَانَ أقربَ كَانَ أحقَّ بالإيتاءِ، وهذهِ القاعدةُ مفيدةٌ لطالبِ العِلْمِ أنه إِذَا عُلِّقَ الحُكْمُ عَلَى وصفٍ، قَوِيَ ذَلِك الحكم بقوة ذَلِك الوصف؛ نظرًا لأَنَّ تعليقَه بالوصف يفيد علِّيته وهذه أيضًا قاعدة ثانية: (أَنَّ تَعْلِيقَ الحُكْمِ بِالوَصْفِ يُفيدُ أَنَّ ذَلِكَ الوَصْفَ عِلَّةٌ)، فمثلًا تقول أكرمِ المُؤْمِنَ لماذا؟ لإيمانِه، أدِّبِ الفاسقَ لفسقِه ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]، معناه لإفسادِهم وهكذا.

فنَقُول: إن تعليقَ الحكمِ بالوصفِ يدلُّ عَلَى عِلِّية ذَلِك الوصف، وأنه عِلَّةُ الحُكْمِ، وبناء عَلَى هَذِهِ القاعدةِ تأتي القاعدةُ الأولى أيضًا.

الفائِدَةُ الرابعةُ: أنَّ كل من كَانَ أحقَّ بالإحسَانِ فَهُوَ أولى به؛ لأَنَّ المِسْكِينَ أحقُّ بالإحسَانِ من الغني، وابنَ السّبيل المسافر المنقطع بِهِ سفره أحقُّ من غيره.

الفائدتان الخامسة والسّادسة: أن النَّفْعَ المتعدي خيرٌ فِي نفسه.

وهل هُوَ خير للفاعل؟

نعم، هُوَ خير للفاعل بشرط، فَهُوَ خير فِي نفسه وإن لم ينتفع بِهِ الفاعل.

ويتفرع عَلَى هَذَا أن مَا يبذله الكفَّار من منافع للمسلمين هِيَ خير للمسلمين، لا نقول هَذِهِ صدرت من كافرٍ فليست بخير وليس فيها خيرٌ.

مثلًا لو أن أحدًا من الكفَّار أصلحَ طريقًا من الطّرق، من هَذِهِ الشّركات الكافرة فيكونُ فِي هَذَا الإصلاح خيرٌ لا شك، لكن لَيْسَ خيرا لهم إنما هُوَ خير لغيرهم.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: التّنبيهُ عَلَى أهمية الإِخْلاصِ؛ لقوْلِه تَعالَى: {ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ}.

الفائِدَةُ الثَّامِنةُ: أنه كلما كَانَ العمل أَخْلَصَ للهِ كَانَ أكثرَ خيرًا للفاعل نأخذ هَذَا الحكم من القاعدة الَّتِي مرت بأن هَذَا الحكم عُلِّق بعلة ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾؛ لأن اسم الموصول مَعَ صلته كاسم الفاعل تمامًا، فيكون خيرًا للذين يريدون.

إِذَنْ: فكلما كَانَ الإنسانُ أخلصَ فِي إرادة وجه الله كَانَ أكثرَ خيرًا له.

الفائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثْبَات الوجه لله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ ووجه الله عز وجل قَالَ أهل العِلْم: أنه من الصّفات الخبرية لأَنَّ عِنْدَهُم من الصّفاتِ مَا هِيَ خبرية محضةٌ، فيعبرونَ عنها بالخبرية؛ لئلا يقعوا فِي المحذور فلا يقُولونَ إِنَّها بعضيَّة مثلًا أو جزئيَّة لأَنَّ التّبعُّض والتّجزئة فِي ذات الله عز وجل محرمٌ إطلاقًا، فالوجهُ واليدُ والعين والسّاق والقدم كل هَذِهِ يُعَبَّرُ عنها بالصّفاتِ الخبريةِ، لكنَّ السّمعَ والعِلْمَ والقُدْرَةَ والحياة تُسمى صفاتٍ معنويةً: صفات معانٍ، والفرقُ بَيْنَ الصّفات المعنوية والخبرية أن الصّفات المعنوية تدُلُّ عَلَى معانٍ كالسَّمعِ والبصر والعِلْم والقُدْرَة وما أشبهها، وأما الصّفات الخبرية فهي تدُلُّ عَلَى صفاتٍ هِيَ بالنّسبة لنا أبعاض، فَيَدُ الإنسانِ ووجه الإنسان

وساق الإنسان وقدم الإنسان وعينُه مثلًا هَذه أبعاض لَهُ ولكن لا نسميها بالنّسبة لله أبعاضًا بل سماها أهل العِلْم الصّفات الخبرية.

الفائِدَةُ العَاشِرَةُ: الإشارةُ إِلَى رؤية الله عز وجل لقوْلِه تَعالَى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ ولا شك أن رؤية الله عز وجل ثابتة بالقرآن والسّنة وإجماع السّلف، ففي القرآنِ قَالَ الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، معنى ﴿نَاضِرَةٌ﴾ الأولى من النَّضارة وَهِيَ الحُسْنُ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بالظَّاءِ من النّظر وَهُوَ الرّؤية بالعين وهذه الآية من أَصْرَحِ مَا فِي القرآن وتوجد آية أُخْرَى وَهِيَ قوْله تَعالَى: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣)﴾ [المطففين: ٢٣]، وتوجد آية ثالِثة وَهِيَ قوْله تَعالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فسرها النَّبيّ - ﷺ - بأنها النّظر إِلَى وجه الله، وتوجد آية رابعة وَهِيَ قوْله تَعالَى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)﴾ [ق: ٣٥]، وتوجد آية خامسةٌ وَهِيَ قوله تَعالَى فِي الأنعام: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، لأَنَّ هَذِهِ الآيةَ تدلُّ عَلَى الرّؤية لأَنَّ الله تَعالَى قَالَ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ﴾ ونَفْيُ الإدراك يدل عَلَى ثبوتِ الأصل، ولو كَانَ لا يُرى لقَالَ: (لا ترَاهُ الأبصَارُ)، فنفي

الأخَصِّ يقتضي وجود الأعمِّ؛ وَلهذا كانت هَذِهِ الآيةُ الَّتِي يُستدل بِهَا أهل التّعطيل عَلَى نفي رؤية الله دليلًا عَلَيْهِم لا دليلًا لهم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ورد فِي الحديث أن يَوْمَ القِيَامَة يقول الله سبحانه وتعالى: من كَانَ يعبدُ الطّواغيتَ فليعبد الطّواغيتَ، ومن كَانَ يعبدُ الشَّمسَ فليعبدِ الشّمسَ فيأتيهم الله سبحانه وتعالى فِي صورة غير صورته الَّتِي يعرفونها فيقولُ أنا ربكم فيقولونَ نعوذُ بالله منكَ هَذَا مكانُنا حتى يأتينا ربنا، قَالَ ثمَّ يأتيهِمْ فِي صورتِه الَّتِي يعرفونَ فيقولُ أنا ربكم، فيقولونَ أنْتَ ربُّنا، فينطلقُ ثمَّ يتبعونَه، والإشكال هو: مَا معنى قوله: فينطلق ثمَّ يتبعونه؟

فالجوابُ: أن هذه اللفظةَ غيرُ ورادةٍ، فلا أدري معناها، ولا نبحثُ فيها حتى تؤكَّدَ، وَإنَّمَا ورد أن الأممَ تتبعُ مَنْ كانتْ تعبدُ حتى تُلقى فِي النَّارِ.

وفي الحديث: "فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ له كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهِ تَعالَى فِي الدُّنْيَا".

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عَشرَةُ: أنَّ الفلاحَ يَكُونُ بأمرين: بالإِخْلاصِ وفعلِ المأمورِ بِهِ نأخذُها مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ﴾ وهَؤُلاءِ المُشارُ إليهم أتوْا بالفعلِ والثّاني الإِخْلاصُ.

الآية (٣٩)

* قال اللهُ عز وجل: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾ [الروم: ٣٩].

لمَّا أمرَ الله تَعالَى بإيتاءِ ذي القربى حقه فِي قوْله تَعالَى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ﴾ إِلَى آخره، حذَّر من هَذَا الأمر ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾، والرّبا فِي اللُّغَة الزّيادةُ كقوْله تَعالَى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]، أي علت، ومنه الرَّبْوَةُ للمكانِ المرتفعِ، أمَّا فِي الشّرع فالرِّبا المحرَّمُ هُوَ زيادةٌ فِي أَشْيَاءَ أو نَسِيءٌ فِي أَشْيَاءَ، فَهُوَ إمَّا أَشْيَاءُ يزيدُ فِيهَا كما لو باعَ صاعًا من البُرِّ بصاعين مِنْهُ ولو يَدًا بِيَدٍ فَهُوَ ربًا: ربَا فَضْلٍ. أو باع دنانيرَ بدراهمَ مَعَ تأخيرِ القبْضِ فَهَذَا رِبَا نَسِيئَةٍ، وكلاهُما محُرَّمٌ.

وأما الرّبا هُنَا فِي الآية ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ فالمُرَادُ بِهِ الزّيادة فَهُوَ رِبًا لُغَوِيٌّ، هَذَا هُوَ الَّذي علَيْه جمهورُ المفسرين، فقوْله

تَعالَى: ﴿وَمَا آتَيْتُم﴾ أي وما أعطيتُم من ربًا ليربوا فِي أموالِ النَّاسِ فلا يَرْبُو عندَ الله، وقولنا: وما أعطيتُم من ربًا؟ فسره المُفَسِّر رحمه الله بقوله: [بِأَنْ يُعْطِيَ شَيْئًا هِبَةً أَوْ هَدِيَّةً لِيَطْلُبَ أَكْثَرَ مِنْهُ]، تُهدِي لشخصٍ لأجلِ أنْ يعطيَك أكثرَ أو تَهِبُهُ من أجلِ أن يَرُدَّ عليكَ أكثرَ مما وهبتَ الآن آتيتَ شَيْئًا ليرد عليك أكثر منه، نقول آتيتَ ربًا.

لَكِنْ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أنا مَا أعطيتُ ربًا أنا أعطيتُ شَيْئًا حصل بِهِ الرِّبا؟

أجاب المُفَسِّر رحمه الله عن هَذَا: [فَسُمِّيَ بِاسْمِ المَطْلُوبِ مِنَ الزِّيَادَةِ فِي المُعَامَلَةِ]، فيكونُ هَذَا الَّذي أعطى ليُعطى أكثرَ كأنَّه أعطى رِبًا لأنه أُعطِيه، هَذَا مَا علَيْه أكثر المفسرين.

وَعَلَى هَذَا فيكون الرِّبا هُنَا لُغَوِيًّا، وهنا قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [هِبَة أَوْ هَدِيَّة] الفرقُ بَيْنَ الهبةِ والهديةِ أن الهبةَ يقصد بِهَا مجردَ الإحسَانِ إِلَى المُعطَى فَقَطْ، والهديةُ يُقصدُ بِهَا التَّودُدُ والإكرام؛ وَلهذا قَالَ الرَّسولُ - ﷺ -: "تَهَادُوا تَحَابُّوا"، يوجدُ شيءٌ ثالثٌ يُسَمَّى صدقةً يُقْصَدُ بِهِ ثوابُ الآخرةِ فما يُقصدُ بِهِ ثوابُ الآخرةِ

فَهُوَ صدقةٌ، وما يُقْصَدُ بِهِ التَّوددُ والإكرامُ فَهُوَ هديةٌ، وما يُقْصَدُ بِهِ نفعُ المعطَى فَهُوَ رِبًا.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ كأنَّ الله عز وجل حذَّرَ مِنْ أن يؤتي الإنسانُ أحدًا من ذوي القربةِ أو المساكينِ أو ابنِ السّبيلِ لأجلِ أنْ يُعطى أكثرَ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ أي فلا يزيد عند الله عز وجل لأَنَّ هَذِهِ الحالةَ حالُ دُنْيَا نازلةٍ، وَلهذا نهى الله عنها رسوله - ﷺ - فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦)﴾ [المدثر: ٦]، يعني لا تُعطِ لأجلِ أنْ تعطَى أكثرَ، ولما كانتْ هَذِهِ الحالة نازلةً، قَالَ هُنَا ﴿فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ قَالَ المُفَسّر رحمه الله: [﴿لِيَربُوا فِىَ أَموَالِ الناسِ﴾ المُعطينَ أي يزيدُ]، ﴿فَلَا يَرْبُو﴾ يعني فلا يزيدُ، قَالَ المُفَسِّر: [فلا يَزْكُو ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي لا ثَوابَ فِيهِ للمُعطينَ]، وَذَلِكَ لأنَّهَا حالٌ لا تنبغي فلا يَكُون فِيهَا أجرٌ عند الله عز وجل هَذَا مَا ذكره المفسرون فِي تفسير هَذِهِ الآية ورَوَوْهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاس وغيره.

وعندي أنه يحتملُ فِي الآية معنًى آخر يَكُون قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ الرِّبا الشَّرعي، ويخاطب الله عز وجل المعطين

للرِّبَا يعني أن الرِّبا الَّذي تعطونه غيركم وإن كَانَ يزيد فِي أموالهم فإِنَّهُ لا يَرْبُو عند الله بل إنَّه عَلَى العكس يحصلُ بِهِ المَحْقُ والسُّحْتُ للمال الطَّيب، فلا خيرَ فِيهِ ويؤيد ذَلِك قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ فَفَرَّقَ بَيْنَ المُرابي وبين المتصَدِّقِ، كما أن الله عز وجل يقرن بَيْنَهُما فِي بعض الآيات مثل مَا ذكر فِي سورة البقرة ذكر الله الإنفاق وذكر بعده الرِّبا، وَكَذلِكَ أيضًا فِي سورة آل عمران ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٠ - ١٣٣]، وذكرَ من جملةِ أوصافهم أنهم يُنفِقونَ فِي السَّرَّاءِ والضَّراء، ولكنْ هَذَا الاحتمالُ حتى الآن مَا رأيتُ أحدًا قَالَ بِهِ، وَإِنَّمَا يقُولونَ بالمَعْنَى الأول وَهُوَ أن يُعطي الإنسان شَيْئًا هِبَةً أو هديةً ليُعطَى أكثرَ فإنَّ هَذَا وإن زاد فِي أموال المعطين فليس فِيهِ زيادة عند الله لأنَّهُ خُلُقٌ مذمومٌ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فيما لو أهدينا إِلَى شخصٍ معروف بالمكافأة وأنا مَا قصدت فهل يجوز أم لا؟

قُلْنَا: مَا دام أنَّك مَا قصدتَ فإِنَّهُ لا يضرُّ.

وهل الإهداءُ للأمراء والملوك والوزراء وما أشبههم يدخل فِي هَذَا النّهي؟

غالِب الَّذِين يُهدون خصوصًا عَلَى الملوك والكبار من الأمراء إنما يريدون الزّيادة، يريدون أكثر؛ وَلهذا إِذَا عُرِفَ الإنسانُ بِأَنَّهُ لا يعطي إِلَّا مثل القيمة أو دونها لا يُعطَى هدايا، فلا يعطى هدايا إِلَّا من عُرِفَ أنه يبذل أكثرَ ويردُّ أكثرَ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا آتَيْتُم﴾ يعني أعطيتم ﴿مِنْ زَكَاةٍ﴾: (مِن) حرف جر وَهِيَ بيانية بَيان لـ (ما) فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا آتَيْتُم﴾، و(ما) هُنَا إعرابها شرطية بدليل قوْله تَعالَى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ فارتبطت (الفاء) فِي الجواب يعني ومهما آتيتم من زكاة بِهَذا القيد تريدونَ وجهَ الله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِنْ زَكَاةٍ﴾، قَالَ المُفَسِّر: [صَدَقَة]، وفي هَذَا القيد نظر إن قصد بِهَا صدقة التّطوع أمَّا إن قصد بِهَا الصّدقة مطلقًا فنعَمْ لأَنَّ الصّدقة تُطلق عَلَى الواجب والمستحب والدّليل عَلَى إطلاقها عَلَى الواجب قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، فَهَذَا للواجبِ والمستحب.

إِذَنْ نَقُول: ﴿مِنْ زَكَاةٍ﴾ المُرَاد بِهَا الزّكاة الواجبة.

فبالمَعْنَى الأول كَيْفَ نحوِّلها إِلَى صدقةٍ عَلَى أن المُرَاد بِهَا التَّطوعُ؟

والصّواب: أن المُرَاد بالزّكاة هِيَ الزّكاة الواجبة لأنَّهَا مرادة عند الإطلاق، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، المُرَاد الواجب، إِذَنْ: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ﴾ أي من صدقة واجبة.

لَوْ قَالَ قَائِل: الزّكاةُ فُرِضَتْ بالمدينة وهذه السُّورة مكِّية؟

قُلْنَا: هَذِهِ لا تدُلُّ عَلَى الفرض، وَإِنَّمَا تدُلُّ عَلَى الأجر فقط، مَعَ أن الصّحيح أن الزّكاة مفروضةٌ بمكةَ لكن تقديرها وتقدير أنصِبَائِها هُوَ الَّذي كَانَ فِي المدينة هَذَا هُوَ الصّحيح.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ يعني تريدونَ بهذه الزّكاة الَّتِي آتيتم، تريدون وجهَ الله، هَذِهِ جملة شرط للثواب والأجر أن يريد الإنسان وجه الله؛ لأَنَّ مَنْ لا يريدُ وجه الله إمَّا أن يريد وجه غيره أو أن لا يريد شَيْئًا، إِذَا أراد وجهَ غيره فليس لَهُ أجر بل علَيْه وِزْرٌ لأَنهُ مُراءٍ مشْرِكٌ فلا تقبل مِنْهُ، وإن لم يُرِدْ وجه الله ولا غيره لكِنَّهُ أراد إبْراءَ ذِمته فقط

كما هُوَ حال غالب من يؤدي الزّكاة بل - الله يعاملنا بعفوه - غالِب من يؤدي حتى الصّلاة، أكثر النَّاس عندما يأتي إِلَى الصّلاة تجده يريد إبراء ذمته لا يشعر بأن هَذِهِ الصّلاة تقربه إِلَى الله عز وجل ويريد القرب بِهَا إِلَى الله هَذا، فغالب النَّاس - إلا من وفق وصار ينتبه عند فعل الطّاعات بإرادة وجه الله وَهُوَ الإِخْلاص واتباع الرَّسول - ﷺ - فِي هَذِهِ العبادة لا يُراد وجهُ الله ولا يراد وجه غيره، وَإِنَّمَا أراد بِهَا إبراء ذمته تنفعه بلا شك وتبرأ بِهَا ذِمتُه وربما يُؤجر لقيامه بركن من أركان الإِسْلام، بل يقينًا يُؤجر لكن ربما يُؤجر أيضًا بكونه يشعر أن هَذِهِ مما أوجب الله علَيْه فيؤديه؛ لأَنَّ هَذَا لا شك أنه تَعَبُّدٌ لله يعني فَعَلَه تَعَبُّدًا لكنْ كونُه يريد بِذَلِكَ وجه الله والتّقرب إِلَيْهِ هَذِهِ حالة أعلى من كونه يريد مجرَّد إبراء ذمته.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [قوْله تَعالَى: ﴿تُرِيدُونَ﴾ بِهَا ﴿وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ ثَوابَهُمْ بِمَا أَرَادُوهُ].

قوْله تَعالَى: ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ المُفَسِّر لم يفسِّرْها هنا، لكِنَّهُ فسرها فِي الآية الَّتِي قبلها بأنها ثوابه والصّواب أن المُرَادَ بوجه الله ذات وجه الله لا ثوابه وفيه إشارة كما سبق إِلَى رؤية المؤْمِنينَ ربهم.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ جوابُ الشَّرط، ﴿وهُمُ﴾ ضمير فصل، ﴿الْمُضْعِفُونَ﴾ خبر (أولئك) ومعنى ﴿الْمُضْعِفُونَ﴾ أي الحاصلونَ عَلَى التَّضعيفِ لأَنَّ الفعلَ الثُّلاثي إِذَا دخلت علَيْه الهمزة فقد يراد بِهِ الدُّخول فِي الشّيء مثل قولهم: (أنجد) أي دخل نجدًا فمعنى (أضعف) هُنَا أي صَارَ من ذوي الأضعافِ، والأضعافُ معناه الزّيادةُ يعني أولئك هم المضعفون الَّذِين حصلوا عَلَى مضاعفة الأجر والثّواب بخلاف الأولين الَّذِين آتوُا الرِّبَا ليربوا فِي أموالِ النَّاس، فهَؤُلاءِ لَيْسَ لهم زيادةٌ، فالزّيادةُ للذين آتوا الزَّكاة يريدونَ وجهَ الله، هَؤُلاءِ هم المضعفون أي الدَّاخلونَ فِي المضاعفةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ قول المُفَسِّر: ﴿الْمُضْعِفُونَ﴾ ثوابهم] يعني الَّذِين ضاعفوه وزادوه بما أرادوه.

ثمَّ قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [فيهِ التفاتٌ عن الخِطابِ إِلَى الغَيبه]، والخطاب هُوَ قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾، هَذَا خطاب، وكان مقتضى السّياق إِذَا كَانَ عَلَى نسق واحد أن يُقَال لَأنتُم المضعفون، لكن قَالَ: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ وفائدة الالتِفات التّنبيه وفيه تَعْلِيَةٌ للشأن مثل

التّعبير بقوْله تَعالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾ [غافر: ٦٠]، لم يقل وقلت لكم أو أقول لكم، تعظيمًا لشأنه تَعالَى فيكون المُرَاد بِذَلِكَ تعظيم شأن هَؤُلاءِ الَّذِين أردوا وجه الله عز وجل بكونهم حصلوا عَلَى مضاعفة الأجر والثّواب بخلاف الأولين.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أن من بذل مالَه من أجل الحصول عَلَى أمر الدّنيا فإِنَّهُ لا أجْرَ لَهُ فِي ذَلِك تؤخذ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ وَهَذا عكس الأولين الَّذِين سبقوا فِي الآية السّابقة، الَّذِين أعطوا فِي الآية السّابقة يريدون وجه الله هَؤُلاءِ بالعكس يريدون الازدياد بما أعطوا.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: التّنبيه عَلَى أهمية الإِخْلاص لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ تؤخذ من قوله: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ مضاعفةَ الأعمال تكون بحسب الإِخْلاص لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ فقد رتب الله تَعالَى الأضعاف عَلَى إرادة وجه الله، وَعَلَى مَا قررنا فِي القاعدة قبل قليل يَكُون كل من كَانَ أخلص لله فعمله أكثرُ مضاعفةً، وَهَذا

أمر لا شك فِيهِ، فإن مضاعفة الأعمال تكون بأسباب كثيرة منْهَا شرفُ الزَّمانِ، ومنها شرفُ المكانِ ومنها شرف الفاعل، ومنها شرف العمل، ومنها الإِخْلاص، ومنها الاتِّباع، كل هَذِهِ الأسباب السّتة من أسباب المضاعفة.

المضاعفة بسبب شرف الزّمان كرمضان والعشر الأُوَلِ من ذي الحجة هَذَا لشرف الزّمان.

ومنها: المكان كالحرمين والأقصى فإِنَّهُ العمل فِيهَا أشرف من غيرها فالصّلاة فِي المساجد الثّلاثة أشرف من غيرها.

المضاعفة أيضًا بحسبِ العملِ، أي بحسب جِنس العملِ وليس بكثرتها، فالصّلاة أفضل من غيرها، والفرض من كل عمل أفضل من نَفْلِهِ وأشرفُ، والجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله ذُرْوَةُ سَنَامِ الإِسْلَامِ، وهكذا كما يتبين لنا كثيرًا.

ومنها: المضاعفَةُ بحسب الفاعل، كالصّحابة الَّذِين قَالَ فيهم الرَّسول - ﷺ -: "لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أنفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ "، ويلحق بِهَذا العاملون فِي آخر الزّمان فِي أيام الصّبر الَّذِين يتمسكون بسنة الرَّسول - ﷺ - مَعَ تباعد النَّاس عنها، فإن هَؤُلاءِ يُضاعَف لهم الأجرُ وإن كانوا لا ينالون

من مرتبة الصّحابة لكن يضاعف أجرهم بسبب مَا يجدونه من الغرابة ومخالَفة النَّاس لهم؛ لأنهُ لا أحد يشك أن الإنسان الَّذي يعمل فِي محيط يعملون كما يعمل أن العمل يَكُون علَيْه هيِّن، بل مخالَفة النَّاس هِيَ الصّعبة، فعمل الإنسان فِي محيط لا يعملونه هَذَا هُوَ الصّعب والشّاق لا سِيَّما أن المعارضة ستكون عنيفة لأَنَّ هَذَا متمسك بطاعة الله والمخالَفون لَهُ عَلَى العكس، وأعنف صراع يَكُون بَيْنَ المتخالَفين هُوَ مَا يَكُون بَيْنَ المتمسكين بدين الله والمتحللين منه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا معنى قوله - ﷺ -: "العَامِلُ فِي أيامِ الصَّبْرِ له أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ"؟

قُلْنَا: المَعْنَى لَهُ أجر خمسين فِي هَذِهِ الخصلة الَّتِي عانى جِهَا وتعب، فأصل العمل مثلًا الصّدقة مضاعفة بعشر أمثالها، عشر الأمثال موجودة فِي الصّحابة وموجودة فِي هَذَا الزّمن المتأخر لكِنَّهُ يضاعف ذَلِك فيكون أجر هَذَا مثل أجر خمسين من الصّحابة لما يجده من المعاناة، لكن الكمية الَّتِي تحصل للصحابة التي: لو أنفق أحدنا مثل أُحد ذهبًا مَا بلغ مد أحدهم ولا نصيفه، هَذِه خاصة بهم، فعندنا ثواب عَلَى أصل العمل

وثواب مضاعف بحسب العامل، فالَّذي فِي أصل العمل كالصّدقة مثلًا يَكُون لهؤُلاءِ المتأخرين أجر خمسين من عمل الصّحابة باعتبار أصله لا باعتبار أنَّه وقع من الصّحابة - رضي الله عنهم -.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ألا يردُّ عَلَى هَذَا قولهم: منا أو منهم؟ قَالَ: "بَلْ مِنْكُمْ"؟

فالجوابُ: لا يردُّ عَلَى هَذَا لأننا نعتبر أصل العمل لا المضاعفة بحسب كونه صحابيًا بالنّسبة لأصل العمل، الصّحابي لولا الصّحبة لكان لَهُ أجر أصل العمل فَقَطْ، فبالصّحبة يزداد فيكون معنى قول الرَّسول - ﷺ -: "أجر خمسين منكم"، يعني: باعتبار أصل العمل ويجب الرّجوع إِلَى هَذَا لأنهُ لا يمكن الجمع بينه وبين هَذَا الحديث إِلَّا عَلَى هَذَا الوجه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا قَالَ فِي الحديث أجر خمسين عاملًا ولم يقل أجر خمسين صحابيًا؟

قُلْنَا: لا نستطيع أن نقول لماذا لم يقل، والمَسْأَلة الآن مَسْأَلة جمع ولو كَانَ الأمر واضحًا مَا احتجنا أن نقول مَا وجه الجمع بَيْنَهُما، فما دامت المَسْأَلة مَسْأَلة جمع يحتاج أن ننظر أدنى دائرة يمكن أن تجمع بَيْنَ النّصين.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل الصّحابة - رضي الله عنهم - يتفاضلون؟

فالجوابُ: معلوم أن الصحابة يتفاضلون، والرَّسول - ﷺ - يخاطب الصّحابة: يخاطب خَالِدَ بْنَ الوَليدِ فِي مقابلة سبِّه لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوْفٍ من السّابقين الأولين، وخالد بن الوليد متأخر إسلامه، وكان بَيْنَهُما مَسَابَّةٌ فقال له: "مَهْلًا يَا خَالِدُ، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أنفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ".

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: وهل لحَقَ خالدٌ - رضي الله عنه - بِهَذا الفضل؟

قُلْنَا: بالنّسبة لمن دونه يلحق لا شك لكن بالنّسبة لمن فوقه ظاهر الحديث أنه لا يلحق وَلِهَذا قالَ الله تَعالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

والخامس: بحسب الإِخْلاص كما فِي هذه الآية فكلما كَانَ الإنسان أخلصَ ولو كَانَ العمل واحدًا كَانَ عملُه أشرفَ من الآخر؛ وَلهذا تجد رجلين ركبا سيارة واحدة وخرجا ودخلا جَمِيعًا فِي الحج أو فِي العمرة ورجعا جميعًا عَلَى السّيارة

وأفعالُهما واحدة وأقوالُهما واحدة، وبَيْنَهُما تفاوت أكثر مَا بَيْنَ المشرق والمغرب بحسب الإِخْلاص لله.

والسّادس: بحسب الاتِّباع وَلهذا أخبر النَّبيّ - ﷺ -: "أنَّ أَفْضَلَ الأَعْمَالِ بَعْدَ الإِيمَانِ بِاللهِ الصّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا"؛ لأنَّهَا حصلت عَلَى وجه المتابعة للرسول - ﷺ -.

هذه الأسباب فِي الشّرف كلها مما يوجب للعبد العناية بأعمالِه وأن يتحقق بما يستطيع من هذه الأسباب.

الآية (٤٠)

---

* قال اللهُ عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)﴾ [الروم: ٤٠].

قال المُفَسّر رحمه الله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم﴾ ممن أشركتم بالله ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ لا؛ ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به].

قوْله تَعالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ يعني أوجدكم من العدم، لكنَّ الخلقَ لَيْسَ مجرد الإيجاد بل هُوَ الإيجاد بتقدير، بل إن بعضهم قَالَ إن الخلق فِي الأصل هُوَ التّقدير واستدلوا لِذَلِكَ بقول الشّاعر:

وَلأنتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعـ ... ضُ النَّاس يَخْلُقُ ثمَّ لا يَفْرِي

معنى: (ما خلقتَ) أي مَا قدرت ولكن الصّحيح أنَّه يطلق عَلَى الإيجاد المسبوق بالتّقدير فمعنى ﴿خَلَقَكُمْ﴾ أوجدكم إيجادًا مسبوقًا بالتّقدير والإحكام والإتقان وَهَذا مُسلَّم حتى عند المُشْرِكِينَ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ولا يمكن لأحد أبدًا إلا المجنون أن يدعي أنَّه خلق نفسه، أو يدعي أنَّه خُلق بدون خالق ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ [الطور: ٣٥]، فأنت مَا خلقك أبوك ولا خلقتك أمك ولا خلقك أحد من البشر ولا من غير البشر سوى الله سبحانه وتعالى فَهَذَا أمر مُسَلَّمٌ، وأما أهل الطّبيعة فيقولون هَذَا شيء وجد فِي الأزل عَلَى هَذَا الصّفة وصار يتفاعل ويتوالدّ وما أشبه ذَلِك لكن يقرون بموجد فلا يقُولونَ إن هَذَا الإنسان مثلًا أو هَذَا الحيوان وجد هكذا صدفة يقرون بموجد وَهِيَ الطّبيعة،

فنقول لهم هذه الطّبيعة من الَّذي أوجدها؟ لكن هَؤُلاءِ مكابرون ولا عبرة بقولهم.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي أعطاكم. والرّزق فِي اللُّغَة العطاء ومنه قوْله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨]، أعطوهم وهل أحد يدعي أن الرّازق سوى الله؟ قد يدعي أحد. قد يقول: الله قَالَ: ﴿فَارْزُقُوهُم﴾ فأنا رزقت هَذَا الإنسان أي أعطيته فيقال لكن مَن الَّذي خلق مَا أعطيت؟ الله، الَّذي رزقك هَذَا هُوَ الله، ومهما كَانَ من عمل بني آدم فإنما هُوَ تحويل لا إيجاد كل أعمال بني آدم حتى الصّنائع والبناء وغير ذَلِك لَيْسَ إِلَّا مجرد تحويل يعني تغيير من شيء إِلَى شيء وإلا فالأصل هُوَ الله عز وجل هُوَ الخالِق وَهُوَ الموجد، هَذَا الرّزق الَّذي أعطيت أو هَذَا الرّجل أعطيته كيسًا من الطّعام صحيح أنَّك رزقته لكن من الَّذي أوجد هَذَا الكيس؟ الله عز وجل فإذًا الرّزق أصله من الله وإن كَانَ قد يوجد عَلَى أيدي بعض النَّاس لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾.

وقول الرَّسول - ﷺ -: "وَلهَنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتهُنَّ بِالمَعْرُوفِ"، لكن يُقَال من الَّذي خلق هَذَا الرّزق؟ ومن الَّذي جلبه

إليك؟ ومن الَّذي قَدَّرَ أن تعطيه؟ والجوابُ على كل هذا: هُوَ الله.

وقوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ يعني بعد هَذَا الخلق والإمداد، الخلق إعداد، والرّزق إمداد، الله عز وجل أوجدك وأعدك وهيأك ثم أمدك بما بِهِ قوامك بعد ذَلِك. ﴿يُمِيتُكُمْ﴾ يعني بعد الحياة: حياة الدّنيا يَكون الموت وَهُوَ مفارقة الرُّوح البدن مفارقة تامة لأَنَّ النوم فِيهِ مفارقة تفارق الرّوح البدن ولكن ليست مفارقة تامة، أمَّا الموتُ الَّذي هُوَ الموت فهي مفارقة تامة ولكنها تُعاد إِلَيْهِ فِي قبره إعادة بَرْزَخِيَّةً لا كإعادتها فِي الدّنيا.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الآخرة التِي لَيْسَ بعدها فناء.

قوْله تَعالَى: ﴿شُرَكَائِكُمْ﴾ أي: من شركائكم الَّذِين أشركتموهم، فتكون مضافة إِلَى المفعول، يعني هل من هَؤُلاء الَّذِين أشركتموهم بالله؛ وَلهذا قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [ممن أشركتم بالله]، أي ممن أشركتموهم، والإنسان إِذَا أشرك فالمشْرَك بِهِ مفعول وليس معنى شركائكم هم الذين شاركوكم أو أشركوكم، بل أنتم الذين أشركتموهم مَعَ الله فَهُوَ مضاف إِلَى مفعوله.

قوْله تَعالَى: ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ إعراب ﴿مَنْ يَفْعَلُ﴾ محلها من الإعراب يحتمل أن تكون نكرة موصوفة والتّقدير ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم﴾ أحدٌ يفعل ذَلِك ويحتمل أن تكون موصولة عَلَى أنَّها مبتدأ مؤخر أي هل الذي يفعل ذَلِك من شركائكم، والأول أحسن أن تكون نكرة موصوفة يعني هل من شركائكم أحد يفعل شَيْئًا من ذلك.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من زائدة وصحت زيادتها لأَنَّ الاسْتِفْهام هُنَا بمعنى النّفي و﴿مِنْ﴾ تزاد فِي النفي كما قَالَ ابن مالِك رحمه الله:

وَزِيدَ في نَفْيٍ وَشِبْهِهِ فَجَرّ ... نكرَةً كـ (مَا لِبَاغٍ مِنْ مَفَرّ)

وقوْله تَعالَى: ﴿مِنْ ذَلِكُمْ﴾ المُشار إِلَيْهِ الخلق والرّزق والإحياء والإماتة، فعلى هَذَا يَكُون الجواب عن كونه مفردًا مذكرًا مَعَ أن السّابق أربعة أشْيَاء: جمع، يُقَال لأنَّهُ أُوّلَ بالمذكور ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾ أي من ذلكم المذكور، فصح أن يأتي اسم الإِشارة مفردًا مذكرًا لأنّهُ عائد إِلَى مذكور.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني لا يمكن أن يفعل هَؤُلاء أي شيء من هَذه الأمور لا الخلق ولا الرّزق والإحياء ولا الإماتة

وَهَذا عَلَى سبيل التّحدي، فإذا كانت هذه الآلهةُ الَّتِي أُشْركت بالله لا تفعل شَيْئًا من هَذَا هل يصح أن تكون آلهة؟ لا بل تَأْليهُهَا باطلٌ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠].

يبقى النّظر لو ادعى مدع أنه يحيى ويميت كالَّذي حَاجَّ إبراهيمَ فِي ربِّه، إبراهيم - ﷺ - قَالَ له: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. فما هُوَ الجواب لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إن من المعبودين من يستطيع أن يحيى ويميت؟

نَقُول: هذه دعوى باطلة؛ لأَنَّ الإحياء والإماتة من الإنسان ليست إحياء وإماتة ولكنها فعل سبب.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: الاسْتِدلال بالأَجْلى والأَوْضح لأَنَّ الله استدل عَلَى بطلان آلهة المُشْرِكِينَ بأمر يقرونه هم، وآلهتهم لا تفعله وَهُوَ الخلق والرّزق والإماتة والإحياء.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: تمام قدرة الله عز وجل وَذَلِكَ بالأمور الأربعة الخلق والرّزق إِلَى آخره.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: إثْبَات أن مَا اكتسبه الإنسان فَهُوَ من الله لأَنَّ هذه الأربعة فِيهَا ثلاثة لا أحد يُماري فِيهَا وَهِيَ الخلق والإماتة والإحياء لكن الرّزق قد يماري فِيهِ مماٍر، فَقَارُونُ قَالَ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]، فقد فُسِّر: (عَلَى علم مني بوجوه المكاسب)، والمَعْنَى أني أنا ماهر فِي معرفة المكاسب وحصلت هَذَا المال، ولكننا نقول هَذَا التّحصيل الَّذي حصلته بمهارتك إنما جاءك من الله عز وجل؛ لأَنَّ هَذَا الَّذي حَصَل لك بسببٍ وخالِقُ الأسباب هُوَ الله.

الفائِدَةُ الرابعةُ والخامسة: أنه ينبغي لنا استجلاب الرّزق من ربنا وحده لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾، وَإِذَا كَانَ الأمر كَذَلِكَ فإِنَّهُ يترتب عَلَى هَذَا فائدة أُخْرَى وَهِيَ أن لا نطلب رزقه بمعاصيه، وجهه: إِذَا كنت تطلب الرّزق من الله هل من اللائق عقلًا أنْ تُقَدِّمَ لَهُ معصيةً ليرزقك، الَّذي يستدر الرّزق من غيره يُقَدِّمُ طاعته والخضوع لَهُ، وَلهذا قَالَ الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

إِذَنْ: مَنِ استجلبَ رزق الله بمعاصيه فقد خالَف الحكمة والصّواب. فهَؤُلاءِ الَّذِين يطلبون الرّزق بالرّبا ويطلبون الرّزق بالغش ويطلبونه بالكذب وغير ذَلِك من الوسائل المحرمة هم فِي الحقيقة أشبه مَا يَكُونُونَ بالمستهزئين بالله عز وجل السّاخرين بِهِ كأنهم يقُولونَ يا ربنا إننا نعصيك لترزقنا! وَهَذا من أعظم مَا يَكُون؛ وَلهذا جعل الله الَّذِين يطلبون زيادة المال بالرّبا جعلهم محاربين لَهُ، كما فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]، والرّبا كما قَالَ شيخ الإسْلام رحمه الله: "ما ورد فِي ذنب من الذّنوب دون الشّرك أعظم مما ورد فِي الرّبا"، الَّذي أصبح عند النَّاس الآن من أسهل الأشْيَاء وأبسطها حتى كانوا يتعاطونه بالصّراحة، ويتعاطونه بالتّحيل، وتعاطيه بالتّحيل أخبث من تعاطيه بالصّراحة، مثلما أنَّ تعاطيَ الكفر بالنّفاق أخبثُ من تعاطيه بالكفر الصّريح؛ لأَنَّ هَذَا المتحيل مخادع لله عز وجل جَمَعَ - والعياذُ باللهِ - بَيْنَ مَفْسَدَةِ الرِّبا ومفسدة الخداع والتّحيل، فالرّب عز وجل إِذَا حرم شَيْئًا لَيْسَ كغيره تخفى علَيْه الأشْيَاء فَهُوَ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩)﴾

[غافر: ١٩]، ونبيه - ﷺ - وضَّح أنَّ: "الأَعْمَال بِالنياتِ"، فما دُمْتَ نويتَ الرّبا الآن لكن تحايلت علَيْه بإدخال سلعة غير مقصودة هَذَا تلاعب واستهزاء بآيات الله عز وجل يأتي إِلَيْهِ يقول أنا أريد منك مئة ألف عَلَى أن تكون بمئة وعشرين ألفًا إِلَى سنة كَيْفَ الوصول إِلَى هذا، يقول والله نحن مسلمون لا أستطيع أن أعطيك مئة ألف نقدًا وأكتبها عليك بمئة وعشرين لأننا نخشى الله ولكن نلوذ من جهة أُخْرَى ونجعل حاجزًا بيننا وبين الله بأي سلعة تتَّفق، فيذْهَبون ينظرون الَّذي عند النَّاس، فإن وجدوا سكرًا قَالُوا: نشتري سكرًا، وإن وجدوا هيلًا قَالُوا: نشتري هيلًا، وإن وجدوا سيارات اشتروا سيارات، حتى لو وجدوا أكياسًا لا يدرون مَا فِيهَا لعله أنْ يكُونَ رملًا قَالُوا نشتري هذه الأكياس، وهَذا هُوَ الواقع؛ وَلهذا لا ينظرون إِلَى هذه الأكياس ولا يدرون مَا فيها، وأكثر مَا يَكُون فِي القبض أنَّه يمرر يده عَلَيْهَا أو يعدها، ويقولون إن هَذَا هُوَ القبض، وليس هَذَا هُوَ القبض لغةً أو عرفًا أو شرعًا، ولا يعد هَذَا قبضًا؛ لأَنَّ القبض معناه أنْ يكُونَ الشّيء فِي قبضتك وَهَذا الشّيء مركون فِي مكانه ترد علَيْه عدة مبايعات فِي خلال ساعة أو ساعتين، وهذه البَلِيَّةُ الَّتِي ابْتُلِيَ بِهَا النَّاس الآن نسأل الله أن ينقذهم منْهَا بلية عظيمة، ويقبحها

أنهم يعتقدون أنَّها حلال وأن عمل البنوك حرام، حتى إن بعضهم يأتي يتغيظ ويتضجر، أعوذ بالله انظروا الحرام الرّبا يعلن صريحًا فِي البنوك وَهُوَ ممن يتعاملون بهذه المعاملة يبكي غيره ولا يبكي نفسه، وَهُوَ أحق بأن يبكي نفسه.

فالمُهِمُّ: أن الرّزق إِذَا كَانَ من الله عز وجل فإِنَّهُ يجب عليك شرعًا وعقلًا أن تستمد هَذَا الرّزق بطاعة الله لا بمعصيته.

لَوْ قَالَ قَائِل: هل التَّوَرُّقُ داخل فِي هذا؟

التَّوَرُّق يقول شيخ الإسْلام إِنَّه داخل فِي هَذَا، ويقول عنه تلميذه ابن القَيِّمِ رحمه الله: "إن شيخنا يُسأل عن هَذَا مرارًا فيصر عَلَى أنه حرام". وقد كَانَ التَّورّق غير التَّورُّق المتعامل بِهِ بَيْنَ الناس اليوم، قَالَ العلَماء وعبارتهم: "ومَنِ احْتَاجَ إِلَى نَقْدٍ فَاشْتَرَى مَا يُسَاوِي مِئَةً بِمِئَةٍ وعِشْرِينَ فَلَا بَأْسَ بِهِ وَهِيَ مَسْأَلَةُ التَّوَرُّقِ"، هذه عبارة (الرّوض المربع) شرح الزّاد.

أولًا: قَالَ: "ومن احتاج" فعلمنا أنَّها لا تكون إِلَّا للحاجة.

ثانيًا: قَالَ: "فاشترَى مَا يساوى مئة بمئة وعشرين"، وقع العقد عَلَى عين المبيع ولم يقولوا العشر أحد عشر ولا اثنا عشر.

وكلمة: "اشترى" تحمل عَلَى الشِّراء الشّرعي الَّذي يجمع الشّروط ومن جملتها، العِلْم بالمبيع ونوعه وجنسه إِلَى آخره، وهَذا غير موجود فِي عمل النَّاس الآن.

كَذَلِكَ قوله: "اشترى بما يساوي مئة بمئة وعشرين إِلَى أجل" ينطبق لأنهم يقُولونَ لكل عشرة اثنا عشر وثلاثة عشر وأحد عشر حسب الاتفاق، ثمَّ نفس الفقهاء الَّذِين أباحوا ذَلِك قَالُوا يُكره أن يقول فِي المرابحة أي فِي بيع المرابحة المعروف أن يقول العشر أحد عشر وذكروا عن الإِمَام أحمد نصًّا بِأنهُ يحرم أن يقول العشر أحد عشر حتى فِي غير مَسْأَلة التّورُّق، ففي بيع المرابحة المعروف يحرم فِيهِ عَلَى إحدى الرّوايات عن أحمد أن يقول العشرة أحد عشر وَهُوَ يريد السّلعة نفسها لا يريد النّقد.

والمذهب: أنه يكره والرّواية الثّانية عن أحمد أنه يحرم، مثلًا لو اشتريت هَذَا الكتاب وأنت تريد هَذَا الكتاب نفسه لا تريد دراهمه فقلتَ لي سأشتريه منك مرابحة، قلت لا بأس أنا شاريه بمئة وسأبيعه عليك عَلَى أن أربح بكل عشرة دراهم درهمًا، أي تكون المئةُ مئة وعشرة، هَذَا جائز لكن لو قلتَ سأشتريه منك العشرة أحد عشر، قَالُوا إِنَّه يكره عَلَى المذهب ويحرم عَلَى

الرّواية الثّانية مَعَ أنَّها ليست هِيَ مَسْأَلة التَّورُّق فهَؤُلاءِ النَّاس الآن جمعوا بَيْنَ الأمرين بَيْنَ العشرة أحد عشر أو اثنا عشر وبين التَّوَرُّق.

أمَّا عمل الناس الآن فَهُوَ لا ينطبق علَيْه، حتى عَلَى قول من يقول بجواز التَّوَرُّق؛ ولاحظ أن الإِمَام أحمد عنه رواية بأنها جائزة والرّواية الثّانية بأنها من مسائل العِينَةِ، ذكرها عنه شيخ الإسْلام ابن تَيْمِيةَ، وذكرها ابن القَيِّمِ فِي تهذيب السُّنن، أن مَسْأَلة التَّوَرُّق من مسائل العِينَةِ والعِينَةُ معروف أنَّها حرام.

فالحاصِلُ: أننا فِي عصرنا الحاضر لما كَانَ النَّاس لا يبالون إِلَّا أن يكتسبوا المال فقد جعلوا المال مقصودًا مخدومًا بعد أن كَانَ وسيلة خادمًا، وحَقِيقَةُ المالِ أنه وسيلة خادم ولكن جعلناه الآن مقصودًا مخدومًا، وَهَذا من سفه الإنسان أن يستخدمه مالُه الَّذي خلق لَهُ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٩].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل الإيداع فِي البنوك يعتبر إيداعًا شرعًا؟

قُلْنَا: إن قولنا فِي البنوك أني وضعت مالي وديعة عِنْدَهُم هَذَا غير صحيح لا ينطبق علَيْه شرعًا. فمعنى الوديعة شرعًا هُوَ أن تعطيه المال ليحفظه بعينه لا أن تعطيه مالَك يضعه فِي

صندوق وينتفع به، حتى إنَّ العلَماءَ قَالُوا لو أن المودِع أذن للمودعَ بالانتفاع بالوديعة صارت قرضًا يثبت فِي ذمته.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا حكم السَّلَمِ؟

السَّلَمُ معروفٌ، وَهُوَ أن أعطي شخصًا دراهمَ نقدًا بسلعةٍ مؤجَلة، عكس الشّراء، فأعطيك مثلا عشرة آلاف ريال عَلَى أن تعطيني بعد سنة مئة كيس سكر أو سيارة وصفها كذا وكذا هَذَا لَيْسَ فِيهِ شيء؛ لأَنَّ الصّحابة كانوا يفعلونه فِي عهد الرَّسول - ﷺ - كانوا يسلفون فِي الثّمار السّنة والسّنتين، فقال النَّبيّ - ﷺ -: "مَنْ أَسْلَفَ فِي شَيْءٍ فَلْيُسْلِفْ فِي كيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ"، ووجه أنَه لَيْسَ فِيهِ شيء هُوَ أَنَهُ لَيْسَ هناك ربحٌ مضمون لأحد الطّرفين، فأنا إِذَا أعطيتك مثلًا عشرة آلاف ريال فِي سيارة إِلَى أجل لا أدري، هل أنا الَّذي أربح أو أنت؟ لأَنَّهُ عند انتهاء الأجل يمكن أن أجد السّيارة بستة آلاف ريال ويمكن لا أجدها إِلَّا بخمسة عشر ألف ريال، وَهَذا لا بُدَّ أن يقع، ونادرًا أن تكون الأسعار إِلَى سنة لا تقل، فإذا كَانَ فِي الذّمة فليس فِيهِ شيء، وَلهذا قَالَ الفقهاء: لو أَسْلَمَ فِي ثَمَرِ بستان معين مَا صح

لأَنَّهُ صَارَ محله الآن البستان ولم يعد فِي الذّمة فلا بد من تمام الشّروط.

لَوْ قَالَ قَائِل: الَّذي يحتاج فلوسًا ماذا يفعل؟

قُلْنَا: إِذَا احتاج فلوسًا يأتي للواحد يقول تعال أعطنا فلوسًا بشيء مؤجل أو يشتري المواد الَّتِي يحتاج بثمن مؤجل أكثر من النّقد، وليس هذا من التَّورُّق، إِذَا اشترى السّلعة يريدها بعينها لَيْسَ تورقًا، ففي التَّوَرُّق هُوَ لا يريد السّلعة وَلهذا سمي تورقًا، مأخوذ من الوَرِق لأَنَّهُ لا يريد إِلَّا الفضة.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: عجز هذه الآلهة عن فعل شيء يختص بالرُّبُوبِيَّة لقوْلِه تَعالَى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾؛ لأَنَّ هَذَا الاسْتِفْهام كما قررنا بمعنى النّفي.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: ثبوت التّلازم بَيْنَ التّوحيدين: توحيد الرُّبُوبِيَّة وتوحيد الألوهية وأن من أقر بتوحيد الرُّبُوبِيَّة لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية وَهَذا المَعْنَى قرره الله تَعالَى فِي عدة آيات.

الفائِدَةُ الثَّامِنةُ: تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل نقص يؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾.

الفائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن المُشْرِكِينَ بالله عز وجل قد وقعوا فِي تَنَقُّصِ الله لقوله عز وجل: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الفائِدَةُ العَاشِرَةُ: أن الله تَعالَى يجمع فيما وصف وسمى بِهِ نفسه بَيْنَ النّفي والإثْبَات، فالنّفي فِي قوْله تَعالَى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، والإثْبَات فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عَشرَةُ: قوة الإقناع فِي أسلوب القرآن لأَنَّ مثل هَذَا التّحدي ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ هَذَا أقوى مَا يَكُون فِي الإقناع كل منهم سيكون جوابه لا.

إِذَنْ: لماذا تعبدونها مَعَ الله هل يستفاد من هَذِهِ الإنة استنباط أقسام التّوحيد الثلاثة؟ الرُّبُوبِيَّة موجودة، والألوهية مو جودة لالتزام الإقرار بالرُّبُوبِيَّة الإقرارَ بالألوهية ثمَّ إن قوْله تَعالَى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم﴾ المقصود بِهِ إبطال أُلوهيَّتهم، والأسماء والصّفات موجودة فِي قوْله تَعالَى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الآية (٤١)

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

* قوْله عز وجل: ﴿ظَهَرَ﴾ بمعنى بأن واتضح، وقوْله عز وجل: ﴿الْفَسَادُ﴾ ضد الصّلاح وَهُوَ من كل شيء بحسبه ففساد الزّروع بيبسها وتلفها بالعواصف والأمطار المغرقة والبرق المتلف وَكَذلِكَ فساد المواشي بهلاكها ومرضها، وفساد الثّمار بنقصها وما أشبه ذلك، المهم الفساد فِي كل شيء بحسبه وهل الفسادُ هُنَا يراد بِهِ الفسادُ الحسي أو يشمل الفساد الحسي والمعنوي؟ الصّحيح أنَّه يشمل الفساد الحسي والمعنوي، فالحسي مَا ذكرنا أمثلته قبل، والمعنوي هُوَ كثرة المعاصي والفسوق وانتشارها بَيْنَ النَاس وعدم المبالاة بِهَا حتَّى يصبح المنكر معروفًا والمعروف منكرًا، فإن هَذَا من أعظم الفساد قَالَ الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] قَالَ العلَماء لا تفسدوها بالمعاصي.

وقوْله تَعالَى: ﴿فِي الْبَرِّ﴾؛ يقول المُفَسِّر رحمه الله: [أي القفَار بِقَحْطِ المَطَرِ وَقِلَّةِ النَّباتِ].

البَرُّ القفَارُ، يعني الفَيافِي الخارجة عن المدن والسُّكان، وقيل المُرَاد بالبَرَّ مَا لَيْسَ ببحر فيشمل المدن والأمصار والقفار وغيرها.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَالْبَحْرِ﴾ أي: البلادُ الَّتِي عَلَى الأنهارِ بِقِلَّةِ مَائِهَا، فمشى المُفَسِّر رحمه الله عَلَى أن المُرَاد بالبَرِّ مَا سوى العمران، والمُرَاد بالبحر العمران الَّذي عَلَى شواطئ البحار، وَبِهذَا قَالَ كثير من المفسرين ولكن الصّواب أن المُرَاد بالبر مَا سوى البحر، والمُرَاد بالبحر الماء؛ لأَنَّ مَا ذكرناه هُنَا أعم مما ذكره المُفَسِّر وغيره وَهُوَ الأظهر أيضًا، فإن البحر إِذَا أُطلقَ فِي القرآن يُراد بِهِ الماء، ففساد البر كما قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [بالقحط وقلة النّبات] وفساد النّبات أيضًا بعد وجوده؛ وَلِهَذا أرسل الله عَلَى آل فِرْعَوْنَ الجرادَ والقُمَّلَ والضَّفادع والدَّمَ، أربع آفات، الجراد يفسد الزّروع بعد خروجها ويأكلها، القمل يفسد القوت، إِذَا حصد وأُدْخِلَ جاءه القمل وَهُوَ السّوس الَّذي يتلفه فَهُوَ مَا يدخل من السّوس فِي القوت يسمونه عندنا (النّخشية) وَهِيَ

عبارة عن دودة تكون فِي الحبوب فتفسده وتأكله فيكون قشورًا فقط. والضّفادع بالماء، امتلأت مياههم ضفادع حتَّى إن الإنسان لا يستطيع أن يشرب الماء بسبب الضّفادع - والعياذُ باللهِ -. والدّم: الصّحيح أن المُرَاد بِهِ النّزيف وإن كَانَ بعض العلَماء يقول إن المُرَاد بالدّم أنْ يكُونَ الماء عند آل فرعون كالدّم والصّواب أنه النّزيف لأَن الله ذكر إفساد الماء بالضّفادع فكان القوت من أوله إِلَى آخره وغايته وَهُوَ الدّم لأَنَّ الدّم يَكُون من القوت فصارت الأقوات - والعياذُ باللهِ - لا تنفعهم لا قبل دخولها أجوافهم ولا بعد الدّخول، وهذا من فساد البر.

فكيف كَانَ الفسادُ فِي البحر؟

قال العلَماء يَكُون بموتِ الحيتان وفسادها، وَكَذلِكَ تَغَيُّرُ المياه وعدم اطرادها كالعادة.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾: (الباء) للسببية و(ما) يحتمل أن تكون مصدرية ويحتمل أن تكون موصولة، إِذَا كانت موصولة فلا بد لها من عائد محذوف فالتّقدير بما كسبته أيدي النَّاس، وإن كانت مصدرية لا تحتاج إِلَى عائد ويكون المَعْنَى بكسب أيدي النَّاس.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [من المعاصي].

وقوْله تَعالَى: ﴿أَيْدِي النَّاسِ﴾ جمع يد والمُرَاد مَا كسبوا وَهَذا من أساليب اللُّغَة العرَبِيَّة أن يعبر باليد عن صاحب اليد وليس المُرَاد مَا كسبت اليد فقط؛ لأَنَّ المعاصي لا تكون بالأيدي فَقَطْ، بل تكون باليد وبالرّجل وبالعين وباللسان وبالأذن وكل الحواس يمكن لِلإِنْسَانِ أن يعمل بِهَا المعصية فيكون المُرَاد بالأيدي هُنَا الأنفس لا اليد الَّتِي هِيَ عضو من أعضاء البدن، وليست مجازًا لأنَّهَا بسياقها دالة عَلَى أن المُرَاد مَا كسبوه فلا تكون مجازا، أمَّا قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٣٣]، فالمُرَاد بـ ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ الأعضاء فالكلمة فِي سياقها حقيقة فِي معناها وَلِهَذا لو أراد أن يصرف قوْله تَعالَى: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ﴾ إِلَى أن المَعْنَى أو تقطع أبدانهم مَا استطاع، كما أنَّه لو أراد أن يجعل بما كسبت أيدي النَّاس أي بما كسبت اليد نفسها فقط دون بقية الأعضاء مَا استطاع وَهَذا هُوَ وجه قول شيخ الإسْلام ابن تيمية رحمه الله أنَه لا مجاز فِي القرآن ولا

فِي اللُّغَة العرَبِيَّة؛ لأنَّهُ إِذَا كانت الكلمة قد تعين معناها بسياقها صارت بمقتضى هَذَا السّياق حقيقة فِي هَذَا المَعْنَى وحِينَئِذٍ لا نحتاج إِلَى تأويل.

وقوْله تَعالَى: ﴿النَّاسِ﴾ أصلها أناس لكن حذفت الهمزة للتخفيف كما هِيَ فِي قَوْلِهِ فِي شر وخير وأصلها أشر وأخير وكما هِيَ فِي قوْله تَعالَى: ﴿اللهَ﴾ فإنَّ أَصْلَهُ الألاه، هكذا قيل فِي الله وفي النّفس من هَذَا شيء.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿لِيُذِيقَهُمْ﴾ (الياء) و(النُّون) بعض الَّذي عَمِلُواْ].

﴿لِيُذِيقَهُمْ﴾: (اللام) هُنَا للتعليل والمعلل مُتَعلَّقُ هَذِهِ اللام واللام متعلقة بـ (ظهر) هَذَا هُوَ المعلل ظهر لأجل أن يذيقهم، وفيها قراءتان سبعيتان وَهِيَ (لِيُذِيقَهُمْ)، مضاف فِيهَا الفعل إِلَى الله عز وجل أو ﴿لِيُذِيقَهُمْ﴾ مضاف فِيهَا الفعل إِلَى ضمير الغائب، ومع ذَلِك فإن هَذَا الغائب يعود إِلَى الله سبحانه وتعالى.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِيُذِيقَهُمْ﴾ يُعبر دَائِمًا بالإِذَاقَة عن الإِصَابَة لأَنَّ الذّوق هُوَ أعلى أنواع الإدراك الحسي، فإن الإنسان يسمع بالشّيء ثمَّ يراه ثمَّ يذوقه، أقول لك عندي تفاحة إدراكك

للتفاحة الآن بالسّماع ثمَّ أُخرجها وأريك إياها يَكُون بالرّؤية، والرّؤية أقوى من السّماع ثمَّ أُعطِيكها فتأكلها فيكون هَذَا بالذّوق وَهَذا أعلى مَا يكون؛ لأني إِذَا قلت عندي تفاحة ولم ترَها أنْتَ يحتمل أن قولي هَذَا كذب، وَإِذَا أريتك إياها ولكنك مَا ذقتها يحتمل أن تكون نباتًا آخر يشبه التّفاحة ويحتمل أن تكون من التّفاح الصّناعي الَّذي يصنعونه من البلاستيك تشاهده كأنه تفاح حقيقي، فإذا ذقتها صارت حق اليقين؛ وَلِهَذا يعبر الله عز وجل دَائِمًا عن الإصَابَة بالإِذَاقَة لأنَّهَا أعلى أنواع الإدراك.

وقوْله تَعالَى: ﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: أأي عقوبته، لأَنَّ الَّذي عملوا غير الفساد الظّاهر فِي البر والبحر ولكن الفساد هُوَ عقوبته.

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: لماذا عبر عن العقوبة بالفعل؟

فنَقُول: عبَّر عن العقوبة بالفعل فِي قوْله تَعالَى: ﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ لوجهين:

الوَجْهُ الأوَّلُ: بَيان سبب هَذِهِ العقوبة وأن سبب العقوبة هَذَا العمل.

الوَجْهُ الثَّاني: أن هَذِهِ العقوبة بقدر العمل تمامًا ولذلك عُبِّرَ عنها بالعمل إشارة إِلَى أنَّها بَقَدْرِه لَيْسَ فِيهَا ظلم، وَهَذا كثير فِي القرآن، يعبر الله تَعالَى عن العقوبة بالفعل من أجل هذين الوجهين.

وقوْله تَعالَى: ﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ يعني لا كله لأَنَّ الله يقول: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقَالَ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠)﴾ [الشورى: ٣٠] وَهَذا حق لو أن الله تَعالَى عاقب النَّاس بقدر ذنوبهم مَا ترك عَلَيْهَا من دابة، كَانَ كل النَّاس يموتون ولا يبقون ولَكِنَّهُ سبحانه وتعالى يصيبهم ببعض ذنوبهم فقط. الحكمة قَالَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: أيتوبون، (ولعل) هُنَا للتعليل، وكلما جاءت (لعل) فِي كلام الله فإنها للتعليل أو توقع الشّيء إِذَا كَانَ من المتوقع أي لأجل أن يرجعوا إِلَى الله عز وجل وهذه من حِكم الله، أن الله تَعالَى يبتلي العباد بالضّراء لأجل أن يرجعوا إِلَى الله، وكم من إِنْسَان صارت عقوبته بالضّراء سببًا لرجوعه إِلَى ربه، بل إنَّها أحيانًا تكون سببًا مباشرًا ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ [لقمان: ٣٢]، أين

يذهبون؟ ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢] هَذَا رجوع لكنهم - والعياذُ باللهِ - إِذَا نجوا عادوا إِلَى كفرهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أن الفسادَ سببه أعمال بني آدم لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ ويدل لهذا أيضًا قوْله تَعالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦)﴾ [الأعراف: ٩٦].

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: إثْبَات العلل والأسباب وأن أفعال الله عز وجل مُعَلَّلَةٌ لا بُدَّ لها من علة تؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ ولا شك أن أفعال الله تَعالَى وأحكامه مُعَلَّلَةٌ لأَنَّ من أسمائه الحكيم.

الفائدتان الثّالثَة والرّابعة: أن النَّاس لا يعاقبون إِلَّا بأسبابهم لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ فيتفرع عن ذَلِك أن من أراد أن ترفع عنه العقوبة فَلْيَتُبْ إِلَى الله؛ فإن التّوبة من أسباب رفع العقوبة وجلب المثوبة وَلِهَذَا قَالَ هود لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا﴾ [هود: ٣] ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]، وقال نوح لقومه:

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١١، ١٢].

الفائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الجزاء من جنس العمل وبقدر العمل؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: بطلان مذهب الجبرية، فالجبرية يقُولونَ إن الإنسان مجُبَر عَلَى عمله لا يفعل باختياره ولا يُضاف الفعل إِلَيْهِ إِلَّا عَلَى سبيل المجاز، فيُقَال صام، زكَّى مجازا لا حقيقة، الآية الكريمة تَرُدُّ عَلَيْهِم من وجهين:

الوَجْهُ الأوَّلُ: قوْله تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ فأضاف الكسب إِلَى أيدي النَّاس.

الوَجْهُ الثَّاني: أن الله تَعالَى عاقبهم عَلَى هَذَا الفعل ولو كانوا مجبرين علَيْه لكانت عقوبتهم ظلما لَهُم، إذ كَيْفَ يعاقبون عَلَى مَا لَيْسَ باختيارهم.

ففيها رد من وجهين؛ وجه لفظي وَهُوَ إضافة الكسب إِلَى أيديهم، ووجه معنوي وَهُوَ أنَّه يلزم من عقوبتهم عَلَى ذَلِك لو كانوا مجبرين أنْ يكُونَ الله تَعالَى ظالِمًا لهم، والله تَعالَى لَيْسَ

بظلام للعبيد وَكَذلِكَ أيضًا يؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿عَمِلُوْا﴾ حيث أضاف العمل إليهم.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: بَيان سَعَةِ رحمة الله وأن رحمته سبقت غضبه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، ولو أن الغضب كَانَ بقدر الرّحمة لكان الله يذيقنا كل الَّذي عملنا، ولو كَانَ غالبا للرحمة لكان يذيقنا أكثر مما عملنا، فالأمور ثلاثة: إذاقة البعض أو المثل أو الأكثر، والمثل أو الأكثر ممتنع، وَإِنَّمَا يذيق الله تَعالَى البعض لأَنَّهُ ثبت فِي الحديث الصّحيح: "أن الله تَعالَى كَتَبَ كتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِى"، ولولا هَذَا لكان الله تَعالَى يؤاخذ النَّاس بما عملوا.

الفائدتان الثّامنة والتّاسعة: أن العقوبات قد تَكُون سَبَبًا للرجوع إِلَى الله لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ كما أنَّها قد تكون بالعكس، أي: قد تَكُون سَبَبًا للازدياد فِي العتو والنّفور - والعياذُ باللهِ - يدل عَلَى ذَلِك قوْله تَعالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]، والجمع بَيْنَ هَذِهِ الآية والآية الَّتِي تفسرها أن العقوبات عَلَى سبيل العُمُوم مفيدة

لكن عَلَى سبيل الخصوص قد لا تفيد؛ لأَنَّ الله تَعالَى قَالَ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ عَلَى أن قوْله تَعالَى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ يحتمل أن يراد بِهَا فتنة الدِّين بحيث لا يَكُون عنده مقاومة فيقع فِي الهاوية - والعياذُ باللهِ - لكن الأظهر أنَّها عامة ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

الآية (٤٢)

* قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢].

* قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿قُلْ﴾ لكفار مكَّة ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾].

الخطاب فِي قوْله تَعالَى: ﴿قُلْ﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام ويحتمل أنْ يكُونَ لَهُ ولكل من دعا إِلَى شريعته ودعا النَّاس إِلَى الاتعاظِ والاعْتِبار.

وقوْله تَعالَى: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ السَّير معناه المشي و﴿فِى﴾ بمعنى (على) يعني عَلَى الأرْض وليس المُرَاد فِي داخلها وقِيلَ: إن ﴿فِى﴾ للظرفية، وإن الظّرف يختلف بحسب المظروف وبحسب الظّرف أيضًا يعني مثلًا إِذَا قلنا الماء فِي الكوز صَارَ فِي جوف الكوز، هُوَ والكأس أو الطّاسة أو القدر فهنا صَارَ الماء فِي جوفه، وَإِذَا قلنا الكتابة فِي الورق اختلف، وَإِذَا قلنا الوجه فِي المرآة اختلف، فيرى بعض العلَماء أن ﴿فِى﴾ هنَا للظرفية ولكن ظرف كل شيء بحسبه، والسّير المأمور بِهِ هُنَا لا أحد يتصور أن المُرَاد احفروا لكم خندقًا فِي الأرْض وادخلوا فِيهِ لا أحد يتصور هَذَا فهنا وجهان فِي كلمة ﴿فِى﴾:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أن تُجعل بمعنى (على) سيروا عَلَى الأرْض أي عَلَى ظاهرها.

الوَجْهُ الثَّاني: أن تُجعل ﴿في﴾ للظرفية ويُقَال إن الظّرفية فِي كل مكان بحسبه هَذَا تفسير ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

وهل المُرَاد السّير بالأقدام أو السّير بالعقول والتّفكير؟

يشمل السّير بالأبدان بأن يذهب الإنسان إِلَى مساكن القوم ليتعظ ويعتبر أو السّير بالقلوب بأن يقرأ تواريخهم وأحداثهم

حتَّى يعتبر بها، وكم من سير بالقلب صَارَ أعظم من السّير بالقدم ولكن السّير بالقدم لأجل التّفرج والنّزهة هَذَا محرم كما يفعله بعض النَّاس الآن، يذهبون إِلَى ديار ثمود من أجل التّفرج والنّزهة والاطِّلاع عَلَى مَا لهم من قوة سابقة مَعَ أن الرَّسول - ﷺ - يقول: "لا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاءِ القَوْمِ إِلا وَأنتُمْ بَاكُونَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلا تَدْخُلُوهَا"، أين الَّذِين يذهبون إِلَى ديار ثمود وهم يبكون والرَّسول - ﷺ - لما مر بِهَا فِي ذهابه إِلَى تبوكَ مشى مسرعًا وقَنَعَ رأسه: نَزَلها عليه الصلاة والسلام وأسرع وَعَلَى هَذَا فنقول إِذَا سرت فِي أرض هَؤُلاءِ المعاقبين فسر سير متعظ معتبر كما أمر النَّبيّ عليه الصلاة والسلام.

قوْله تَعالَى: ﴿فَانْظُرُواْ﴾ نظر اعتبار وتفكر أو نظر عين؟

عَلَى حسب مَا قلنا فِي السّير إن كَانَ سيرًا بالقدم فَهُوَ نظرٌ بالعين، وإن كَانَ سيرًا بالقلب فَهُوَ نظر بعين البصيرة: التّفكر والتّامل، ويمكن أن نقول أيضًا حتَّى إِذَا فسرنا السّير هُنَا بالسّير الحسي عَلَى الأقدام فإِنَّهُ لا بُدَّ أنْ يكُونَ مقرونًا بالنّظر بعين البصيرة والاعْتِبار إذ النَّظر بالعين المجردة لا يفيد شيئًا.

قوْله تَعالَى: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾: ﴿كَيْفَ﴾ محلها النّصب خبرًا لـ ﴿كَانَ﴾ مقدمًا، و﴿عَاقِبَةُ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾ والجملة مُعَلِّقَة عن العمل مُعَلِّقة لكلمة (انظروا) الجملة المعَلِّقة فِي تأويل الاسم المفرد والتّقدير فانظروا حالهم كَيْفَ كان.

وقوْله تَعالَى: ﴿عَاقِبَةُ﴾ هُنَا مصدر وَلِهَذا ذُكِّرَ الفعل أي بمعنى عقبى.

قوْله تَعالَى: ﴿مِنْ﴾ حرف جر ﴿قَبْلُ﴾ مبنية عَلَى الضّم لقطعها عن الإضافة حُذِف المضاف ونوي معناه فتبنى عَلَى الضّم لأنهم يقُولونَ فِي (قبل) و(بعدُ) إن وجد المضاف لفظا فهي معربة غير منونة، وإن حذف لفظًا ومعنى فهي معربة منونة، هذان حالان متقابلان إِذَا وجد المضاف إِلَيْهِ فهي معربة غير منونة، تقول أتيت من قَبْلِ زيد ومن بَعْدِه، وَإِذَا حُذِفَ الضاف لفظًا ومعنى فهي معربة منونة، وَإِذَا حُذِفَ المضافُ إِلَيْهِ ونوي لفظه فهي معربة غير منونة كما لو وجد لفظه، وَإِذَا حذف المضاف إِلَيْهِ ونوي معناه فهي مبنية عَلَى الضّم ولها أربع حالات.

قوْله تَعالَى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ كأن الإنسان يتوقع ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أهلكوا وأتلفوا وما

أشبه ذَلِك ولكن البيان جاء عَلَى غير المتوقع ماذا تتوقع أنْتَ لما قالَ الله تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [فاطر: ٤٤]؟ تتوقع أهلكناهم ودمرناهم وما أشبه ذَلِك؛ لأَنَّ هَذِهِ عاقبتهم لكن جاء الأمر عَلَى خلاف المتوقع ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ جاء مبيِّنًا لسبب هَذِهِ العاقبة لأنَّهَا هِيَ الحال الَّتِي عَلَيْهَا هَؤُلاءِ المكذبون وَهُوَ الشّرك يعني فأنتم الآن مشركون وهم كانوا مُشْرِكِينَ فدمروا، فمعنى ذَلِك أن عاقبتكم أنتم ستكون مثلهم مآلها التّدمير والهلاك، وَهَذا من بلاغة القرآن أن الله تَعالَى ذكر سبب هلاك أولئك القوم.

الَّذي كَانَ علَيْه الآن هَؤُلاءِ المخاطبون، هَؤُلاءِ المخاطبون الآن مشركون كانوا عَلَى الشّرك إِذَنْ إِلَى الآن مَا وجدوا العاقبة، لكن إِذَا علموا أن سبب عاقبة هَؤُلاءِ هُوَ الشّرك فلا شك إِذَا كَانَ لَهُم عقول أن ينتهوا عن الشّرك.

قوْله تَعالَى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ يقول المُفَسِّر رحمه الله: [فَأُهْلِكُوا بِإِشْرَاكِهِمْ، ومَسَاكِنُهُمْ وَمَنَازِلهمْ خَاوَيةٌ].

قوْله تَعالَى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ ظاهر الآيَة الكريمة أن البعض الآخر وَهُوَ الأقل لم يكن مشركا، وهاهنا إشكال هل أُهلك

الموحدون مَعَ المُشْرِكِينَ مَعَ أن الله تَعالَى ذكر فِي آيات كثيرة فِي الأمم السّابقة، قَالَ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ٦٤] وقال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ [الزمر: ٦١]، فظاهره أن المؤْمِنِينَ لم يهلَكوا أو نقول: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ باعتبار القادة والرّؤساء الَّذِين يعرفون أنهم عَلَى شرك، أمَّا العامة الَّذِين لا يدرون فهم تابعون وراضون وإن لم يكن عِنْدَهُم شرك لكن هم يظنون أن هَذَا هُوَ الحق، فأي الاحتمالين أولى، أو احتمال ثالِث أن يُقَال إن الله تَعالَى أمرنا أن ننظر كَيْفَ كانت عاقبة السّابقين، وَإِذَا نظرنا وجدنا أن أكثرهم مشرك فأُهلك، وأن المُؤْمِن نجا فيكون فِي هَذَا تحذيرٌ من الشّرك وترغيب فِي الإيمان والتّوحيد فها هُنَا ثلاثة احتمالات:

الاحْتِمال الأول: أن الجميع أُهلك، وَهَذا يشكل علَيْه آيات كثيرة بأن الله تَعالَى أنجى المُؤْمِنِينَ.

الاحْتِمال الثّاني: أن المُرَادُ بقوْله تَعالَى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ الَّذِين يعرفون أنهم عَلَى شرك دون الغوغاء والعامة الَّذِين لا يدرون مَا هم علَيْه وَإِنَّمَا هم أتباع كل ناعق.

الاحْتِمال الثّالث: أن يُقَال العاقبة حميدة وذميمة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ ونحن نعلم أن من حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجازي المشركَ عَلَى شركه والمُؤْمِنَ عَلَى إيمانه، وحِينَئِذٍ يَكُون فِي الآية ترغيب فِي الإيمان والتّوحيد وترهيب عن الشّرك والكفر، فأي الاحْتِمالات أولى؛ الظّاهر أن الأخير أولى يعني أن ينظروا كَيْفَ كانت عاقبة السّابقين، وأن من كَانَ مشركًا منهم أُخذ بشركه، ومَنْ كَانَ مؤمنًا نُجِّيَ بإيمانه من أجل أن يؤمنوا هم ومن أجل أن يثبت المُؤْمِنُونَ من هَذِهِ الأمة عَلَى إيمانهم.

وقول المُفَسِّر رحمه الله: [فَأُهْلِكُوا بِإِشْرَاكِهِمْ وَمَسَاكِنُهُمْ وَمَنَازِلهمْ خَاوَيةٌ] هَذَا هُوَ الواقعُ فمثلًا قوم صالح، صالح والَّذِين معه نجوا، وقومهم أخذتهم الرَّجْفَةُ والصَّيْحَةُ ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]، تجدها الآن خاوية ولم تُسكن فيما نعلم بعدهم، مَا سُكنت إِلَى الآن.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: الأمر بالاعْتِبار بما جرى للسابقين لقوْلِه تَعالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أنَّه ينبغي لِلإنْسَانِ أنْ يقرأَ كُتُبَ التّاريخ الماضية للاعتبار، ولكن كما نعلم جميعًا كتب التّاريخ بعضها مزيف لَيْسَ عَلَى حقيقته فمصدر التّاريخ فِي الأمم السّابقة مَا أخبر الله بِهِ ورسوله، قَالَ الله تَعالَى فِي سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [التوبة: ٧٠]، ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩] فنفى أنْ يكُونَ لأحدٍ علمٌ بِهِ إِلَّا الله.

إِذَنْ: من أين نأخذ أخبارهم مَا دام أنَّه لا يعلمهم إِلَّا الله؟ نأخذها من الله إمَّا من الكتاب أو من السّنة.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أن أسباب هلاك الأمم السّابقين كانت إشراك أكثرهم لقوْلِه تَعالَى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

الفائِدَةُ الرابعةُ: أن العقوبة إِذَا حلت قد تصيب الصّالح وغيره لأَنَّهُ قَالَ: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ يعني والبعض لم يشرك ومن ذَلِك قوْله تَعالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وقد ينجي الله المؤْمِنينَ كما أنجى الله تَعالَى الرُّسل ومن آمن معهم.

الآية (٤٣)

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣].

* قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ دِين الإِسْلامِ].

أقم الخطاب للرسول - ﷺ - أو لكل من يتوجه إِلَيْهِ الخطاب، وقد سبق توجيه القول الأول إِذَا جعلنا الخطاب للرسول - ﷺ - فإما أنْ يكُونَ المُرَاد بِهِ الرَّسول نفسه وتكون أمته تبعًا لَهُ، وإما أن يُراد بِهِ الرَّسول والأمة، لكن خوطب بِهِ الرَّسول لأنَّهُ زعيمُهم وإمامهم.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ هل المُرَاد بالوجه الاتجاه أو المُرَاد الوجه الحسي الَّذي فِي الرّأس؟

الظّاهر أن المُرَاد الاتجاه؛ لأَنَّ الوجه يراد بِهِ الجهة كما قَالَ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] لأَنَّهُ سبق أن فِيهَا قوليْن للمفسرين:

* قولٌ أن المُرَاد بِهِ وجه الله الحقيقي.

* وقول أن المُرَاد بِهِ الجهة.

ولا شك أن الوجه يراد بِهِ الجهة، وَإِذَا قلنا إن المُرَاد بالوجه الجهة، اتجاهك للدين شمل مَا إِذَا كَانَ الوجه الحسي فيما يطلب مِنْهُ الاتِّجاه للقبلة مثلًا.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ المُرَاد بالدّين هُنَا العمل وقد سبق أن الدّين فِي القرآن يراد بِهِ العمل والجزاء فقوْله تَعالَى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٤] وقوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨)﴾ [الانفطار: ١٨] المُرَاد بالدّين الجزاء وأما قوْله تَعالَى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقوْله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فالمُرَاد بِهِ العمل كما فِي هَذِهِ الآية.

وقوْله تَعالَى: ﴿الْقَيِّمِ﴾ القيم ضد المعوج كما قَالَ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، يعني قَيِّمًا، فدينُ الإسْلام دين مستقيم لَيْسَ فِيهِ اعوجاج لا بالنّسبة لمعاملة الله عز وجل وَهِيَ العبادة ولا بالنّسبة لمعاملة المخلوق، وَلِهَذا تجد فِي المعاملات حرم الكذب والغش والخديعة وما أشبه ذَلِك، وحرم الجور والظّلم، وتحريم تفضيل الأولاد وما أشبه ذَلِك؛ لأَنَّ كل هَذَا خلاف الاستقامة، وفي العبادات حرم الشّرك والابْتداع لما فِي ذَلِك من الانحراف عن الصّراط المستقيم.

لَوْ قَالَ قَائِل: قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] هل يشمل الأَعمال الظّاهرة والباطنة؟

قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] هَذَا يشمل العقيدة ويشمل الأَعمال الظّاهرة، مثل الإسْلام إِذَا قرن بالإيمان كَانَ الإسْلام للأعمال الظّاهرة والإيمان للأعمال الباطنة، وَإِذَا أفرد أحدهما شمل الآخر.

قال المُفَسّر رحمه الله: [﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ وَهُوَ يَوْمُ القِيَامَةِ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾]، قوْله تَعالَى: ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ متعلق بـ (أَقِمْ) يعني أقمه من قبل هَذَا اليوم.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَوْمٌ﴾ نُكر للتعظيم لأَنَّ هَذَا اليوم كما وصفه الله تَعالَى فِي قوْله تَعالَى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٥، ٦].

وقوْله تَعالَى: ﴿مَرَدَّ﴾ هَذَا مصدر ميمي أي لا رد لَهُ، يعني لا يمكن أن يرد هَذَا اليوم لأَنَّ الله تَعالَى قضى به.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِنَ اللهِ﴾ متعلقٌ بصفة لـ (يوم) يعني من قبل أن يأتي يَوْم من الله، يعني هَذَا اليوم من الله لا من غيره، ويحتملُ أنْ يكُونَ متعلقًا بـ ﴿يَأْتِيَ﴾ أن يأتي من الله يَوْم، والأَول أبلغ أنْ يكُونَ صفة لـ (يوم) لأَنَّ كونه من الله يدل عَلَى عظمته وأنه لا يمكن أن يرد هَذَا اليوم.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذِهِ الآيَة خوطب بِهَا النَّاس فِي عهد الرَّسول - ﷺ - ومعلوم أن القِيَامَة لا تكون فِي عهد الرَّسول - ﷺ - فكيف قَالَ: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾؟

فالجوابُ: أنَّ الموتَ واقعٌ حتَّى فِي عهد الرَّسول - ﷺ - ومن مات قامت قيامته وانقطع عمله ولا فرق بَيْنَ من يموت فِي ذَلِك الوقت وبين من يموت وَهُوَ آخر النَّاس موتًا بالنّسبة لانقطاع العمل كل منهم انقطع عمله، فكأن من يموت فِي عهد الرَّسول - ﷺ - كأنه بلغ يَوْم القِيَامَة؛ وَلِهَذَا يقول العلَماء: إن موت الإنسان قيامة بالنّسبة إِلَيْهِ وَهُوَ قيامة صغرى بالنّسبة إِلَى عُمُوم النَّاس لأَنَّ العمل انقطع وانتهى.

وقوْله تَعالَى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ يفيد بأن هَذَا أمر لا بُدَّ أن يقع وَهُوَ كَذَلِكَ فإن يَوْم القِيَامَة هُوَ الَّذي من أجله خُلق النَّاس، خلق النَّاس لعبادة الله، وجزاؤها يَكُون يَوْم القِيَامَة.

قوْله تَعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [فيه إدغام التّاء فِي الأَصل فِي الصّاد ومعناه يتفرقون بعد الحساب إِلَى الجنَّةَ والنّار].

قوْله تَعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: (إذ) منونة والتّنوين هُنَا عِوَضٌ عن جملة يعني يَوْم إذ يأتي يَصَّدَّعُونَ، ويقول المُفَسِّر رحمه الله: [فيه إدغام التّاء فِي الأَصل فِي الصّاد] أي أن أصلها يتصدعون، فقوله: [إدغام التّاء فِي الأصل] أي باعتبار الأصل يعني أن

الصّاد الَّتِي أدغمت فِي أختها أصلها تاء فأدغمت فِيهَا بعد قلبها صادًا ومعنى يَصَّدَّعُونَ يتفرقون، فالتَّصَدُّعُ التّفرق ومنه تَصَدُّعُ الأَرْضِ لأَنَّ تَصَدُّعَهَا تَفَرُّق.

من فوائد الْآيَةَ الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: وجوب الاتِّجاه إِلَى الدّين؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ ويلزم من وجوب الاتِّجاه إِلَيْهِ وجوبُ الإعراضِ عما سواه؛ لأَنَّ الوجهة واحدة، إمَّا إِلَى هُنَا وإما إِلَى هُنَا، فإذا لزم أن تتجه إِلَى الدّين لزم أن تنحرف عن غيره.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: تحريم الحكم بِغَيْر مَا أنزل الله لأَنَّهُ مخالَف للاتجاه للدين القيم والحكم بِغَيْر مَا أنزل الله مِنْهُ مَا يَكُون كفرًا ومنه مَا يَكُون فسقًا ومنه مَا يَكُون ظلمًا كما ذكر الله تَعالَى ذَلِك فِي سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وفي الآية الثّانية ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وفي الآية الثَّالثة ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، وهذه الأوصاف تتنزل عَلَى حال الحاكم فقد يَكُون كافرًا أو ظالمًا أو فاسقًا.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أن هَذَا الدِّينَ قيَم، ومعنى قيم: معتدل لا اعوجاج فِيهِ فِي جانب العبادة ولا فِي جانب المعاملة.

الفائِدَةُ الرابعةُ: أنَّك إِذَا ظننت أن فِي الدِّين مَا يخالِف الاستقامة فاعلم أنَّك قاصر إمَّا فِي علمك وإما فِي فهمك وجه ذَلِك أن الله وصف هَذَا الدّين بِأنَّهُ قيم، كل شيء تستعرضه فِي دين الله فيبدو لك أنَّه لَيْسَ عَلَى الاستقامة فاعلم أنَّك مخطئ لقصور علمك أو لقصور فهمك، والإنسان يؤتى من هاتين النّاحيتين إمَّا لقصور علمه يعني لَيْسَ عنده علم، وإما لقصور فهمه عنده علم لكن لا يفهم.

الفائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه ينبغي لمن أَمَرَ بشيء أن يذكر مَا يُغْرِي بِهِ وُيرَغِّبُ فِيهِ، يؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿الْقَيِّمِ﴾ فالإنسان إِذَا عرف أن الدِّين قيم لا شك أنَّهُ يتجه إِلَيْهِ، فأنت إِذَا أردت أن تأمر بشيء فاذكر الأسباب الَّتِي توجب للناس الإقبال علَيْه بأوصافه المحبوبة وثمراته الحميدة.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: الجمع بَيْنَ التّرغيب والتّرهيب: التّرغيب فِي قوْله تَعالَى: ﴿الْقَيِّمِ﴾ والتَّرهيب فِي قوْله تَعالَى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: إثْبَات يَوْم القِيَامَة وأنه آتٍ لا محالة لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.

الفائِدَةُ الثَّامِنةُ: أن يَوْم القِيَامَة يَوْم عظيم يؤخذ من تنكير ﴿يَوْمٌ﴾ فِي قوْله تَعالَى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ والتّنكير يفيد التّعظيم، ويدل لعظم هَذَا اليوم قوْله تَعالَى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ - ٦].

الفائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الحكم لله سبحانه وتعالى لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ فلا أحد يستطيع أن يمنع مَا أراد الله ولا أن يجلب مَا لم يُرِدِ الله أبدًا "اللهم لا مانِعَ لما أعطيتَ ولا مُعْطيَ لما مَنَعْتَ ولا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ".

الفائِدَةُ العَاشِرَةُ: أن النَّاس يَوْم القِيَامَة ينقسمون ويتفرقون، لقوْلِه تَعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾.

الآية (٤٤)

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۦ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤)﴾ [الروم: ٤٤].

* قوْله تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ يقول المُفَسِّر رحمه الله: [وَبَالُ كُفْرِهِ وَهُوَ النَّارُ] هَذَا كالتّفسير لقوْلِه تَعالَى: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ لأَنَّ معنى ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ يتفرقون بحسب أعمالهم.

قوْله تَعالَى: ﴿مَن﴾ شرطية، وفعل الشّرط ﴿كَفَرَ﴾ وجوابه جملة ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ وقوْله تَعالَى: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ جملة خبرية مكونة من مبتدأ وخبر، المبتدأ قوْله تَعالَى: ﴿كُفْرُهُ﴾ والخبر قوْله تَعالَى: ﴿فَعَلَيْهِ﴾ مقدم، وفائدة التّقديم الحَصْرُ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ مثلها شرطية وجواب الشّرط قوْله تَعالَى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ وقُدِّم المعمولُ ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ للحَصْرِ وَهِيَ فائدة معنويةٌ ولمراعاة الفواصل وَهِيَ فائدة لفظية؛ لأَنَّهُ لو قَالَ فيمهدون لأنفسهم استقام الكلام لكِنَّهُ قُدِّم لهاتين الفائدتين.

يقول الله عز وجل: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ يعني أَيَّ إِنْسَان يكفر فإنَّ وَبَالَ كفره علَيْه لا يضر إِلَّا نفسه، وهل يَكُون عَلَى غيره؛ لا يَكُون عَلَى غيره أَلَّا أنْ يكُونَ ذَلِك الغير سببًا فيه، فإن كَانَ سببًا فِيهِ صَارَ علَيْه مثل وزره قَالَ الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وثبت عن النَّبيّ عليه الصلاة والسلام أَنَّ "مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ".

فإذا قِيلَ: هل هَذَا يناقض الآية ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾؟

فالجوابُ: لا يناقضها لأنهُ إِذَا كَانَ هُوَ السّبب فإن ذَلِك من عمله لكن صورة المَسْأَلة مختلفة أَنَّه عمل غيره وعمل نفسه، إنما حقيقة الأمر أن الدّال عَلَى الكفر فاعل لما يؤزر عليه.

قوْله تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ الكفر فِي اللُّغَة العرَبِيَّة هُوَ السّتر ومنه الكُفُرَّى الَّذي هُوَ غلاف طَلْعِ النّخل، فالكفر فِي الأصل هُوَ هَذَا والمُرَاد بِهِ الخروج عن طاعة الله، لأَنَّ الخارج

عن طاعة الله قد ستر مَا أنعم الله بِهِ علَيْه من العقل والعِلْم وما أشبه ذلك.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ قَالَ أهل العلم: العمل الصّالِح هُوَ مَا جمع شرطين أساسيين أحدهما الإِخْلاص والثّاني المتابعة للرسول - ﷺ -، والإِخْلاص ضده الشّرك، والمتابعة ضدها الابتداع فمثلًا إِذَا وجدنا رجلًا يصلي الصّلاة المعتادة لكِنَّهُ يرائي النَّاس بِهَا فعمله لَيْسَ بصالح لأنه فقد الإِخْلاص، وَإِذَا وجدنا رجلًا قد أحدث نوعًا من العبادات لم يُرِدْ بِهِ الشّرع لكِنَّهُ مخلص يريد بِذَلِكَ وجه الله وتجده خاشعًا يبكي ويتأثر بهذه العبادة لكنها عَلَى غير شريعة الله فَهَذَا عبادته باطلة، لفقد المتابعة للرسول - ﷺ -.

ومن ذَلِك مَا إِذَا أخرج العبادات المشروعة عما شرعت عليه، وَهِيَ عبادة مشروعة فِي الأصل لكن أخرجها عما كانت علَيْه، فإِنَّهُ لا يُقبل عمله كما لو صلى الصّلاة بعد خروج وقتها متعمدًا بدون عذر فَهَذَا لا يقبل مِنْهُ لأَنهُ لا توجد متابعة هُوَ مخلص لكِنَّهُ غير متابع، وَكَذلِكَ لو صلى صلاة لا يطمئن فِيهَا إِذَا قَالَ: (سمع الله لمن حمده) سجد بسرعة إِذَا قَامَ من السّجود سجد

الثّانية بسرعة فصلاته باطلة، لو صلى إِلَى يَوْم الدّين مَا قَبِلَ الله مِنْهُ لعدم المتابعة، وَلهذا لما صلى رجل صلاة لا يطمئن فِيهَا قَالَ لَهُ الرَّسول - ﷺ -: "ارْجعْ فَصَلّ فَإِنَّكِ لَمْ تُصَلّ"، فنفى عنه الفعل لانتفاع صحته وإلَّا فإِنَّهُ قد صلى لكنها ليست صلاةً، ولو سألتَهُ لماذا صليتَ؟ قَالَ: مَا صليتُ إِلَّا لله، لكِنَّهُ خَالَفَ أمْرَ الله.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل هَذَا يُنافي الإِخْلاص؟

قُلْنَا: لا ينافي الإِخْلاصَ، فالإِخْلاصُ فِي القلب، وَهُوَ مَا قَامَ يصلي من أجل النَّاس، ولا همُّه النَّاس، فَهُوَ صلى لله، لَكِنَّهُ خالَف أمر الله.

لَوْ قَالَ قَائِل: هل يلزم المصلي أن يفقَه مَا يقولُ؟

قُلْنَا: لَيْسَ بلازم لكِنَّهُ أفضل إِذَا فقه مَا يقول، فإذا كَانَ قلبه حاضرًا يعني خاشعًا فِي صلاته وحاضر القلب فَهُوَ أفضل.

وهل المصلي يَكُون خشوعه فِي أمور داخلَ الصَّلاة أم خارجَها؟

الجوابُ: يخشع فِي أمور داخل الصَّلاة يعني يستحضر مَا يقول فِي صلاته وما يفعل فِي صلاته، فمثلًا لا يذهب يتذكر جلسة كَانَ خاشعًا فِيهَا فيما سبق.

لو قِيلَ: المصلي قد يتذكر القبور والجنة والنار، فهل يصح؟

الجواب: لا يصح إِلا إِذَا مرَّتْ بِهِ أثناء قراءته.

قوْله تَعالَى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ المهد والتَّمهيد بمعنى التوطئة، ومنه قولهم هَذَا طريق مُمَهَّدٌ يعني موطأ مُحَسَّن لأجل أن تطأه الأقدام فمعنى ﴿يَمْهَدُونَ﴾ أي يحسنون الشيْءَ حتَّى يَكُون موطئًا لَهُم، وَذَلِكَ لأَنَّ الذِّين يعملون صالحًا يتوصلون بعملهم الصَّالِح إِلَى دخول الجنَّةَ فيسهل لَهُم الطَّرِيقِ الَّذي يوصلهم إليها.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ تقديم المعمول يفيد الحَصْرَ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هل هَذَا ينافي مَا ثبت فِيهِ الحديث من أن "مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فِي الإسْلامِ فلَهُ أَجْرُها وأجْرُ مَنِ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْم القِيَامَةِ"؟

قُلْنَا: لا ينافيه؛ لأَنَّ الَّذِين يسنونَ الحسناتِ عملوا فتُوبِعُوا عَلَى ذَلِك، فالأجر الّذي حصل لَهُم من أجل اتباع غيرهم لَهُم هُوَ فِي الحقيقة من فعلهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: الجمعُ بَيْنَ التَّرغيب والتَّرهيب، فالتّرهيب في قوْله تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ والتَّرغيب فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أن شؤم الكافر لا يتعداه إِلَى غيره؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ وتقديم الخبر يدل عَلَى الحصْرِ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّه لا يتم الثّواب إِلَّا بالعمل الصّالِح المبني عَلَى أمرين وهما الإِخْلاص لله تَعالَى والمتابعة لرسوله - ﷺ - لقوْلِه تَعالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾.

الفائِدَةُ الرابعةُ: أن الحزْمَ والكِيَاسَةَ فِي العمل الصّالح لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾؛ لأنهم إِذَا فعلوا ذَلِك استراحوا فِي المستقبلِ إذ إنهم وطئوا لأنفسهم منزلًا هُوَ خير المنازل، وقد ذكرنا الجمع بَيْنَ قوْله تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ وبين قوله - ﷺ -: "مَنْ سَنَّ فِي الإسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ"، وقوْله تَعالَى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوْله تَعالَى: ﴿لِيَحْمِلُوا

أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] وذكرنا فِي الجمع أنهم هم السَّبَبُ.

الآية (٤٥)

---

* قال اللهُ عز وجل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥)﴾ [الروم: ٤٥].

قوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ﴾، قال المُفَسِّر رحمه الله: [مُتَعَلّقٌ ب ﴿يُصَدَّعُونَ﴾]، دَائِمًا نرى العلَماء إِذَا جاء ظرف أو جار ومجرور يقُولونَ متعلِّق بكذا.

فما معنى قولهم مُتَعلِّق؟

يعني أن هَذَا هُوَ الَّذي عمل فِيهِ لأَنَّ الجارَّ والمجرورَ والظَّرْفَ بمنزلة المفعول به، والمفعول بِهِ لا بُدَّ لَهُ من عامل يعمل به، فإذا قِيلَ: (متعلق بكذا) يعني أن هَذَا هُوَ الَّذي عمل فيه، ولا بد لكل جار أو ظرف لا بُدَّ لَهُ من متعلق، قَالَ الناظمُ رحمه الله:

لابُدَّ للجَارِّ مِنَ التَّعَلُّقِ ... بِفِعْلٍ أوْ مَعْنَاهُ نَحْوَ مُرْتَقِي

فيكون معنى قوله: [متعلق ب ﴿يُصَدَّعُونَ﴾، أن العامل فِي كلمة ﴿لِيَجْزِيَ﴾ قوْله تَعالَى: ﴿يُصَدَّعُونَ﴾ وَهَذا رأي المُفَسِّر، ويحتمل أنْ يكُونَ مُتَعَلّقًا بقوله ﴿يَأْتِيَ﴾ في: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لأَنَّ التَّصدُّعَ فِي الحقيقة هُوَ نفس الجزاء، فكيف يَكُون الشَّيء علة لنفسه؟ ! هَذَا مَا يبعد كلام المُفَسِّر رحمه الله، لكن إِذَا قيل يأتي هَذَا اليوم لأجل المجازاة صَارَ المَعْنَى مستقيمًا وواضحًا.

فإذا قُلْنَا: إن هَذِهِ اللام فِي قوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ - لأَنَّ اللام حرف جر - متعلقة ب ﴿يَأْتِيَ﴾ فَهُوَ أوضح من قولنا أنَّها متعلقة بـ ﴿يُصَدَّعُونَ﴾؛ لأَنَّ نفس التَّصَدُّعَ والتّفريق إِلَى الجنَّةَ وإلى النّار هُوَ نفس الجزاء.

وقال بعض المعربين إنَّه خبر لمبتدأ محذوف، فَهُوَ متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوفٍ، والتّقدير ذَلِك ليجزي والمشار إِلَيْهِ مَا سبق، وَهَذا أيضًا وجيه جدًّا أن يُجعل متعلقًا بمحذوفٍ خبرًا لمبتدأ محذوفٍ.

قُلْنَا: إن اللام فِي قوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ حرف جر، والمعلوم أن حروف الجر لا تدخل إِلَّا عَلَى الأسماء، ومن علامات الاسم الجر، ومن أسبابه دخول حرف الجر علَيْه، صاحب الأجروميَّة يقولُ: (الاسْمُ يُعْرَفُ بِالخَفْضِ، وَالتَّنْوِينِ، وَدُخُولِ الأَلِفِ وَاللَّامِ، وَحُرُوف الخَفْضِ ...)، فكيف صحَّ أن نقول إن اللام فِي قوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ حرف جر مَعَ أنَّها داخلة عَلَى فعل؟

فنَقُول: لأَنَّ هَذَا الفعل بمنزلة الاسم، إذ إِنَّه فعل مُقَدَّرٌ فِيهِ (أَنْ) لأَنَّ التّقدير لأَنْ يجزيَ، و(أنْ) مصدرية تحول الفعل إِلَى مصدر، والمصدر اسم، وعليه فيكون المَعْنَى لجزاء الَّذِين آمنوا وعملوا الصّالحات إِلَى آخره، فإذا دخلت اللام: لام التّعليل عَلَى الفعل، فإِنَّهُ يقدر بينها وبين الفعل أن المصدرية، والتّقدير: لأَنَّ يجزي فالفعل منصوب بـ (أن) مضمرة بعد اللام، واللام جارة لما بعدها باعتبار أن الفعل سيكون مصدرًا، فهي نفسها حرف جر وَهِيَ نفسها لام التّعليل الَّتِي يُنْصَب الفعل المضارع بـ (أن) بعدها عَلَى رأي البصريين، فاللام واحدة ولام التّعليل كما تدخل عَلَى الأفعال تدخل عَلَى الأسماء، فلو قلت: (جئت لإكْرَامِكَ) فهي لام التّعليل، وتقول: (جئت لأُكْرِمَكَ) هِيَ لام التعليل.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الفاعل: فاعل الجزاء هُوَ الله سبحانه وتعالى وَهُوَ ضمير مستتر يعود عليه.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الجزاء بمعنى المكافأة يعني ليكافئهم ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ﴾ قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [يُثيبَهُمْ]، هَذَا تفسير للجزاء بمعنى الإثابة والثّواب هُوَ المكافأة وسمي ثوابًا لأنهُ من ثاب يثوب إِذَا رجع لأنَّه يرجع إِلَى الإنسان جزاء عمله.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ انتبه لهذين الشّرطين، إيمان، وعمل صالح، فالإيمان وحده لا يكفي، والعمل الصّالِح وحده لا يكفي، هَذَا إِذَا قُرن الإيمانُ بالعمل، أَمَّا إِذَا قِيلَ: عمل صالِح يكفي، أو إيمان يدخل فِيهِ العمل، والإيمان يَكُون بالقلب، فمن لا إيمان فِي قلبه لو عمل من الصّالحِات مهما عمل لم ينفعه، والمنافق يذكر الله ويصلي وينفق وربما يخرج فِي الجهاد ولا ينفعه عمله، لَأَنَّهُ لا إيمان فِي قلبه، الإنسان الَّذي عنده إيمان بالله سبحانه وتعالى لكِنَّهُ لم يعمل عملًا صالِحًا يمكن أن يُجزى إِلا فِي واحدة فقط وَهِيَ الصّلاة، فإِنَهُ إِذَا لم يعملْها لا ينفعه إيمان لأنَّهُ قد دلت الأدلة عَلَى أن هَذَا العمل وإن

كَانَ عملًا بدنيا لكِنَّهُ يَكْفُرُ الإنسان بتركه كفرًا مخرجًا عن الملة، أمَّا غير الصّلاة من الأعمال فقد قَالَ عَبْدُ الله بْنُ شَقِيقٍ: "كَانَ أصحاب النَّبيِّ - ﷺ - لا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ إِلَّا الصّلاةَ"، يعني لو لم يُزكِّ فإنَّهُ لا يخرج من الإِيمَان، لو لم يَصُمْ فإِنَّهُ لا يخرج من الإِيمَان، لو لم يَحُجَّ فإنَّهُ لا يخرج من الإِيمَان، هَذَا هُوَ الصّحيح، وعن الإِمَام أحمد رواية أن جميع أركان الإسْلام إِذَا تركها الإنسان متهاونًا فَهُوَ كافر، فإذا لم يُزَكِّ فَهُوَ كافر، إِذَا لم يَصُمْ فَهُوَ كافر، إِذَا لم يَحُجَّ فَهُوَ كافر، يقول: لأَنَّ الرُّكنَ علَيْه الاعتماد، ركن الشّيء علَيْه اعتماد الشّيء، فإذا لم يوجد الرّكن مَا قَامَ الشّيء، وَهَذا لا شك أن لَهُ وجهًا لكن الأدلة تمنع من القول بِهَذا، فإن حديث أبي هريرة الصّحيح فيمن لا يؤدي زكاته، ذكر النَّبيّ - ﷺ - عقوبته ثمَّ قَالَ: "ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ"، فَهَذَا يدلُّ عَلَى أنَّه لا يكفر بمنع الزّكاة، وجهه لأنهُ لو كفر بِذَلِكَ مَا كَانَ لَهُ سبيل إِلَى الجنَّةَ، وَهَذا واضح، فإذا لم يكفر بترك الزّكاة فما دونها من باب أولى، ولا شك أن أركان الإسْلام الَّتِي دون الزّكاة أنَّها دونها فالصِّيام دون الزّكاة والحج دون الزَّكاة.

فَإِنْ قَالَ قَائِل: مَا تَقُولُونَ فِي قوْله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾ [آل عمران: ٩٧]، فإن ظاهره من كفر فلم يحج فإن الله غنيٌّ عن العالمين؟

فالجوابُ: إن المُرَاد بالكفر هُنَا سوى الكفر الأكبر يعني كفر دون كفر، وَلِهَذا لم يقل ومن لم يحج فَهُوَ الكافر، أو وتَرْكُ الحج هُوَ الكفر كما قَالَ فِي الصّلاة، و(كَفَرَ) فِعْلٌ، والفعل يدل عَلَى الإطلاق ولا يدل عن العُمُوم، فَهَذَا الجواب عن هَذِهِ الآية، والَّذِين قَالُوا إِنه يكفر بترك الحج احتجوا بهذه الآية، وأما قول عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ: "مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا"، هَذَا يُقَال من باب التّهديد أو أن هَذَا رأي لَهُ، وَهَذا أيضًا إن صح الحديث؛ لأَنَّ فِي الحديث مقالًا، لكن إن صح فَهُوَ يُحمل عَلَى أن المُرَاد أن هَذَا من باب التّحذير أو أنَّه رأي لَهُ كما رآه غيره من أهل العلم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: حديثُ مَنْ لَمْ يَغْزُ ولَمْ يحدِّثْ نَفْسَهُ بِالغَزْوِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً. كَيْفَ نُجِيبُ عَلَى هَذَا الحديث؟

قُلْنَا: لا يمنع أن الإنسان يموت ميتة جاهلية لأنَّهُ فعل فعلًا من أفعال الجاهلية حيْثُ لم يَقُمْ بواجب الجهاد.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: إثْبَاتُ العِلَلِ فِي أفعال الله لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وقد انقسم النَّاس فِي هَذَا إِلَى ثلاثة أقسام:

* قسم: أنكروا العلل فِي أفعال الله وفي شرعه وقَالُوا إِنَّه سبحانه وتعالى يفعل مَا يشاء ويحكم بما شاء بدون أي علة أو حكمة كالجبرية.

* وقسم آخر: أثبتوا العلل فِي أفعال الله وقَالُوا إن الله تَعالَى لا يفعل إِلَّا لحكمة ولا يشرع إِلَّا لحكمة، لكنهم جعلوا تلك العلل موجبة وقَالُوا يجب علَيْه أن يفعل كذا لكذا، وهَؤُلاءِ المعتزلة.

* وقسم ثالِث: توسطوا وقَالُوا أفعال الله تَعالَى لحكمة وشرائعه لحكمة لكن ليست هَذِهِ الحكمة موجبة بل الَّذي أوجب عَلَى نفسه الحكمة هُوَ الله، والحكمة من مقتضى اسمه الحكيم فتكون واجبة ليست بإيجاب أحد ولكنها بمقتضى كونه حكيمًا هُوَ الَّذي أوجبها عَلَى نفسه وَهَذا القول هُوَ الصّحيح وَإِذَا قلنا بِهِ

فإننا لا يمكن أن نعترض عَلَى أي حكم من أحكام الله كونيا كَانَ أم قدريا لأننا نعلم أن الَّذي أوجب أن تقترن أفعاله وشرائعه بالحكم هُوَ الله لا نحن فلا نقول: إن الله يجب علَيْه فعل الأصلح ولا فعل الصّلاح إيجابًا مستقلًّا عن إرادته وَهَذا القول هُوَ الحق.

إِذَنْ: نأخذ مِنْهُ أن جميع أفعال الله وأحكام الله كلها معللة بالحكمة بمقتضى اسمه الحكيم.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أن الجزاءَ لَيْسَ واجبًا عَلَى الله لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ﴾ لكِنَّهُ أوجبه عَلَى نفسه لقوْلِه تَعالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤] أوجبه هُوَ سبحانه وتعالى عَلَى نفسه وَلِهَذا قَالَ الشّاعر:

مَا لِلْعِبَادِ علَيْهِ حَقٌّ وَاجِب .. كَلَّا وَلا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ

إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الكَرِيمُ الوَاسِعُ

وابن القيم رحمه الله نظم معنى هذين البيتين لكِنَّهُ علل فقال:

مَا لِلْعِبَادِ علَيْهِ حَقٌّ وَاجِب ... هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّانِ

إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَالفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

فقيد المطلق فِي البيتين السّابقين أنَّه هُوَ الَّذي أوجب ذَلِك تَفَضُّلًا مِنْهُ عز وجل.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: إثْبَات المحبة لله تؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ لكن هَذَا نفي كَيْفَ نأخذ مِنْهُ الإثْبَات؟

لأَنَّهُ إِذَا انتفى محبته عن الكَافِرِينَ لزم محبته للمؤمنين، فإن لم يكن، لم يكن فرق بَيْنَ المؤْمِنينَ وبين الكَافِرِينَ، لو كانت المحبة منتفية فِي هَؤُلاءِ وهَؤُلاءِ مَا كَانَ بينهم فرق، وَلِهَذا استدل أهل العِلْم عَلَى إثْبَات رؤية الله سبحانه وتعالى بقوْله تَعالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)﴾ [المطففين: ١٥]، قَالُوا: فلما حجب هَؤُلاءِ فِي حال السّخط دل عَلَى أَنه لا يحجب الآخرون فِي مقام الرّضا.

إِذَنْ: نأخذ من هَذِهِ الآيَة إثْبَات المحبة وَهِيَ كما سبق الكلام علَيْه صفة ثابتة لله عَلَى وجه الحقيقة وليست بمعنى الثّواب ولا إرادة الثّواب، وإِنَّمَا ذَلِك من لازمها ومقتضاها إِذَا أحب قومًا

أثابهم ولا يثيبهم إِلَّا بإرادة ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

الفائِدَةُ الرابعةُ: الحث عَلَى الإيمَان والعمل الصّالِح، الله جَلَّ وَعَلَا مَا قَالَ آمِنُوا واعْمَلُوا، لكنْ ذِكْرُ الجزاءِ يستلزم الحث عَلَى الفعل، وَهَذا أحد الطّرق الَّتِي يُستدل بِهَا عَلَى أن الشّيء مأمور بِهِ، لا تظن أن الشّيء المأمور بِهِ هُوَ مَا جاء بصيغة الشّيء افعل، بل الأمر يستفاد من عدة أمور، فإذا ورد التّرغيب فِي شيء فَهُوَ مأمور به.

الفائِدَةُ الخَامِسَةُ: ذم الكفر يؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فإذا نفى الله المحبة عن هَؤُلاءِ فإِنَّهُ يقتضي ذم عملهم.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أن الحكم إِذَا علق بمشتق - وهذه فائدة أُصُوليَّة - فَهُوَ دليل عَلَى أن ذَلِك المشتق هُوَ علة فِي الحكم، مثلَا قوْله تَعالَى: ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فالعلة هُنَا كفرهم، أي أن الحكم بعدم حبهم عُلق عَلَى وصفِ هُوَ كفرهم.

إِذَنْ: فالكفر علة انتفاء المحبة.

وكما لو قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤)﴾ [الصف: ٤] فالعلة فِي المحبة هِيَ القتال فِي سبيله صفًّا.

وهكذا كُلُّ حُكْمٍ معلَّق بمشتق فإنَهُ يدل عَلَى عِلِّية ذَلِك الشَّيء.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: اعتبار اللازم بمعنى أَنَّه اِذَا لزم من الشَّيء كذا وكذا فإنَّهُ يثبت هَذَا اللازم تبعًا لثبوت الملزوم، فمثلًا لاحِظ فِي المؤمِنينَ قَالَ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مَا قَالَ إنَّه يحب أو لا يحب الكَافِرِينَ قَالَ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ﴾ فالمقابل: أنَّه لا يحب الكَافِرِينَ، فالَّذي يلزم مِنْهُ ألا يجزيَهم من فضله وإنَّمَا يعاملهم بعدله، فعقاب الكَافِرِينَ مأخوذ من لازم انتفاء المحبة.

ودلالة التَّلازم هَذِهِ مفيدة جدًّا لطالب العلم، ومعناها أنَّه يلزم من كذا وكذا، كذا وكذا، لكن لا بُدَّ من شرطين:

الشّرط الأول: أنْ يكُونَ اللازم صحيحًا، فإن كَانَ اللازم فاسدًا فإنَّهُ لَيْسَ بلازم حتَّى لو ادعى الإنسان أنَّه لازم فليس بلازم.

الشّرط الثّاني: أنْ يكُونَ ذَلِك فِي كلام الله وكلام رسوله - ﷺ -.

أما الشرط الأول - أنْ يكُونَ التلازم صحيحًا - فإننا نحترز بِهِ عما إِذَا كَانَ التلازم غير صحيح، مثلَا أهل التعطيل الَّذِين أنكروا الصّفات أو بعضها، شُبْهَتُهُمْ فِي الإنكار قَالُوا إنَّه يلزم التَّمثيل، لكن هَذَا اللازم لَيْسَ بصحيح؛ ولذلك لا نقول إنَّه يلزم من إثْبَات الصِّفات التَّمثيل لأَنَّهُ لَيْسَ بلازم.

في كلام الله وكلام رسوله إِذَا كَانَ اللازم صحيحًا فَهُوَ حق ويكون النَّص دالًّا علَيْه، لكن فِي كلام غيره لا يَكُون اللازم قولا لصاحب القول الملزوم، وَلِهَذا العلَماء عِنْدَهُم ترجمة فِي هَذِهِ المسألة: (هلْ لازِمُ القَوْلِ قَوْلٌ أَوْ لَيْسَ بِقَوْلٍ؟) فمنهم من قَالَ إن لازم القول لَيْسَ بقول، ومنهم من قَالَ إن لازم القول قول.

والصّحيح أن لازم القول فِي كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - قول لكن بشرط أنْ يكُونَ اللازمُ صحيحًا، ويكون قولًا لأَنَّ الله عز وجل يعلم مَا يترتب عَلَى كلامه من اللوازم وَإِذَا لم ينفها الله دل ذَلِك عَلَى ثبوتها، لكن الإنسان البشر لا يعلم دوما مَا يلزم عَلَى قوله، فأحيانًا يقول الإنسان قولا يظنه صوابًا ويكون هَذَا القول يلزم مِنْهُ لزوما صحيحًا حقيقيًّا أمور فاسدة لو نبَّهَ القائل لها لرجع عن قوله؛ فلذلك نقول إن لازم القول فِي غير كتاب الله

وسنة رسوله لَيْسَ بقول، صحيح أنَّه يستدل بِهِ عَلَى بطلان القول لكن مَا يُقَال إنَّه قول فلان.

فالحاصِلُ فِي هَذِهِ المسألة: أنَّه ينبغي التّنبه لها، وَإِنَّمَا نقول بِذَلِكَ لأَنَّ الإنسانَ بشرٌ لا يحيط بما يستلزمه كلامه من اللوازم الصّحيحة أو اللوازم الباطلة، الآن نرى كثيرًا مَا يأمر الإنسان بشيء أو ينهى عن شيء فِي أولاده ثمَّ إِذَا فعلوه علم أنَّه يستلزم مفسدة فيرجع عنه، هَذَا اللازم هل كَانَ عالمًا بِهِ من قبل؟ لو كَانَ عالمًا مَا أمرهم، وكثيرًا مَا ينهاهم عن شيء ثمَّ إِذَا تركوه رأى فِي ذَلِك مفسدة يعني استلزم مفسدة مَا كَانَ يعلم بِهَا حين النّهي فتجده يرجع، فلازم القول فِي كتاب الله وسنة رسوله قول لكن بشرط أنْ يكُونَ التّلازم صحيحًا، أمَّا فِي غيره فليس كَذَلِكَ، لَيْسَ بقول.

الآية (٤٦)

* قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

* قال المُفَسِّر رحمه الله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾: ﴿مِنْ﴾ للتبعيض و﴿آيَاتِهِ﴾ مجرور بـ (من) و﴿أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾ فعل مُؤَوَّلٌ بالمصدر هُوَ المبتدأ، أي من آياته إرسال الرّياح ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ حال من الرِّياح].

يقول الله عز وجل فِي هَذِهِ الآية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي بعض آياته لأَنَّ ﴿مِنْ﴾ هُنَا للتبعيض؛ وَذَلِكَ لأَنَّ آيات الله عز وجل لا يمكن إحصاؤها ولا حصرها.

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّه وَاحِدُ

لو أراد الإنسان أن يحصي آيات الله عز وجل الَّتِي فِي جسمه هُوَ فقط مَا استطاع إِلَى ذَلِك سبيلًا، فكيف بآيات الله تَعالَى الَّتِي ملأت الكون؛ وَلِهَذا تأتي ﴿مِنْ﴾ الدّالة عَلَى التّبعيض.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي علاماته واعلم أن كل آية فإنها تدُلّ عَلَى العِلْم وتدل عَلَى القُدْرَة وتدل عَلَى الحكمة، لا بُدَّ من ذَلِك فِي كل آية أنَّها تكون آية وعلامة عَلَى هَذِهِ الأمور الثّلاثة: العِلْم والقُدْرَة والحكمة، ثمَّ تختص بعض الآيات بما تختص به، إمَّا أن تكون الآية الَّتِي بعدها آية رحمة أو بعدها شيء يدل عَلَى السّلطان والعظمة.

والمُهِمُّ: أن لكل آية معنى خاصًّا ومعنى عامًّا، فالمعنى العام هُوَ هَذِهِ الثّلاثة: العِلْم والقُدْرَة والحكمة، فقوْله تَعالَى: ﴿أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ يضاف إِلَى هَذِهِ الثّلاث الرّحمة لأَنَّ هَذِهِ الرّياح تبشر بالمطر وقوْله تَعالَى: ﴿أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾ الإرسال بمعنى الإطلاق ومنه قول الشّاعر:

فَأَرْسَلَهَا العِرَاكُ ... .

يعني أطلقها، ومنه قول الفرضيين: (دَيْنٌ مُرْسَلٌ) يعني مطلقا لَيْسَ بِهِ رهن فقوْله تَعالَى: ﴿أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾ أي يطلقها عز وجل، والرّياح جمع ريح وَهِيَ الأهوية، واعلم أن الرّيح تُذْكَرُ مفردةً وتذكر مجموعةً، فإذا ذكرت مجموعة فإنها تكون غالِبًا للرحمة، وإِذَا ذُكرت مفردةً فإنها تكون غالِبًا للعقاب كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)﴾ [الحاقة: ٦]، قَالَ (ريح)، وقوْله تَعالَى: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١)﴾ [الذاريات: ٤١]، وقوْله تَعالَى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، وما أشبه ذَلِك، ولكنها أعني الرّيح قد تُفرد وتكون فِي مقام النّعمة لا سِيَّما إِذَا وصفت بما يدل عَلَى ذَلِك.

كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢]، فالرّيح هُنَا عقوبة نعمة، وَإِنَّمَا كانت نعمة لأنَّهَا وصفت بقوْله تَعالَى: ﴿طَيِّبَةٍ﴾، أما بالنّسبة للسفن فالأَوْلَى اتحاد الرّيح لا اختلافها؛ لأنَّهَا إِذَا اختلفت اختلف سير السّفينة، وفي الماضي لما كانت السّفن شراعية كانت الرّياح فِي مقام النّعمة وَلِهَذا جمعت.

قوْله تَعالَى: ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ مبشرات حال من الرّياح أي تبشر بالخير وَلِهَذا بعض الرّياح إِذَا هبت استبشر النَّاس لأَنَّ الله سبحانه وتعالى أجرى العادة أن هَذِهِ الرّيح المعينة يتكون منْهَا السّحاب ثمَّ المطر، وأحيانا يستبشرون بالرّيح إِذَا رأوها تجمع السّحاب، تجمعه وتكثفه، استبشروا بها.

وقوْله تَعالَى: ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ البشارة هِيَ الإخبار بما يسر غالبًا، وسميت بشارة لأنَّهَا تؤثر عَلَى البشرة، فالإنسان إِذَا استبشر ينيرُ وجهُه ويُسْفرُ وتجدُ علَيْه علامة البشرى، وقد تطلق البشارة بما يسوء كقوْله تَعالَى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ معنى لِتبشِّرَكُمْ بِالمَطَرِ].

فسر المُفَسِّر رحمه الله اسم الفاعل بالفعل المعلل، وقَالَ: [بمعنى لِتبشِّرَكُمْ] لأجل أن يسهل العطف فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ لأَنَّ ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ يجد الإنسان بَيْنَهُما فجوة، هَذِهِ الفجوة أراد المُفَسِّر أن يقربها بقوله: [بمعنى ليُبَشِّرَكُمْ بها]، ولكن الصّحيح عندي أن المبشرات عَلَى حالها تعتبر اسمًا ولكننا نقدر فعلًا يناسب مَا بعده لأجل أن يصح عطف الفعل علَيْه، والَّذي أرى أن يقدر: [﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ لتستبشروا بِهَا ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾، أو نجعل لتبشركم كما قَالَ المُفَسِّر رحمه الله لا نجعلها بمعنى مبشرات بل نجعلها فعلًا مستقلًّا قدرناه ليصح العطف فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ بِهَا ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ المَطَر والخِصْب].

تقدم أن الله تَعالَى يعبر عن الإصَابَة بالإذَاقَة لأنَّهَا أعلى أنواع الإصَابَة وأبلغها ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ بِهَا ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾.

يقول المُفَسِّر رحمه الله: [المطر والخصب] ففسر الرّحمة بأثرها، وَعَلَى هَذَا فلا تكون الرّحمة مخلوقة وليست صفة من صفات الله، وَهَذا الَّذي فسرها بِهِ محتمل لأَنَّ الله سبحانه وتعالى قد

يطلق الرّحمة عَلَى الشّيء المخلوق الَّذي يَكُون من آثار رحمته كما ثبت فِي الحديث الصّحيح أن الله قَالَ للجنة: "أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ"، ومن المعلوم أنَّه سبحانه وتعالى لم يُرِدْ أنَّها رحمته الَّتِي هِيَ صفته؛ لأَنَّ الجنَّةَ مخلوق بائن دائم ولكن أراد أنَّها من أثر رحمته أو مقتضى رحمته، فهنا يصح أن نقول: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ أي من هَذَا المطر والخصب وتكون الرّحمة هُنَا مخلوقة من المخلوقات.

وإن جعلناها الصّفة فهي للابتداء يعني ليذيقكم نعمة صادرة من هَذِهِ الرّحمة.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ السُّفُنُ بِهَا ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بإرادته (﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ تطلبوا ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ الرِّزق بالتِّجارة فِي البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾].

قوْله تَعالَى: ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ يقول رحمه الله: [السُّفُنُ بها] الضّمير يعود عَلَى الرّياح، فالله تَعالَى يرسل الرّياح لتسير بِهَا المياه فِي أجواء السّماء وَهُوَ السّحاب ويرسل الرّياح لتسير بِهَا السّفن فِي البحار، وكُلٌّ من السّحاب ومن السّفن يحمل نعمًا كثيرة، السّفن تحمل الأرزاقَ والأَنَاسِيَّ والحيوانَ وغيرَها،

والسُّحب تحمل الماء الَّذي هُوَ مادة الحياة، ﴿الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩] [الواقعة: ٦٨ - ٦٩] ففي الرّياح إِذَنْ فائدتان:

- تسيير السُّحب فِي أجواء السّماء.

- وتسيير السُّفن فِي أجواء البحار.

وقوْله تَعالَى: ﴿الفُلْكُ﴾ تصلح للجمع وللمفرد، وَهَذا فِي القرآن موجود، مثالهُا للجماعة قوْله تَعالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢]، هَذَا جمع؛ لأَنَّهُ قَالَ: ﴿فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ﴾ لم يقل فِي الفلك وجرى، وقوْله تَعالَى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: ١٢] أيضًا جمع، ومثالها للمفرد قوْله تَعالَى: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، قَالَ: ﴿الَّتِي﴾ ولم يقل اللاتي، وقد ذكر الفقهاء أن الأحدب ينوي الرّكوع بقلبه، فالأحدب لَيْسَ بقائمٍ حتَّى يركع، بل ينويه بقلبه، قَالَ بعض الفقهاء: فَهُوَ شبيه للفُلْكِ فِي اللُّغَة العرَبِيَّة يعني انحناء هَذَا الأحدب شبيه بالفلك فِي اللُّغَة العرَبِيَّة، مَا يُعرف إِلَّا بالنِّية، فالفلك صالِح للمفرد وللجماعة ولا يعرف إِلَّا بالنّية أو

القرينة، وكَذَلِكَ الأحدب فِي حال الرّكوع، فما الَّذي يُعلمنا أنَّه راكع أو غير راكع فركوعه وقيامه سواء.

ويمكن أن يستدل بمَسْأَلة الأحدب عَلَى مَا ذُكر عن الكسائي أنَّه قَالَ: إن الإنسان إِذَا أتقن شَيْئًا من العِلْم أمكنه أن يفهم غيرَه من العلوم، وذكروا قصة أنَّه كَانَ هُوَ وأَبو يوسفَ عند الرَّشِيدِ - أحد خلفاء بني العباس - وأنهم تناظروا فِي مَسْألة فقال أَبو يوسف للكِسَائِيِّ: مَا رأيك لو سها الإنسان فِي سجود السَّهْوِ، هل نَحْوُكَ يعلمك بحكم هَذِهِ المسألة؟ قَالَ: نعم إِذَا سها فِي سجود السّهو فإِنَّهُ لا يسجد، قَالَ: أين تجد هذا فِي نحوك؟ قَالَ: عندنا قاعدة فِي النّحو أن المصغر لا يصغر، فاستدل بأن سجود السّهو صلاة مصغرة فإذا سها فِيهِ فإِنَّهُ لا يصغر مرة ثانية، وهل هَذَا واقع أو غير واقع؟ الله أعلم لكنهم ذكروه.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: أبإرادته، والصّحيح ﴿بِأَمْرِهِ﴾ من الأمر الَّذي هُوَ بالقول وليس المُرَاد بالإرادة فقط لأَنَ الفلك مَا تَعْلَمُ عما يريد الله عز وجل لكنها إنما تأتمر بأمره القولي وقد قَالَ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس: ٨٢] فكلُّ مرادِ الله إن لم

يقترن بالقول فإِنَّهُ لا يقع، وكيف تحدث الكائنات بمجرد إرادةُ لا يعلم بِهَا إِلَّا الله؟ فلا بد من قول، فالصّواب أن المُرَاد بأمره: أمره القولي لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس: ٨٢] ولا يمنعُ ذَلِك أنْ يكُونَ هَذَا الجريانُ بأمره بأسباب محسوسة معلومة لنا؛ لأَنَّ المُقَدِّرَ للأسباب هُوَ الله عز وجل فَهُوَ سبحانه وتعالى يخلق ويُسَخِّرُ ولكن بأسباب.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ كل هَذَا مما خلقه الله سبحانه وتعالى لهذه الحِكَمِ العظيمة.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ تطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ الرِّزق بالتِّجارة فِي البحر، وَهُوَ كَذَلِكَ، وكم من أناس كانت تجارتهم فِي البحار ينقلون الأرزاق من جهة إِلَى جهة بواسطة هَذِهِ السّفن، لولا هَذِهِ السّفن لكان من المتعذر أن تنتقل الأرزاق من الجهة الَّتِي خلف البحر إِلَى الجهة الأُخْرَى، ولكن الله عز وجل جعل هَذِهِ السّفن لأجل أن تنقل هَذِهِ الأرزاق والنّعم.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: (لعل) هَذِهِ معناها التّعليل، تشكرون؛ الشّكر هُوَ القيام بطاعة المنعم ويكون باللسان وبالقلب وبالجوارح، فأما الشّكر بالقلب فإن يؤمن الإنسان بأن

هَذِهِ النّعمة من الله عز وجل هُوَ الَّذي أمده بِهَا وَهُوَ الَّذي يسرها لَهُ وَهُوَ الَّذي جلبها إِلَيْهِ هَذَا بالقلب، والشّكر باللسان أن يحمد الله عَلَيْهَا فإن هَذَا من شكر النعمة وأن يتحدث بِهَا اعترافا لله بالفضل لا افتخارًا بِهَا عَلَى غيره، وأما الشكر بالجوارح فأن يقوم لله تَعالَى بالعمل البدني من صلاة وزكاة وحج وغيره، وَلِهَذا يقول الشّاعر:

أفادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلسَانِي وَالضَّمِير المُحَجَّبَا

فيدي الجوارح، واللسان القول، والضّمير المحجب القلب.

ما الواسطة بَيْنَ الحمد والشّكر، أو النّسبة بَيْنَ الحمد والشّكر؟

الحمد أعم من حيْثُ السَّببُ، والشّكر أعم من حيْثُ التَّعَلُّقُ؛ لأَنَّ الحمد يَكُون باللسان ويكون عَلَى النّعم وَعَلَى كمال صفات المحمود، يعني أنَّه يحمد المحمود عَلَى نعمه وإحسانه عَلَى الحامد وَعَلَى كمال صفاته، وأما فِي المتعَلَّق فإِنَّهُ يتعلقُ باللسان خاصة الحمد يَكُون باللسان فَقَطْ، وربما يَكُون بالقلب أيضًا بأن يعتقد الإنسان كمال هَذَا المحمود لكِنَّهُ لا يُسَمَّى حمدًا لغة إِلَّا باللسان، وأما الشُّكرُ فَهُوَ أخص من الحمد باعتبار سببه وأعم باعتبار متعلّقه، أخص باعتبار سببه لأَنَّ سببه الإنعام عَلَى

الشّاكر، ولو كَانَ الإنسان المحمود من أكمل النَّاس ولم يعطِك شَيْئًا لا تشكره، فالشّكر يَكُون عَلَى النّعم فَهُوَ أخص من حيْثُ السّبب ويكون بالقلب واللسان والجوارح فَهُوَ من حيْثُ المتُعَلَّق أعم.

إِذَن: النّسبة بَيْنَهُما العُمُوم والخصوص الوجهي.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الشّكر هُوَ القيام بطاعة المنعم هَذَا بالمَعْنَى العام، لكن شكر النّعمة الخاصة يَكُون بالقيام بوظيفتها من الطّاعة، يَكُون بالقيام بوظيفتها الخاصة، مثلًا شكر الإنسان ربه عَلَى العِلْم يَكُون بالعمل بِهِ وتعليمه، هَذَا شكر خاص لنعمة خاصة، شكرُ الإنسانِ ربَّه عَلَى المسكن مثلًا يَكُون بطاعته فِي هَذَا المسكن بأن لا يَكُون فِيهِ مثلًا إسراف ولا تبذير وما أشبه ذَلِك فالشّكر هُنَا لَهُ معنيان:

- المَعْنَى العام هُوَ القيام بطاعة المنعم.

- والشّكر الخاص هُوَ القيام بطاعة الله تَعالَى لما يتعلق بهذه النّعمة الخاصة، وكل نعمة لها شكر خاص.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أن هناك علاماتٍ ودلالاتٍ عَلَى وجود الخالِق وَعَلَى علمه وقدرته وحكمته هَذِهِ الآيَات. هَذِهِ الآيَات الَّتِي تَعَرَّضَ الله بِهَا لعباده من نعمة الله عَلَيْهِم أن الله تَعالَى يريهم آياتِه ليقوموا بشكره ويعترفوا بفضله.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: من آياته أيضًا - زيادة عَلَى الآيَات الثّلاثة الَّتِي ذكرنا - ثبوتُ الرَّحمة لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ هَذِهِ الرّياح لو اجتمع الخلق كلهم عَلَى أن ينفخوا بجميع وسائل النّفخ فإنهم لا يستطيعون أن يغطوا بِهَذا النّفخ بلدًا واحدًا، والرّب جلت قدرته يغمر مَا شاء أن يغمر بهذه الرّيح الَّتِي قد تقلع الأشجار وتهدم الدّيار، أليس هَذَا دليلًا عَلَى قدرة الله العظيمة؛ وكونها مبشرات فِيهِ إثْبَات الرّحمة.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: نعمة الله تَعالَى بالفلك الَّتِي تجري بأمره لولا أن الله سبحانه وتعالى يسر من الأسباب مَا يَكُون بِهِ ذَلِك مَا عرف النَّاس كَيْفَ يتعدون من بر إِلَى بر بواسطة البحر.

الفائِدَةُ الرابعةُ: أن ظهورَ الآيَاتِ لِلإِنْسَانِ سببٌ لشكر نعمة الله علَيْه، نأخذُه مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الفائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثْبَاتُ العِلَلِ والحِكَمِ فِي أفعال الله تَعالَى؛ لقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ لأنَّهَا للتعليل.

الآية (٤٧)

قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

* قوْله تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ اللام فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ﴾ مُوَطِّئَةٌ للقَسَمِ يعني أنَّها جواب لقسم محذوف، التّقدير والله لقد، وَبِهذَا نعرف أن الجملة هُنَا مُؤَكدة بثلاثة أمور وَهِيَ القسم واللام وقد.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ من المشهور المعروف عند أهل العِلْم أن الرَّسولَ مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بشرع وأُمِر بتبليغه لأَنَّهُ مرسل، وَهَذا الصّنف من النَّاس هُوَ أعلى أنواع الأصناف من بني آدم ويليهم الأنبياء ثمَّ الصّديقون ثمَّ الشّهداء ثمَّ الصّالحون، فأعلى أجناس البشر الرّسل - علَيْهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ - لأنهم جمعوا بَيْنَ الاختصاص بالرّسالة

والعبادة، والله أعلم حيْثُ يجعل رسالته، لا يعطي الرّسالة إِلَّا لمن هُوَ أهل لها، فأحق النَّاس بالرّسالة بلا شك هم هَؤُلاءِ الأعيان الَّذِين أرسلهم الله عز وجل ولا يمكن أنْ يكُونَ أحد من النَّاس أحق منهم بِهَا، وَبِهذَا نعرف ضلالَ بل وكُفْرَ من قَالُوا إن عِليَّ بنَ أبي طَالِبٍ أَحَقُّ بالرِّسالة من مُحَمَّدٍ - ﷺ - لأنهم بِذَلِكَ طعنوا فِي الله عز وجل ونسبوه إِلَى مَا لا يليق بِهِ، لأَنهُ إِذَا كَانَ أعطى الرّسالة محمدًا وعلى أولى بِهَا فَهُوَ إمَّا جاهل بالأحقية وإما غير مريد لإعطاء الحق أهله هَذَا الصّواب، وكلا الأمرين بالنّسبة إِلَى الله محُالٌ وممتنِعٌ، وأي أحد يصف الله بِهَذا أو بما يستلزم هَذَا فإِنَّهُ كافر بلا شك.

إِذَن: الرُّسل - علَيْهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ - هم أشرفُ أصنافِ الخلقِ وهم أحق النَّاس بالرّسالة بلا شك ولا أحد أحق منهم، ويوجد - والعياذُ باللهِ - بعض النَّاس - الفلاسفة - يرون أن الرّسل من آخر مراتب الخلق ويقولون إن الولي أفضل من النّبي، والنّبي أفضل من الرَّسول لأَنَّ الولي خاص الخاصة، وليّ عَلَى اسمه، والنّبي لَهُ مَزِيَّةُ الوحي، والرَّسول بمنزلة الخادم الَّذي فِي البيت يُرْسَلُ

ليشتريَ الحوائج، انظر كَيْفَ - والعياذُ باللهِ - الضّلالَ ويقولون فيما يقولون:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ ... فُويقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الوَلِي

أعوذ بالله، مقام النّبوة برزخ فويق الرَّسول، يعني فوق الرَّسول بقليل وبالنّسبة للولي دون منحط بعيد عن الولي، وَعَلَى هَذَا فتكون رتبة الولاية عِنْدَهُم أعلى شيء، وَهَذا لا شك أنَّه كُفْرٌ، بل نقول إن مقامَ الرِّسالة فوق كل شيء ثمَّ النّبوة ثم الولاية، لأَنَّ الرَّسول جامع بَيْنَ الرّسالة والنّبوة والولاية والنّبي لَهُ النّبوة والولاية والولي لَهُ الولاية دون النّبوة والرّسالة، ومعلوم أَنَّه كلما ازدادت صفة الكمال فِي شخص كَانَ أكمل من غيره.

قوْله تَعالَى: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ القوم هم الطّائفة الَّذِين ينتسب إليهم الإنسان لأَنَّ بهم قوامه فَهُوَ يقوم بهم، وهم بِهِ يقومون.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ لأَنَّهُ مَا من رسول أُرسل سوى رسول الله - ﷺ - إِلَّا ورسالته خاصة كما ثبت فِي الحديث الصّحيح: حديث جَابِرٍ "وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّة وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّة".

قوْله تَعالَى: ﴿فَجَاءُوهُمْ﴾ الفاعل للرسل والمفعول للقوم.

قوْله تَعالَى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [بالحُجَجِ الوَاضِحَاتِ عَلَى صِدْقِهِمْ فِي رِسَالَتِهِمْ إِلَيْهِمْ فَكَذَّبُوهُمْ].

قوْله تَعالَى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ معلوم أنَّ البينات تعني الواضحات لكن هل المُرَاد بالبينات هُنَا مَا يبين صدق رسالتهم فيكون المُرَاد بِهَا المعجزات الَّتِي أُيِّدوا بِهَا، أو المُرَاد بالبينات أي بالشّرائع البينات الظّاهرة الَّتِي كل من استَقْرَأَها عَرَفَ أنَّها من عند الله، أو المُرَاد الأمران؟ المُرَاد الأمران فالرُّسل أتوا بالآيات البينات الَّتِي تؤيدهم وتدل عَلَى صدقهم وأتوا أيضًا ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالشّرائع البينة الظّاهرة الَّتِي يعلم أنَّها من عند الله عز وجل فالباء فِي قَوْلِهِ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ تكون للمصاحبة، يعني أُرسلوا رسالةً مصحوبة بالبينات، أو للاختصاص عَلَى القول بأن المُرَاد بالبينات الشّرائع، وَهَذا من حكمة الله عز وجل ورحمته أن الله مَا أرسل رسولًا إِلَّا أيده بآية من حكمته ورحمته؛ لأَنَّهُ لو جاء الرَّسولُ بدون آية إِلَى النَّاس وقال أنا رسول الله بدون آية هل يقبلونه؟ من طبيعة البشر أن لا يقبلوا حتَّى يعرفوا، كما أنَّه لو جاء واحد من النَّاس وقَالَ: أنا عالِم عندي علم بالشّرع استفتوني فِي أي شيء

أفتكم، فلا يطيعونه حتَّى يمتحنوه ويسألوه، فكيف إِذَنْ بالَّذي يدعي أنَّه يُوحَى إِلَيْهِ، لا يقبل إِلَّا إِذَا جاء بآية فَهَذَا من حكمة الله.

من رحمته أيضًا أَلَّا يعاقب أحدًا بذنب بدون حجة لأنَّهُ لو أرسل الرّسل بدون آيات وكذبهم الأمم لكانوا معذورين بالتكذيب لعدم وجود الآية، وقد لا يُعذرون لأنهم يجب عَلَيْهِم أن يستسلموا، لكن من رحمته أن جعل معهم آيات بينات ليطمئن النَّاس إليهم ويؤمنوا بهم عن اقتناعٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ ربما يُستفاد من كلمة ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ لا رسول بعده كما سنذكره إن شاء الله تَعالَى فِي الفوائد ونناقش هَذِهِ الفائدة.

قوْله تَعالَى: ﴿فَانتَقَمْنَا﴾ الانْتِقام هُوَ الأخذ بالعقوبة، وَهَذا من فعل الله وليس من أسمائه؛ وَلِهَذا الحديث الَّذي فِيهِ سياق الأسماء الحسنى وَهِيَ مدرجة مَا صحت عن الرَّسول - ﷺ - فِيهَا أن من أسمائه المنتقم وليس كَذَلِكَ، لَيْسَ من أسمائه بل هُوَ من أوصافه وأفعالِه وَلِهَذا مَا جاء مطلقا قَالَ: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ فَهُوَ فِعْلٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ الإجرام فعل الجرم، وكل مَا يَكُون سببًا فِي الإثم فَهُوَ جُرْمٌ، والمُرَاد بالإجرام هُنَا الكفر، وفُهِمَ من الآية الكريمة ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أن من لم يجرم لم يُنتقم منه؛ وَلِهَذا قَالَ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الله أكبر، ﴿نَصْرُ﴾ إعرابها اسم (كان)، وخبرها ﴿حَقًّا﴾، هَذَا أحسن مَا يَكُون فِي إعراب الآية، وأوجه مَا يَكُون وأسهل مَا يكون، وإلَّا ففيها أوجهٌ أُخْرَى.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ الحق بمعنى الشّيء الثّابت اللازم ﴿نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: المؤْمِنينَ بما يجب الإِيمَان بِهِ من الإِيمَان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، فأوجب الله عز وجل عَلَى نفسه أن ينصرَ المُؤْمِنِينَ، أوجب ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ التِزامٌ من الله عز وجل ﴿نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ نَصْرُهم أي منعُهم من أعدائهم، وَذَلِكَ بأن يجعل لَهُم من النّصر الحسي والمعنوي مَا تكون العاقبة لَهُم، وَهَذا كقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١)﴾ [غافر: ٥١].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَذَا الحق الَّذي التَزم الله بِهِ قد يشكل علينا أن الله تَعالَى يخذل المؤْمِنينَ أحيانًا كما فِي أُحُدٍ مثلًا، فإن النّصر فِي أُحُدٍ كَانَ لقريش وأتباعها فما هُوَ الجواب عن هَذِهِ الآية؟

نَقُول: إن الجواب إن نصر قريش عَلَى الرَّسول - ﷺ - لَيْسَ نصرًا دَائِمًا كانت العاقبة فِيهِ لَهُم، بل إن هَذَا فِي الحقيقة من نصر المؤْمِنينَ عَلَيْهِم، وَإِذَا شئت أن يتبين لك ذَلِك فاقرأ مَا عَلَّلَ الله بِهِ هَذِهِ الغزوة فِي سورة آل عمران من جملة مَا ذكر من الحكم ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

إِذَنْ: فَهُوَ نصر لجلبهم لأنهم لو هُزِموا فِي كل مقام مَا قاموا ولا حاربوا، لكن إِذَا صَارَ لَهُم شيء من النّصر فإن ذَلِك يُغرِيهم بالقتال حتَّى تكون العاقبةُ للمؤمنين، ويبيدهم الله عز وجل ومنها أيضًا نصر المؤْمِنينَ عَلَى أنفسهم لأنهم مَا أتاهم مَا أتاهم فِي أحد إِلَّا بسببِ مخالَفتهم كما قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، فهنا يعرفون قدر المعصية وأنه يفوت بِهَا من المحبوب مَا لا يخطر عَلَى بالٍ.

فالحاصِلُ: أن هَذِهِ الآية عَلَى بابها أن الله تَعالَى ينصر المؤْمِنينَ حقًّا علَيْه أوجبه هُوَ بنفسه عَلَى نفسه كما فِي قوْله سبحانه وتعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: تسليةُ الرَّسولِ - ﷺ - وتحذيرُ المخالِفين لَهُ، تسليته بمن سبقه من الرّسل فقد كُذِّبوا وأُوذوا، فإذا علم أن أَحَدا شاركه فِي ذَلِك وإن علَيْه الأمر لأَنَّ كل إِنْسَان يتسلى بما أُصيب بِهِ غيره بمثله؛ وَلِهَذا قالَ الله تَعالَى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: تحذيرُ المخالِفين لَهُ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: رحمةُ الله عبادَه بإرسال الرّسل إذ لولا هَذِهِ الرّسالة مَا عرف النَّاس كَيْفَ يَعْبُدُونَ الله عز وجل بل ولا عرفوا مَا عرفوا من تفاصيل أسمائه وصفاته كما سبق فِي درس التّوحيد، فالرّسل رحمة عظيمة للخلق كما قَالَ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

الفائِدَةُ الرابعةُ: أن الانْتِقامَ من المكذبين كَانَ بسبب فعلهم لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أي لإجرامهم.

الفائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الرِّسالاتِ السَّابقةَ خاصةٌ لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ ويبيِّنه الحديث الثّابت فِي الصّحيحين: "وَكَانَ النَّبِيّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً".

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أن الله تَعالَى مَا أرسل الرّسل إِلَّا ببينات تشهد بصدقهم وبشرائع بينة لا توجب لَبْسًا عَلَى المتبعين تؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالآيات البينات الدّالة عَلَى صدقهم وبالشّرائع البينات الواضحة الَّتِي لا تقتضي لَبْسًا عَلَى المتبع، قَالَ أهل العِلْم: وآياتُ الأنبياء عَلَى حسب عصرهم ففي عهد موسى انتشر السّحر وكثر فأعطاه الله تَعالَى من الآيات مَا تبطل السّحر وليست بسحر، أعطاه الله تَعالَى اليد، وأعطاه العصا.

قَالُوا وفي عهد عيسى تقدم الطِّبُّ فأعطاه الله من الآيات مَا لا يمكن للطب أن يقوم بِهِ وَهُوَ إبراءُ الأكمَهِ والأَبْرَصِ وإحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم، هذَا لا يمكن أن يقوم بِهِ الطِّبُّ أبدًا، فالميت لا يمكن أن يحيا بالطّب، وقَالُوا أيضًا إن الأبرص لا

يمكن شفاؤه بالطّب، والأكمه قَالُوا أنَّه الَّذي خُلق بلا عين، هذَا فيما سبق من العصور لا يمكن أن يوضع لَهُ عين لكن الآن إِذَا وجد مكان العين يمكن أن يوضع لَهُ عين فِي الطّب، لكن إِذَا لم يوجد مثلا خلقه الله عز وجل بدون أن يخلق لَهُ مكانًا للعين لا يمكن أن يوضع لَهُ عين.

في عهد الرَّسول - ﷺ - قَالُوا: إن البلاغة بلغت أعلى ذروتها فكان من أعظم آيات الرَّسول - ﷺ - هذَا القرآن الَّذي أعجز البُلَغَاءَ والفُصَحاءَ بل تحدى الله بِهِ كل الجن والإنس ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨]، لا انفرادًا ولا تعاونًا، وَلهذا قَالَ: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

لَوْ قَالَ قَائِل: الَّذِين يقُولونَ بالإعجاز العلمي فِي القرآن يقولون: الآن زالتِ البلاغة فالنَّاس لا يستطيعون أن يميزوا أوجه البلاغة والفصاحة ولكن الإعجاز العلمي فِيهِ إشارات علمية لكي يصدق أهل هذَا العصر؟

فأقوُل: هذَا لَيْسَ ببعيد، يمكن أنْ يكُونَ صحيحًا يعني أن القرآن فِي كل عصر يَكُون معجزةً بما تناسب العصر لأنَّهُ نزل إِلَى جميع

الخلق إِلَى يَوْم القِيَامَة فلا يبعد هذا، القرآن لكل معنى لكِنَّهُ فِي ذَلِك الوقت أشد مَا فِيهِ البلاغة.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: إثْبَات فعل الانْتِقام لله - عز وجل - لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَانتَقَمْنَا﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنةُ: إثْبَات العظمة لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَانتَقَمْنَا﴾ و﴿أَرْسَلْنَا﴾ فإن هذَا للتعظيم وليس للتعدد بإجماع المسلمين إنما هُوَ للتعظيم.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أن عَلَى الله حقًّا أوجبه عَلَى نفسه لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾.

فإذا سُئلنا: هل يجب عَلَى الله شيء؟

قُلْنَا: أمَّا بعقولنا فلا يجب عَلَى الله شيء، وأما أن يوجب عَلَى نفسه شَيْئًا فَهذَا أمر واقع.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أن الله أوجب عَلَى نفسه نصر المؤْمِنينَ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: أن هذَا النَّصر لا بُدَّ أن يكون؛ لأنَّهُ أتى بصيغة التَّعظيم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾، ولم يقل عليَّ بل قَالَ:

﴿عَلَيْنَا﴾ إشارة إِلَى أن هذَا الحق لا بُدَّ أنْ يكُونَ لأَنَّ الله تَعالَى أعظم من كل شيء.

الفائِدَةُ الثّانِيةَ عَشْرَةَ: فضيلة الإِيمَان وأنه سبب للنصر لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةَ عَشْرَةَ: أن غير المؤْمِنينَ لا ينصرون؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإذا أورد إِنْسَان علينا مَا حصل من الانتصارات الخاطفة للكفار فما هُوَ الجواب؟

الجوابُ: أن هذَا استدراجٌ من الله - عز وجل - حتى يتم النّصر للمؤمنين فِي النّهاية، وقد يَكُون من مصلحة المؤْمِنينَ لانهُ نصر لأنفسهم عَلَى أنفسهم ثمَّ أنَّه لا يدوم هذَا النّصر أبدًا، فالعاقبة لا بُدَّ أن تكون للمؤمنين، وقال بعض أهل العِلْم إن النّصر نوعان:

- نصرٌ بالحُجَّةِ والبُرهان.

- ونصر بالسَّيف والسِّنان.

فأما النّصر بالحجة والبرهان فَهُوَ مضمون وثابت وليس فِيهِ استثناء لأَنَّ الحجة والبرهان مَعَ المؤْمِنينَ عَلَى كل حَالٍ حتى

لو هُزِموا عسكريًّا فإن الحجة والبرهان معهم، غالِبون بحجتهم وبرهانهم وَهذا لا استثناء فيه.

الثّاني: النّصر العسكري يعني بالسّيف والسِّنان ونحن نقول الآن بالطّائرة والقنابل وما أشبهها، فقد يحصل نصر لغير المؤْمِنينَ امتحانًا للمؤمنين واستدراجًا للكافرين.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل هذه الآية تدُلّ عَلَى ختم الرّسالة بالرَّسول - ﷺ - لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أو لا تدل؟

فالجوابُ: قد تدُلُّ من حيْثُ إن الرَّسول مرسل إِلَى النَّاس عامة، والعُمُوم هذَا يشمل العُمُوم فِي الوقت والمكان والأمم وهذا يستلزم أن لا يوجد رسول بعد، لو وجد رسول بعد انتفى العُمُومُ إِلَى النَّاس كافة، وصار معناه أن الرَّسول الَّذي بعده يَكُون رسولا إِلَى هؤُلاءِ النَّاس دون محمد - ﷺ -.

لَوْ قَالَ قَائِل: كون الرَّسول أرسل إِلَى النَّاس كافة، لَيْسَ فِيهِ دليل عَلَى أنَّه آخر الرّسل؟

قُلْنَا: لأَنَّهُ إِذَا لم يكن آخرهم فالَّذي يأتي من بعده يَكُون أرسل إِلَى بعض النَّاس وهم الَذِين تأخروا.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: أخذها فِيهِ شيء من الغموض والأمر فِي هذَا واضح.

والغريب أن بعض النَّاس - على سبيل الاستطراد - أنكر نزول عيسى بن مريم - ﷺ - وقَالَ: إننا لو قلنا بنزوله لكان ذَلِك تكذيبًا للقرآن ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وهل استدلالهُم بالآية صحيح أو لا؟

الجوابُ: غير صحيح؛ لأَنَّ عيسى لا ينزل مشرعًا وَإِنَّمَا ينزل تابعًا للرسول - ﷺ - ولا ينشئ شَيْئًا من الشَّريعة حتى كسر الصَّليب وقتل الخِنزير، هذَا أخبر بِهِ الرَّسول - ﷺ - فأقره يعني يُقَال أنَّه يأتي ويحكم بِذَلِكَ ولا يقبل إِلَّا الإسْلام لا توجد جزية بعد نزول عيسى، لا يوجد أخذ جزية ولا عهد، لا يوجد إِلَّا الإسْلام فيقال إن هذَا لَيْسَ شرعًا جديدًا ناسخًا لشرع الرَّسول - ﷺ - بل هُوَ شرع مُقَرَّرٌ من الرَّسول - ﷺ -، الرَّسولُ أخبرَ بِأنهُ سيفعل هذَا مقررا لَهُ، فَهُوَ لم ينزل عَلَى أنَّه رسول بشرع جديد، بل عَلَى أنَّه تابع للرسول - ﷺ -، ولعل هذَا والله أعلم ليتحقق مَا

أخبر الله بِهِ بالفعل، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾ [آل عمران: ٨١]، هذَا خبر من الله - عز وجل -.

وهل نحن علِمنا بأن نبيًّا من الأنبياء تَابَعَ الرَّسول فعلًا؟

الجوابُ: لا، لكن نزول عيسى ومتابعته ولرسالة الرَّسول - ﷺ - تكون هذه حق اليقين لأَنَّ آية آل عمران فِيها علم التقِينِ، فإذا وجد ذَلِك بالفعل صَارَ حَقَّ اليقين، فَهَذَا من الحكمة فِي نزوله - ﷺ - فِي آخر الزّمان، وأيضًا عندنا أحاديث واضحة صحيحة صريحة متلقاة بالقبول عند أهل العِلْم فكيف ينكر ذَلِك؟ لكن - والعياذُ باللهِ - بعض النَّاس يأتي بقاعدة من أفسدِ القواعد وأبطلِ القواعد، وَهِيَ أن العقيدة لا تثبت بأخبار الآحاد ولو كَانَ الخبر صحيحًا، وَهذا فِي الحقيقة مزلة ممن قاله لأننا نقول لَهُ أنتَ تثبت من الأحكام العملية: تثبت الحكم العملي بدليل لا يصل إِلَى درجة الصّحة تثبته بدليل يصل إِلَى درجة الحسن وربما يَكُون إِلَى درجة الحسن عندك أنْتَ وعند غيرك لا يصل

إِلَى درجة الحسن، وإثْبَات الحكم العملي مستلزم للعقيدة؛ لأَنَّ تنفيذه مقتضى الإِيمَان ولأن الإنسان لا يعمل بِهذا إِلَّا بعد أن يعتقد أنَّه من شريعة الله وإلا لما عمل بِهِ فهناك عقيدة سابقة أن هذَا من حكم الله ومن شريعة الله وأنه مقرب إِلَى الله وأنه عبادة لله ثمَّ العمل به، ثم إِذَا أخذنا بِذَلِكَ لزم أن ننكر أَشْيَاء كثيرة مما يتعلق بالأمور العلمية لأَنَّ الشّرع كما هُوَ معلوم إمَّا أمور علمية أو أمور عملية، والصّواب بلا شك أنَّه لا فرق بَيْنَهُما وأن مَا صح عن رسول الله - ﷺ - فإِنَّهُ يجب الإِيمَان بِهِ عقيدةً وعملًا وإِذَا شئت مزيد إيضاح فاقرأ مَا كتبه ابن القيم رحمه الله فِي آخر الصّواعق المرسلة فإِنَّهُ تكلم عَلَى هذه المَسْأَلة كلامًا شافيًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: عند نزول عيسى - عليه السلام - هل الله سبحانه وتعالى يلهمه الصّواب فِي مسائل الشّريعة أم ماذا؟

قُلْنَا: الظّاهر - والله أعلم - أن القرآن والسّنة محفوظان إِلَى ذَلِك الوقت، والعجيب أن بعضهم ذكر من شُبَهِ إنكار نزوله أن لغة عيسى سريانية ولغة الرَّسول - ﷺ - عربية، قَالَ: كَيْفَ ينزل ويحكم بالشّريعة وَهُوَ سرياني؟ !

نَقُول: نعم الجواب بالتّسليم وبالمنع:

أولًا: الآن يوجد أناس يتكلمون بِغَيْر اللُّغَة العرَبِيَّة وهم مسلمون ملتزمون بأحكام الإسْلام قائمون بِهِ عَلَى أتم وجه ولغتهم غير عربية.

الثَّاني: أن الله جَلَّ وَعَلَا عَلَى كل شيء قدير يمكن أنْ يكُونَ لسانه عربيًّا إِذَا كَانَ بالممارسة والمخالطة ينقلب لسان الإنسان من سرياني إِلَى عربي فكيف بقدرة الله، لكن سبحان الله العظيم الإنسان إِذَا اشتهى شَيْئًا أتى بشبهٍ لا تنطلي عَلَى أحد.

الآيتان (٤٨، ٤٩)

قَالَ اللهُ - عز وجل -: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

قوْله تَعالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [تُزْعِجُهُ]، لأَنَّهُ مأخوذ من (أثار الصَّيد) إِذَا أزعجه

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾، يعني يبعثها كَيْفَ شاء - سبحانه وتعالى - ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾، قَالَ المُفَسِّر - رحمه الله -: [تُزْعِجُهُ] كإثارة الصّيد، فإن إثارة الصّيد من مكانه يعني إزعاجه حتى يقوم وقوْله تَعالَى: ﴿سَحَابًا﴾ السّحاب معروف هُوَ الغيم ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قَالَ المُفَسر رحمه الله: [مِنْ قِلَّةٍ وَكَثرةٍ]، يبسطه البسط معناه النّشر ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تعود إِلَى كيفية هذَا النّشر قد يَكُون واسعًا وقد يَكُون قليلًا وقد يَكُون كثيفًا وقد يَكُون خفيفًا، ولهذا قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ بفتحِ السِّين وسُكُونها: قِطَعًا مُتَفَرِّقَة]، بفتح السّين يعني ﴿كِسَفًا﴾ وسكونها يعني (كسْفًا) وقد الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤)﴾ [الطور: ٤٤]، كِسْفًا؛ الكسَف معناه القطع، وكأن المُفَسِّر - رحمه الله - يريد أن يبين أن السّحاب قد يَكُون واسعًا منتشرًا مبسوطًا وقد يَكُون قليلًا قطعًا متفرقة، وقال بعض المفسرين معنى كونه كسفًا أنَّه قِطَعٌ متراكبة بعضها فوق بعض حتى يَسْوَدَّ وَيدلَّهم ويحصل فِيهِ الرّعد والبرق وهذا أولى، وهو فِي الغالب أكثر مطرًا.

قوْله تَعالَى: ﴿فَتَرَى﴾ الخطاب لكل من يتأتى خطابه لأَنَّ هذه الرّؤية ليست خاصةً بالرَّسول - ﷺ -، وقوْله تَعالَى: ﴿الْوَدْقَ﴾ يعني المطر يعني حبات المطر تسمى ودقًا.

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [أي وَسطِه]، وقيل من بينه: من بَيْنَ هذَا السَّحاب.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾؛ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: نحن لا نراها بأعيننا المجردة لا نرى أن المطر يتخلل هذَا السّحاب وينزل فيُقال أنَّه خبر صدق فيكون كالمشاهدة مَا دام أن الله تَعالَى أخبر بِهِ فإننا كأنما نشاهده بأعيننا ثمَّ أنَّه فِي الوقت الحاضر وجدت الآلات القوية الَّتِي يستطيع الإنسان بِها أن يرى كَيْفَ يخرج هذَا المطر: هذه النّقط من خلال السّحاب.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [بالوَدقِ ﴿مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، هذه جملة شرطية ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ ﴿إِذَا هُمْ﴾ تدُلّ عَلَى أن هؤلاء الذين أُصيبوا بالمطر أنهم فِي غاية الاشتياق إِلَيْهِ وَبها بمجرد مَا يصيبهم يحصل الاسْتِبْشَار، وقولنا بمجرد لَيْسَ نتيجة عن ترتب جواب

الشّرط عَلَى فعل الشّرط ولَكِنَّهُ نتيجة لِذَلِكَ وزيادة أمر آخر وَهُوَ الإتيان بـ (إذا) الفجائية الَّتِي تدُلّ عَلَى المفاجئة والسُّرعة.

إذَنْ: (إذَا) تفيد الشّرط وفعل الشّرط (أصاب) وجواب الشّرط جملة ﴿هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ المصدرة بـ (إذا) الفُجائية.

قُلْنَا: إن هذَا التّعبير يدل عَلَى أن هؤُلاءِ فِي غاية مَا يَكُون من الاشتياق إِلَى نزول الغيث وجه ذَلِك استبشارهم بمجرد الإصَابَة وليس استبشارا عاديا كترتب الجواب عَلَى فعل الشّرط ولَكِنَّهُ أبلغ لأَنهُ أتى بـ (إذَا) الفُجائية الدّالة عَلَى المبادرة لوجود ذَلِك الشّيء.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّر - رحمه الله -: [يَفْرَحُونَ بالمَطَر]، الاسْتِبْشَار أشد من مجرد الفرح بل هُوَ يستبشر بنفسه وربما يهنئ غيره ويبشره وَلهذا ففي أول مَا يأتي المطر فِي أيام موسم المطر تجد النَّاس إِذَا رأى بعضهم بعضا لا سِيَّما الَّذِين يأتون من البراري يقول أبشرك أنَّه قد نزل مطر وأنه كثير أو حسب مَا يكون، فالاسْتِبْشَار هُنَا أبلغ من مجرد الفرح لكن المُفَسِّرُ - رحمه الله - ربما يفسره بالتّقريب.

وقوْله تَعالَى: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ لا: "ما يشاء النَّاس" فالَّذي ينزل الغيثَ هُوَ الله - عز وجل - وليس أحد يستطيع أن ينزله، وأما مَا ذُكِرَ من أنهم الآن يُسلِّطون مَوَادَّ كيماوية عَلَى السّحاب فينزل المطر فإن صح هذَا الأمر فنقول: من الَّذي خلق هذَا المطر؟ الله - سبحانه وتعالى - والَّذي أوجد هذَا السّحاب هُوَ الله - سبحانه وتعالى - وكونهم يتوصلون إِلَى أسباب يتبخر بِها هذَا السّحاب حتى ينزل مطرًا هذَا لا ينافي أنْ يكُونَ الله - عز وجل - هُوَ الَّذي ينزل الغيث، ثمَّ إن قوله فِي الآية ﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ أبلغ من ينزل المطر إذ إن المطر قد ينزل ولا يَكُون غيثًا كما ثبت فِي صحيح مسلم: "لَيْسَ السَّنةُ أَنْ لَا تمطَرُوا إِنَما السَّنةُ أَنْ تمطروا وَلَا تُنْبِتُ الأَرضُ"، السّنة معناها الجَدْبُ والقَحْطُ يعني لَيْسَ السّنة أنَّه لا يأتي المطر، السّنة الحقيقية أن يأتي ولا يحصل نبات.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ المُرَادُ بالعباد هُنَا جمع عبد وَهِيَ العبودية العامة لأَنَّ المطر ينزل عَلَى المؤْمِنينَ وَعَلَى الكَافِرِينَ، بل ربما يَكُون نزوله عَلَى الكَافِرِينَ أكثر وأغدق وأشد استمرارًا، امتحانًا لهم لتُعَجَّلَ لهم طيباتهم فِي حياتهم الدّنيا كما قَالَ الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ

كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، أي بهذه الطّيبات ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، إِلَى آخره.

قوْله تَعالَى: ﴿وَإِن كَانُوا﴾ قَالَ المُفَسِّر: [وقد كانوا]، قدر (إنْ) بـ (قد) وتَبعَ فِي ذَلِك البَغَوِيَّ لأَنَّ الجلاليْنِ مأخوذ من البغوي يعني كأنه مختصر لَهُ لأنك إِذَا تأملت تفسيره - رحمه الله - وجدت أَنَّه هُوَ تفسير البغوي بعينه لكن البغوي مبسوط وَهذا مختصر، قَالَ - رحمه الله -: ﴿وَإِنْ﴾ قد]، ولا أحد من أهل النّحو قَالَ بِهذا القول إِلَّا أن يقوله عَلَى سبيل التّفسير فقط، والصّواب الَّذي لا شك فِيهِ هُوَ أن (إنْ) مخففة من الثّقيلة كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وَعَلَى هذَا فنقول (إنْ) أصلها (إنَّ) فخففت واسمها ضمير الشَّأْنِ محذوف والتّقدير وإنهم، وقد سبق أن القول الصّحيح من أقوال النّحويين أن ضمير الشّأن لا يقدر مفردًا مذكرًا وَإِنَّمَا يقدر بحسب السّياق إن كَانَ السّياق يقتضي التّأنيث فَهُوَ مؤنث وإن كَانَ السّياق يقتضي التّذكير فَهُوَ مذكر وإن كَانَ يقتضى الجمع فَهُوَ مجموع وإن كَانَ يقتضي التّثنية فَهُوَ مثنى.

إِذَنْ: أصله وإنهم كانوا لكن خففت (إنَّ) فحذف اسمها عَلَى أنَّه ضمير الشّأن ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ أي: من قبل أن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم المطر، وعرفنا أنَّ المراد بِهِ المطر من قوْله تَعالَى: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ فإن الودقَ إِذَا خرج من خلال السَّحاب ينزل إِلَى الأرْض.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ يعبر الله - عز وجل - عن نزول المطر بالإنزال والتّنزيل وَذَلِكَ لأَنَّ المطر أحيانًا يأتي دفعةً واحدة بكثرة وغزارة فيكون إنزالًا، وأحيانًا يأتي بالتّدريج ضعيفًا متقطعًا فيُسَمَّى تنزيلًا لأَنَّ التّنزيل معناه إنزال الشّيء شَيْئًا فشيئًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بالنّسبة لتغاير الإنزال والتّنزيل هل نقول أنزَلَ باعتبار المطر ككل وباعتبار أفراده نقول نَزَّلَ؟

فالجوابُ: لا، بل هُوَ باعتبار الكثرة والتّفريق، يعني بعد أيام يأتي، ثمَّ يأتي أيضًا قليلًا أحيانًا، مثلا يَكُون المطر يومين أو ثلاثة ولَكِنَّهُ قليل وأحيانًا يأتي كما هُوَ مُشاهد سُحبًا عظمية كأنها أفواه القرب.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ اختلف فِيها أهل العِلْم فقال بعضهم كما قَالَ المُفَسِّر رحمه الله إنَّها تأكيدٌ كقوْله تَعالَى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، كرَّر الفعل توكيدًا، هذَا قول وَهُوَ الَّذي مشى علَيْه المُفَسِّر وعليه أكثر المفسرين أن قوله ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل أن يُنزَّل عَلَيْهِم قَالَ: وإن كانوا من قبل أن ينزل عَلَيْهِم، من قبل أن ينزل عَلَيْهِم لَمُبْلِسِينَ، فيكون تكرارها للتوكيد.

وقال بعض المفسرين إنَّها كُررت للتأسيس لا للتوكيد، ومعلوم أنَّه إِذَا دار الكلام بَيْنَ أنْ يكُونَ توكيدا وأن يَكُون تأسيسًا فالأصل التّأسيس لأَنَّ الأصل عدم التّوكيد لأَنَّ التّوكيد تكرار والأصل عدم التكرار، ولينتبه للفرق فِي تعبير العلَماء - رحمه الله -، فالفرق بَيْنَ التّوكيد والتّأسيس أن التّوكيد معناه أن هذَا هُوَ الأول، والتّأسيس معناه أن هذَا غير الأول وأنه كلام مستقل.

وعَلَى القول بِأَنَّهُ تأسيسٌ فما معناه؟

قال بعضهم ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل الاسْتِبْشَار ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ﴾ من قبل الاسْتِبْشَار ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ فذكر الله لهم

حالين: قبل الاسْتِبْشَار وبعده، وهذا مَا مشى علَيْه أبو السّعود وَهُوَ جيد وليس فِيهِ إشكال من حيْثُ التّصور والمَعنَى، ويكون المَعنَى وإن كانوا من قبل إنزال المطر من قبل ذَلِك الاسْتِبْشَار لمبلسين فنبههم الله عَلَى حالهم قبل الاسْتِبْشَار وَهُوَ الإبلاس وَعَلَى حالهم بعد ذلك.

وقال بعضهم ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل قبل أن ينزل عَلَيْهِم ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ﴾ أي من قبل ذَلِك القبل فيجعلون الضّمير فِي قوْله تَعالَى: ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ لَيْسَ عائدًا إِلَى المطر ولا عائدًا إِلَى الاسْتِبْشَار وَإِنَّمَا يجعلونه عائدا إِلَى القبل فالمَعنَى عَلَى هذا: (وإن كانوا من قبل أن ينزل عَلَيْهِم من قبل ذَلِك القبل لمبلسين)، فيكون فائدتها أن الإِبْلاس مستمر معهم من قديم الزّمان فيأتي موسم لا يأتي فِيهِ مطر فيبلسون ثمَّ يأتي موسم آخر فيبلسون ثمَّ يأتي موسم آخر فيبلسون وهكذا، ومعلوم أنَّه إِذَا تكررت مواسم ولم ينزل مطر كَانَ أشد فِي الإِبْلاس ويكون المَغنَى أن هذَا الاسْتِبْشَار أتى بعد يأس مرتين فأكثر وَهذا أيضًا ذكره ابن كَثِير - رحمه الله - فِي تفسيره.

فصار لدينا فِي قوله: ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنَّه توكيدٌ.

القول الثّاني: أن الضّمير يعود عَلَى الاسْتِبْشَار.

القول الثّالثُ: أن الضّمير يعود عَلَى القَبْل.

أمَّا قوْله تَعالَى: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ فهي بالنّصب خبر لـ (كان) فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَإِن كَانُوا﴾ واقترنت (اللام) بِها من أجل (إنْ).

والاقتران هُنَا هل هُوَ واجب أو جائز؟

والجوابُ: إننا لو أسقطناها فسوف تشتبه (إنْ) المخففة بـ (إنْ) النّافية، فيفهمها البعض: لو كانت (وما كانوا من قبل أن ينزل عَلَيْهِم مبلسين)، يعني يستبشرون أنهم مَا أبلسوا ولا يئسوا، يعني: يستبشرون وإن كَانَ لَيْسَ عِنْدَهُم يأس من قبل، لذا فالظّاهر وجوب هذا الاقتران؛ لأنّها قد تشتبه بـ (إن) النّافية، أمَّا إِذَا لم تشتبه فلا يجب الاقتران هل هناك شاهد فِي كلام العرب لذلك؟ نعم قول الشّاعر:

.... وإن مالِك كانت كرَامَ المَعَادِن

يفتخر بِأنه من بني مالِك ثمَّ يقول: (وإن مالِك كانت كرام المعادن) هُنَا لا يمكن أن تشتبه (إنْ) بـ (ما) لأنهُ لا يمكن أن

يفتخر بقوم يسلب عنهم كرم المعدن لو تقول مثلا أنا من قبيلة هذه القبيلة مَا كانت كرام المعادن لا يستقيم.

فالحاصِلُ: أن اللام هُنَا للتوكيد ويسميها بعض العلَماء (اللام الفارقة)، وَهذا أدق فِي التّعبير وَهِيَ مَعَ كونها فارقة تفيد التّوكيد وَإِنَّمَا سموها اللام الفارقة لأنَّها تفرق بَيْنَ (إنْ) النّافية وبين (إنْ) المخففة.

إِنْ قَالَ قَائِل: هل يمكن أن تقترن باللام مَعَ كون (إنْ) بمعنى النّفي؟

فالجوابُ: لا، وَهذا هُوَ السّر فِي أنَّها فارقة لا يمكن أن تقترن بِها اللام لأَنَّ اللام تفيد توكيد الإثْبَات، والنّفي بخلاف ذَلِك، فالنّفي يفيد النَّفي.

قوْله تَعالَى: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ يقول المُفَسِّر - رحمه الله -: [آيِسينَ مِنْ إِنْزَالِهِ]، والإِبْلاس مثل القُنُوطِ أَشَدُّ اليَأْسِ ومنه سمي إبليس نعوذ بالله مِنْهُ لأنَّهُ مُبْلسٌ آيس من رحمة الله عز وجل.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائِدَةُ الأُولَى: كمال قدرة الله من خمسة أوجه:

أولًا: إرسال الرّياح.

ثانيًا: إثارتها السّحاب.

ثالثا: بسطه فِي السّماء.

رابعًا: جعله كِسَفًا.

خامسًا: نزول المطر منه.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أن السّماء يُطلَق عَلَى كل مَا على لقوْلِه - سبحانه وتعالى -: ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ﴾، فإِنَّهُ لا يُبسط فِي السّماء الَّتِي هِيَ السّقف المحفوظ وَإِنَّما يُبسط فِي الجو العالي.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: حكمةُ الله - عز وجل - فِي نزول المطر من أعلى لأَنَّهُ إِذَا نزل من أعلى عم النّازل والمرتفع بخلاف مَا لو كَانَ يجري فِي الأرض، لو كَانَ يجري فِي الأرض فإِنَّهُ يغرق النّازل قبل أن يصل إِلَى العالي.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: بَيان شدة افتقار الخلق إِلَى رحمة الله لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: إثْبَات المشيئة لقوْلِه تَعالَى: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: إثْبَات العبودية العامة لقوْلِه تَعالَى: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: جواز الاسْتِبْشَار بالمطر وأن يبشر النَّاس بعضهم بعضًا به.

ولننظر هل تصح هذه الفائدة أم لا؟ يعني: هل يمكن أن يؤخذ منْها جواز الاسْتِبْشَار بالمطر أو يُقَال إن هذَا خبر عن واقع فلا يتأتى مِنْهُ حكم؟

فيه احتمال أن يؤخذ منْها الاسْتِبْشَار بالمطر وفيه احتمال أنْ يكُونَ هذَا بيانًا للواقع فلا يؤخذ مِنْهُ حكم، وغاية مَا فِيهِ أن يُقَال إنَه مباح لأَنَ الله تَعالَى ذكره ولم ينكره.

الفائِدَةُ الثّامِنةُ: بَيان رحمة الله - عز وجل - لكون المطر ينزل نقطًا لا أنَّه ينزل دفعة واحدة؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ لأنَّهُ لو نزل كأفواه القرب أو كالأودية التِي تمشي لكان مدمرًا للمنازل مدمرًا للأشجار مؤثرًا عَلَى مَنْ ينزل علَيْه من حيوان ولكن الله - عز وجل - جعله بِهذا الرَّذاذ.

الفائِدَةُ التاسِعَةُ: بَيان حال العبد قبل نزول المطر وأن العبد ضعيف لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ فإِنَّهُ ضعيف إِذَا أصيب بشيء أَيِسَ واستبعد الفرج، ولكن الله - عز وجل - يزيل عنه هذَا الأمر، تؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾.

الآية (٥٠)

قَالَ اللهُ - عز وجل -: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

قال المُفَسر - رحمه الله -: ["فَانْظُر إِلَى أَثَرِ" وفي قراءة ﴿ءَاثر﴾].

قوْله تَعالَى: ﴿فَانظُر﴾ الخطاب لِلإِنْسَانِ لَيْسَ للرسول أي الخطاب لمن يتأتى خطابه، الرَسول - ﷺ - وغيره لأنَّهُ قَالَ فِي الآية التِي قبلها ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ ثم قَالَ هُنَا ﴿فَانظُر﴾ أي انظر أيها الإنسان (إلى أثرِ رحمةِ الله) وفي قراءة يقول المُفسر: ﴿آثَار﴾، والرّسم العثماني من فوائد التِزامه أنَّه لا

يتغير بتغير القراءات ﴿آثَارِ﴾ عَلَى مقتضى قواعد الرّسم العصرية تكتب بألف بَيْنَ الثّاء والرّاء، لكنها عَلَى قواعد المصحف العثماني لا يكتب فِيها ألف (أثر) شاء وراء فتصلح (آثار) وتصلح (أثر).

وقوْله تَعالَى: ﴿إِلَى آثَارِ﴾ و(إلى أثر) لا فرق بَيْنَهُما فِي الجملة من حيث المعنَى لأَنَّ (آثار) مضاف فيفيد العُمُوم و(أثر) مضاف فيفيد العُمُوم أيضًا؛ لأَنَّ المفرد إِذَا أضيف أفاد العُمُوم فأثر وآثار من حيْثُ الجملة لا فرق بَيْنَهُما لأَنَّ قوله: (أثر رحمة الله) بمعنى آثار لكن الفرق بَيْنَهُما من حيْثُ المَعنَى الخاص أن أثر يشمل الجنس باعتباره شَيْئًا واحدًا، وأما آثار فتشمل الجنس باعتباره أنواعًا.

كيف باعتباره أنواعًا؟

مثلًا أثر المطر يخرج بِهِ الزّرع ويخرج بِهِ الشّجر ويخرج بِهِ شيء صغير وشيء كبير وشيء لَهُ أشجار مُفَطَّحَةٌ، وشيء لَهُ أشجار دَقِيقَةٌ كالعيدان، فلِهذا تعتبر هذه آثارا باعتبار أنواعها، ثمَّ أيضًا الآثَار تختلف من أرض إِلَى أرض، هذه الأرض تُنْبِتُ كذا وهذه الأرض تنبت كذا هذه ينبت فِيها الكلأ وهذه لا ينبت

وهكذا فهي آثار باعتبار الأنواع، أمَّا باعتبار الجنس وأن كله حصل بسبب المطر فَهُوَ شيء واحد وَهذا هُوَ الفرق الخاص بَيْنَ أثر وآثار.

قال المُفَسِّر - رحمه الله -: ﴿آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ أي نعمته بالمطر].

وقد سبق أن الرّحمة فِي مثل هذَا يصح أن تكون اسمًا للمخلوق ويصح أن تكون من صفات الله، فإن كَانَ المُرَاد الأثر المباشر فالمُرَاد بالرّحمة المطر لأَنَّ هذَا النّبات نبت بالمطر، كان كَانَ المُرَاد السّبب غير المباشر فالمُرَاد بالرّحمة صفة الله يعني لكون الله جَلَّ وَعَلَا رحيمًا، فهذه من آثار الرّحمة أنَّه ينزل المطر وتنبت بِهِ الأرْض ويزول بِهِ القحط، فالآية صالحة لهذا وَبهذا.

قوْله تَعالَى: ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ هذَا مما يرجِّح أن المُرَاد بالرّحمة: رحمة الله: الصّفة ﴿كَيْفَ يُحْيِ﴾ هُوَ أي بالرّحمة سبحانه وتعالى: ﴿يُحْيِ الْأَرْضَ﴾ يجعلها حيَّة ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ قَالَ المُفَسِّر - رحمه الله -: [أيْ يُبْسها]، وحياة كل شيء بحسبه فالأرض اليابسة الَّتِي لَيْسَ فِيها خضار تسمى ميتة لَيْسَ فِيها شيء حي، فإذا نزل علَيْه المطر وحيّى النّبات سميت حية ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وَهذا دليل عَلَى قدرة الرّب - عز

وجل - وَعَلَى رحمته، لأَنَّ من يقدر عَلَى أن يفلقَ النَّوَى فِي باطن الأرض حتى يخرج مِنْهُ هذَا النّبات النّامي هل أحد يقدر عَلَى هذا؟ لا أحد يقدر؛ وَلهذا قد جاء فِي الحديث الصّحيح القدسي: "فَلْيَخْلُقُوا حَبَّة أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَة"، ولا يستطيع أحد منهم ولا من غيرهم أن يخلق هذا، ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥)﴾ [الأنعام: ٩٥].

قوْله تَعالَى: ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني انظر إِلَى الكيفية والقُدرَة كَيْفَ هذهِ الأرض الَّتِي كانت غبراء كأنها محترقة أصبحت الآن روضة خضراء.

قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رحمه الله: [أي يبسها بأن تنبت ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾].

قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ هذَا الكون العظيم لا يمكن أنْ يكُونَ عبثًا، يخلَقُ بشر عاقل، يعرف، ويعقل ويتصرف ويقتل بعضه بعضًا وينهب بعضه بعضًا ويسالِم بعضه بعضًا والنّتيجة أن يكونوا ترابًا، هذَا لا يمكن أبدًا، يعني لو تصوره الإنسان أدنى تصور لوجد أن العقل يدل دلالة قطعية عَلَى أنَّه لا

بُدَّ من بعث ومجازاة وإلا لكانت الدّنيا كلها عَبَثًا، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧)﴾ [ص: ٢٧].

أَلَسْنا نشاهد مَنْ يخالِفُنا فِي العمل، ومن يخالِفنا فِي الأخلاق، ومن يخالِفنا فِي العقيدة ونتألَّم من ذَلِك، لولا أن الله يسلي الرَّسول - ﷺ - ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء: ٣]، وما أشبه ذَلِك مما يسليه بِهِ لتقطع قلبه - ﷺ - نحن الآن نتألم لمن يخالِفنا فِي العقيدة ومن يخالِفنا فِي الأخلاق ومن يخالِفنا فِي الأعمال، هذَا الألم يؤثر علينا ولكن يقول الله - عز وجل -: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، لكن هناك فارق ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

فالحاصِلُ: أن هذَا الكونَ العظيم لا يمكن أنْ يكُونَ عَبَثًا هكذا يحيا ثمَّ يَكُون ترابًا، والله - عز وجل - يحيى الموتى لَيْسَ بني آدم فقط ولكن بنو آدم وغيرهم ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿وَإِذَا

الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥)﴾ [التكوير: ٥]، وأخبر النَّبيّ - ﷺ - أن البهائم يُقْتَصُّ من القَرنَاء لِلْجَلْحَاء، حتى البهائم يقضى بينها وَلهذا نقول قوْله تَعالَى: ﴿الموتى﴾ لا يختص بالإنسان فقط بل بالإنسان وغير الإنسان.

ثم أكد إحياء الموتى بمؤكَّدٍ آخر فِي الجملة الَّتِي بعدها وَهُوَ قوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

إِذَنْ: فقد أُكِّد أحياء الموتى بمؤكديْن لفظييْن ومؤكديْن معنوييْن.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كل شيء الله قادر علَيْه بدون استثناء كل مَا تتعلق بِهِ القدرَة ويمكن أنْ يكُونَ قادرًا علَيْه، فإن الله تَعالَى قادر، عَلَى كل شيء قدير، لَيْسَ عَلَى مَا يشاء فقط بل عَلَى مَا يشاء وما لا يشاء، فهداية الكافر الَّذي مات عَلَى كفره الله قادر عَلَيْها، مَا شاءها وَهُوَ قادر عَلَيْها، فلا تختص قدرته بما شاءه، وَبِهذَا نعرف أن تعبير بعض النَّاس: (أنَّه عَلَى مَا يشاء قدير) أنَه لا ينبغي، بل قل كما قَالَ الله عن نفسه: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، وأما حديث الرّجل الَّذي يبعثه الله يَوْم القِيَامَة، ذكر القصة وفيها أن الله

قَالَ لَهُ: "إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِر"، فهذه لَيْسَ المُرَاد بِها وصف الله بالقُدرَة مطلقًا بل وصف الله بالقدرَة عَلَى هذَا الشّيء المعين الَّذي استبعده المخاطَب، فالله يقول قد شئته فأنا قادر علَيْه وَكَذلِكَ قوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ فالقيد بالمشيئة هُنَا لَيْسَ عائدًا عَلَى القُدرَة لكِنَّهُ عائد عَلَى الجمع، الشّيء المعين يمكن أن تقيده بالقُدرَة، أمَّا إِذَا أردتَ وصف الله بالقُدرَة فلا تقيدها بالمشيئة، ففرق بَيْنَ أن تُعَلَّق القُدرَة بشيء معين خاص وبين أن تُذْكَرَ عَلَى سبيل الوصف العام لله، إِذَا كانت وصفًا عامًّا لله، فالله تَعالَى مَا ذكر قَيْدَ المشيئة أبدًا ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧]، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وما أشبه ذلك.

والقُدرَة ضد العجز انظر إِلَى قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)﴾ [فاطر: ٤٤]، وأتى بالعِلْم هُنَا لأَنَّ العاجز قد يعجز لعدم علمه بالشّيء، مهندس لكن فِيهِ روماتيزم لا يقدر أن يتحرك، قلنا لَهُ اصنع هذه السّيارة لا يقدر لأَنَّهُ لَيْسَ عنده القُدرَة؛ لأَنَّهُ

عاجز لا يقدر أن يتحرك، وآخرُ نشيط يحمل الحجر الَّذي أكبر مِنْهُ لكِنَّهُ لا يعرف الصّناعة أبدًا قلنا لَهُ اصنع سيارة قَالَ لا أقدر؛ لعدم العلم، فانتفاء القُدرَة قد يَكُون لعدم العِلْم وقد يَكُون لعدم القُدرَة الحسية لَيْسَ عنده علم لَيْسَ عنده شيء يعني عاجزًا.

ذكر صاحب هذَا التّفسير هذَا فِي قوْله تَعالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)﴾ [المائدة: ١٢٠]، آخر سورة المائدة، ذكر عبارة منكرة - والله أعلم - مَا أراد بِها سوءًا فقَالَ: [وخص العقلُ ذاتَه فليس عَلَيْها بقادرٍ]، يعني أن العقل يقتضي تخصيص ذات الله فالله لا يقدر عَلَيْهَا هذَا لَيْسَ بصحيح بل الله عَلَى كل شيء قدير وَبهذا الله تَعالَى استوى عَلَى العرش بفعله وقدرته، ينزل إِلَى السّماء الدّنيا، يأتي للفصل بَيْنَ عباده، يتكلم بما أراد، كل هذَا مما يتعلق بذاته وَهُوَ قادر علَيْه.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الله يقدر عَلَى إماتة فلان هل يقدر عَلَى أن يميت نفسه، هذَا لا يمكن لا لانتفاء القُدرَة لكن لأَنَّ هذَا أمر لا يليق بِهِ وَهُوَ أشد من العجز.

فنَقُول: امتناع هذَا لأَنَّهُ مستحيل عَلَى الله - عز وجل - وَبهذا السّفاريني - رحمه الله - فِي العقيدة لما ذكر صفة القُدرَة قال:

بِقُدْرَةٍ تَعَلَّقَتْ بِمُمْكِن .....

أما المستحيل فَهُوَ مستحيل، لا يمكن، المستحيل أصله مستحيل لا تتعلق بِهِ القدرة.

يُقَال إن الشَّيطان يفرح إِذَا مات العالِم، يفرح فرحًا عظيمًا وَإِذَا مات العابد لا يهمه، قَالَ جنوده لَهُ كَيْفَ تفرح لموت العالم هذَا الفرح ولا تفرح لموت العابد الَّذي طول نهاره فِي المحراب؟ قَالَ نعم لأَنَّ العالم أشد علينا من العابد وَإِذَا شئتم أن أضرب لكم مثلًا الآن، فذهب إِلَى العابد وقال لَهُ هل يقدر الله سبحانه وتعالى أن يجعل السّموَات وَالأرض فِي جوف بيضة؟ قَالَ العابد لا يقدر، قَالَ هل يقدر الله أن يخلق مثله؟ قَالَ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، يمكن أن يقدر أن يخلق مثله هذَا غير صحيح وغير ممكن فذهب إِلَى العالم فقال لَهُ مثل هذَا القول، قَالَ أمَّا خلق مثله فَهذَا شيء مستحيل ولا يمكن للمخلوق أنْ يكُونَ مثل الخالِق أبدًا مهما كان، وأما كونه يجعل السّموَات وَالأرض فِي جوف بيضة فَهُوَ عَلَى كل

شيء قدير، قَالَ الشّيطان: انظروا المِسْكِين العابد كفَرَ من وجهين أثبت مَا لا يمكن ونفى مَا يمكن، وهذا حقيقة يعني: أن العباد مثل مَا قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: "مَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فَفِيهِ شَبهٌ مِنَ اليَهُودِ، واليَهُودُ أَخْبَثُ مِنَ النَّصَارَى"، لا شك لأَنَّ العالمَ فساده - والعياذُ باللهِ - عن عِلم، والعابدَ فسادُه عن جهلٍ، وما كَانَ عن جهل فَهُوَ أَهْوَنُ مما كَانَ عن علم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بالنّسبة لقول من قَالَ إنَّه عَلَى مَا يشاء قدير، يمكن نستخلص قاعدة وَهِيَ أن الصّفات الذّاتية لا تناقض المشيئة والصّفات الفعلية تناقض المشيئة؟

قُلْنَا: صحيح، هذه القاعدة، فالقاعدة عِنْدَهُم أن الصّفات الذّاتية هِيَ اللازمة للذات والفعلية مَا تتعلق بالمشيئة هذه قاعدتهم.

وَلَوْ قَالَ قَائِل: كَيْفَ تعبير القرآن مرة بالإنزال، ومرة بالتَّنزيل؟

قُلْنَا: إِذَا وَرَدَ أنَه منزل مثل ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)﴾ [القدر: ١]، يَكُون المُرَاد كإنزالنا يعني أنزلنا جملةً مِنْهُ لَيْسَ كله، فأما التَّنزيل فإِنَّهُ يَكُون نازلًا شَيْئًا فشيئًا كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا

(١٠٦)﴾ [الإسراء: ١٠٦]، مَعَ أنَّه قد يأتي التّنزيل لشيء وقع جملةً واحدة مثل قوْله تَعالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، فعلى هذَا تكون القاعدة الَّتِي ذكرها أهل العِلْم فِي هذه المَسْأَلة قاعدة أغلبية ليست لازمة.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأُولَى: الأمرُ بالنَّظر ويكون بالعين الباصرة وبعين البصيرة أيضًا فالأمر هُنَا بالنّظر للوجهين جَمِيعًا الإنسان ينظر بعينه الباصرة وبعين البصيرة.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أن النّظر كما يَكُون نافعًا لِلإِنْسَانِ فَهُوَ مأمور بِهِ شرعًا أي بمعنى ثواب الإنسان أو إثابة الإنسان عَلَى النَّظر فِي آيات الله لأنَّهُ مأمور به.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أن الآثَار الَّتِي تنتج عن المطر كلها من رحمة الله إحياء الأرض بالنّبات وكثرة المياه فِيها كله من رحمة الله - عز وجل -.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: إثْبَات قدرة الله تَعالَى عَلَى إحياء الموتى لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: الاسْتِدلالُ بالمحسوس المنظور عَلَى المحسوسِ المنتظر، المحسوسُ المنظور مَا يحصل من حياة الأرْض، والمحسوس المنتظر مَا يحصل من إحياء الموتى.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّه لا بُدَّ أنْ يكُونَ الدّليل أجلى وأظهر من المدلول علَيْه بمعنى أنَّه لا يمكن أن نستدل بالأخفى عَلَى الأظهر والأوضح؛ لأَنَّ الدَّليلَ مُعَرِّفٌ للمدلولِ ومُبَيِّنٌ لَهُ فكيف يمكن أن تستدلَّ بشيء خفي عَلَى شيء واضح؟

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: رحمة الله تَعالَى بعباده حيْثُ يضرب لهم الأمثالَ ويبيِّن لهم الأدلةَ ليتوصلوا إِلَى اليقين فيما يجب الإِيمَان بِهِ؛ لأنَّهُ يكفي أن يقول الله - عز وجل - آمنوا بأني أحيي الموتى، يكفي فِي إقامة الحجة عَلَيْهِم، لكن من رحمته أنَّه يُبَيِّن لنا ويضربُ لنَا الأمثالَ لنصل إِلَى درجة اليقين فيما أخبرنا بِهِ، نأخذه مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنةُ: نعمةُ الله عَلَى العباد بإحياءِ الأرض لقوْلِه تَعالَى ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أنَّ الجمادَ يوصف بالحياةِ والموتِ، ففيه رَدٌّ عَلَى الفلاسفة الَّذِين يقُولونَ إن الجماد لا يمكن أن يوصف بالحياة والموت؛ لأنَّهُ غير قابل لها؛ فنقول إن الله تَعالَى وصف الجماد بِأنَّهُ حي وميت كما فِي هذه الآية وكما فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠)﴾ [النحل: ٢٠]، مَعَ أنَّها أصنامٌ من الأحجار والأشجار وما أشبهها.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: ثبوتُ صفة القُدرَة وعُمُومِها لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجِزُهُ شيء فِي السّماوات ولا فِي الأرض.

الآية (٥١)

* قَالَ اللهُ - عز وجل -: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١)﴾ [الروم: ٥١].

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَئِنْ﴾ اللام هُنَا لام قسم دخلت عَلَى (إن) الشّرطية، وقوْله تَعالَى: ﴿لَظَلُّوا﴾ هذَا هُوَ الجواب، لَكِنَّهُ جواب لأيهما: للشرط أو للقسم؟ هُوَ جواب للقسم؛ لأنَّهُ لو كَانَ جوابًا للشرط مَا احتاج إِلَى اللام، الفعل الماضي يُجاب بِهِ الشَّرط بدون واسطة، وأيضًا فإن القاعدةَ عند أهل العِلْم بالعربية أنَّه إِذَا اجتمع شرط وقسم يحذف جواب المتأخر منْهُما، قَالَ ابن مالِك - رحمه الله -:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَم ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهُوَ مُلْتَزَم

فالقَسَمُ دَلَّ علَيْه اللام الموطئة للقسم، ويوجد شرط (إنْ) والجوابُ الآن للقَسَمِ ﴿لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ وجوابُ الشَّرط محذوف دل علَيْه جواب القسم ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ انظر الفرق فِي الأول يقول الله - عز وجل -: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ وهنا قَالَ: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ مفرد، وقد ذكرنا سابقًا أن الجمع يَكُون رحمةً، والإفرادَ يَكُون عذابًا هذَا الغالب.

قوْله تَعالَى: ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾: (رأوه) الضّمير لا يعود عَلَى الرّيح لكِنَّهُ يعود عَلَى مَا حَيِى بالماء الَّذي نزل من السَّماء؛ لأنَّهُ تقدم قوْله تَعالَى: ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، يعنى: ولئن

أرسلنا رِيحًا فرأوا هذَا الَّذي حَمِى مصفَرًّا يعني يابسًا حطيمًا بهذه الرّياح ﴿لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾.

نقرأ كلام المُفَسِّر رحمه الله: [﴿وَلَئِنْ﴾ يقول لام قسم ﴿أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ مُضِرَّةً عَلَى نباتٍ ﴿فَرَأَوْهُ﴾]، الضّمير يعود عَلَى النّبات ثمَّ قَالَ - رحمه الله -: " [﴿مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا﴾ صاروا جوابَ القسم ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد أي بعد اصفراره ﴿يَكْفُرُونَ﴾ يَجْحَدُونَ النّعمَةَ بِالمَطَر]، يعني أن الله - عز وجل - إِذَا أحيا الأرض بعد موتها وأرسل عَلَيْها ريحًا فاصفر النّبات وبعد اصفراره سيتلف امتحانًا مِنْهُ جَلَّ وَعَلَا لكانوا من بعد هذَا الاسْتِبْشَار وبعد أن رأوا آثار الرّحمة صاروا يَكْفُرُونَ ﴿لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ يقُولونَ: كَيْفَ هذَا يأتي المطر وينزل وتحيا الأرض ثمَّ تأتي هذه الرّيح فتهلكه فيَكْفُرُونَ - والعياذُ باللهِ - وينسون نعمة الله السّابقة، وَهذا من الامتحان وَهُوَ داخل فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]، وكان عَلَيْهِم إِذَا أرسل الله هذه الرّيح واصفر النّبات بِها كَانَ عَلَيْهِم أن يقابلوا ذَلِك بالصَّبر لا بالكفر، بالصّبر عَلَى هذه البلية فإن الصّابر يوفى

أجره بِغَيْر حسابٍ، وربما تزولُ هذه المحنة إِلَى نعمة أُخْرَى لأَنَّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، ويقول: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦]، ويقول: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، فالمُؤْمِنُ يصبر عند البلاء ويشكرُ عند الرَّخاء.

الآية (٥٢)

قَالَ اللهُ - عز وجل -: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢)﴾ [الروم: ٥٢].

قوْله تَعالَى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ الخطاب للنبي - ﷺ - ويجوز أنْ يكُونَ الخطابُ عامًّا لكل من يَتَأتّى خِطَابه ﴿لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾، يعني لا تُسْمِعُهم سماعًا ينتفعون بِهِ أو لا تسمعهم حين الدّعوة، والأقرب الأول لأَنهُ لَيْسَ من المعقول أن أحدًا يقف عَلَى الأموات ويقول يا أيها النَّاس اعبدوا الله واتقوه، هذَا لَيْسَ بمعقول لكن لو فرض أنَّه دعا فهل يسمعون سماعًا ينتفعون به؟

الجوابُ: لا يسمعون سماعًا ينتفعون به.

فَإِذَا قَالَ قَائِل: هذَا تقييدٌ للآية، الآيَة مطلقة ﴿لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ فكيف ساغَ لكم أن تقيدوها بقولكم: (سماعًا) ينتفعون به؟

قُلْنَا: إن نفي السَّماع يطلق عَلَى نفي السَّماع النَّافع كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١)﴾ [الأنفال: ٢١]، هم يسمعون بآذانهم لكن لا يسمعون سماعًا ينتفعون به، ولا نحمله عَلَى الإطلاق لأَنَّ سماع الموتى قد وردت بِهِ الآثَار، فإن رسول الله - ﷺ - ثبت عنه أنَّه وقف عَلَى أصحاب قَلِيبِ بَدرٍ من المشرِكِينَ وجعل يدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: "يا فُلان بن فُلان، يا فلان بن فلان، هل وَجَدتُم مَا وَعَدَ ربكم حَقًّا؟ فَإِنَّا قَدْ وَجَدنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنا حَقًّا" فقال عمر: يا رسول الله مَا تخاطب من قوم قد جَيَّفُوا يعني كَيْفَ تخاطب الجِيَفَ، موتى، فقَالَ: "مَا أنتُم بِأَسْمَعَ لمَا أقولُ مِنْهُم"، يعني هم يسمعون أشد من سماعكم، فإذًا ثبت أن الموتى يسمعون، وَكَذلِكَ صحيح ابن عبد البَرِّ رحمه الله حديثًا ورد عن الرَّسول عليه الصلاة والسلام "أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَى مَيِّتٍ كَانَ يَعرِفُهُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا رَدَّ الله عَلَيْهِ رُوحَهُ فَرَدَّ عليه السلام"، وَهذا

ذَكَرهُ ابْنُ القَيِّمِ فِي كتاب الرُّوح، وذكر تصحيح ابن عبد البَرِّ لَهُ ولم يتعقبْه، وَعَلَى هذَا فهم يسمعون لكنهم لا ينتفعون بِهذا السّماع، ووردت آثار أيضًا عن الصّحابة فِي هذَا الأمر ذكرها ابن كَثِيرٍ عند هذَا الآية، وثبت أيضًا فِي الصّحيح: "أنَّ الإنْسَانَ إِذَا انْصَرَفَ عَنْهُ أصْحَابُهُ بَعدَ الدَّفْنِ حَتَّى إِنَّه لَيَسْمَعُ قرعَ نِعَالهم أتاهُ مَلَكَانِ يَسْمَعُ قرعَ نِعَالِهم"، عَلَى الأرض كما يمشي الإنسان عَلَى السّقف فيسمع مشيه عَلَى السّقف وَهذا أيضًا يقول يسمع قرع النّعال، ولكن الله تَعالَى يجعلهم يسمعون ذَلِك.

فالحاصِلُ: أننا نقول كل هذَا يؤيد أن المَعنَى ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ يعني سماعًا ينتفعون بِهِ ومعلوم أن الرَّسول - ﷺ - مَا دعا الموتى، مَا ذهب إِلَى القبور يدعوهم، ولكن الَّذِين يدعوهم من الأحياء كالموتى لا يستجيبون ولا ينتفعون بالدّعوة.

قوْله تَعالَى: ﴿الصُّمَّ﴾ مفعولٌ أول، و﴿الدُّعَاءَ﴾ مفعولٌ ثانٍ أمَّا ﴿لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾، الأولى فقد حذف المفعول الثّاني لأَنَّ هذَا فَضْلَةٌ وقد سبق أنَّه يجوز حذف الفَضْلَةِ ولو بلا دليل.

قوْله تَعالَى: ﴿الصُّمَّ﴾ جمع أصم وَهُوَ الَّذي لا يسمع، الَّذي لا يسمع لا تستطيع أن تسمعه لا سِيَّما إِذَا اقترن بِهِ الإدبار ﴿إِذَا

وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ وَهذا أشد مَا يَكُون انتفاء السّماع عن الأصم، فَهُوَ لا يسمع ولو كَانَ مقابلًا لك، فيكف إِذَا أدبر؟ ! يَكُون أعظم وأعظم، وَبهذا فالأصم إِذَا كَانَ أمامك ودعوته بصوتٍ ربما يسمع لكن إِذَا ولى مهما دعوته لا يسمع إِلَّا إِذَا أدركته فمسكته، فالصّم إِذَا ولوا مدبرين لا يسمعون وَإِنَّمَا قَيَّدَ الله عز وجل الصّم بهذه الحال لأنَّها هِيَ الحال الَّتِي لا يسمعون بِها مطلقًا بخلاف مَا إِذَا كانوا أمامك فإنهم قد يسمعون ويستدلون عَلَى مَا تقول بحركات شفتيك.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ قَالَ المُفَسِّر - رحمه الله -: [بِتَحقِيقِ الهمزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ بَيْنَها وَبَيْنَ اليَاءِ]، ﴿الدُّعَاءَ إِذَا﴾ هذَا تحقيقٌ. وتسهيلُ الثَّانية بينها أي بَيْنَ الهمزة المحققة وبين الياء، أي: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا﴾ تجعلها بَيْنَ الهمزة وبين الياء والقراءتان سَبْعِيّتَانِ.

الآية (٥٣)

قَالَ اللهُ - عز وجل -: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الروم: ٥٣].

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ انظر الآن انتقال الموتى، الصُّم، العُمْي ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾: (ما) حجازية و(أنت) اسمها و(الباء) حرف زائد و(هادِ) خبرها.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي﴾ اسم فاعل ﴿بِهَادِ الْعُمْيِ﴾ العُمْيُ جمع أعمى لأَنَّ أَفْعَلَ جمعُه فُعل قَالَ ابن مالِك - رحمه الله -:

فُعْل لِنَحْوِ أَحْمَر وحَمْرَا ... ...

أَحْمَر مثل أعمى، وحَمرَاء مثل عَمياء، فَعُمي جمع للذكور والإناث.

قوْله تَعالَى: ﴿عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ ضلالتّهم يعني متاهتهم إِذَا تاهوا فِي الطّريق، فما أَنْتَ بهادي العمي عنه، فكَذَلِكَ هؤُلاءِ الَّذِين عموا عن الحق - والعياذُ باللهِ - فلا يرونه وصموا عنه فلا يسمعونه وماتوا عنه فلا يفقهونه هؤُلاءِ أيضًا لا تستطيع أن تهديهم، فتأمل الآن فِي مَسْأَلة الموت ومَسْأَلة الصَّمَمِ، قَالَ إنَّك لا تُسمِعُ الموتى ولا تسمع الصّم، وفي باب العمى قَالَ: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ﴾ مَا قَالَ مَا أنْتَ بمبصر؛ السّبب لأَنَّ البصر تتعلق بِهِ الدّلالة وَهِيَ الهداية بخلاف الصَّمَمِ فيتعلق بِهِ السّمع.

قال المُفَسِّر - رحمه الله -: [﴿إِنْ﴾ مَا ﴿تُسْمِعُ﴾ سماعَ إفهام وقبول ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ القرآن ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾].

فسر المُفَسِّر - رحمه الله -: (إنْ) بـ (ما) التفسيرية؛ وَلِهذا لا تدغم بـ (إن) لا يُقَال (إمَّا) بل يُقَال (إن) ثمَّ يُقَال (ما) عَلَى سبيل الإظهار لأَنَّ (ما) تفسير لها فهي هي.

قوْله تَعالَى: ﴿تُسْمِعُ﴾ قَالَ المُفَسِّر - رحمه الله -: [سماع إفهام وقبول، مَا تسمع ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ القرآن ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾]، أي فبناءً عَلَى إيمانهم هم مسلمون منقادون؛ لأَنَّهُ كلما تم الإِيمَان تم الانقياد، فكلما كَانَ الإنسانُ أقوى إيمانًا فإِنَّهُ يَكُون أعظم انقيادًا؛ وَبها فإن الإِيمَان يستلزم الإسْلامَ، كل مؤمنٍ مسلمٌ ولا عَكْسَ، فليس كل مسلم مؤمنًا، قد يستسلم الإنسان ظاهرًا وقلبه مُنْطَوٍ عَلَى الكفر - وَالعياذُ بِاللهِ - بخلاف الإِيمَان، وَبهذا رتَّب عَلَى الإِيمَان، الإسْلام بالفاء ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ فهم من أجل إيمانهم مسلمون منقادون.

قوْله تَعالَى: ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ قَالَ المُفَسِّر: إنَّها القرآن، مَعَ أن آيات جمع وليست مفردًا، فما هُوَ الجواب عن قول المُفَسِّر - رحمه الله -؟

الجوابُ: أن فِي قَوْلِهِ قُصورا، والحق أن المُرَاد بالآيات مَا هُوَ أعم من القرآن فيشمل جميع الكتب المنزلة ويشمل كَذَلِكَ الآيَات الكونية بأن يؤمن بأن هذَا الكون خلقه الله - عز وجل - لأَنَّ من النَّاس من لا يؤمن بالآيات الكونية انظر ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾، ماذا يقولون: شيء طبيعي، يقُولونَ: الكون مادة وطبيعة تتفاعل وَينتجُ بعضها من بعض وما أشبه ذَلِك مَا آمنوا بالآيات.

والآيَات الشّرعية كَذَلِكَ، فمن النَّاس من لا يؤمن بها، ويكذبُ بأخبارها ويستكبرُ عن أحكامها، وَهذا كثيرٌ.

إِذَن: الصّواب أن المُرَاد بقوْله تَعالَى: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ لا يشمل الآيات الشّرعية كلها لكل الكتب النّازلة والآيات الكونية كلها؛ لأَنَّ من النَّاس من ينكر الآيات الكونية كما هُوَ معلوم.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ معلومٌ أن المُؤْمِنَ سامعٌ فكيف يقول: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ﴾ والمُؤْمِنُ سامع فكيف نُجِيبُ عن هذا؟

فالجوابُ: عن هذَا من أحد وجهيْن:

- إمَّا أن يُقَالَ: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ﴾ أي إِلَّا من كَانَ مستعدًا للإيمان بما تقول ومكتوب عند الله - عز وجل - أنَّه مؤمن بحيث إن الله قدر لَهُ ذَلِك فَهذَا يسمع وينتفع، وَهذا أمر غير معلوم للرسول - ﷺ - لكن يجب علَيْه أن يبذلَ الدَّعوة فيُسمِعُها من كَانَ فِي عِلْمِ الله أنَّه مؤمن وكان مستعدًا للإيمان هذَا وجه.

- أو يُقَال: إن الدّين شرائعُ لَيْسَ شَيْئًا واحدًا بل هُوَ شرائعُ وشعائرُ متعددة، فالَّذي ينتفع بهذه الشّعائر ويطبقها هُوَ المُؤْمِن بِها يعني الَّذي يسمع مَا يتلقى بعد ذَلِك من شعائر الإسْلام وشرائعه، هذَا المُؤْمِن الَّذي وقع الإِيمَان مِنْهُ فعلًا هُوَ الَّذي يسمع كل مَا دعا إِلَيْهِ الرَّسول - ﷺ - من جميع شرائع الدّين وَعَلَى قول من يثبتون للدين أصولًا وفروعًا نقول أصول الدّين وفروعه.

لكن شيخ الإسْلام ابن تيمية يقول: "إن تقسيم الدّين إِلَى أصول وفروع قولٌ مُبْتَدَع لا دليل علَيْه"، وَهُوَ صحيح لا تجد فِي القرآن والسّنة أصولًا وفروعًا فِيها مَا يدل عَلَى الرّكنية يعني عَلَى أن هذَا ركن كما فِي قوله: "بُنيَ الإسْلامُ عَلَى خَمْسٍ"، أمَّا أنْ نقولَ أصولٌ وفروع؛ فشيخ الإسلام رحمه الله أنكرَ هذَا لا

لأنَّهُ مجُرَّدُ اصطلاحٍ، فلا مُشَاحَّةَ فِي الاصطلاحِ، لكِنَّهُ توصل بِهِ إِلَى أمورٍ منكَرةٍ، فقَالُوا مثلًا لا نَحتَجُّ بأخبار الآحَادِ فِي أصول الدِّين وجعلوا هذَا بابًا يَلِجُونَ بِهِ إِلَى إنكارِ الصِّفات وإلى إنكار مَا ورد فِي أخبار اليوم الآخر وما أشبه ذلك.

قوْله تَعالَى: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ المُؤْمِنُ مسلمٌ ظاهرًا وباطنًا، والمنافق مسلم ظاهرًا لا باطنًا، والمعلِنُ بكفره لَيْسَ مؤمنًا لا ظاهرًا ولا باطنًا، والنَّاس لا يخرجون عن هذه الأحوال الثّلاثة:

- مَنْ كَفَرَ ظاهرًا وباطنًا.

- ومَنْ آمن ظاهرًا وباطنًا.

- ومَنْ آمن ظاهرًا لا باطنًا.

- توجدُ قسمةٌ رابعةٌ وهي: مَنْ امن باطنًا لا ظاهرًا، وَهذا لا يمكن، صحيح أنَّه قد يَكُون ضعيف الإِيمَان فتجد فِيهِ مخالَفاتٍ فِي ظاهره كالمُؤْمِن الفاسق، أمَّا أنَّه يَكُون لَيْسَ عنده إسلام أبدا فَهذَا لا يمكن.

الآية (٥٤)

* قَالَ اللهُ - عز وجل -: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

قوْله تَعالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ هَذهِ الآية سِيقَتْ لِبيانِ حالِ الإنسانِ وكمالِ قدرةِ الله - عز وجل - قَالَ: ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأٌ و﴿الَّذِي﴾ خبرُه.

قوْله تَعالَى: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ يُقَال بفتح الضَّاد وبضمها، ضمها لغة الحجازيين، وفتحها لغة بني تميم، وَبهذا يروى عن ابن عُمَرَ - رضي الله عنه - أنَّه قَالَ: أَقْرَأَنِي رسولُ الله - ﷺ - مِنْ ضُعفٍ بِضَمِّ الضَّادِ، "خَلَقكم مِنْ ضُعفٍ" لكنَّ الحديثَ ضعيفٌ، إنما ذكروا أن الضّاد مفتوحة ومضمومة قِراءَتَانِ سبعيتان، فقراءة الضَّم صحيحة وأي إِنْسَان يقرأ بكل قراءة ثابتة فَهُوَ صحيح.

قوْله تَعالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ مَا هُوَ الضَّعف؟

يقول المُفَسّر - رحمه الله -: [ماء مَهِين]، فجعل الضَّعف هُوَ النُّطفة لأنَّهُ كما قَالَ عز وجل: ﴿مَاءٍ مَهِينٍ﴾ و(مِنْ) هُنَا للابتداء كقوْله تَعالَى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وقِيلَ: المُرَادُ بالضَّعف ضعفُه بعد نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ، إِذْ إِنَّه حال النُّطفة جَمَاد لا يوصف بِأنهُ ضعيف ولا أنَّه قوي، ولكن المُرَاد بالضَّعف بعد نفخ الرُّوح فِيهِ وَهذا هُوَ الصّحيح، فإن الإنسان لا يَكُون خلقًا تامًّا إِلَّا بعد نَفْخِ الرُّوح، وَلهذا قالَ الله تَعالَى: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، هذَا الإنشاءُ هُوَ أولُ مَا يَكُون بِهِ الإنسان إنسانًا، لأَنَّ الإنسانَ إِنْسَانٌ ببدنِه وروحِه، وَعَلَى هذَا فنقولُ المُرَادُ بالضَّعف بعد نفخ الرُّوح فيه: ضعف الطُّفولة، ويبتدأ من كونه حيًّا فِي بطن أمه وَهَذا ظاهر لا يحتاج إِلَى دليل، فالإنسانُ الصّغير ضعيف والضّعف أيضًا بقواه الحسيةِ وقواه المَعنَوِيَّةِ، فَهُوَ ضعيفٌ بالتّفكير وَهِيَ القوى المَعْنَوِيَّةُ.

الآيات (٥٥ - ٥٩)

* قَالَ اللهُ - عز وجل -: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥ - ٥٩].

قَالَ المُفَسِّر - رحمه الله -: [﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ﴾ يَحلِفُ ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ ﴿مَا لَبِثُوا﴾ فِي الْقُبُورِ ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ يُصرَفُونَ عَنِ الحقِّ: الْبعثِ كما صُرِفُوا عَنِ الحقِ الصّدقِ فِي مُدَّةِ اللَّبْثِ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ مِنَ الملَائِكَةِ وَغَيْرِهِم: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فِيمَا كَتبَهُ فِي سَابِقِ عِلْمِه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ

﴿فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الَّذِي أنكرتموهُ ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وُقُوعَهُ.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ فِي إِنْكَارِهِم لَهُ و﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لَا يُطْلَبُ مِنْهُمُ الْعُتْبَى: أَي الرُّجُوعُ إِلَى مَا يُرضِي الله.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ جَعَلْنَا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ تَنْبِيهًا لَهمْ ﴿وَلَئِن﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿جِئْتَهُمْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِآيَةٍ﴾ مِثْلِ الْعَصَا وَالْيَدِ لمُوسَى ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لِتَوَالِي النُّونَاتِ وَالْوَاوُ ضَمِيرُ الْجمعِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْهُم ﴿إِنْ﴾ هو مَا ﴿أَنْتُمْ﴾ أَيْ مُحَمَّدٌ وَأصحَابُهُ ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أَصحَابُ أباطِيلَ.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ التَّوْحِيدَ كَمَا طَبَعَ عَلَى قُلُوبِ هؤُلَاءِ] اهـ.

الآية (٦٠)

* قَالَ اللهُ - عز وجل -: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

هذا تَأْدِيبٌ مِنَ الله - عز وجل - للنبي - عليه الصلاة والسلام - ولغيره أيضًا، بأنَّ الإنسانَ يصبِرُ ولا يَسْتَخِفَّنَهُ الذين لا يؤمنونَ بما وعدَ الله الصابرينَ، وهذا يقعُ لكثيرٍ من الناس، تجد بعضَ الناسِ مثلًا يحصُلُ لَهُ مَا يحصلُ من الأمور، فمثلًا لو كَانَ لَهُ جارٌ يؤذيهِ، يأتيهِ بعضُ الناس يقولون: كَيْفَ تتحمَّلُ من جارك هذه الأذِيَّةَ، أو كَيْفَ تتحمَّلُ من صاحِبكَ هذه الأذِيَّةَ، أو من أهلِكَ أو مَا أشبه ذلك، فيستخِفُّونه فلا يصبر.

ولكن الذي يَنبغِي للإنسانِ العاقلِ أنْ لا يَسْتَخِفَّهُ أولئكَ القومُ الذين لا يؤمنونَ بما وَعَدَ الله بِهِ الصابرينَ، بل يصبرُ ولا يهمهُ كلامُ الناسِ حتى يحقِّقَ الله لَهُ مَا وَعَدَ.

وبهذا انتهت سورة الروم.